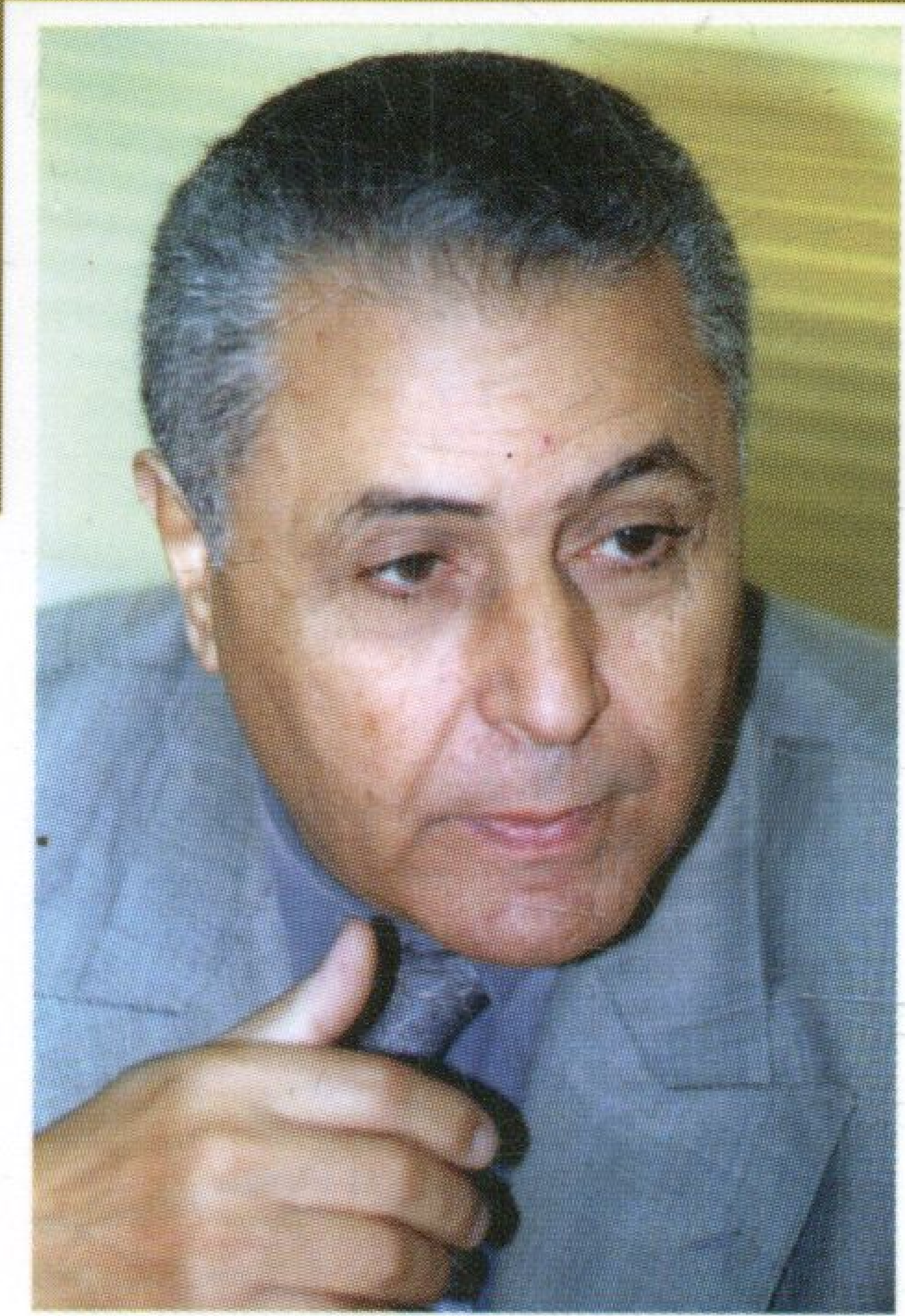
مبارك ربيع

الأعمال الكاملة

الروايات



الجزء الثاني

I

منشورات



وزارة الثقافة

مبارك ربيع

الأعمال الكاملة

(الروايـــات)

الجـزء الثانـــي

I

منشورات



وزارة الثقافة

الأعمال الكاملة (الجزء الثاني) I
الإيداع القانوني : 20082833
ردمـــك : 978-9954-0-4175-3
منشورات وزارة الثقافة 2009
سحـــب : مطبعة دار المناهل - 2009

درب السلطان

روايــة

1

نور الطلبة

1

درب السلطان، هَدْأة ليل لا تشي بوَنَى المستغرق الـمُتعَب، ولا بقومة الحارس المتهجد؛ هدأة الليل غفوة حي يقظ في نوم، نائم في يقظة.... يهمد منه بعض ليتحرك بعض بعض آخر، نبض لا ينقطع، تيار لا يزيد على أن يفتر هنا أو هناك؛ في هذه اللحظة أو تلك، إلا أنه يتململ باستمرار، يتمايل في غفوته، يميل على جوانبه، ويظل دائماً يتردد فيه النفس، ويجري مجرى الدم.... مجرى الحياة....

درب السلطان؛ يرتدي ليلاً مخضرماً، تتراقص فيه على مسافات متقطعة فوهات مضيئة، لمحلات تودع آخر الليل؛ أو تودع بداية النهار، تشي منها الأبواب والشقوق، وما خلف الأقفال والسواقط، بجهد المتوحد المتفرد لذاته وشغل يده وفكره: مطرّز أو مخرّم أو مُخيط يستعد لسوقه، حرّار يناجي خيطه والإبرة، معلم شفاج وصبيته يخلو إلى عجائنه وخمائره؛ همة خضار يصحو إلى مكعباته وصناديقه؛ وأوبة ذي نشوة يستعصي عليه الطريق في إصرار، تنتقل من أمامه على غش منها العلامات ومعالم الطريق والاهتداء.

أسراب الخطاطيف، تلك التي تملأ الفضاء زقزقة وضجة كل إشراق أو غروب، تبدو وقد سكن بها آخر الليل على محطاتها فوق الأسلاك أو على الحافات ومداخل الشقوق.... تبدو في استكانتها العابرة، وما تضمره من حيوية ونشاط لإشراق اليوم، أشبه ما تكون بجيش متحفز، يركن إلى راحة موقتة في هدنة قصيرة.

درب السلطان، عبير أرض، نسمة فوحها مزاج أبخرة، عذب حديث، دفء جيرة، دعاء صلاة، وفاء عشرة، خليط شجار، خطر وخطو باتئاد وإشراق حالم لنظرة حرّى من فتحة أو شقة أو ثغرة، هبّة رذاذ بحرية متباعدة منعشة...

2

انفلتت منه، تركت يده وسارت تقفز أمامه بنصف التفاتة، بصخب صبياني، برشاقة ظبي وخفة... قدماها ترشقان الرمل شبه المبتل في خط بغير استقامة ولا انتظام... بطيش صبياني عابث ترمي من يدها فردتي حذائها العالي وتخطو ملتوية على نفسها، فاتحة أحضانها لنسمة منتصف الليل... تراود بوقع القدمين نهايات الأمواج المتلاشية على الرمال...

أحس بالطيش مغتالاً في باطنه... مشنوقاً مخنوقاً مربوطاً بألف وثاق... ثاوياً في الأعماق يوشك أن يتحرك... هيهات... يحس قوي الإحساس بأنه لم يذق طيشاً... لم يلقه أو يعرفه... عاش عنه في حصن حصين، ولم يندم قط على ذلك... من قبل... لم يحس بوخز ندم... أبداً... ولكنه ظل يحس بأنه يطوي الجوانح بينها نيران حرمان غامض، تضطرب ولا تنطفىء، تصطخب ولا ترتوي، ولفح ظمإ دائم مقيم.

حورية الصخب... حورية الطيش والمرح... حورية الليل والنهار، حورية البحر، حورية البرّ والظلمة والنور، على بعد أمتار منه يبدو شبحها

العابث على ضوء القمر، وهفيف النهايات الموجية الرقيقة، يغيب برشاقة في لهفة الرمال... نغمة، رقصة، لونا لعالم ساحر مسحور لا تأسره الكلمات... عصياً، ذائباً مذاباً، صاهراً مصهوراً... عالم يحس به كالمألوف لديه لكثرة ما اهتم به تملاه وفكر فيه، لكثرة ما حرم منه... يدركه بالخاطر لا بالواقع والمتعة... .يقر باستمرار أن متعته أيا كانت، رغم كل الجهود، لا تفتقد طعم المرارة... مهما كانت؛ تخالطها على الدوام مرارة ما... ليكن...

عندما التقى بها لأول مرة، قال في نفسه: هذه لا يمكن أن تكون لي. كل ما فيها يقول ذلك ويؤكده. لا يمكن أن تكون له مثل هذه، وهذه بالذات! هكذا هو. هكذا كان. هكذا يخيل إليه أنه كان يعرف فعلاً ما يصلح له. هذه لا تكون لي...

وبدت حورية إذا ذاك بعيدة الشرط بعيدة. عجيب، كان جد مقتنع... جد واثق... كل الثقة ومنتهى الاقتناع برأيه... ذلك الرأي الذي جعله يكون صادقاً، في حالات كثيرة سابقة مشابهة، مع أخريات ما أكثرهن!

عجيب، بقدر ما كان شديد الاقتناع، بقدر ما كان مشدوداً إلى متابعتها، منجذباً إليها... مسحوراً بعالمها... مقترباً... يقترب، كلعبة الفراش المسحوب نحو مصدر احتراقه النوري المتوهج الجميل! لم تكن تعمل على إغوائه... أبداً... لم يحس بأنها تغريه بها، ولو أحس لاختلف الشعور... ربما. وهل تعرف تلك، أنها بالنسبة إليه هي عين الغواية بدون حركة قصد، بدون نية أو إرادة... هي هي... هي الغواية، هي كما هي... شيء في كل ما فيها، ينطق بكل ما يعرفه فيه حرماناً وتوقاً وشوقاً... اللهفة اللهفة... الشوق الشوق؛ وهو الظمأ الأبدي اللهب في بيداء عمقه... وهي... هي وزهوة النّاضر اليانع على ضفاف واحة فيحاء وارفة الفيء، وافرة الغلال والظلال... لله أنت... لله هو أحمد رقيبة المسحور المصهور المقهور...

شيئاً فشيئاً، أحس بصمت الظمإ، كذلك الذي يحسه الوامق إلى رشفة أصبحت قيد الشفة، على طول دهر حرمان وانتظار... شيئاً فشيئاً، صمت فيه العقل واللسان، توقف الفكر عن أنها لا تصلح له... وأصبحت... أصبحت... صورتها في الطيش العابث الساحر تملأ ليله والنهار... تأخذ عليه الرؤية والسمع واليقظة والمنام... أهو لمثل هذا؟ أهو... بعد كل هذا وذاك؟ في أقصى فترات انشغاله اليومي، وانهماكه في مسؤوليات الأوراش والأرقام واللوائح... كانت تفاجئه... حورية أمامه في مشهد يتابعه:.. صورتها تفترّ له أو تعبس... قبل أن تطير بعبث وطيش وشغب، بطريقتها... على طريقتها الفاتنة الساحرة القاتلة!

أحياناً تردعه نظرتها برفق حاسم، فيتراجع عما كان فيه... أصبحت فيه، تسكنه. أحياناً يحس بأنه يهوي... يهوي إليها... يهوي ويأخذه الأسف الشديد على نفسه... ثم يشعر ثانية بأنه يرقى إليها... يرقى حتى يعمه الرضى عن نفسه ودنياه. وفي كل ذلك، غابت راحة البال إلى الأبد والهدوء والطريق القديم القويم، طريق المتعة العابرة... اضربْ واهربْ! اخطف لحظات عمرك! اللحظات تلك كانت تنتهي متعتها معها، لتقتنص غيرها، في سلسلة متصلة متقطعة غير متعبة على كل حال... بلا مسؤولية ولا عناء... زاد الطريق... زاد في الطريق، على الطريق، وأنت متنقل جوّال... يمتلكك شعور كاذب الامتلاك وبالقدرة والعظمة... شعور الرجل القوي الذي يحس أنه يمتلك مصيره ومصير غيره... وكما لو أن حورية أحست بأن موقفه منها غريب، عندما قالت له بحنو مقصود:

ـ رقيبتي... سر في حالك، وخليني في حالي... الله يهديك!

دون قصد بلا شك، ضربت على الوتر الحساس في اللحظة المناسبة... يؤكد أحمد رقيبة لنفسه إذ ذاك، كأنه يوشك أن يحسم الموقف، ليقول لها

الكلمة التي تلخص كل سعادته وشقائه، لكنها فاجأته، وأجهزت على ما كان يحاول أن يجمع من شتات فكره.

اعتراه إحساس بأنه فعلاً يهوي إلى قعر عميق مظلم... أظلمت عيناه، دنياه، ومد يده نحوها كما لو كانت بعيدة عنه... في علياء لا يدركها وإنما يمتد نحوها... أراح صفحة وجهه على صدرها... خمدت مشاعره لحظة... خمدت برهة ثم... بلا مقدمات أجهش بالبكاء!

لم يهوِ بعدُ ولم يرتقِ... فقَد ذلك الإحساس المتناقض المزدوج... ولم يعد يهتم بشيء إلا أنها قدره المقدور، الساحر المسحور. ولم يعمد إلا لأشرعته يرخيها على كامل السعة للرياح الأربع، تاركاً حبل الاتجاه والتوجيه لإرادة الصدفة والعباب، وقال لعقله، كابح النزق والطيش: آن لك أن تستريح وتريح، بعد رحلة بحر شاقة متعبة من الحرمان والعناء، أو كأنما شحذت الخواطر عزيمته، كأنما أدرك ما غاب عنه منذ مدة من أنه تغير، وأنه لم يعد ذلك المكبوح... وأنه مفتّح الشراع على الرياح كلها والجهات، مطلق السكان، ودون مرساة ولا مرفإ مقصود... يرنو إلى الشبح الفاتن الذي ما يفتأ يتلوى راقصاً على أنغام كونية، تحت أشعة حب قمرية لاتني تزدهي بنورها وتفيض منه على الكون... يرقص الموج... يرنو ... ثم يسير على هدي خطواتها المرتسمة على الرمال المبتلة... يحاول أن يتبين مواقع القدمين تمسحها نهايات الموج بمنتهى الرفق والرشاقة... تناديه... يسمعها تناديه... يتردد اسمه في جنبات الكون الفسيح... يبتلع الصدى أو يذيعه... لا فرق... لا يملك إلا أن يغتال وقاره المرسوم... يرمي إساره، ويتحرك بعبث صبياني، يحاول أن يطابق مواقع قدميه على آثار قدميها البضتين الناعمتين الدقيقتين، أكثر وضوحاً بما تبقيه نهايات الموج... خطو ملاك... وقع ملاك... صدى ملاك... أو ليست حورية؟ كانت تنتصب واثقة بابتسامتها المشرقة العريضة... ابتسامة تنير ليلة قمراء، على محيا سحر لم

يمسح عليه حزن أو كآبة... أبداً ولن... أو هكذا يبدو له على الدوام في عمق وإشراق ابتسامتها عندما تضحك، وتعرف كيف تفعل... كل الصفاء والبراءة، كل السعادة والبهجة والانشراح، تندفع شلالا غامراً على كيانها عندما تبتسم، وصفحة وجهها البيضاء المشربة بحمرة العافية، تتلفع بخصلات شعرها المبعثرة في فتنة بفعل الحركة والنسيم الليلي... هو أيضاً ذلك المبعثر المتمرد، هو أيضاً يفترّ بطيش عزيز غزير... يغري... يضحك مثلها، يضحك كما تضحك بدفق ما فيها من حياة. هكذا يراها. هكذا ينجذب وبدر ابتسامتها المشرقة، يرسم على محياها صفاء المرح العميق.

وقبل أن يقترب منها أكثر وأكثر... تنفلت فجأة كظبي فاجأه الخطر... تنفلت من قربه واقترابه، تنط تملأ الكون بالنداء عليه... بمرح طفولي... ينجذب خلفها بعلائق العبير الفواح...

تجري ويجري، تتعرج في سيرها يميناً وشمالاً... يجدّ خلفها متعرجاً... ثم تنحرف مرة واحدة، يميناً وبكل قوة اندفاعها نحو اليمّ... تنط فوق الموجات المتهافتة على الشاطىء... تمضي في خطوها في اليمّ، خطو يثّاقل بقدر ما تتقدم نحو عرض البحر... في عرض باتجاه العمق...

يقف أحمد رقيبة مأخوذاً مشدوهاً، يضج بأمر التعقل والرجوع... حورية... حورية... لم تعد تخطو في عمق اليمّ، ولكنها تتحرك مع ذلك متوغلة رافعة يديها تهوي بهما على الماء حيناً بعد حين، سعيدة ضاحكة منادية له... أي جنون؟!

تدعوه ليتقدم نحوها أي جنون؟!

خطا وراءها متثاقلاً. أي مشروع يجول بذهنها الغريب؟ سباحة منتصف الليل... حمّامه... كان ذلك ضحكة أو مزحة عابرة وردت بينهما في سياق ما...!

خاض في الماء إلى الركبتين... أحس ببنطاله يتثاقل بالماء... نصف قامتها تغوص في الماء... حورية... حورية... تغوص أكثر... الماء يحتضن نصف صدرها... تضحك تخبط الماء يميناً وشمالاً حولها، تدعوه أن يتقدم... تعال... رقيبتي الحبيب... تعال... دعاؤها مُغْرٍ؛ ولكن فكرة التعقل راودته وامتلكته... لو خطا نحوها أكثر لشجّعها على حماقات أخرى لا تجول بباله الآن، وقد تعجبها اللعبة فتمعن أكثر... لذلك توقف حيث هو على مبعدة منها، واكتفى بأن يرش الماء بكلتا يديه في اتجاهها... قلّدته، ولكن بعد ما بينهما، كان بحيث تصل نهاية الرشات إلى الطرفين خفيفة واهية... شجعته على الاقتراب... تعال... لكنه آثر أن يتجمد خطوه... ويتابع تبادل الرشات من بعيد...

الموجات المتتالية، خفيفة متباعدة لا تزيد على أن تجعل الماء يرتفع بضعة أصابع حول ركبتيه، ليعود في انتظار موجة جديدة... لوحتْ له بيديها، بمرحها الصبياني ذاك، أن يتقدم... ثم لوحتْ مرة أخرى، كأنها تودع... نطتْ تعلو بقامتها، تخترق سطح الماء... تركت نفسها تغطس في لجته تامة كاملة، أمام دهشته وانبهاره!

حورية... حورية... ولم يملك إلا أن يسرع نحو موقعها ـ متعثر الذهن والحركة ـ حين انبثقت تشق سطح الماء، سمكة فضية صاخبة ضاحكة...!

رنا إلى طيشها... وإلى نفسه... إلى الماء حوله... إليها وقد تموجت حولها على سطح اليم أطراف من لباسها... رنا إلى كل شيء ضاحك في الكون حول ضاحكة طائشة بعمق وبقوة وصبيانية...

رنا إليها ووجهها البدري وحده يتراءى وضاءاً فوق صفحة الماء، مغيبة كامل كيانها في الماء بانثناءة خفيفة خفية تحته، ثم ما تلبث أن تعيد انبثاقها صاخباً نافراً ضاحكاً، كأنما ترسم لحظة خلق آدمية جليلة رائعة... من الماء وإلى الماء...! أي جنون؟!

لم يملك إلا أن يمسك رأسه يجمع يديه... بين يديه... ثم اعترته لحظة عنفوان غامضة... ونداء محياها على صفحة الماء يتراءى وحده مشرقاً مجللاً على صفحة الماء، تحيط به هالة شلال فاحم منسدلة حوله متراخية، يداعبها لجين ذائب الليل...

أحس ببنطاله يزداد تثاقلاً بفعل الماء... كانت تتحرك ببطء خفي تحت الماء، بانثناءتها الخفية... يتضح له ذلك من المسافة التي تزيد بينهما كلما اقترب... حورية ... أي جنون؟!

تنبثق بكاملها ثم من جديد تعود تكتسي بالماء... تحت الماء؛ تضحك وتخبط بيديها حولها يميناً وشمالاً... تدعوه إلى أن يتقدم... تعال... رقيبتي احميدتي... تعال...

دعاؤها مُغْر وعنفوان متجدد متردد فيه... لكن واجب التعقل ينتصب في داخله، يراوده ويمتلكه... لو خطا نحوها أكثر لشجعها أكثر على حماقات أخرى... أقلها أن تمعن في تمديد المسافة بينهما اتجاه عرض البحر... ومن يدري... ماذا يمكن أن يخطر ببالها مما لا يأتي على البال؟!

وحدها تنبثق وتختفي بشقشقة الطيش الصخب من الماء في الماء، وحدها تغيب في الماء حتى حافة الذقن، صانعة من لجين الليل إطاراً لصفحة وجهها البدري الوضاح... نداؤها إليه صاخب منطلق منفلت... ساحر مسحور... قدره المقدور...

أكد لنفسه أنها قدره المقدور، وترك قدميه تتحركان نحو موقعها بتثاقل... يخوض نحوها والماء يرتفع إلى حزامه وما فوق الحزام... يحتويها كما هي بين يديه، لتطوق عنقه بذراعيها ملتصقة به، متكورة في استكانة وليد لحضن دافئ حنون... ويخرج بها من الماء متأنياً بطيئاً يقتلع قدميه اقتلاعاً... وكأنما هما معا

ملتحمين، ينبثقان من لحظة خلق يمية خارج الزمان، أبدية أزلية... من لحظة خلق يمية ينبثقان، كما انبثقا من لحظة خلق زمنية وحيدة لا تتكرر، ولا يريد لها أن تتكرر... هو على الأقل انبثق من تلك اللحظة، وخلقت حورية سائر لحظاته، وتبقى في كل ما تبقى من حياته... هو على الأقل، ولا يخامره شك في أنها مثله... حوريته قدره المقدور... يخطو بها متانياً ويخطو بنفسه، بثقل خطواته بكل الأطراف المتقاطرة في غوص الخطوات في الرمال الهشة... يحس بها تزداد استكانة تغالب قرّاً يسري في كيانها، يحس بها تخطر أفكارها برفق تلاقي خواطره... إنهما معا وفيان لعهد بينهما، ألا يتآكل ما بينهما... لا يتقادم به فعل الزمن... يعتزمان بميثاق أن ينبثقا متجددين مع كل لحظة من الزمن...

3

صعد بها الكثيب، أطرافهما تتقاطر راسمة خطاً عميقاً مبتلاً على الرمال الجافة. وقف بها عند باب السيارة على رأس الكثيب المطل... أوقفها على قدميها بصمت، وطفق يعالج فتح الباب الأيمن، بينما انهمكت حورية في اعتصار كومة شعرها من الماء بهدوء ولا مبالاة...

يفتح أحمد رقيبة الباب، ويدفعها برفق إلى الداخل على المقعد. يغلق ويدور من الجهة الثانية. يقف قليلا يعتصر أطرافه المبتلة، ثم يأخذ مكانه إلى جانبها ليميل نحوها، يضمها إليه... قدره المقدور. يحس رعشتها، يلتفت خلفه، يأخذ معطفه من على المقعد الخلفي يضعه على صدرها، فتحتضنه بكلتا يديها ورعشتها تزداد شدة...

يتريث كأنه يأخذ أنفاسه، قبل أن يدير المحرك، تسير بهما السيارة قليلاً في الهامش غير المسفلت المحاذي للكثيب الرملي، تطق نتوءات أرضيته الخفيفة بصوت مسموع، ثم بعد انحراف كامل، يمتد طريق الليل ممهداً سالكاً تميل حورية على كتفه، تتكئ برأسها وتستكين إليه دون كلمة...

مرتخياً كان يقود، وقد بدأت تلتوي به الأزقة والشوارع، ليمر على هامش أنفا قبل أن يستقيم به الطريق مرة أخرى مصعداً... يرتخي... يرتخي مطلقاً لسيارته العنان، وقد أحس بقشعريرتها تخف إلى جنبه... متكئة على كتفه ما تزال، يشعر بأنه أصحى ما يكون وأوعى ما يكون بحاله... شعوره المألوف هذا، كأنه فاتورة حساب مسبقة أو متأخرة، يقدمها بنفسه لنفسه كلما أحس بأنه أفرط أو أفرط به... في موقف. قدره المقدور... لا لم يكن على شيء من ذلك الموقف المألوف... إنما وعيه الآن وصحوته، قد يكون بسبب الاستحمام في اللجين الليلي المتماوج... بنصف رعشة وسمكة فضية... بألف لون ساحر... حورية البر والبحر إلى جانبه... إلى يمينه خفت رعشتها كثيراً وهي تزداد زحفاً على كيانه... تضغط عليه، يحس أنفاسها الحارة بركانا ينبثق من قطب الرعشة والبرودة...

أخيراً يعتلي ربوة ينحدر منها إلى مقصده. حرص على أن يوقف الضغط، ويترك سيارته تنساب بهدوء في المنحدر بين فلل تنام في أحضان الدوح وهدأة الليل. كان يتوخى ألا يسرع الحارس الليلي نشيطاً من غفوته الثقيلة للخدمة والمساعدة، أو لمجرد إعلان اليقظة والحضور... تلافى أن ينظر باتجاه الموقع المعتاد للحارس، ملتزماً يساره أقصى ما يمكن، لتتاح له فرصة المواجهة الكاملة للمدخل مرة واحدة، مباشرة...

وأسرع ينزل، يفتح الباب الحديدي، ويدفع المصراعين إلى مداهما الأقصى، ويعود إلى المقود مندفعاً بالسيارة إلى الداخل... إلى جوف المرأب...

تنفلت حورية على رؤوس الأصابع من الباب الداخلي للمرأب، حينما يعود أحمد رقيبة يغلق الأبواب... يبدو له شبح الحارس يطوف من شباك الباب الخارجي، يريد التأكد مما رأى، ليطمئن ويطمئن، فينظر إليه رقيبة ويشير له نصف إشارة باليد، هكذا يطمئنه ولا يترك له الفرصة ليلاحظ ويفهم ما يفهم؟

من يفهم؟ هل يفهم هو ذاته حتى يفهم غيره؟ ما حدث ويحدث مع ما به من حماقة وطيش، لا يزيد على أنه عازم معها... بها... على مضاعفة مشاعره بالنعيم، بالانطلاقة والبهجة المستمرة المديدة. هل ينجح في أن يعوض دهور الحرمان؟

آه، السؤال نفسه... أي سؤال كان أو يكون، ليس له معنى...

4

عندما دلف إلى الصالة عن طريق الدرجات الداخلية للمرأب، كانت نصف مضاءة. حورية جالسة على كنبة، ملتفة بفوطة ثخينة بيضاء تنعقد على صدرها... رأسها يشبه عمامة مقببة، وذراعها الأيمن على كتفي فتاها رضى المستكين إلى صدرها في اتكاءة جانبية، بينما تقف على رأسها جميلة، تجفف شعرها بفوطة تلو أخرى، وقد اكتست ملامح وجهها البرونزية الدقيقة سمة حدة وغضب... كانت تزمجر بصوت مكتوم مسموع، وحركات متذمرة تلعن طيش صاحبتها، وتنذرها بأوخم العواقب على صحتها... بحر وعوم في هذا الوقت من الليل... وهكذا... في هذا الطقس؟!

ـ أويلي!

كانت تبدأ وتعيد في لهجة حنق وغيظ؛ وحرية مستسلمة لها، هانئة مبتسمة، لاهية عنها بمداعبة فتاها ومستحلية عبث الأنامل بخصلات شعرها... ثم ها هو ذا أحمد رقيبة، رب الدار، ينتصب بدوره أمام جميلة حافياً مبتلاً إلى ما فوق الحزام... تتقاطر أطرافه...!

لم تتمالك جميلة أن تضحك بمزاج حانق... ضحكة حانقة مغيظة بكل عمق وصفاء، متشفية مستنكرة، مشيرة إليه كأنه السبب:

ـ حتى أنت؟!

واستحالت ملامحها إلى العبوس والغيظ والغضب:

ـ تبارك الله... تبارك الله...!

قالت جميلة ذلك، وهي تترك رأس حورية، وتنفض يدها من كل شيء، أن لن تمكث معهم في هذه الدار لحظة بعد اليوم... بعد الآن...!

سارت خطوات ثم تريثت، وولت نحو رضى... لكن حورية تمسكت بها، وقد عدلتْ سمتها وبدأت تطيب خاطرها... بان لا ضرر فيما فعلت... وأنها مجرد لعبة ورهان تفرج به عن نفسها...

ـ الهم... الغم يقتل يا أُخي!

ـ سبحان الله، تفراج الهم بالحماق؟ تبارك الله علينا!

قامت حورية تمسك رضى بيمناها، بينما يسراها على عقدة الفوطة عند الصدر...

قالت للفتى رضى وهي تخطف قبلة من خده:

ـ يا الله حبيبي... سلم على عزيزك... يا الله حبيبي!

انحنى رقيبة على الطفل يتيح له قبلة ويربت على كتفه قائلاً:

ـ يا الله بابا... سر تنعس.

يتحرك الفتى، كأنه يتزحزح في مكانه، كأن مقاومة تحول بينه وبين القيام... يقوم مجاراة، وما يكاد أحمد رقيبة بغيب، حتى يعود الفتى إلى جلسته مشيراً بالسكوت على جميلة التي بدا عليها استنكار...

تتركه غير عابئة، وتنصرف إلى فضاء الصالة، تتفقد بعض أشيائه... زهريات وأرائك... تلمس هنا وتعدل هناك في حمية وهمة...

تدندن بأنغام هامسة... ثم ما لبثت أن انصرفت لما عليها، مشيرة إلى الفتى بابتسامة وسبابة تهدد.

انصرف الفتى إلى تركيب لعبة كان منهمكاً فيها، وبين حين وآخر كان يرمي نظره إلى سلم المنزل مترقباً من ينزل... لم تكن لعبة تصرف اهتمامه بقدر ما كانت تبدو تعلة يتلهى بها في انتظار ما يريد... في هدوئه، كان يبدو صبياً على اعتداد واعتياد بما يفعل... لعبة يبنيها ويهدم، يركب ويفكك بطريقة آلية، وانتباهه يرنو إلى ما حوله، يرمي بين الحين والآخر نظرة إلى سلم المنزل في ترقب هادئ.

مرة بعد أخرى، تظهر جميلة متحركة في هذا الاتجاه أو ذاك، ثم ما تلبث أن تختفي، دون أن تغفل عن الفتى، ترشقه بنظرة أو ابتسامة.

5

كل شيء جاهز كالمعتاد.

بعد أقل من ساعة، كانت جميلة تدفع إلى ركن الصالة التكميلية للبهو، طاولة متحركة جاهزة بأصناف مما لذ وطاب، وقد أجلست رضى على كرسي، وطفقت تتلهى بان تقشر له بعض الفاكهة... وأقبلت حورية بدراً متألقاً، زادها دفء الحمام والزينة رونقاً وإشراقاً، تختال في فستان أسود يزهو ليله بوردة ماسية متلألئة أعلى الصدر، ويلتقي بشلال شعر فاحم منسدل إلى الوراء في خصلة واحدة... بدت أبهى ما تكون في ربيعها الثالث، مديدة هيفاء، شهية رائعة...

وقفت جميلة تستقبلها باستبشار هاتفة مبتهجة، الله يحفظك... الله يحفظك وينجيك... ويحفظك ويزيدك... ابتسمت لها حورية ورسمت على وجنتها قبلة، وهي تقرص على أذنها بمودة وتحبب؛ وجلست قرب رضى الذي مال عليها تداعبه وتقبله...

وأقبل أحمد رقيبة في بدلة قاتمة مكتملة برباط رقبة منقط أحمر... بدوره كان يبدو منتعشاً نشيطاً؛ قامت حورية تستقبله، تقف بمواجهته، تعدل من

وضع الرباط حول عنقه... حركة تفقد عادية لمظهره أكثر منها حاجة حقيقية للتعديل... تمر بنظرة سريعة فاحصة على كامل مظهره، ترتسم ابتسامة على ثغرها وهي تأخذه من يده، لتجلس بينه وبين رضى...

تظهر على أحمد رقيبة ملامح تساؤل واستنكار، تجاه الفتى المستكين في عزيمة على السهر، فتبادر حورية تذكره بأنها ليلة عطلة الأحد...

تنثني على رضى تداعبه، ثم تفتح كامل ذراعيها عليهما معاً، تضمهما إليها: ماذا يفعل من يحبكما معاً... جداً...؟!

اتجهت جميلة إلى جهاز التسجيل، اختارت لحناً تعرف بالعادة أنه مناسب، وأخذت مكانها على كنبة تجعلها جاهزة للخدمة عن قرب... وقد بدت فتاة خمرية رقيقة الملامح، أنيقة في بساطة، لا تتعدى العقدين من عمرها... اللحن «ديباجة حب لم يكتمل» قطعة رومانسية رائعة، وأروع منها، أنها تحمل عزيز الذكرى في علاقة حورية بأحمد رقيبة، سمعاها معاً لحظة القرار الحاسم لعلاقتهما، كررا السماع إليها في جمال العزف المنفرد للفيولنست الإيطالي البارع... وظلت حورية تشرح لأحمد رقيبة أنها تحب الحب غير المكتمل... الذي لا يكتمل... الحرمان؟ لا أبداً. إطلاقاً... بل الظمأ المستمر إلى ينبوع الحب مهما جرعت منه... الحرمان يولد الإحباط واليأس وإحساساً بالتعاسة... أما الظمأ فهو السعي لارتواء ممكن... محتمل... لكنه لا يتم، ولو تم لانتهى الحب... بلغ غايته... صدحت الديباجة بعزف جماعي... لكن الصدى المنفرد وعبق المكان المضمخ بعبير الذكرى، كان وحده امتداداً وعمقاً لمشاعرهما.

مدت حورية يدها، تناول كأساً بلورية طويلة عميقة، وانبرت جميلة مدركة معنى الحركة، وطفقت تناول صاحبتها عدة قوارير وزجاجات واحدة بعد أخرى، وحورية بمهارة كيميائي خبير، تنقل بصرها بين الكأس

والزجاجات، تصب بمقدار، تراقب وتضيف وتخلط، تحرك وتراقب اللون، كأنما تتذوقه بحلاوة اللسان... حتى إذا ارتأت انه استوى، عفرت حافته باللون والسحيق، وشقت عليها قرص فاكهة رفيع... أخيراً ها هو ذا مزيج مزاج تحذقه وتخلقه... مزيجها... مزاجها العتيد الخاص المخصوص، بطقوسه وحركاته ومهارته، والذي يفتتح به أحمد رقيبة جلسته قبل أن يلج عالم سهرته الفسيح المتنوع، وذلك لا يحلو إلا من يد حاذقة مدربة... حبيبة محببة... يد حورية صناع، ومن ذوقها المرهف الرفيع...

وظلت حورية تنتقي نتفاً من محتويات مائدة متنوعة شهية، وتناوله باللطف والنكتة والدعابة، ثم ما تلبث أن تفعل مثل ذلك مع رضى... مرددة باستمرار: آه من حب رجلين...أه، من حبكما...!

جميلة تتابع ببهجة بالغة، متنبهة لأية حركة راغبة من حورية أو رقيبة أو رضى، لتقديم لطفها وحسن خدمتها... لحظات الصفاء حبيبة إلى النفس... وبين الحين والآخر، تقوم لتغذي جهاز الترديد بأغنية أو قطعة طرب مما تعودت عليه في مثل هذه الجلسات... أحمد رقيبة في هنائه يتناول من يد اللطف الحورية المشاركة، يتناول الأنامل ذاتها... تردعه بحركة وإيماءة محببة، وكأنما ترى في ذلك خروجاً عن الشرط والميثاق... فعليه كما يقتضي الأمر، أن يستسلم ويتناول، لا يتعدى ذلك، ولا يناول...! وضحكا من أعماقهما ضحكة الكون حولهما، وجميلة ورضى...

كانت حريصة في طقوس جلستها الليلية، أن تكون مستوفية كل شروط السهرة الحقيقية، وأول ما حاربته في أحمد رقيبة، أن يساهرها بلباس النوم، أو يجالسها مسترخياً... استنكرت ذلك الميل منه: أيريد أن ينام ويرتخي وهو يسهر؟! تساءلت في إحدى المناسبات مستنكرة إن كان يريد أن يسهر أو يشخر؟!

ما أطال النوم عمراً ولا...!

مضت ساعة... وحام طائر المرح... رق وحط على الجلسة، فقامت حورية، اتجهت إلى علبة أزرار خفية، داعبتها، فتراقصت في السقف والأركان حزم ضوئية متقاطعة متداخلة بشتى الألوان... ثم توجهت نحو خزانة الأغاني، تنتقي ضالتها، ودفعت بقرص الأغنية إلى جوف الجهاز، ووقفت منتصبة القامة في شموخ، مفصحة عن رقبة عاجية مستقيمة، دافعة برأسها أقصى ما تستطيع إلى الوراء، ليتدلى منبع شلال كثيف نحو الأرض... وظلت برهة متجمدة الحركة في وضعها، مقدمة رجلاً ومؤخرة أخرى، في انتظار النغمة الأولى... ثم انطلقت ترقص بخفة على الإيقاع الغجري المناسب في شدة متلاحقة الوصلات... الثلاثة عيون شاخصة مشدوهة، تتابع النغم والحركات، مشاركة في العزف بحركة الكفين...

كانت الدماء المندفعة إلى كيان حورية، بفعل التواءات الرقص وعنف الحركة، تخالط زينة محياها مع تراقص الألوان، فتضفي عليها مزيداً من سحر وافتتان، وتجعل من الجلسة جزيرة سحرية، كوناً فاتناً عجيباً يتحرك فيه شبح الراقصة طيفاً رقيقاً سابحاً في شلالات وأمواج شفافة، من فلك غير مسكون ولا معهود...

وعلى موجة من نغم هادئ مغاير، تمد ذراعين عائمتين في بحر السحر والألوان، نحو رقيبة تجذبه على بعد إلى الحلبة... يقابلها... يساير النغم بحركات غير مدربة... تدور حول نفسها أمامه وتتحرك كراً وفراً قبالته... تمد يديها نحو رضى ليشارك في الجلسة... ثم إلى جميلة... يدورون في حلقة يتقابلون اثنين اثنين، تمسك أخيراً بيد رضى... يسايرها الصبي في عفوية ومهارة، يلتوي كل منهما، ويدور حول نفسه أمام الآخر... يتقاربان... يتباعدان... تتناءى النغمات وتتسارع نحو الهمود...

تتوقف الحركة... يعود رضى وجميلة إلى مكانيهما، بينما تمد حورية يدها إلى رقيبة وهما يعودان إلى الكنبة.

تقوم جميلة إلى الجهاز، تغذية بنغمة استراحة هادئة ناعمة، ثم تعود إلى رضى، تقدم إليه مشروباً وحلوى، وتأخذ لنفسها بعض ذلك .

تخدم حورية صاحبها، تشاركه وتؤاكله.. قبل أن تقوم إلى رضى تقبله تدفعه لينام... يقوم يودع منصرفاً رفقة جميلة... وما تلبث حورية، أن تومئ بإيماءة استئذان لتغيب بدورها مؤقتاً...

يظل أحمد رقيبة يتابعها، ثم يغمض عينيه كأنه يستريح، يريح ناظريه ويستريح. يداهمه في الإغماض مشهد تلو مشهد من لحظات حياته...

6

أكيد، وبحق أنه أسلم إليها شراع حياته... مطمئناً راضياً واعياً وفي تمام العقل والوعي والإرادة... فعل ذلك، وهو لا يزداد إلا إمعاناً في تسليم حاله والقبول به... كان أكبر من راض وأكثر من هانئ وسعيد؛ أكثر من مرتاح لتجوال مركب حياته... حياتهما... أو حياته معها... مركب مسحوب مسحور بلا مرساة ولا سكان تقوده الرياح الحورية إلى لا وجهة... أو إلى وجهة واحدة وحيدة، حيث تريد! ذلك كان... وسيظل الشرط والميثاق بينه وبين نفسه أولا، وبينه وبين حورية قبل ذلك... وجهته بالمركب ذاك... وجهتها به مرافئ المتعة والحرية والسرور... أي خيال لا يقف عند حد في خلق الملذات والمباهج والمسرات في المأكل والمشرب والملبس... في المجلس والأثاث والمظهر والمعاشرة... في التغيير المستمر في كل لحظة من حياة...؟ وفية كانت وأكثر من وفية للميثاق الضمني بينهما... تذوق المتعة والفرحة والمرحة... ذاق ابتداع الطرافة في كل شيء... تذوقه قطرة قطرة، لحظة لحظة... خلق المتعة والفرحة والمرحة في كل نبضة من زمان، رعشة من كيان، حرف من حياة...

وفياً كان وأكثر من وفي لما يقتضيه الشرط والميثاق: تعطيل محكمة العقل... وما يراه عقلاً... قطع دابر كل استفهام جدي إلزامي أو استنكار، نفي كل منطق أو نقد...

ـ كل شيء زين!

شعار ضمني وصريح لحياته معها... كل شيء كذلك، بما تجعله هي كذلك... هو كذلك بها، لا قبلها ولا بعدها... وأبداً... أبداً لن يكون بدونها.

ـ كل شيء زين!

تضحك حتى الأعماق بالطريقة التي يردد بها جملته الشعارية مفخمة مضخمة!

أسلم إليها شراع حياته، وترك إليها أمر القيادة والوجهة والاتجاه، تجوب به مرافئ السحر والسرور... أكبر من راض بنفسه عن نفسه... وهي أكبر من فنانة تستخلص من خلاصة لوينات الحياة المتناثرة المتسارعة، تشكل من ذراتها الدقيقة الهاربة، ما يكون زهرة اللوحة الهلامية المتكاملة، متحولة متحركة لا متناهية الأبعاد والألوان... باتجاه كل ما يحتمل وما لا يحتمل من عوالم... بلا حدود ولا نهايات... لا. تلك فاتنة فنانة ساحرة... لا تكل ولا تمل في ابتداع طقوس المسرة، فنون الحياة العجيبة البسيطة الحرة الممتنعة.

أن تكون معي، كما أنا؛ يعني أن تحيا الحياة ملء الحياة، وتمرح ملء المرح... وتعتبر عمرك المحدود المحسوب أعماراً، وتجوب جزراً وأفلاكاً وأقماراً... قال ذلك في نفسه مراراً، وكرر أن شهرزاد تلك التي كان ينهل من سيرتها في الحلقات صغيراً كلما أتاح له الكد والكدح لحظة... شهرزاد تلك، لم تكن شيئاً يذكر أمام هذه... أو على الأقل، شهرزاد تلك، كانت له حلماً

ورؤية ورحلة في الزمان... أما شهرزاد هاته، فهي هنا، الآن، معه وإليه، فيه... شهرزاد تلك... شهرزاد هاته... وهو، أيكون شهريار؟ يا للمفارقة... هو شهريار، ذاك القوى الجبار الفتاك البالغ الغنى والقسوة والسطوة والجبروت؟! لا، لا، إلا أن تكون قسوته على نفسه أو قسوة زمانه عليه، زهرة عمر في رحلة ما قبل حورية الطويلة المتعبة... أو على الأصح، في فترة ما قبل أن يطمئن إلى أنه بالفعل يستحق أن يطمئن، إلى أنه بالفعل يستحق، وأنه حصن نفسه ضد أفاعليل الزمان... أربعة عقود قضاها كذا في كد منذ لحظة ميلاده الأولى... أكثر من أربعة... خمسة عقود منذ لحظة ميلاده... لا يبالغ... منذ إطلالته على الحياة... لم ترحب به الحياة... لم تستقبله بالترحاب والمسرة... لم تمنحه هواءها بكرم معلوم... ولم يستنشقه بعفوية معهودة في المواليد... لم يتنفس هواءها الجديد بعشق أو لهفة وهو يطل على الكون من قناة بلا منفذ فيما يبدو... وإنما لفظه الرحم الرحيم لفظاً، بعد أهوال وصعوبات كادت تؤدي بالوالدة... لم يشهق ولم يزفر رغم الخبط القوي على مؤخرته الكزة... وهو مزرق معلق في الفضاء. وحين وضع على جنب من يد المولدة العارفة في يأس وإقرار بالفشل، دون أن يهتم أحد بغطائه أو الالتفات إلى كتلته الهشة الهامدة... وبينما التفتت المولدة إلى الوالدة، تنظر أمرها وما هي معرضة له من أخطار أصعب ولادة تشهدها مولدة وتراها رأي العين... إذا بها، بعد فترة، تلاحظ أن كيان الوليد الميت الهامد، ينوء بنفس يسري واهناً فيه...!

زغردت المرأة فرحاً وشكراً لمعجزة الخالق، واحتضنت كيان الوليد... حكت أطرافه وكامل جذعه، ولفته بكومة صوف محلوج من الرأس إلى أغمض القدمين... فؤير يطل على الحياة يعينين تتحركان لتتفتحا... توشكان ببطء وعلى بياض فارغ ولا شيء أكثر... بشرة الجبيهة البارزة من لفافة الصوف ومقدم الرؤيس الخالي من الزغب... أعجوبة... أعجوبة ميلاد... أعجوبة

موت أعجوبة حياة، سبحان الله... فؤير... فؤير صويغر يطل بخوف... يطل بتردد وخجل على حياة لا تبدو حافلة به، ولا هي مبالية بمجيئه أو مرحبة... سبحان الله الخالق الرزاق... سبحانه واهب الموت والحياة...

عدلت المرأة المولدة العارفة الغطاء حول الطفل الوليد، لفافة على لفافة الصوف... نظرت لحركة عينيه الواهنة في إغماضهما وجهادهما للتفتح... رنت إلى نأمة الحياة الواهية على جبهته، سبحت لقوة الخالق... تركت كل شيء فيه لقدره المقدور، وانصرفت إلى الوالدة، انصرفت إليها ساعات وساعات، تنعشها بالنضح والحركة والدعاء... تناولها حساء الدجاج الساخن، وتضع على بطنها قطعة الآجر الملفوف في خرقة، وتطلق حولها وحول وليدها ألواناً من الأدعية والبخور.

ساعات وساعات... ثم ما يلبث لون الوليد أن يمتقع بعض الشيء... شيئاً فشيئاً يتورد... بقعة بقعة... يبدو التورد ويبدأ يسري كحبيبات باهتة تحت البشرة الدقيقة، وتصدر عنه عطسة واهنة... عطسة ثانية... زغرودة حياة.

قوة الزمان من ضعفك يا شهريار، وضعفه من قوتك... والرحمة والقسوة يا شهريار... تلك حكايات الصبا وأساطير الحلم والخيال... الآن، أنت تحيا فعلاً حقاً صدقاً!

قالت له دائماً، إذا كنت معي، كما أنا فعلاً، فلا تمتنع عن شيء... حريصة كانت على أن تؤكد في عباراتها الجدية والمبدئية عبارة «كما أنا»...

سألها أكثر من مرة، لماذا تستعمل هذه العبارة... أكدت ما يعني أنها كما هي، عندما تريد أن تكون على حقيقتها، وكما تريد أن تكون... لا كما يراد لها أن تكون... هكذا كما تريد بدون زواق ولا نفاق؛ لأنها هي أيضاً تعبتْ من الأقنعة... أقنعتها وأقنعة الغير... أقنعة الزمان والمكان... الزمان كان علي

أقسى... فهي كما تريد أن تكون... هي كما هي، وتجعل من معها يحيا... آمين... آمين... تسنت تعرابت؟!

يؤمن على كلامها، ويستسلم، تؤمن معه وهي تنهي خطابها كما تريد... عندما تريد، وتمزج الجد بالهزل، تسأله:

ـ تسنت تعرابت؟!

هي هي كما تريد أن تكون، وكما تريده أن يكون معها. حورية الحياة وملاكها المغري، شيطانها الأحلى والأعذب!

رضى... شهريار آخر... صغير جبار، ذخيرة مستقبل محشوة بالبارود وبالعسل... غامضة! رضى... ماذا يعرف من قدره... بل ماذا لن يعرف من قسوة الزمان؟ رضى... كل ما يدور حوله، كل نأمة من حورية، كل إشارة أو حركة منها تعمل على تأمينه من قسوة الزمان... تسعى لأن تصنع له الزمان زماناً خاصاً محكوماً... هو الحصن الحصين ضد الألم والحرمان والحزن والفاقة والعذاب... ذخيرة المستقبل ماذا يعرف؟ وماذا لن يعرف، عن القدر المحكوم، الزمن المنسوج له بيدها حورية الأم، حورية الحنو والدفء والحنان...؟ ذخيرة مستقبل... عسل وبارود...! أي شهريار آخر يدخر لآخر زمان... عسل وبارود... عسل وعسل أم بارود وبارود؟! يرعبه الصغير رضى... حقيقة يرعبه بما يرى فيه من تحكم بأمه... حورية التي تخلق كل شيء بإشارة منها، يحس بها رقيبة قشة أو أقل وزناً من خلق صغيرها رضى... آه، كأنه يغار منه... من ماذا؟ ماذا؟

7

منذ لقائه الأول بحورية، بل بعد تعارف دام فترة، أبدى لها... أو... ربما بدا منه عدم استساغة ما لسلوك معه... أو لعلاقتهما... أو...

قالت إنه ابنها وأخوها وصديقها الصغير الأصغر... إنه أيضا أبوها أو يكاد... رضى ذاك هو الذي خلقها عندما ولدته... إنها به وله ومن أجله... حبيبها الذي لا يبلغ ولن يبلغ مكانته أحد فيها مهما كان الآخر... مهما كان... رضى هذه مكانته... وهو رغم صغره يعرف عنها كل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، لا تخفي عنه شيئاً مهما كان... مهما كانت... تحدثه عن كل شيء فيها ولها، كما لو كانت تحدث نفسها، إنه أيضاً، أختها وأمها... ومرآتها التي لا تتردد في أن تقف أمامها مكشوفة بعيوبها، بآلامها وآمالها... فعلا هو كذلك... هو مرآتها بالحقيقة والمجاز... إنه يذيع الصابون على جسدها، ويختار لها ملابسها أو يكاد... إنها تسأله عن رأيه هو أولا فيما تلبس أو تعزم أن ترتدي... وينام كل منهما في أحضان الآخر!

عندما أنهت إليه خطابها، كان الدم قد اندفع قوياً إلى وجنتيها بفعل حدة استجابتها لموقف... لملامح تراءت لها من شبه موقف منه... استجابة

أطارت من رأسها كل شيء حتى مفهوم شعارها المقدس للفرحة والابتهاج، وترك المخزونات المنغصات ظهرياً...

تمتم رقيبة، يريد أن يعتذر... فهو لا يقصد ولم يكن يقصد سوءاً أبداً، يجب أن يعتذر ويشرح... يشرح لها، هو الذي يعلم علم اليقين بخبرة سنوات عديدة، وفترات لا حصر لها من حياته الماضية... من صباه البعيد أن السماء وحدها كانت تجود عليه بفضائها الفسيح، وهي وحدها الطبيعة على رحابتها كانت تمنحه أحضانها وتدفئه... لم تكن الأمطار والعواصف لتترك له فرصة أن يجد الدفء في غير أحضان الطبيعة... وأي دفء! إنما يريد أن يقول لها فقط: إن الطفل... إنه يريد الطفل أن ينشأ على شيء من التحمل والاعتماد على النفس، وعلى بعض الحشمة والاحترام لها وله... أليس ابنه أيضاً... بمثابة ابنه؟

لم يزد بهذا الكلام على أن غذى فيها التذمر وحدة الاستجابة، كبار واحترام وأم وأب؟!

تساءلت إن كان صاحبها رقيبة نفسه، قد حمل أو ما يزال يحمل احتراماً لوالديه... لأمه خصوصاً مادامت هي التي تحل في ذكرياته... وما قيمة ما يحمل لها، إذا كانت الأم تلك، كانت وظلت عاجزة عن حمايته نفسها؟ ثم ماذا يمنع رضى من أن يحترم أمه... بل أكثر من ذلك، وهو الأهم، أن يشعر بأنها تحبه وأنه بدوره... وهذا ما هو حاصل ومؤكد. فعلا، ما قيمة أن يحترم الأم، إذا كان هناك من يقسو عليها من شخص أو ظرف، يجعلها تنسى ولدها ووليدها لفترة طويلة أو قصيرة، مستسلمة لمالك أمرها أو قدرها شخصاً كان أو ظرفا؟

كان رقيبة واعياً بقيمة اللحظة والموقف، وكانت جلستهما في أتم هناء، لا يريدها أن تضيع في هذر فارغ... إلا أنه مع ذلك، لم يفلح في أن يعيد إلى رأس

حورية، مستوى ما كانا فيه من انتعاش وانتشاء...

تركته في حركة تذمر بليغة واضحة وانصرفت دون أن تنبس ببنت شفة.

لا بأس، لا بأس، أحسن ما فعلت، تحسن الانصراف كما تحسن أشياء كثيرة... إنها أنقذته من حدة موقف كان مسببه، رغم يقينه بأنه ليس مخطئاً... إنما... المهم أنها أحسنت بالانصراف... كعادتها...

وكعادتها، تحسن الرجوع، عادت إليه، أعادته إلى نفسه، بحركة لطيفة أخرجته من تاملاته، كان غائصاً في زمانه القديم وطفولته... يقارن... طفولة وطفولة... وهو شاهد حاضر ناضر...

عادت إليه ماثلة في فستان قاني الليل، يتمسك بمنتصف الصدر، ويتدلى في شفافية مموهة إلى ما دون الكعب... وقد غاب شلال شعرها الفاحم في لفة دائرية، على شكل وردة أو قعر زوبعة ساكن... يتدلى من طرف أذنيها قرطان طويلان، يربطان اللوينات الهاربة لكل من الفستان والحذاء عالي الكعب...

ماثلة تخرجه من تأملاته... ماثلة كالخارجة من حلم بلطف الحضور وسحره...

تخطو حورية نحو الجهاز، تدفع بنغمات صميمية ناعمة تقف منتظرة... وعلى انسياب النغمات تفتح ذراعيها:

ـ أنت لي... وأنا لك يا مولاي!

هذه لحظات تحسن صنعها كمالا يحسنها بشر... يزعجه فقط هذا الإلحاح المرير للحظات منسية من ماضيه، هو عازم متعاقد على نسيانها، لكنها ترتسم من ذاتها بقوة، لا راد لها لتعتصر الصدر، وتنعقد في الحلقوم...

ـ أنت لي... وأنا لك يا مولاي!

وحدها تبدو متغلبة على الذكرى إلا ما تريد، متى تريد، وحدها لها كل القدرة على امتصاص اللحظات ذرة ذرة، كأنها لم تعرف أبداً عسر الزمن... بؤس الزمن... ضغط الزمن... من أية طينة هذه؟ أو لم يعرف بعد؟ بعد كل ما مضى وما هو راهن وما يأتي...؟ ألم يعرف بعد؟ يعرف الكثير وذكراه المريرة من زمنه المعسر، ليست إلا متعة أخرى يستحضرها الخاطر الشقي، ليضاعف من متعة حاله وحال متعته... لا عليه إذن... مرارة الذكرى من نعيم الحاضر، وجهه الآخر الذي لم يعد يراه ولن... فهو إذن يحاول في غير حال، في غير مقام ولا مقال... لا سؤال. لا سؤال...

ـ أنت لي وأنا لك مولاتي...!

8

لم تتعثر بها القدمان، بل كانتا تخطوان في قصد، تعرفان الطريق الذي سلكته مراراً تنشد راحة البال، وأمن القلب الحائر المتعثر... تحج إلى من أفاض عليه الكريم بنابيع الأمن والراحة.

وجهتها درب الطلبة أو بمحاذاته على الأصح، دار ولد السيد... بالذات... سيدي ولد السيد، تلك الدار العتيقة ذات الكرمة الوارفة الظلال عند المدخل الفسيح، يستريح إلى فيئها الصادون المشتكون والمرضى والمتظلمون إبان الحر، ويلوذون بدفء صحنها المسقوف في مواسم القر والاعتدال...

لم تكن أول مرة، ولا ثالثها، تقود فيها سليمة خطواتها نحو الدار الرابضة في فضائها بسكون، منبسطة مبسوطة وحدها على الأرض، تحيط بها بضعة مبان من كل جانب، من أبنية الدرب أو امتداده، لا يزيد الارتفاع عن طابق أو طابقين. دار السيد... ولد السيد... سيدي ولد السيد... تجللها الحرمة والوقار، ترتفع من كرمتها زهوة الأوراق، بلون الأمل والرجاء لكل قاصد أو عابر... يفوح من فوهاتها عبير الطبيخ لكل زائر أو محتاج كرماً وتكريماً وبركات... ويتبرج المكان من أرجائها، واتساع جنباتها، بروائح الطيب والبخور تنساب

موجاته في الأعماق، وفي الفضاء مضمخة الأعطاف بالأدعية والأذكار...

سارت سليمة تنحدر نحو الدرب، ثم تصعد منحرفة بمحاذاته، تمسك بيمناها فتاتها إلى جانبها، بينما تثاقل يسراها بقفة تحمل بعض ما يقتضيه المقام وواجب الزيارة... تجود به النفس هدية إلى أهل الدار... أهل الخير والبركة وأهلها... أهل كل قاصد، وأهلها هي بالذات، نعم الدار عليها كثيرة عندما تقصدها في كل أمر مهما كان... ولم يكن أمر أبداً من قبيل ما هي عليه الآن. زياراتها كانت كثيرة وهداياها، ولا تدري ماذا حصل...

تسيّر، وبقدر ما تخطو، تخف بها القدمان مع أنها لم تكن مستعجلة ولا بها إحساس من ذلك؛ على العكس، إنها تشجع نفسها على الطريق ما كان وظل يربطها بالدار... تتشجع بذلك على ما بها من داعي التراجع.

هكذا هي، في سعيها لإحياء صلة قديمة، كأنها تعترف بتقصيرها في الانقطاع، كأنها تتقدم بإقرار يستحق ما يستحق...

فعلاً، تقر بتقصيرها وذنبها ولا يمكن بغير ذلك أن تخطو نحو الدار... تخطو ممسكة بيمناها فتاتها، بينما تثاقل يسراها بما تقتضيه الزيارة والمقام، وباطنها يتماوج بالخواطر والأفكار... وكله... كله يفرج بخير الله وأهل الدار...

9

رغم خفة سيرها كانت نجاة إلى جانب أمها سليمة تبدو كالمجرورة بخطوها، مقطورة إلى سعيها واتجاهها إلى دار ولد السيد... فقلبها الفتي إن كان قد عرف حفقة الحيرة ونبضة القلق، فهو لم يتفطر بعد، ولا اكتوى بالجحيم الملم المقعد تنشد له البرد والسلام، كما تنشد ذلك سليمة أمها الآن، في خطوها إلى دار سيدي السيد.

سليمة تسعى بهذا الخطو، بهذا القلب الكسير، لأنها ألفت أن تضع أحمالها في هذه الدار... وقفة أو زيارة هنا بين الحين والآخر، تتزود بها على فترات من عمرها، وكلما دعت إلى ذلك الحاجة... فما وضعت مولوداً، أو وقع في بطنها حمل، أو جد بخاطرها جديد، إلا وسعت بقلب واجف مرتجي، وبنية صادقة خالصة... تأمل، تدعو، تنشد... وما انصرفت إلا آمنة راضية هنية.

تسعى الآن، يدفعها شعور الحاجة وحافز التقصير، تنشد العون يملؤها الإحساس الشديد بأنها تأخرت كثيراً... ربما وصل بها الأمر إلى حد التفريط بعد كل ما جرى... أكان يجوز من جانبها وهي على هذا القرب من دار ولد

السيد، من دار الأمل والرجاء أن تحتمل وحدها كل ما احتملت لحد الآن؟ ماذا لو خطت قبل الآن هذه الخطوات البسيطة، وشكت حالها كما كان العهد بها عندما كان الأمر يتعلق برزق الأولاد، أو صحة والدهم أو سعده، أيام كان ذاك الوالد والداً حقاً، وأيام كان في حاجة إلى من يطلب له تيسير الرزق وحسن السعد... أو عندما كان الأمر يتعلق بحمل أو مولود...

تخطو نجاة بجانب أمها كالمجرورة المقطورة، وتخطو سليمة في خضم أفكار وخواطر متضاربة... لعلها حضرت هنا بالفعل... من يدري؟ إنها هنا دائماً بقلبها وعقلها في حضورها وغيابها... أيام كان لديها حقاً عقل وقلب.

من يدري؟ ربما كان بإمكان زيارة مثل هذه لو تمت منذ سنتين أو ثلاث... أو أكثر... أن تمنع ما حدث... بعضه أو ترممه بطريقة ما... تخطو في خضم أمواج من خواطر متلاطمة، تسائل مرة وتجيب أخرى... تسمو بها الهمة تارة، يقعد بها الخمود تارة... وهل كانت تستطيع أن تزور الدار، وتكلم أحداً كائناً من كان، لتشتكي بأمر يخصها هي وحدها؟... هكذا؟ ولا يتعلق الأمر بحمل أو مولود، ولا برزق أو سعد أو تيسير حال... وإنما يتعلق بها هي عيناً، يتعلق بها زوجاً وامرأة... من بنات حواء... تخلى عنها... ابن آدم... زوجها، رب أولادها وبيتها؟!

أهذا موضوع يستحق الشكوى مهما كان طعمه وحدته؟ أهو موضوع يمكن لها هي أن تفتح به شفتين مهما كان عذابه؟ أية كرامة منها تحتمل ذلك وأية ملامح؟ بأي وجه تنظر في المشتكى إليه، وكيف تحكي؟ من أين تبدأ وكيف تنتهي... و... كيف يرف لها بها طرف، وتتمسك أرض، ويفسح فضاء؟!

الآن، تخطو سليمة يحفزها أمر نجاة، أمر ابنتها... إحدى فلذات كبدها... تخطو محملة بعبء المسؤولية الثقيلة... تخطو كما كانت تخطو

قديماً من أجل حمل أو مولود... نجاة... إحدى فلذات الكبد... حمل ومولود ومستقبل غائم غامض... الأمر يهمها كثيراً، يحتاج منها إلى التوجيه والنصح والمعرفة ممن له ذلك... الأمر الآن لا ينال من كرامتها في شيء... إنها تماماً في وضع ما كانت عليه سابقاً في سالف الزيارات والعهود... كانت تزور لشأن عائلي، لشأن معنوي...

مع ذلك، في خواطرها هذه، لم تكن سليمة بريئة من شعور بالتقصير في حقها وفي حق الدار وأصحابها، دار السيد... وليغفر لها، ليغفروا لها، كما يغفر للمارق العاق الذي لا يتذكر أولي النعمة والبركة، إلا عند اشتداد الحاجة، وفي ضيق المحنة...

نجاة تائهة... مجرورة مقطورة إلى خطو أمها، إلا أنها هي أيضاً تموج بها أفكار وخواطر... ماذا تفعل أمام الحيرة والقلق؟ في أي طريق تسير على هذا النحو؟ أمن الصواب أن تسحبها أمها هكذا... في هذا الاتجاه؟

لحظة لا مثيل للإحساس بها، تلك التي اندفعت فيها نجاة بحدس خفي إلى استراق السمع... لحظة عادية جداً، لكنها لأمر ما بدت غريبة الترتيب، فلأول مرة، بالحاج صديق الوالد، رفيق عمره وخله القديم... أحد خليليه. عمها الحاج على كثرة ما تردد عليهم بحضور الوالد وفي غيابه، بدون ترتيب ولا كلفة، لأول مرة بعد ذلك كله، يحضر الآن، في لحظة تبدو غريبة، تستقبله فيها سليمة بعبارات ترحيب، وباهتمام أكبر، تنادي ابنتها نجاة، تطلب منها أن تهيئ لعمها الحاج شيئاً... ضيافة واحتفاء...

نادتها لذلك، وهو في حد ذاته غريب، فمتى كانت سليمة رغم العشرة والصحبة الصادقة تحتفي بالحاج في خلوة هكذا... وتطلب من نجاة إعداد شيء... بدل أن تشجعها على المكوث معهما، أو أن تستأذن هي لتهيئ ما

تتطلبه الضيافة، وتأمر ابنتها بمؤانسة عمها لحظة ذلك... هذا إذا كان في الاحتفاء مبرر!

نادتها أمها... طلبت منها إعداد ما طلبت، وفي وجدان نجاة، في إدراكها المرهف غنة إبعاد واضحة في لهجة أمها... أرادت أن تبعدها... أو تشغلها بشيء عن شيء... هكذا حدست نجاة هكذا فهمت... هكذا استقرت في وعيها نبرة الصوت المخالطة لنداء أمها فيما طلبت منها...

استرقت نجاة السمع والانتباه، وهي تهيء أواني الشاي، بعيدة عن مجلس الخلوة بين الاثنيت... أرهفت سمعها، كلها كانت سمعاً، فتحت كامل إحساسها لتلتقط عبارات متقطعة متباعدة لكنها قوية الواقع... زواج... خطبة؛ والتقطت اسمها في ثنايا ذلك... مقروناً... مربوطاً... مجروراً، لا تدري... كل ما تدري وسمعها لن يخطئ، أن اسمها وارد في خلوتهما، في حديثهما... وتدري أكثر أنها التقطت أيضاً اسم حمادي... من حمادي؟ وهل غير أن عمها الحاج ذاته، ابن هذا المختلي حالا بوالدتها... رفيق الوالد في العهد الزاهر السعيد القديم؟ هو وحده حمادي الاسم الوحيد الجاري على الألسن، وهي هي نجاة... والاسمان معاً وردا بوضوح في سمعها ووجدانها...

خفق القلب؟ طبعاً.

ارتعش الكيان كله؟ صدقاً حقاً عمقاً...

مفاجأة؟ أكثر...أكثر...!

وانحبست أنفاس نجاة، تستحضر ملامح حمادي... صورته... رأته مرات ولم يكن بشيء يخطر ببالها، تسمع عنه الكثير وهو يعمل خارج الوطن بأوربا... تسمع عنه من بعيد، وتسمع عنه حين يعود كالوهم في زيارته، لا يكاد فيها يرى لكثرة تنقله بين الأحبة... تسمع عن رسائله إلى أهله، ومن أخباره نتفاً

متناثرة... تنبعث من هذا أو ذاك؛ ولم تنتبه أبداً أو يخطر ببالها أنها ستكون موضوعاً مرتبطاً به... ومن اهتمامه! سمعت عنه ولاشك من أمها ذاتها... سمعت أشياء غير متكاملة وفي غاية الحياد... سمعت عنه ولاشك، بمناسبة ذكرى شيء يتعلق بسن أخيها عزيز المقارب لحمادي... كثيراً ما كانت والدتها في الفترة الأخيرة، تعقد مقارنات بينهما لصالح حمادي... متأسفة على خيبة أملها في عزيز... وفيما بعد أصبحت الوالدة تذكر المقارنة بين الفتيين، لتنتقل إلى مقارنة أهم بين زوجها أحمد رقيبة، وصديق عهده القديم الحاج... هذا من ذاك... وذاك من هذا؟!

لماذا تسحبها على هذا النحو؟ وأين الطريق؟ هل يتعلق الأمر بما استرقت إليه السمع... بما انتهى إليها، أم بشيء آخر لا يهمها، ولا علاقة لها به؟ مهما يكن، فأين الطريق؟ وأي طريق؟ تصدق أم لا تصدق؟ وماذا تقول؟ بخصوص ماذا؟

لم تزد سليمة على أن رفعت صوتها تنادي نجاة بالإسراع بالشاي للضيف العزيز. يشكر ويكرر أن الدار داره، بلا تكليف... ومناسبات الشاي وغيره كثيرة وقادمة إن شاء الله... لكنه حريص على أن يسمع الجواب...

أرهفت سمعها بأقصى ما يحتمله سمع بشر، حريصة على التقاط كل نأمة في الموضوع... قالت سليمة إنها ليست أباً... ليست رجلاً يقرر وحده في مثل هذا، وقال الحاج إنها كل شيء... هي الكل في الكل... لها الرأي الأول والآخر قبل أي آخر غيرها...

كان يكلمها بما يحمل نبرة الغيرة عليها والاعتزاز بها. أدركت ذلك سليمة من حركاته وضغطه على الكلمات، إنه يعني الكثير، أدركت ذلك منه وأنعشها بعض الشيء. إنها مشاركة منه لما يعرف أنها تعانيه أو عانته على الأقل...

فيما يخص الموضوع، يعرف الحاج أكثر من غيره ما يجب، ولكنه ينتظر رأيها أولا، لأنها رغم كل المظاهر، هي التي تملك الأمر... مرة أخرى، يلمح الحاج إلى أنه بجانبها ضد صديقه القديم... بل هو ساخط عليه وعلى موقفه، ويفضل ألا يخاطبه في مثل ما جاء فيه، إلا أن الواجب واجب... وبعد أن يسمع رضاها طبعاً، بعد رأيها، هناك أكثر من طريقة للاتصال بغيرها... بأحمد رقيبة... إنما على سليمة أن ترد بصراحة ووضوح... والباقي يأتي... وإنما من المهم أن حمادي هنا الآن في إجازة... وهو سيزور أمه سليمة طبعاً، لتأخذ سليمة وقتها الكافي للتفكير، فهذا حق وشرع... إنما يقتضي الحال أن يتم ذلك وحمادي هنا...

خفقة القلب... نبضة المجهول في الكيان... وتوجس المرغوب فيه بحرقة الفضول والتطلع... وحمادي... حمادي لا تراه العين الآن... ليتها تستطيع رؤيته دون أن يشعر أو يدري... أو تمتلئ به العين والقلب على هون ومهل، حتى تستقر صورته... صورته؟ صورته بعيدة محايدة في الخاطر والذكرى، لا تكفي لتزرع اطمئناناً... هي بذلك تزيد خفقة المجهول وقعاً، لماذا تستعصي الصورة عن الالتئام في عرض الخاطر؟

تقوم سليمة وراء الحاج تودعه مرددة أن يكون خير إن شاء الله... والرجل يودع بنفس التأكيد... لن يكون إلا الخير... كل الخير...

انتظرت نجاة طويلاً... انتظرت أن تفاتحها الوالدة في الموضوع... قاست كثيراً في انتظار اللحظة، وتوقعتها مراراً... أعدت نفسها لما تسمع ولما تقول... لكن اللحظة لا تحل، أتبلغ قسوة أم بها هذا الحد؟ ألا تدرك أم مثل سليمة بطبيعة الأنثى، ماذا تعاني نجاة؟ لماذا إذن هذا العذاب؟

لا تحل اللحظة أبداً، إنما هو التوجس والقلق والانتظار، وصورة حمادي

لا تسعف بالالتئام والحضور؛ وها هي ذي مجرورة مقطورة إلى خطوات والدتها وسعيها، لا تعرف إلى أين ومن أجل ماذا؟ لماذا... لماذا لا يفاتحها أحد؟ لماذا تبقى فريسة خواطرها؟ ومن يسعف؟

10

ما كادت سليمة تطل على حومة دار السيد، حتى تباطأت خطواتها وكأنما اطمأنت إلى الهدف وهدأت إلى حالها... حتى قبضتها على يد نجاة خفت، ارتخت قليلاً، وأصبحت مجرد لمس أو يكاد... وبدت المرأة في هيئة ناسك يلج محراب تعبده... وبدت طلائع دار السيد في عدة أفراد حول الباب الكبير... وعلى القرب بضع سيارات، بعضها خاص، وبعضها الآخر مهيأ لنقل الزائرين إلى أي مكان في المدينة أو خارجها.

دار السيد هي في واقع الحال دار ابن السيد، ولد السيد، بعد رحيل الوالد الذي كان كعبة الشاكين والمتبركين والمرضى، تاركاً إرثه لخلف لا يقل عنه... ولو حل حفيد من سلالتهما مهما كان قريباً أو بعيداً، لما حملت الدار غير اسم السيد الذي لا يكاد أحد يذكر اسمه الحقيقي، وتلتقي الألسن عند ذكره مقروناً بمشاعر الاحترام والتقديس.

تركت سليمة يد ابنتها وهي تشارف عتبة الدار تتهيأ للدخول، وما لبثت أن مالت على جدار المدخل تلثمه متمتمة بأدعية حارة خفية. وخطت

إلى الداخل حيث الصحن الفسيح، تحتل الكرمة الوارفة أحد أركانه، مرسلة أغصانها على الجدران... وقد تناثر الزوار في الصحن نساء ورجالاً، يبدو من حال بعضهم أنه مقيم أو شبه مقيم هنا...جماعات وأفراداً بما يخصهم من لوازم الغطاء والفراش وبعض أواني الطبخ الضرورية...

تقضي تقاليد الدار أن كل من يدخلها ضيوف، يوزع عليهم ما تيسر من الأكل في أوقات الوجبات... وفيما عدا ذلك، لا يمنعهم مانع من تهيء ما يشاؤون أو ما يقدرون عليه بأنفسهم في الصحن أو داخل المطابخ في الدار ذاتها... لا شيء يشعرهم بأي حرج، كأنهم في دورهم وبين ذويهم أو في ملك مشاع... أما ما يحمل من هدايا، وأغطية، فإنه يأخذ طريقه في الدار لينال منه الجميع...

تقاليد الدار حماية أيضاً وحمى، يرومها المحروم والمقروح والمظلوم، تؤوي في أمن وأمان قاصدها مهما كان، وممن تظلم... هكذا تقاليد الدار من سلف لخلف، هكذا هم زوارها وقاصدوها من جيل لجيل... تمنح الماء والطعام، تفيض الظل والدفء، تهيء الغطاء والفراش... وراحة الحال والبال.

11

السيد... ابن السيد يخرج لزواره بعد الضحى وبعد العصر من كل يوم، وفيما عدا ذلك، فهو مختل بنفسه في الدويرية وملاحقها أقصى عمق الدار، يعيش عيشة الزاهد المتعبد بين عائلته ومريديه... يستقبل في خلوته من هو أهل لذلك أو في حاجة إليه...

دلفت سليمة متجاوزة الصحن الكبير العاري، تتقاطع على أرضيته مربعات الزليج الأسود والأبيض، وينفتح وسطه على باب يؤدي إلى صالة فسيحة مفروشة بالحصر، تتناثر في بعض أركانها زرابي متفاوتة في الجودة والقدم، مختلفة الألوان والرسوم والأحجام... صالة فسيحة تنتثر فيها قصاع الطعام من كسكس أو طواجين، أوقات الأكل إذا اقتضى الحال؛ ومسجد تقام فيه الصلوات في أوقاتها... ومجلس للقراء والذاكرين ما بعد العشاء...

لم يكن موعد خروج السيد فيما بعد العصر هذا اليوم قد حان. خطت سليمة بمحاذاة باب الصالة الكبيرة حيث دفعت باباً صغيراً، يؤدي إلى دار النساء والزائرات، وهي عدة غرف متداخلة تكون شبه صالة واحدة مستطيلة مخصصة

بكاملها للنساء الزائرات... عدة أطفال كانوا موزعين بالقرب من أمهاتهم، أو بعيداً عنهن، بينما انصرفت النساء في مجموعات صغيرة إلى أحاديثهن الخاصة التي غالباً ما تعود لتدور حول «الزيارة» المرتقبة للسيد وبركته حين خروجه...

انتحت سليمة ركنا بالقرب من مجموعة نساء بعد التحية، وجلست بجانبها ابنتها وقد انكبت في داخلها قلق الحال والسؤال.

ظلت سليمة برهة تنتظر حتى فتح الباب المؤدي إلى الدويرية، وظهرت إحدى النساء المساعدات والمتطوعات في المطبخ داخل الدار، يظهر عليها ذلك من طريقة تشميرها عن كميها ولفها لأذيال ثوبها الفضفاضة... سألتها سليمة عن الحاجة... أجابت المرأة بما يفيد أنها موجودة بالداخل... مشغولة...

وكأنما أدركت المرأة من هيئة سليمة أنها من العارفات المتعودات على زيارة الدار وأهلها... فنظرت إليها ملياً، ثم أشرقت ملامحها قليلاً دون أن تبتسم، أو تتحدث، وفتحت لها الباب، متنحية بما يتيح الفرصة لدخول سليمة دون أن تتخلى المرأة بيدها عن مصراع الباب، كأنما تؤكد للغير أن العملية استثنائية للمقربات جداً، من أهل الدار.

فعلت المرأة ذلك، وأومأت توجه سليمة نحو مقصدها... كانت الحاجة الكبيرة والدة السيد، (ولد السيد)، والحاجة الصغيرة زوجته وأم أولاده، تتفقدان المواقد والطناجر، توجهان وتشيران، وقد وقفت الطباخات والمساعدات وكلهن متطوعات، منصرفات بهمة إلى مأموريتهن...

في أركان المطبخ الكبير، وعلى رفوفه، وفي صناديقه، تبدو أكداس المؤونة والغلال والخضر من كل الأنواع والأصناف... أثر النعمة والمكانة باد على الحاجة الصغيرة، والرائج أنها لا تنتمي لبيت كبير، بل تتمتم الألسن ـ ألسن النساء خاصة ـ بأنها علقت بالدار منذ حياة الوالد، السيد، في أواخر أيامه،

متطوعة في خدمتها، وظلت تعمل ما في وسعها حتى استطاعت أن تعلق بولد السيد، في غفلة الحاجة الكبيرة، وتصل إلى الزواج منه...

تقدمت سليمة نحو المطبخ باتجاه المرأتين معاً، سلمت باحترام على كل منهما... أحسنتا بدورهما الترحيب، وقادتها الحاجة الكبيرة نحو إحدى غرف الاستقبال... بينما استمرت الحاجة الصغيرة في إتمام دورتها وإشرافها على ما يجري في المطبخ، حتى إذا اطمأنت، أشارت ووجهت... لحقت بالزائرة لتجد الحديث بينها وبين الحاجة الكبيرة مسترسلاً في ود وترحاب، لتنخرط فيما هما فيه، وما أيسر ما تتذكر كل من الحاجتين زائرتهما القديمة التي انقطعت منذ مدة طويلة حقاً، عن الحج إلى الدار لأسباب يعلمها الله وحده... ليست أبداً نسياناً ولا نكراناً... الله وحده يعلم ما في القلوب وما في قلب سليمة من شوق دائم للتبرك بالدار... عبارات لوم خفيفة وعتاب عابر من المرأتين لسليمة... والخير في ساعة الخير... والزيارة كلها خير متى تيسرت... الدنيا صعبة... والزمان غدار، والحمد لله على كل حال... والله يخزي الشيطان...

أقبلت إحدى النساء من ناحية المطبخ بصينية الشاي، وقامت الحاجة الصغيرة نحو حلويات وسط الغرفة، تسحب غطاءها القماشي المخرّم، وتقدمها لضيفتها، حريصة على إظهار الحفاوة بالفتاة تسألها عن اسمها تشجيعاً ودفعاً للحرج، وتناولها الشاي والحلوى...

كانت فرصة سليمة لتتحدث للمرأتين عن نجاة كبرى بنتيها، وأنها من أجلها جاءت تتبرك تستشير السيد... ظهر البشر وعلامات التشجيع على المرأتين بعبارات مودة، ودعتا للفتاة وأمها بكل خير... حينئذ مدت سليمة يدها إلى قفتها الكبيرة، وأخرجت لفافتين متتابعتين، قدمت لكل من المرأتين واحدة منهما، بعبارات الاعتذار والتواضع... هدية بسيطة إلى دار البركة والخير، ثم دفعت بالقفة بكامل ما فيها، علامة على أنه لكل الدار، بعد أن خصت المرأتين بما قدمت أولا.

كانت سليمة عليمة بأصول الزيارة، وهي قبل وبعد كل شيء من المقربات وعلى يسر حال... شكرت المرأتان وكررتا لها الدعاء، وهما تبشرانها بأن عقدتها ستحل عن شاء الله... تفك معاقيدها ببركة السيد إن شاء الله...

ما لبثت الحركة أن دبت بل احتدت في صحن الدار، دار النساء، حركة تأهب تشي بقرب خروج السيد إلى زواره... وفاحت روائح الطيب والبخور... والعادة أن يظهر السيد من باب يصل ما بين خلوته في الدويرية وصالة الانتظار، إلا أنه يلج دار النساء أو على الأقل فهذا ما يجب الاستعداد له دائماً... فلحظة خروج السيد هي اللحظة المرتقبة، لحظة تأهب للجميع...

كانت هذه الحركة إيذاناً بانتهاء زيارة سليمة وابنتها لدار النساء... لذلك قامت الحاجتان، وقامت سليمة معهما، وهما تدعوان لها بالخير، وتشجعانها على البوح للسيد بكل ما يشغلها...

عادت سليمة وابنتها إلى حيث تنتظر جماعة النساء مع أطفالهن، وقد غصت القاعة بالزائرات، وبعض اللغط يعلو... ثم ما لبثت أن طغت همهمة وصوت دعوات من بعيد... خرج السيد لزواره وهو الآن في الصالة الكبيرة يتقبل الزيارة، يستمع لأصحابها ويدعو لهم واحداً واحداً، ويرشد وينصح، ويصف الطريق لما يجب... ومضت قرابة ساعة قبل أن يهل السيد على النساء المنتظرات...

ملأت قامته الفارعة الطول فتحة الباب بجلبابه الصوفي المحبب الخفيف الأبيض، بانحناءة كتفيه ورأسه المغطى بقب الجلابة، وإلى جانبه مريده وعونه التبعي، يشير بما يلزم عند الاقتضاء، يومئ بالتزام الصمت، يحمل بيمينه طبقاً من الدوم المضفور الملون الدوائر، مغطى بمنديل رقيق أبيض... تردد صوت السيد بالسلام، خافتاً بقدر ما يصل إلى كل سمع ووجدان، وكأنه الصدى الخفي...

أشار التبعي إلى النساء بالتزام أماكنهن بحركة من يديه... توقف السيد لحظة يتمتم بقراءة أو دعاء، ثم تقدم قليلاً نحو منتصف القاعة قائلاً بصوت مسموع هذه المرة:

ـ باسم الله.

أشار التبعي على النساء للتقدم واحدة واحدة... منهن من تتقدم بمفردها ومنهن من تدفع أمامها أطفالها، تقبل الزائرة يد السيد الذي لا يكاد يرفع بصره لشيء، لا يمنع ولا يدفع، ولا يخرج عن انحناءته الطبيعية... كل ما يبدو منه خطا الحاجبين ومعالم لحية متوسطة وخطها بعض الشيب القليل النساء منهن من كانت تطيل الشكوى والتمسح والتظلم... كان يستمع بإغراق واستغراق في انحناءة رأسه حركة تظهر معها بين الحين والآخر ملامح وجهه الصبوح في ومضات خاطفة. وجنتاه المتوردتان وشفتاه الدقيقتان تنفرجان بدعاء أو تأمين... وبمقتضى الحال يضع كفه على رأس أو كتف المشتكية أو الطفل المقصود بالزيارة والموضوع... ويغمض عينيه مغرقاً في انحناءته ليقرأ أو يدعو... ويمد يده باتجاه التبعي الذي يبسط طبقه كاشفاً عن محتواه: مجموعة تمائم ولفائف واعشاب وقطع بخور... مساحيق مطوية في أوراق... يتناول منها ما يناسب الحال والمقام يقدمه للمريضة والمشتكية... أحياناً أخرى، يلزم الحال أن يعرض وصفة شفوية على المستمعة أن تستوعبها لتحضرها بنفسها لنفسها أو لغيرها، وكانت كل زائرة في انتهاء أمرها، تضع في الطبق ما تجود به من نقود...

تقدمت سليمة تدفع بجانبها نجاة... قبلت يد السيد وهي تتمتم: بنتي آسيدي، بنيتي...

ولم تبن أو تتم جملة مما تريد وأجهشت بالبكاء، وبدأ كيانها الذي كان قصيراً أمام قامة السيد يهتز بحركة هستيرية، مما جعل الرجل يخرج عن انحناءته

وغضه، ويمد يده يمسح على رأسها حيناً وعلى كتفها حيناً آخر، ثم يمضي في قراءة أو دعاء مغرقاً من جديد في انحناءته، غير ناظر إلى شيء حوله أو عابئ بشيء. بدا وكأنه يغيب في دعائه وقراءته دون أن تفتر يده عن مرورها على كتف المرأة، ظلت سليمة مهتزة الكيان بنحيب داخلي مكبوت، وقد أرخت رأسها إلى حضن الرجل، ويده ما تفتأ تمر على كتفها ورأسها دون أن يفتر عن التلاوة والدعاء... حتى بدأت تعود إلى ورعها وهدوئها، تمسح دموعها... تقبل يدي السيد وتمسح بهما على وجهها... ثم ترفع نظرتها إليه لأول مرة، لتعرب عن حاجتها بوضوح...

لمحت على ثغر السيد طيف ابتسامة رحيمة لا أحلى منها وأبرد على قلب كليم وخاطر محترق جريح... هكذا خيل إليها وهي تقنص تلك النظرة الخاطفة إلى ملامحه... إشارة منه... إيماءة خفيفة يترجمها التبعي بأن عليها الانتظار... تتراجع سليمة سامعة مطيعة، ويستمر السيد في تقبل قاصداته واحدة بعد أخرى، وهن يغادرن القاعة مباشرة واحدة واحدة عقب ذلك، بإيماءة من التبعي الذي يعرف القصد من كل حركة أو نأمة يأتيها السيد عفواً أو قصداً.

كان بإمكان سليمة وهي تنتظر مع ابنتها أمر السيد، أن تستمع إليه يتقبل الزيارة في الصحن الخارجي، ثم تتبين حركة عودته إلى الدويرية عبر الصالة الكبرى، من حيث خرج أول مرة.

أحست ببعض انفراج من لمحتها للسيد، أو نظرته إليها بعين العطف كما أحسنت بها، جعلت إحساساً يعتريها بأنها تتنفس حقاً، صدرها يتسع لهواء لم تتنسمه من قبل؛ تتذوق الآن أنفاس البخور العطرة، أعطاف المكان، أطرافه وحناياه والدنيا تبدو على بعض من بشر غير مألوف لديها، كأنها لم تعرف في حياتها يوماً هادئاً ناعماً.

في شعورها بانفراج خواطرها، استطاعت الآن أن تحس وكأنها لأول مرة، بكائن حي مدرك إلى جانبها؛ نجاة، التفتت إليها لمجرد أن تشعر بحالها وتشعر ابنتها بذلك، فسألت إن كان بها شيء أو تحس بشيء!

12

جاء التبعي يطل ويشير إلى سليمة بأن تسير خلفه... أحست وهي تلج الدويرية إلى خلوة السيد، أنها تضع قدميها في ملكوت خاص... عالم غارق في السكينة والهدوء والنقاء والبياض.

أرض الدويرية نفسها كانت مطلية بالإسمنت والجير الأبيض بدون زليج ولا فسيفساء... كل شيء بطبيعة النقاء والبساطة والبياض، مسكن صغير متكامل مسقوف إلا في جزء قليل منه، تطل منه زيتونة ضخمة عتيدة متطاولة فوق البنيان، بجوار الباب المؤدي لدار النساء.

في مقدمة الدويرية، يوجد بهو صغير ينتهي ببضع درجات تؤدي إلى خلوة السيد حيث يقضي جل وقته في القراءة والتعبد والاعتزال، ووراءها مباشرة غرفة نوم واستراحة. في الجزء غير المسقوف قرب الزيتونة يوجد بئر ترتفع فوهته فوق مستوى الأرض قليلاً، مجهز بدلو معلق يدار ببكرة بين عمودين من جذع شجرة، وعلى الجانب منه حمام للوضوء والاغتسال...

الحصر تغطي أكبر جزء من مساحة البهو، بينما يبقى جزء منه عند المدخل عارياً ناصح البياض. فوق الحصر، تمتد على طول الأضلاع عدة بطانيات مطوية ووسائد مختلفة الألوان والأحجام، على نحو يضاعف من بساطة المكان ونظافته...

وجدت سليمة نفسها مع ابنتها وسط ثلة من نساء ورجال ممن استبقاهم أمر السيد... الكل صامت فيما عدا بعض من قام للوضوء أو يتهيأ للصلاة، ورغم تباعدهم جميعاً واختلاف مشاربهم، كان المجتمعون في البهو يشعرون بوحدة تجمعهم مادام أمر السيد ونظره قد اقتضى بقاءهم، كانوا يسمعون تأوهات وشكاوي بعضهم بعضا، رغم أنهم سكوت هادئون من ورع ومن رهبة المكان وسكينته...

وحده التبعي، كان يتحرك بعفوية ونشاط في هذا الملكوت الساكن في طبيعة النقاء والبياض، يتحرك في خفة الريشة، ويحط في رهافة الفراشة بلا حس ولا صوت، وما يلبث أن يعود إلى مكانه ليتخذ سمته المألوف في هذه البقعة، على لبدة متقادمة قرب عتبة الخلوة أو مدخلها المفتوح على شكل باب بدون مصراع...

بعد فترة من سكون، ينهض التبعي صوب دار النساء، ليعود حاملاً صينية الشاي بدون براد، ممتلئة الكؤوس مترعة، يفوح من بخارها الخفيف عبير النعناع يعبق به فضاء المكان، يطوف بصينيته على الحضور، ثم يضعها في منتصف المكان، بما تبقى عليها من كؤوس ملأى كأنه ينتظر آخرين... أو كأنه يترك الحرية لمن يستزيد... ثم يختفي مرة أخرى.

تداخلت حكايات الناس في صمت المنتظرين... تقاطعت قضايا المسجون ظلماً والمفتول عذراً والمعلول بلا أمل إلا في الله وبركة السيد...

والعقيم والعاقر والمطلقة والعانس والمهجورة المغدورة المخدوعة... ترابطت بصمت تجارة بارت، وذرية طاشت، وحرفة خابت، ورزق قتر... ملكوت هادئ رهيب صامت...

وأخيراً سمعت لا إله إلا الله... باسم الله... صدعت من عمق الخلوة، خارج المكان والزمان... وقام التبعي من جلسته يتفقد حاله، ويشير إلى أول الداخلين على السيد...

وجدت سليمة نفسها في المكان المهيب تجلله غلالة بخور خفيف وطيب... وجهاً لوجه مع السيد الجالس على لبدة صوفية كثيفة من جلد الغنم، أشار إليها وابنتها بالجلوس أمامه، والتهى عنهما قليلاً بالنظر في مجلد متقادم بين يديه.

وضع السيد الكتاب جانباً، ومر بيده على لحيه المتوسطة الفاحمة، تشع منها خيوط بيضاء قليلة متباعدة. لم يكن قد نظر إليها بعد، أو على الأقل لم تلحظ منه ذلك... كان في انحناءته تلك التي لا تفارقه في قيامه أو قعوده، يبدو غارقاً في بحر من الخجل والتواضع... بدت لها ابتسامته الصغيرة قصيرة العمر، تشجعها على الحديث ولا تضيف أو تنقص شيئاً من إشراق أساريره الدائم...

سمعت:

ـ باسم الله.

يشجعها على الإفضاء بما عندها. رغم تواضعه الجم، رغم حماستها للحديث فقد حالت البحة دون انطلاق صوتها، بينما الرجل يحرك لها رأسه تأميناً وتطميناً... دون أن ينظر إليها... ظلت تحدق فيه مأخوذة بهدوء أساريره، وتقاطيع ملامحه في وسامتها وإشراقها... قالت إنها تطلب النصح والمشورة والبركة... بنتها مطلوبة للزواج في بلاد الغربة وراء البحر... ومن صديق ابن

صديق عزيز... وهي أم مغلوبة مظلومة لا تعرف ما تعمل ولا تجد سنداً لها غير العون الإلهي وبركة هذه الدار وأصحابها... الداء دفين والجرح عميق والحيرة ضالة مضللة... يا بركة سيد السيد...

توقفت وقد شعرت بأنها كشفت مشكلتها وكافة ما بها، وظل الرجل يحرك رأسه لها كما لو كان ما يزال يستمع إليها أو هو يستزيد...

ومضت فترة قبل أن يوقف حركته تلك، ويسألها من خلال انحناءته وزوغان نظرته عنها، عمن تتحدث؟ تجيب مشيرة إلى نجاة على جانبها:

ـ هذي... بنتي...

من يسألها عمن تتحدث؟ من سألها؟ خيل إليها وهي تجيب أن السؤال منها، أو أنه من الجدران حولها أو من فضاء الخلوة... لا تدري، ولكنه كان سؤالاً قوياً، وجوابها واضح... وربما لم يسأل أحد...

لم تحس بأي حرج في التحديق في تقاسيم الرجل، أو أن الحرج زال من هذه الناحية... على كل لم تكن تملك ألا تحدق فيه... جاذبية ذلك أقوى من أي مقاومة... وهو يعفيها من معاناة الحرج بنظره المصروف عنها، وبصره الذي لا يرتفع تجاهها، وأكدت بصوت أقل وضوحاً أنها تتحدث عن... ابنتها...

لأول مرة رفع إليها بصره، لمحت ما يشبه البرق الخاطف يدفعها إلى أن تغض وتخفض... أحست بالسؤال القوي العتيد يتطلب الجواب... سؤال صادر عنه أو عنها أو عن فضاء الخلوة... لكنه لا يحتمل مواربة... أحست باختناق، بأنها توشك أن تجهش بالبكاء... عاجزة عن الكلام على كل حال...

أومأ إليها السيد أن تقترب، أطاعت دون وعي كالمسطولة، وضع يده على رأسها، وطفق يقرأ ويدعو، حتى هدأت من جديد، ثم قال في وداعة وتودد:

ـ يا الله، يابنتي، فرغي المزيودة...!

وقالت:

ـ بنتي، آسيد السيد...

أحسست به يشهق بذكر الله، ولا يزيد على أن يقول:

ـ وبشر الصابرين.

أحسست بتردد أنفاسها، كما لو أن حملاً ثقيلاً أزيح عن كاهلها، وبانطلاق حركاتها كما لو أن قيداً كان يشل مفاصلها... الحياة كلها ربما كانت قد توقفت فيها أو تعلقت منذ وطئت هذا المكان... الآن يطلق سراحها، هل أشفق عليها الرجل؟ أدرك وأشفق ورحم... ومنحها هدية الراحة والهدوء؟

ـ وبشر الصابرين...

قالت بعبارة واضحة إنها لا تعرف ماذا تعمل، في موضوع ابنتها وخطبتها لما وراء البحر والغربة؟

سألها ممن ولمن؟

سؤال أحسست به أكبر من طلب الجواب، كأنه استنكار.

ماذا فعلت؟ وماذا أدركت؟

كررت بوضوح أن ابنتها معروضة للزواج من...

وقبل أن تنهي جملتها وكامل المعلومات، يوقفها سائلاً بنفس اللهجة التي يخيل إليها أنها تدركها؛ والتي بدت مع التكرار فوق كل استنكار، كما هي فوق طلب الجواب...

أتدرك ذلك حقاً أم أنها في وهم الوهم؟ ممن؟ ولمن؟

تحاول مرة أخرى أن تنطلق في الحديث، تفضي بكل ما لديها، لا يهم إن

كان التساؤل منه أو من الجدران أو من داخلها بالذات... تحاول أن تفتح فاها بالتفاصيل بكل التفاصيل، فيقاطعها بإشراقه وهدوئه وتواضعه:

ـ الأمر لله...

تريد أن تلح لتعرف ماذا تعمل... يردد في نفس الهدوء أن الخير فيما اختاره الله...

إنها وحيدة في محنتها ولا معين لها ولا مشير... غير الله وبركة هذه الدار... إنها تخشى الغربة على ابنتها الكبرى وأنيستا في همومها... تخشى على ابنتها من غربة، وتتهيب على نفسها من شدة الوحدة...

ثم هي لا تستطيع أن ترفض بدون سبب لأحبة أعزاء... ولا تعرف ما تقول ولا ما تفعل...

يوقفها من جديد بصوت يعيد إليها ذكرى انحباس أنفساها في بداية الجلسة، وسؤال عمن تتحدث؟

يتوقف انطلاقها وحماستها من جديد، ستبكي مرة أخرى إن حاولت أو جاهدت، يشير الرجل إلى الفتاة أن تتقدم إليه، يضع كفه على جبينها، ويغمض عينيه ويغيب في قراءة ودعاء سري... وعندما يشهق لا إله إلا الله، وكأنما يفيق بذلك من غياب أو يوقظ بها ظلال العالم الذي كان نائماً حوله، يبدو لها طيف ابتسامة صافية عميقة، تفتر عنها أساريره... ويقول لها آمراً وكأنه يسألها :

ــ خليها هنا؟!

دهشت سليمة لما تسمع هل سمعت فعلا؟ التفتت حواليها كأنها تريد أن تتأكد... لعلها خجلة من نفسها، أن يصل بها المس في هذا المقام أن تسمع ما لا يقال أو يسمع!

خليها هنا؟!

أمر كالسؤال، سؤال كالأمر واضح النبرات واضح المصدر...

ـ سيد السيد؟

عبارة حملتها كل ما تستطيع من حيرة واختبال.

يؤكد لها مقالته بهدوء وابتسام، كأنه يرد عن تساؤلات كثيرة في خاطرها:

ـ ابقي معها؟!

ـ سيد السيد...

يؤكد في لا مبالاة ومودة بالغة وتواضع شديد، يدفع عنها كل إحراج:

ـ الخير فيما اختاره الله.

لا تملك إلا أن ترتمي على يدي الرجل تقلبهما، تبللهما بالدموع، ترتجف خشية ورجاء، فقدت شعورها بكل شيء حولها... غابت عنها الكلمات وانبلع اللسان، وليس لها إلا غريزتها التي تفهمها وتفهم بها... دموعها وهستيريا الكيان المهتز المرتعد المرتجف، تبين هول ما هي فيه، جاءت بحيرة تعاني حيرة، وها هي ذي في بحر متلاطم العتمات...

يهدهدها الرجل، يدفعها عن يديه بلطف داعياً ذاكراً... لا تملك سليمة أن تتراجع عن تقبيل يدي الرجل وتبليلهما برجائها والدموع.

ـ سيد السيد، أنا وبنيتي بالله وبالشرع.

يدفع عنه المرأة بلطف ومودة، يرفع رأسها بمودة بالغة، ينظر إليها نظرة هادئة تسكب على كيانها سكينة وهدوءاً، تستعيد سليمة بذلك بعض سمتها وتعود لنفسها.

تسمعه يردد أكثر من مرة في شبه همس مسموع:

ـ وبشر الصابرين...

ويختتم بالدعاء لها ولابنتها بكل خير...

13

لا تدري كيف عادت... كيف قبلت يديه بحرى دموعها شاهقة باستجابتها... لا تدري كيف عبرت البهو والصالة والصحن لتجد نفسها في الشارع... وماذا أسر لها التبعي وهو يرافقها عند الباب... كانت تشعر بظله إلى جانبها وأنفاسه حذو أذنها تتردد، يهمس إليها بما لم تع أو تفهم... مجرد إحساس كان ذلك، لكنها لم تلتفت أو تحاول التأكد إن كانت مصاحبة التبعي لها حقيقة أم وهماً... لعل ذلك من مظاهر اضطرابها يضاف إلى تعثر الخطى وغشاوة الرؤية، وتيه الخاطر... أي شارع سلكت، وأي طريق، بأي اتجاه، وماذا ترى أمامها وحولها؟

أكثر من مرة وجدت نفسها تتوقف في سيرها تجر نجاة... تجرها جراً ربما كان أقوى من وجهتها الأولى لزيارة دار السيد... هذا كان شعور سليمة على الأقل، تجر ابنتها جرا تحس به يثقل خطواتها... لكن ما يثقلها حقاً كان مما يتراءى لها أمامها، حولها... تحس بثقل نجاة إلى جانبها مجرورة متباطئة كأنها تفر بها أو تخشى منها ذلك... يوحي مشهدهما لغير الفاهم وكأن الفتاة تمانع

اتجاه والدتها... أحيانا تنحرف بها... تنحرفان عن خط سيرهما لتتحولا يميناً أو شمالاً تحولاً مفاجئاً، كما لو كانتا على شفا حفرة... كما لو كانت الأرض تفاجئ خطوهما بانبثاق فوهات مبتلعة غير متوقعة، أو أن خطراً يتولد في طريقهما بين لحظة وأخرى... يهددهما ويتهيأ للقفز عليهما من علو، أو ينفجر بين أقدامهما من عمق!

اندهشت الفتاة نفسها من سلوك أمها؛ من خطوها السريع العنيف ومن وجهتها المضطربة التي لا تنتهي فتنحرف بها ذات اليمين وذات الشمال. لم يكن حال الأم ولا حالها يسمح بالسؤال، كانت نجاة تتبع خطو أمها وقبضتها المحكمة على معصمها في صمت وإجهاد، محنة كانت هذه العودة، محنة هي حال الأم، محنة هي وأي محنة وضع نجاة، حاولت أن ترفع صوتها بسؤال، أو توجه الخطو، أو تتمهل دون جدوى، محنة لا يمكن أن توحي بغير الخبل.

أخيراً، توقفت سليمة عن السير، بعد إجهاد ومكابرة، توقفت وظلت تعرك عينيها وتعيد، تغمضهما وتفتحهما مراراً تباعاً، تنظر حولها إلى كل جانب كأنها مبهورة أو مندهشة، كأنها في عالم غريب حطت به على غير علم أو سابق معرفة، تفرك عينيها وتجيل الطرف فيما حولها مستعيذة بالله من الشيطان الرجيم، بصوت مسموع يستقر في أذني نجاة، كأول ما تتلفظ به أمها طوال طريق العودة الغريبة. تدور سليمة حول نفسها دون أن تفتر عن التعوذ وحركة العينين التعرفية...

تدرك بلا شك الآن أنها ضلت طريقها أو هكذا يبدو عليها؟ فعلاً أدركت الآن أنها تدور وتعود للنقطة نفسها من خط سيرها... كأنها في مركز دائرة!

اتكأت إلى الحائط تستعيد أنفاسها، تلتقط وعيها وذاكرتها مستعيذة بالله من كل شر... لعلها حالة الغروب الوشيك، وتشتت الفكر وانشغال الخاطر...

لعلها علة أخرى غير منظورة في الكيان المحطم المتفكك... علة غير معلومة ولا محسوسة إلى الآن في القلب أو في البصر... أو في كل الكيان... اللهم احفظ ونج من كل شر...

في عمق سمعها، كانت سليمة تتابع مقاطع صوت لا يفارق ولا يتوقف:

ـ وبشر الصابرين... وبشر...

أحسنت ببعض راحة تعاودها، نظرت إلى ما حولها، لتتبين أين هي، نظرت إلى موقع قدميها على الأرض، الحمد لله، بدت تستعيد ثقتها بالأرض تحتها، وبالناس وبالبنيان حولها... كل شيء يبدو في نظرها يعود إلى وضعه الطبيعي؛ والمحنة الغريبة انحصرت عنها أو هكذا يبدو وتشعر، الحمد لله... الحمد لله... ومدت يمناها إلى نجاة الجامدة الصامتة، مدت تستعيد قبضتها على معصمها، لكن في هدوء، واستأنفت بها طريق العودة.

رغم الهدوء والطمأنينة... كانت سليمة بين الحين والآخر تتلفت، تنظر حولها بشيء من الاستطلاع والاندهاش دون أن تنطق بشيء، أو تتحدث بكلمة إلى نجاة الحائرة المتسائلة...

كانت سليمة في خط سيرها، ما تزال تنحرف قليلاً حيناً بعد آخر، وعلى نحو مفاجئ... لكن بقصد واضح وباطمئنان...

14

بونا آدم... بونا آدم... بونا آدم... بنو آدم...

خطوات الهبطي تضرب الأرض بإيقاع شبه عسكري مرددة ترنيمته الدائمة... بونا آدم... بونا...

صفحتا قدميه المعروفتان الحافيتان تصفعان سطح الأرض بحس يتقوى مع الإسفلت، ويخمد مع المماشي المتربة... يتغير الصدى دون أن يتغير الإيقاع أو تفتر الحماسة أو العزيمة... بونا آدم... بونا آدم... بونا...

تحمر الدنيا احمرار المعدن المحمي في أتون الحداد... تحمر وتحتر... كلها... الدنيا قطعة معدن محمية حامية في أتون حداد... السعيد الوحيد في هذا الكون الملتهب، هو مزند الاتون، نافخ اللهب والجحيم، محرك النافوخ الناري... سعيد بالتهابه وسريان اللهب في كل هذه الدنيا... حمأة لهيب أحمر... في أحمر... في أحمر... لوحة نموذجية لا امتياز فيها ولا تمييز إلا في درجة الاحمرار... والاحترار... وكله، كله درجة واحدة، اللهب الحارق المحرق درجة واحدة واللون، والخلائق تتحرك بلهيبها وحمآتها هائنة

راضية... غاضبة ساخطة، لا تدري أنها محمرة محترة، وأن ذلك بسبب ذلك... وبونا آدم... بونا آدم... بونا...

ما يكاد الهبطي يبدو من بعيد، حتى يتعالى الهمس والنداء، ويخلي الصغار له الفضاء والنساء... والرجال بدرجة أقل... إذا دعت الضرورة أن يصادفوه فهم لا يتحرجون... أما الباقي من الخلائق فتملؤهم منه خشية ورهبة من بعيد، ولا يغريهم إيقاع التزنيمة العتيدة التي لا يعرفون كنهها إن كانت تمجيداً أو تحقيراً لابي البشرية... أو تسبيحاً...

لا يدرون إن كانت ألفاظها تنتمي إلى عالم خفي أو منظور... من كون إنسي أو جني... يغريهم شيء آخر خفي ظاهر في مشهد الهبطي وموكبه: طفولته الدائمة... براءته العادية... إنسانيته الطبيعية أو حيوانيته العفوية أو إنسانيته على النحو الذي هي عليه... عريه... عريه الطفولي ونظرته الطفولية وملامحه... لا مبال بنفسه ولا بما حوله إلا على النحو الذي يريده أو يحسمه... هل يحس بشيء؟ عري شبه كامل في حر الصيف وقر الشتاء... ستر عورة لا يكاد، من فعل فاعلي خير، ما يفتأ يتكرر والهبطي لا عابئ ولا مهتم بذلك... بماذا يحس؟ يغضون عنه أبصارهم أو يتطلعون خفية او تهز بعضهم أريحية يلوون بها، أي شيء على وسطه، أو يرمون شيئاً على كتفه لحمايته وستره، غير عابئ يمضي... غير عابئ يقف... غير عابئ يستسلم أو يسلم نفسه لحركات فاعلي خير... لا ينم عن شيء ويمضي... سرعان ما يعود حاله إلى حاله فيما عدا أقل الستر... أقله الأقل...

بنو آدم... بونا...آدم...

مضحكة ألسنة الخلق في احمرارها اللاهب الملتهب ذاك، وجميلة هي بما تثيره من ضحك مضحك... حمراء في احمرار في أحمر في أحمر... وفي تقافزها الأحمر وأصواتها الحمراء... جميلة هي، هذه الدنيا... هذا اللون

الخالد... مشهد مترامي الأطراف في احمراره وحمآنه... أشباح تتحرك محمرة في احترارها... تتحرك على أطراف أو دوائر، تحمل أو تدفع أو تمسك أو تلتهم... تصوت أو تزفر... أو تشهق أو تصفر... كله... الكون كله أحمر في أحمر في أحمر...

دكة تحت قوس درب الأحباس من رأسه أو مدخله العلوي، شكلت مستقر الهبطي... مستقر عريه الطفولي... في الليالي القارسة والقائظة على السواء... ليسلمه الصبح الملون بلون واحد شامل كامل إلى سعيه المعهود، يتملى مشاهد الدنيا والخلائق في ألوانها الرهيبة الخالدة البدالة...

كثيرة هي الأيدي، قبل الألسن أو بعدها التي امتدت بحركة مخطوفة سريعة باتجاهه، في انتباه منه أو غفلة، لترمي على كتفه معطفاً أو مئزراً، ستراً ما، أي ستر ساتر... وسرعان ما تلتهب ذاته، تخترق تحت حمأة الساتر، مهما كان لون اليوم أو لون الصباح... كل لون رغم مظهره، يكون في جوهره حارقاً محرقاً بمجرد ما يلمس جلده ستر ما... كل شيء يتحول إلى اللاهب الملتهب على جسده، فينفضه عنه... يرميه مكتفياً باحمراره واحتراره الذاتي الأصيل... تاركاً بقية الخلائق إلى ستائرها وسواترها، محمرة محترة بما يحتويها وتحتويه...

احمرار في احترار في احمرار... رعب حقيقي والتهاب حقيقي يصيبه، يحيل لونه، طبعه من مجرد لمس الستر أو الغطاء... لا يفهم ولا يدري لماذا لا يدرك الخلق حوله ذلك... لا يدري إن كانوا في غفلة أو يقظة أو حلم... لا يدري- وهو بالذات الذي يريد أن يفهم- سبب احمرار الخلق فوق احمرارهم العادي، وفوق عدم شعورهم بذلك، أو قدرتهم على تحمل ذلك إن كانوا -حقاً يشعرون... لا يدري كيف يفهم حرصهم على إضافة أحمر إلى أحمر... ولهيب إلى لهيب... نار إلى نار!

أيدي كثيرة امتدت إليه كما امتدت إلى دكته ومستقر طفولته الخالدة البريئة، عشه ومسكنه تحت قوس الأحباس العلوي... أيدي معتنية كثيرة نظفت وفرشت... ووضعت أغطية... عجيب... كل ذلك كان يلهبه، يثير حساسية كيانه كله... كل ذلك يحرق جلده حتى العظم، يثير طبعه، يثير لونه، يحيله إلى لون لا يعرفه ولا يتعرف عليه من ألوان نهاره التي يعرف جيداً، يعرفه وتعرفه، لا تتزاحم ألوانه، ولا تتداخل، وإنما تتبادل الأدوار، لكل لون واحد منها يومه أو أيامه... لكنه يأتي لوناً واحداً شاملاً كاملاً... وألوان ليله الذي يراه دائما بلون مختلف عديم الانتساب... لا لون... هكذا لا يطيق الحركة في الليل... الألوان... هكذا تتبادل ألوانه دون أن تتداخل مطلقاً... هكذا يحتر ويحترق تحت كل ما يلمس جلده، هكذا تمتد أيدي الخير... يحس بها، بلونها القوي لترمي على كيانه ما لا يحتمل أو يثبت، فلا يبقى غالباً إلا أقل ما يلف على وسطه لفاً... هكذا تمتد أيدي الخير، يعرفها بلونها القوي على مستقره، تنظف وتفرش وتغطي... لكنه سرعان ما ينفض عنه وعن مستقره كل ذلك بمجرد حصوله... ولا يملك إلا أن يتألم ألماً أحمر يبكي ويضحك... وكله أحمر في أحمر...

الأطفال، أولئك المتعالمون، يشرحون للأجهل منهم والأصغر خبايا الطبيعة وأسرار الكون والقيم، من مشهد الهبطي وسلوكه، بعض ذلك زودوا به صدفة أو قصداً، وبعضه الآخر زودوا به أنفسهم وغيرهم عن صدفة أو قصد كذلك... وهو يمر تحت مجاهرهم الدقيقة الرقيقة... من بعيد مادام أغلبهم يفر من طريقه... شرح ينبهر به السذج الأصغر، ويبالغ به الشطار الأكبر في كشوفاتهم في مجاهيل الكون الهبطي المتحرك أمامهم في كامل طفولته البريئة الخالدة...

بونا آدم... بونا... آدم

تتحرك الأقدام منه على الإيقاع الرتيب في ترنيمته الحازمة، مارش عسكري على طريقة الهبطي، واجب وأمر بالحركة ونوعية الخطو، أو هو تمرين واجب مفروض يؤديه الهبطي طول نهاره، مهما كان لون النهار، لا يتوقف عنه إلا لضرورة ما، وليبدأه من جديد...

بونا آدم... بونا... آدم... بونا...

في زحمة السوق، يخلى على الدوام ممر أحمر، أو بأي لون آخر كامل شامل من ألوان الكون اليومية لخطوات الهبطي، لا أحد يزاحمه أو يحتك به... مواقع قدميه، تؤسم طريقها المعتاد بوضوح، هي أيضاً لا تكاد تنحرف عنه... لا تستطيع... ممر اللون كما تراه واضح مستمر، يقودها وتتمسك به باستمرار واستقرار... هكذا كل يوم تسير به الخطوات يسير بها، بمنعرجات ومحطات وقوفها.

خبز أحمر يلتقطه من بائعه بكل تهيب واحتياط من مزيد احمرار واحترار... مهما كان حبه للون اليوم الشامل الكامل، مهما يكن لون اليوم الذي يعشقه ويهواه ويراه دون غيره أو مع غيره، مهما يكن من ذلك، فهو أبعد ما يكون عن زيادة اللون... زيادة احمرار في احترار... إنما يلتقط الخبز من بائعه دون زيادة أو نقصان...

البائع نفسه بألوان حمراء ملتهبة فيه ومنه... الوان اطمئنان واعتياد وخير وإيثار... يضيف إلى ما يلتقطه الهبطي شيئاً آخر... لكن هذا يخشى كل مزيد من هذا اللون الحارق الملتهب الجميل في كماله وشموله، فيما يعرف فيه كل شيء من ضاحك مضحك... فلا يأخذ إلا ما يأخذ...

تتتابع خطوات الهبطي في طريقها المرسوم مخترقة السوق إلى طرفه، متوقفة بتردد بين نظره على قطع السمك الحمراء في مقلاة مولاي البهجة،

وبين الأدخنة الحمراء المتصاعدة إلى عنان السماء من أسياخ دسمة لدى محبوب الشواي... حمرة البهجة أم لهيب محبوب؟ لهيب محبوب أم حمرة البهجة؟ كله أحمر في أحمر في احترار محتر... كله يلون يومه الشامل الكامل...

بونا... آدم... بونا... آدم... بونا...

ترسم القدمان طريق طفولتهما المعتاد، بكامل لونه ومحطاته... الوقوف أمام مولاي البهجة ومحبوب الشواي وسي عبد الله الخباز... كل يفهم واجبه بعقل أحمر، وبابتسامة وقابلية وترحاب باللون نفسه...

وتمضي الخطوات في طريقهما محافظة على إيقاعها بعزيمة وانضباط...

بونا... آدم... بونا... آدم... بونا...

15

أزاح العسلي طربوشه الطاسة عن رأسه على الوراء، ومسح جبهته ومقدم رأسه بمنديل... متحاشياً أن يتعرى كل رأسه مرة واحدة، فتثور حساسيته القوية للصداع، تعتريه كلما عرق وتعرض للبرد... ولا برد في هذا الجو الحار إلا حساسيته تلك...

كان حر ما بعد الزوال، يلجئه دائماً إلى ترك الدكان والالتجاء إلى الجدار المقابل، حيث يستطيل الظل، ومن هناك يظل في الفيء، يرنو إلى دكانه، ويسرع إليه كلما أقبل زبون...

مرة أخرى، أزاح الطربوش إلى الأمام هذه المرة، حتى أصبحت حافته حذو حاجبيه، ليمسح مؤخر رأسه متأوهاً متأوحاً... حر شديد، وحساسية الرأس أشد... ودكانه في ضيقه وانعدام نوافذه، وقابليته للم حرّ آخر النهار، تجعله حماماً حقيقياً... جهنم! أعوذ بالله. والمشكلة في الرأس وحده، أما ماعدا ذلك فهو يستطيع أن يتحمل ما يتحمله الناس... يحكون انه أصيب في مناسبة ما، بكسر في الجمجمة... وهذا هو السبب... يذهبون إلى انه أصيب في الحرب... حرب الهند الصينية... أو العالمية... أو... وأن جزءاً

من جمجمته... عظم الجمجمة هو زجاج أو من معدن ما... يذكرون ذلك ويتحدثون به... منهم من يذكر أنه رأى ذلك الجزء لماعاً تحت أشعة الشمس، في غفلة أزاح فيها العسلي طربوشه كاملاً... لمحة كانت كافية لذلك فيما يذكر من يذكر... رأى ذلك الجزء لماعاً، ويؤكد أن ذلك ما يزعج العسلي في الحر، وفي أنه لا يحتمل أن يعري رأسه أبداً!

يعرف العسلي بعض ما يتحدثون به عنه، في هذه النقطة بالذات على الأقل. يعرف عن نفسه مثل هذه الحكايات، يرجونها في حق وباطل... تستفزه غالباً... وتضحكه أحياناً... فعلا يضحك لذلك أحياناً فيما بينه وبين نفسه... تستفزه الحكايات... لكن لا بأس بها، يمكنه أن يحتملها على غيرها من أوصاف أخرى وحكايات عن رأسه وغير رأسه... مهما يكن فالقول في رأسه سيكون أكثر وأوفر، فيما لو ترك رأسه عارية، يصطاد فيها القوالون تلك الحفريات العديدة الملساء، وما تناثر حولها من شعيرات متجمعة متباعدة على أقرع شديد التقبب في قنته، قوي الانحدار الأملس... لا يثبت ولا ينبت عليه شيء.

بحركة آلية سريعة، أزاح الطربوش كله عن رأسه، وأعاده في لمح البصر، مما كان كافياً لتمر يده بمنديله على كامل قنة رأسه... بل ولتضغط عليها برهة في الوقت نفسه... في سرعة البرق... ارتاح، تأوه وتأوح كما شاءت له حساسيته وعاداته، وهو يتلفت بطريقة آلية حواليه، حيث لا شاهد ولا ناقل... لم يره أحد ولن... وليتركهم يقولون ما يشاءون عن غير علم... قاتلهم الله، الفضوليون اللسانيون...

آه، ليته يستطيع أن يعيد الكرة والأخرى في غفلة حقيقية عن الأعين والألسن... ليته يستطيع ذلك ويستمر فيه... فرغم الألم الضمني في حركته وحساسيته، فالهدوء الحاصل من حكه وضغطه ممتع لذيذ، يكاد يشبه في

تصوره لسعة خفيفة محدودة بحذق ماهر من فلفل الطعام... أو أي شيء شبيه يحمل لذة ومتعة مع ألم خفيف بعيد... هو عينه إحساس اللذة والمتعة... يا ليته يستطيع أن يعيد الكرة ويعيد حركته في أمن واطمئنان إلى نفسه، فمع هذا الحر والعرق تشتد شهيته لحك رأسه... أو... للمسح عليه مع ضغط معهود مدروس بالمنديل... هنا وهناك...

ارتاح العسلي بفعل الفيء... يرنو إلى الدكان المقابل... على أتم الاستعداد لقطع الخطوات الفاصلة عند إقبال زبون... وإن كان يتمنى في سره ألا يقبل الآن، مع فترة اشتداد في قنته...

رفع جلابته القماشية الخفيفة إلى ما فوق الركبتين، وجلس كالمقرفص دون أن تلمس مؤخرته الأرض متكئاً بكل ظهره إلى الحائط... تواجهه في قعر الدكان رسوم يدوية حائطية، تمثل رؤوساً رجالية مرتبة الشعر دلالة على حسن الحلاقة لدى مزين الرجال... شعار الدكان ومهنة صاحبه السابق، قبل أن يستلمه العسلي... شعار ورسوم تردد كثيراً قبل أن يمحو كل ذلك مغطياً إياه بطبقة من الجير الأصفر، ظلت بقعة معزولة مستطيلة فوق بياض الحائط، تشي بما تحته من معالم شعار قديم، كما لو كانت في رقتها ودلالتها عنه، غطاء شفافاً له.

كان لتردد العسلي في أن يمحو كل آثار سابقه أكثر من سبب... ثم جاءت المحاولة أكثر من دالة على تردده... كان بإمكانه أن يترك الشعار كله قائماً كما كان... واضحاً كما كان... إذ ما الفرق بين حلاق وسمسار وخباز في عرفه، إذا أخذ بالجوهر في هذه الأمور؟ ليس هناك فرق كبير ولا كثير...

الجوهر في الموضوع، أن تكون لك نقطة لقاء، مكان محدد لزائريك ليتبضعوا مما عندك، إذا كانت لديك بضاعة، أو بنصحك إن كنت ناصحاً مرشداً...

كان بإمكانه أن يعايش الشعار السابق... بل كان بإمكانه أن يعايش الحلاق نفسه في الدكان... يشتركان في المحل... لم لا؟! لا مانع أبداً عنده في ذلك... بل قد يكون أفيد له ولغيره وعلى أكثر من وجه... إنما ذلك كله، كان بالإمكان حدوثه لو تصافت القلوب والنيات وأعلن الكل عن حسابه وهدفه مقصوده... لم لا؟! هو بالذات لا يحتاج لأكثر من كرسي إذا جلس في الدكان، بينما يغلب عليه أن يحادث زبائنه وقوفاً لفترة لا تطول أكثر من دقائق... هو بطبعه لا يحتمل إطالة الحديث بلا فائدة، إلا إذا اقتضى الحال ذلك، وقلما يقتضي... وهو غالباً ما ينهي موضوعاته مع الزبناء خارج الدكان إلا إذا اقتضت الضرورة غير ذلك، وقلما تقتضي... لكن... لكن... ذلك لا يتم أبداً...

لا تصفو النيات ولا الحسابات؛ ودواعي الشغب كثيرة والبشر... البشر غابة كثيفة لا يعرف داخلها إن كانت له رجعة أم ضيعة وضلال...!

هكذا لم يكن ممكناً أن يشترك مع أحد، ولم يكن لأحد أن يقبل الفكرة لو سمعها منه، فكان تردده الواضح إزاء الشعار.

وزاد معه التردد أكثر، حين عول على وضع شعار له خاص به كما فعل الحلاق قبله وكما يفعل الكثير غيره... كان عليه على الأقل إلغاء الشعار السابق، ووضع شعار مكانه على واجهة الدكان، فوق مصراع الباب من الخارج: «سمسار الهناء للأملاك العقارية»، شعار طويل عريض... صالح لكي يشتغل تحته بهناء حقيقي، لكن هناك خطر الإعلان على هذا النحو من تحصيل الضرائب التي تكاد تحصل الأنفاس... وهي بالفعل تحصل وتحصي الطاقات المفتوحة على الهواء مهما كانت سعتها أو درجتها القصوى في الضيق... بل في الإغلاق والانغلاق ذاته... إنها جميعاً بالنسبة للمحصل، إمكان أو قابلية للانفتاح على الهواء الخارجي... ثم الإعلان... الإعلان العريض الفسيح الفضيح له ثمنه... الأهم في كل هذا: لماذا كل هذه الإثارة؟ لماذا لفت الانتباه إلى هذا الحد كمن

يعلم المكفوف رمي الحجارة!؟

المهم في كل هذا، أن يفهم الناس بأقل إثارة ممكنة، أن هنا نقطة لقاء حول موضوع أو بضاعة أو حرفة... فقط لا غير... والعادة هي التي تخلق المعرفة... عادة اللقاء هي التي تعرف وتعلن وتعلم... دون إثارة مستفزة ودون فضائح... المهم... المهم أن يفهم الناس في الجوار القريب أن هنا سمسار... والباقي يأتي... العادة تخلق الحركة والمتحرك... لذلك كله كان يكفي... وقد كفى فعلاً... كتابة كلمة واحدة: «سمسار» وبخط رقيق بالطباشير على لوحة مصراع الباب من الداخل فقط... خط أبيض على لوحة الباب الزرقاء... بوضوح يظهر الأبيض على الأزرق كلما كان الباب مفتوحاً... وبوضوح أيضا يغيب الأبيض على الأزرق كلما كان الباب مغلقاً... فقط... لا غير... والسلام... ولا داعي للضجة والفضائح والإثارة والإعلانات الصاخبة... سمسار الهناء للأملاك العقارية؟! يا أخي سمسار وكفى... سمسار والسلام... كلمة واحدة: سمسار... سمسار وأنت واقف... وأنت جالس... قائم أو نائم... سمسار يا أخي كما تشاء وفي أي وضع مريح لك... وبهدوء وهناء حقيقي...

16

أوشك أن يستجيب لحساسية رأسه، لداعيها الملح على يده... حين تجمدت حركته وهو ينظر ظهر امرأة تقف بمواجهة الدكان، تتطلع إلى داخله بحثاً عن صاحبه في أركانه... تحفز العسلي للوقوف، فقام وأرخى تلابيب جلابته مثبتاً قدميه في فرجتي بلغته...

استقام وخطا خفيفاً نحو المرأة متهللاً، أجفلت المرأة وهي تفاجأ به من ورائها. لا بأس، الحر. لا بأس، تفهم الوضع وهو بدوره يعمل على أن تفهم، لا بأس، يرحب بها ويسأل، الدنيا حر شديد في المحل داخل الدكان. سألته المرأة عن سكن من غرفتين، مستقل أو مشترك في مداخله، لا يهم.

كان ينظر إليها متطلعاً إلى سحنتها، مستقرئاً ملامحها وهي تسهب في وصف الطلب والمطلوب، تبدو في ذلك مستعجلة أو تشعر بذلك كأنها مطرودة أو مطاردة... امرأة نصف... أرملة تكون أم مطلقة أم؟ علامات عناية لا تخفى عليه... عناية بمظهرها على هذا النحو لا تعزى للمجانية... تبدو قصيرة بالنسبة إلى قامته الفارعة المديدة... إنها من هذه الناحية ككل الناس أو كالكثير منهم

بالنسبة إلى امتداده العمودي في الفضاء، كأنه يهم بأن يجني نجمة... لعله إلى العمالقة أنسب... لا يهم... هي إذن امرأة متوسطة، وإن بدت قصيرة. لم يرها من قبل ولا هي تعرفه، لكن من يدري؟ قد تعرف ولا تعرف!

تسأل المرأة، بل تؤكد على الغرفتين، أن تكونا مشمستين ولا مانع إذا كان مشتركتين في مدخل واحد مع الجيران أو... حتى في صحن واحد مع الغير إذا دعت الضرورة ولم يكن ثم بديل أو اختيار! الحر ألهبها بلا شك كما ألهبه، ويبدو أنها سارت كثيراً في هذا الجحيم قبل أن تصل إليه... تلوح بيدها حذو وجهها جلباً لحركة هواء منعشة في هذا الركود الساخن... لتدخل، إذ يمكنه أن يقدم لها ماء بارداً من الخابية الطينية الوفية في الداخل... ولو أن الدكان اللعين جماع للحر لمام خانق... خاصة... خاصة بعد الزوال، لتدخل، لم لا؟ نعم، الغرفتان، هناك إمكانات عديدة، الاختيارات وفيرة في دروب قريبة إلا إذا كانت تفضل درباً معيناً... متأكد هو من أنها تظهر الجدية.

يقرأ ذلك في حركتها ولهجتها... ربما تبالغ في الجدية...؟ بعض المبالغة فيما يبدو، وعليه أن يفهم لماذا كل ذلك... مهمته دائماً أن يفهم قصد زبونه أو محدثه، قصده بالضبط لا مجرد ما يظهره فحسب... هل هي تتصنع؟ ما المقصود إذن؟ عليه أن يفهم؟ وقبل ذلك سواء معها أو مع غيرها، لا يمكنه أن يفيد أحداً حتى ولا نفسه... تتمنع عليه الآن؟ وعليه هو بالذات! مع من هي؟ جادة فعلاً، هذا واضح، لكن أهو السطح أم جوهره؟ تسأل عن الثمن؟ الثمن... الثمن يااللا... يا مولاتي يااللا... ما يكون إلا ما يرضى الخاطر!

كان يبتسم بصدق وبدافع مهنته... مهنة إذا كانت تتطلب زبوناً، فهي تتطلب المرح والابتسام والترحاب، وزبون جديد يكون دائماً أدعى إلى مثل ذلك... الجديد جديد على كل حال، لأنه لا يعرفك... فمرحباً والغالي يرخص وما يكون إلا ما يرضي خاطر للا...!

لا بأس، لا بأس، وحتى لو كانت المرأة دون ما يريد، فهي زبون جديد، وطريق إلى مثله... هذا هو الإعلان كما يفهمه ويحذقه، ليته يعرف بالتأكيد اتجاه الرياح الحقيقي... رياحها... وإلى أي حد هي صادقة كل الصدق في إلحاحها الظاهر على الغرفتين دون غمز ولا لمز أو رمز... وعلى الثمن ومطلع الشمس من النافذة والموقع والجار... أم أنه متخلف إلى هذا الحد... وأكثر من هذا الحد دون أن يدري؟! ربما... من يدري؟ عالم جديد... برموز وألغاز جديدة؟

ظلت تبدو جادة مبالغة في اتجاهها، متجاهلة أو لاواعية باستفساراته العديدة الملتوية بعض الشيء... بعض الشيء... هو من هو وهي امرأة مهما كانت وعليها أن تظهر باطنها الحق حتى لا يخطو خطوة في الفراغ... على كل حال... لا تخفى عليه ولا عليها طبعاً عنايتها الواضحة بنفسها، عناية معقولة بنفسها... بالمظهر... عناية خفية خفيفة لا تستفز ولا تخفى كلياً... هذه العناية بالذات تحتاج إلى متعهد... أي أن متعهداً يكون بالفعل حياً ظاهراً أو مستتراً... لا يخفى عليه ذلك ولو أن خروجها في هذا الحر، بهذه اللهفة... وحدها... أمر محير... مع ذلك... لكل جديد جديد! وارتواء الحياة يبدو واضحاً من عينيها الهانئتين... الباحثتين عن هناء غرفتين... والثمن؟ الثمن مناسب، الغرفتان الهانئتان بثمن مناسب... وحسب مواصفات الطلب... والغالي يرخص!

بدأ يحس بأنه يجب أن يحسم الأمر، ويمارس دوره الخبير، رغم أنه غير متأكد تماما من موقع قدميه كل التأكد، وضع قلما ارتضاه أو يرضاه لنفسه، ومغامرة قد تكون غير محسوبة أو أن حسابها غير مكتمل ولا مريح لحد الآن؛ إذ لا يستطيع أن يفرض شروطه وظروفه... تضعه في وضع الطالب، ويفضل أن يكون في وضع المطلوب... مخاطر المهنة هي هي في كل مهنة تتعلق بزبون، وترتبط بظروف... وحسب الظروف...

ويقف بجانبها رجل! يصل لتوه، كأنما أنزل إنزالاً أو انشقت عنه الأرض... يقف إلى جانبها هانئاً مستأنساً بحاله... كأنما... كأنه كان يرافقها وتخلى عنها... تخلف أو اختلفا في الاتجاه... وتأخر عنها بعض الشيء، لشيء ما، سبب عارض... أو طارئ... أو... السؤال نفسه يبدأ من جديد. الاهتمام نفسه والجدية الكاملة، الرجل بالإلحاح نفسه عما ألحت عليه المرأة قبله... يبدو أقصر منها بعض الشيء ولا حاجة إلى أن يقارنه العسلي بقامته... أقصر وتبدو له عليها دالة واضحة... دالة العشرة في كل الأحوال... نبرات ذلك ونظراته لا تخفى على أحد... وعلى العسلي بالذات... من يكون؟ من يكونان؟ السؤال على الغرفتين المستقلتين وعن الشمس كيف تطل ومتى تغيب... وعن الثمن وأين؟

انبرت المرأة تشرح للرجل ما اكتسبته من معلومات قبله، تشرح له ذلك مرحة كأنها تعلن تفوقاً أو سبقاً، تؤكد له وجود الغرفتين بالشروط المطلوبة... والغالي يرخص! والله العظيم!

ظل العسلي مقطباً مطبقاً... واجهت ملامحه الجامدة المتزمتة الرجل أمام ما تقدمه المرأة من مشجعات مغريات عن الغرفتين والثمن والموقع... وكل شيء... كل شيء... تساءل الرجل إن كان من الممكن زيارة المسكن والمعاينة لإنهاء الموضوع مرة واحدة... ليكن الأقرب إلى هذه النقطة... لا بأس مادام الخيار ممكناً أو إن كان هناك خيار، فالأفضل أقرب غرفتين بالمواصفات المطلوبة على هذه النقطة... هذه النقطة مركز... لم لا؟

ظل العسلي مقطباً في جموده، المرأة ما تزال تسهب في الوصف والتشجيع، والعسلي في صمته وجموده، ثم أدار رأسه في رصانة مبالغ فيها أو مدروسة منه، ليقول إن موقع المسكن بجوار من لا يحتمل نأمة من ضجة... أبداً... أبداً...

ابتسم الرجل ابتسامة رضى واطمئنان، ويبدو أن الكلام صادف هواه. هو بالفعل يبحث عن هذا، وهو المطلوب، من يحدث نأمة أو ضجة؟! هو وزوجه ليس لهما ذرية، لحد الآن... ومعهما أمه الكفيفة وهي لا تثير ضجة ولا تحتملها، ومن أجلها بالذات إحدى الغرفتين... تماماً... هذا مناسب وهو المطلوب لدرجة أن الرجل كان سيشترطه بنفسه لو لم يسمعه، ولو لم يظن أن زوجته قبله ربما تكون قد اشترطته أو تأكدت من وجوده... والثمن؟ تبقى المعاينة والثمن... وهيا...

ظل العسلي في جموده وهدوئه المقطبين... فالمسكن لا يصلح لأم مكفوفة أو غير مكفوفة... ثم إن ثمنه فوق كل احتمال، وصاحبه لا يريد كراءه!

بهتت المرأة وهي تنظر إلى برود العسلي وقامته تزداد استطالته أمامها، ويده تترنح في حركة غريبة حول طربوشه دون أن تنجز شيئاً!

ألم يقل لها؟ بلى. هل قال لها فعلاً؟ ربما، ويكون بذلك قد نسي توصية صاحب المسكن... ألم يقل لها ذلك حقيقة؟ كان إذن قد نسي، والآن يتذكر... أي والله... سبحان من لا ينسى، الآن فقط يتذكر ذلك... والكلام كثير في هذه المهنة، والناس يقولون ثم يتراجعون، ولا يعرف المرء من الباحث بصدق عن كراء حقيقي، ومن هو مجرد مستطلع لاه يضيع وقته ووقتك! وأرباب الأملاك أنفسهم لا يعرف المرء أيهم يعرض ملكه للكراء، وأيهم يستطلع السوق أو يزايد على ورثته أو شركائه! الكلام كثير في هذه المهنة المتعبة... ألم يقل لها كل ذلك... سبحان من لا ينسى!

ـ يعني؟

هو ما قال العسلي، سبحان من لا ينسى!

ظلت المرأة مبهوتة... مشدوهة أمام طلاقة الرجل وبيان لسانه... ظلت مبهوتة أمام ما ترى من موقف، وما هي فيه من موقف، وقد تركز بصرها ببلاهة وفضول على حركات العسلي الطائشة من يده حذو طربوشه... دون شيء... حتى جرها زوجها جراً فانسحبت وراءه، ووجهها ما يزال يلتفت مستطلعاً في فضول باتجاه العسلي!

رنا العسلي إلى الاثنين يغادرانه. المرأة كالمجرورة جنب زوجها، حركاتها تدل على انها لا تطاوع في السير، لا تفهم ما حصل، وأكثر من ذلك غير مصدقة لفرصة تفلت منها بهذه السهولة والغباء... رنا إليهما، يتابعهما يبدو من حركاتهما نشوب معركة كلامية... قد تلوم زوجها على أنه لم يعرف كيف يقتنص الفرصة التي كانت مواتية لمسكن موات، لاشك أنه كذلك سبّبَ أو فعل ما أفسد تدبيرها، لعل الرجل بدوره يلوم المرأة على غبائها، لم تفهم الكلام، وكلام السمسار دائما واضح: تلك مهنته ومهمته. ألم يكن كذلك فيما فهم هو منه؟ إذن العيب في فهمها... يتابع العسلي من موقفه بغير قليل من الغيظ... لتكن معركتهما ما تكن... هو الذي أضاع وقتاً وجهداً... بدت له المرأة غير مفهومة تماماً، وكان عليه أن يناور ليجس نبضها جساً حقيقياً... أما الرجل، بهيئته المنفردة فلا يترك فرصة لأي خيار... فيم يمكن أن تفيده ملامح الرجل المتوترة؟ أيصلح لنقل حديث أو تبليغ أمر أو ربط علاقة؟ لا، بعيد... بعيد... سحنته لا تعطيه نصيباً ولا دوراً لذلك، المرأة بدونه ربما كانت فيها بعض ملامح... لا يهم... لا يهم...

ويتأوح العسلي مزيحاً طربوشه مائلاً على حافة رأسه بنظرة احتياط حوله، ويتخذ مجلسه بالداخل مطمئناً على نفسه.

17

أخخ... أخيراً تأوه العسلي وتأوح... تروَّح وهو يجد الفرصة... كل الفرصة، يزحزح فيها الطربوش مجرد زحزحة يمرر بها منديله على رأسه بحركته الضاغطة على قنته، غير مكترث بمن يمكن أن يراقب من عيون فضولية، وهو في قعر دكانه... حركة سريعة منه على كل حال... وهو مطمئن هانئ.

نصف ساعة... بمثابة قرن كامل من معاناة حساسية مقيتة تخز الإبر تحت حزام الطربوش... لينبت بجانبها زوج...! غرائب... غرائب يا أخي والله، غرائب وعجائب... يا أخي خذ بيدها... خذها من يدها... حاذها... ماشها...! عجائب الزمان والله! عجائب: إما بهرجة رجال ونساء في الأسواق أمام الأنظار، وإما تفريط كامل بتركهن يتسكعن في الأزقة ، أو يتسكعون وراءهن.

أخخ، يا أخي اتركها لحالها، وسر في حالك... والتقيا معاً في المنزل ليلاً، أو كما يحلو لكما وحيثما تحددان! هذه أو تلك... غرائب... يقول أو تقول هي: أم ضريرة... وبلا أطفال... وهو المطلوب... تماماً هو ما يطلبان... والثمن يرخص... الغالي يرخص... أم عمياء وهو... هو العمي الأكبر!

أخخ... كان العسلي فعلاً يغلي... كان ثائراً حقاً لما وقع، ولما يعاني من حساسية. وتحول إلى الفيء من جديد، مرة أخرى يجمع تلابيب جلابته، ليقعد شبه مقرفص يضغط بظهره على الحائط، بما يجعل عضلات ساقيه النحيفتين تستعرضان وتظهران أشد اكتنازاً وصلابة على حافتي كمي سرواله القندريسي... يرتاح إلى حين...

ويملأ عليه فتحة الباب شبح صديق زبون... أهلاً... أهلاً بالأخ العزيز... زارتنا البركة... تفضل... الدنيا بردت ولله الحمد... يسري طربوشه من جديد، لا بأس فالزائر مألوف ولا كلفة بينهما، يسأل صاحبه إن كان يرغب في شرب شيء بارد عدا الماء... مونادا من المقهى القريب... الجيارة وإن كان لا يحبها ولا أصحابها. لا بأس، الماء، الماء، هذا يكفي وخير ما يشرب ويطفئ العطش والحر... هل يطفأ الحريق بالمونادا الملونة المحلاة أم بالماء الخالص؟ كله نار وحرارة، حرارة بني آدم في القيظ يطفئها الماء والماء وحده.

يناول العسلي صاحبه غراف ماء من الخابية الطينية، ويقبل عليه متهللاً غامزاً بطرف عينه:

ـ إيوه، أش عندك؟

18

عندما بدأت الحركة تدب في الدار، دار المخلوفي المعروفة، توقع الناس أن تدب الحركة في الزنقة بكاملها، كالعهد السابق منذ قرابة عقدين من السنوات، إذا كان المخلوفي مقصد أطراف لا يدري أحد من أين تأتي، وإن كان العارفون بأرقام السيارات خصوصاً، ينظرون إلى لوحاتها وهي متراصة متزاحمة على منعرجات الأزقة المجاورة، لينسبوها إلى مدن كثيرة منتشرة عبر البلد، وخارج البلد من أقاصي العالم... حركة ما كان أحد يظن إذ ذاك أنها ستتوقف... وكانوا يعلقون بأن مكانة الرجل الراسخة في ميادين عدة، تجعله مطلوباً لكل استشارة... الرجل كان له مكان في السياسة والمقاومة والوطنية والعسكرية والمال... يقال إنه كان برتبة ونيشان في معارك نابولي في الحرب العالمية، وأن أمواله صفيت بطريقة أو أخرى من قبل المستعمر، وبسبب مساعدته للوطنيين... سجن إذ ذاك وفقد إحدى ساقيه أثناء ذلك أو إبان الحرب... المعلومات متداخلة وبعيدة عن الدقة، ويقال إنه فضل الهناء والقناعة على النحو التي يريد هنا في الدرب والدار البسيطة العائدة لجدوده... لا يبغي من دنياه شيئاً مكتفياً بإيراد منتظم بسيط، يؤول إليه من نشاط ما، لا يؤكده أحد، رضياً بحاله.

بعضهم كان يقول إن ثروته، أو بعضها المتبقي، يوجد خارج البلد، في أوربا مما بعد الحرب... يذهب البعض إلى أنه كنز من كنوز الحرب تركه هناك لدى إمراة تزوجها وأولاد، وهو من هناك يغرف بين الحين والآخر، أو تأتيه إرساليات منتظمة... بعض آخر يقول إن الكنز ليس كذلك حقيقة... بل هو أنقذ شخصية عالمية من موت محقق إبان الحرب مما تسبب في فقد ساقه، وعن طريق مكافأته الكبرى والمستمرة بوصية قانونية، يستطيع أن يعيش عيشة الأغنياء هو وذريته إن كانت له ذرية... لولا أن الرجل متعفف زاهد قنوع يكتفي بالستر وبالقليل.

وعندما كان مخاطب المخلوفي ينظر إلى قدمه المبتورة على ما فوق الركبة متسائلاً، أو غاضباً في حركة أفصح من كل سؤال، كان الرجل بلا مبالاة يقول ضاحكاً رافعاً إحدى عكازتيه إلى السماء: إنه في الجنة إن شاء الله، يبعث قويماً وسيماً بقدمين سليمتين... وفيما عدا ذلك لا يهمه سقط الدنيا من مال أو جاه لا يعيد إليه ظفراً... قلامة ظفر مما فقد... ولو أن السائل ألح وحدد في السؤال وكان له من المكانة ما يسمح له بذلك، ولو ألح وحدد سؤاله عن طبيعة إصابته وفقده ما فقد، لما ظفر بأكثر من ابتسامة هناء عريضة وتكرار عام لقول يحمل كل شيء: الكلام كثير والسكوت أحسن... ثم ينهي بآية أو حديث أو حكمة: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا...» «لا تسألوا عن أشياء...»

في غمرة أحداث كثيرة متداخلة ملتبسة في الأذهان، كان الزوار يزدادون على دار المخلوفي... وكان كثيراً ما يشاهد مع بعض زائريه أمام الباب، أو عند مطلع الزنقة، يودع أو يستقبل... أو يكمل ما لم يكتمل من حديث داخل الدار... الدار، هي نفسها دار الإرث والجدود، لم يتغير فيها إلا تحويلات بسيطة أدمجت بعض الغرف في بعض لتصلح وتتلاءم مع نشاطه وزواره، ولا يملك الناس إلا أن يتحدثوا عن الرجل من خلال ما يرون، من أنه عائد لا محالة على واحد

من اثنين؛ مجاله السياسي العتيد، أو عودته إلى ما يزعم من أملاكه وذريته خارج الوطن...

كان الناس في الدرب مشغولين بدار المخلوفي، كما هم مشغولون بملامح كثيرة حولهم، يمضون بها وقتهم في السمر بين الجيران أو على طاولات اللعب والاستئناس... لذلك سرعان ما تهامسوا بأن ما قدروه كان حقاً صدقاً في مآل المخلوفي...

الناس رغم كل تقولاتهم فوجئوا فعلاً، بعد أن بلغوا حد اليأس في أن يحصل تغيير في دار المخلوفي، بعد أن ظل الرجل محافظاً على سلوكه وحركته وسكونه ومكانته... لا يزيد على وقفته المعهودة مع زواره المقبلين والمرتحلين، أو على جولته القصيرة في الدرب وفي الأزقة المجاورة، والتي كانت تنتهي به دائماً إلى مقهى الجيارة، حيث يحلو له أن يناوش بعض الجالسين بكلمات ضاحكة عابرة مع التحية، وهو واقف على ثلاث... وقلما يقبل الدعوة لتناول شيء... ثم ما يلبث أن يتحرك حيث تطول وقفته حقاً، وبعض الشيء أمام دكان المعلم حمو الجزار، يوصي بشيء لداره، يحمله صبي الجزار أو يحتفظ به هناك لحين قدوم «البنت» من أجله... بنت المخلوفي الذي لم يكن له عقب من زوجته الصالحة خضرة، وإنما هي بنتها بالتربية والتنشئة، ربياها كغيرها فهي تخدمهما وتعتني بهما، بقدر ما هما أيضاً يرعيانها ويفرغان عليها من حبهما ويمحضانها كغيرها فيض حنانهما، حتى يكتب لها أن تخطب أو تخطف منهما على الأصبح، بزواج يجهزانها له كما جهزا غيرها... لتخلفها أخرى في مكانها ومكانتها... وكانت الصالحة خضرة مثلها مثل المخلوفي زوجها، قد اطمأنت إلى سير حياتها على هذا النحو، بعد أن أمضت فترة هامة من عمرها متلهفة على الولد والإنجاب... لم تترك ولياً ولا ضريحا طلباً لذلك دون جدوى... فلم تجد إلا البنات على هذا النحو من الاحتضان، يمتصصن وافر ما يختلج بين جوانحها من رفق حنو وحنان...

أما المعلم حمو الجزار، فكان معتزاً كل الاعتزاز بحظوته لدى المخلوفي... المخلوفي علم لدرب، وعلامة عليه... ومع طبيعة المعلم حمو الميالة للحديث، كان يجدها فرصة ليسأل عن التباسات كثيرة تحيط بكل ما يقال عن المخلوفي... ثم يروي له ما يروج من أجوبة عن كل الأسئلة... أجوبة مضخمة أو مغلطة أو متخيلة... بعيدة عن الصدق والحقيقة في جميع الأحوال... بيد أن ما كان يسمعه المعلم حمو من صاحبه، لم يكن يشفي غليلاً، بل ربما كان يزيد الفضول والتطلع، وإن كان المعلم حمو يتظاهر للغير بانه يفهم الكثير من أمور المخلوفي ولا يبوح...

هكذا... ويأتي الغياب المفاجئ للمخلوفي بدون إعلان سابق أو وداع لأحد... مما بدا وكان الالتباس انقشع عن موضوع الرجل... وكأن بعض التوقعات قد صدقت... تأكد ذلك عندما غابت الصالحة خضرة ومعها البنت بعد أيام معدودة، من غياب المخلوفي... غابت في سيارة فخمة نقلتها إلى حيث لا يدري أحد. وقال البعض، إن الرجل اقتنع أخيراً بأن يعود إلى سالف نشاطه الذي هجره منذ ربع قرن وأنه الآن في مكانة رفيعة... وكان المعلم حمو آخر من يتحدث ويستمع إليه في هذا الموضوع، وقد أضحى دكانه مركز حلقة المتسائلين المستطلعين، بل وأصبح المعلم حكما فيما يختلف فيه القوم من استنتاجات...

وقال المعلم حمو منذ بداية الغياب غير المبرر: إن الرجل كان متضايقاً بالفعل من ضيق الأزقة هنا على زواره وقاصديه... وحين يعترض معترض على هذه الفكرة، بأن هذا لم يكن من طبع الرجل وقد اختار العيش في دربه الأصيل عن عقيدة واقتناع، وعن طبع سمح متواضع، كان يرد بثقة ربما لا يدري هو نفسه مصدرها ولا مبررها قائلاً: إن الرجل أسندت إليه مهام كبيرة... ثم يتساءل مستنكراً بما يراه الوسيلة الوحيدة لإسكاتهم وإخراس فضولهم:

ـ ماذا؟ ألا ينعم الرجل بما تبقى من عمره؟ بما أضاع من عمره؟

فعلاً يخرس القوم، ولكن لهيب الفضول لا ينطفئ من ذواتهم، إنهم يسكنون لمجرد أن المعلم حمو طرح سؤالا يعني أنه لن يزيد معلومة واحدة في الموضوع... يعني أن ينهي الموضوع... فقط... لا غير...لا غير...

صحيح... صحيح... لكن لماذا يتم كل شيء الآن بالذات؟ وبدون وداع أو إخبار سابق؟

حقا إن الناس لأمر عجب... من أعطاهم هذا الحق في حياة الرجل؟ ومن هم منه أو هو منهم عدا كونه ابن دربهم؟

في خضم هذا... وهكذا، كانت الحياة قد دبت في دار المخلوفي، وكأنها زفرة احتضار أخيرة. دبت الحركة لا كما توقع الناس من أنها تجدد وانبعاث... بل إنها أغلقت نهائياً، تماماً، بعد مغادرة الصالحة خضرة... وبيد الصالحة خضرة أدير المفتاح... وعم ذلك الركن من الدرب، كما عم الزنقة بالذات هدوء شامل.

لا أحد يفهم، ولا مجيب من أحد، المعلم حمو وحده ظل يتلقى أسئلة الناس، أسئلة سرعان ما تباعدت وتراخت فتراتها، فلا أحد يحل لغز الرحيل المفاجئ أو يريح نفسه من موضوعه... وسرعان ما ترامت الإشاعات متقاطعة ومتعارضة فيما آل إليه الرجل، أحياناً ترقى به الصورة إلى أعلى حال، وأخرى تنزل به إلى أسفل الدرك... هنا لم يعد المعلم حمو مصدراً لجواب ولا مقصداً بسؤال... كل يجيب نفسه ويسأل ذاته... وحدها جدران الدار فيما يبدو، تكون قد التقطت حقيقة الأمر، ووحدها لن تبوح به.

19

في مقهى الجيارة، تهب نسائم الأخبار، لا أحد يعرف مصدرها أو يبذل جهداً للتحقق منها... المخلوفي شوهد بسيارة فارهة فخمة وسائق... البعض زاره في قصره، في إقامة هي أكبر من قصر! ويؤكد البعض أنه طلق الصالحة خضرة... وتزوج وأنجب... لا بل إنه هاجر إلى أوربا حيث أمواله وأولاده، هناك تزوج من جديد! لا، لا، تزوج هنا في إقامة كالقصر وظل محتفظاً بالصالحة خضرة، زوجة وعشرة... تزوج لمجرد الإنجاب... والصالحة خضرة في مكانها ومكانتها كما كانت دائماً.

يظل الحاج صامتاً... يستمع إلى ما يدور صامتاً في حيرة، فهو أقرب جار على دار المخلوفي... لا يعرف شيئاً عن حقيقة رحيله، ومآله، وحتى الصالحة خضرة، عندما التقى بها، وسألها قبل أن ترحل، لم تزد على أن اغرورقت عيناها بالدموع معبرة عن أنها لا تطيق فراق الدرب والأحبة والجيرة... بل لا تطيق أن تودع أحداً...

عيادي بدوره يتابع ما يسمع... ينتبه إلى ملامح صديقه الحاج التي لا تضيف شيئاً إلى كلام المعلم حمو، ولا إلى رقعة الدومينو، مأخوذاً بشروده...

يبدأ الوقت في مجاوزة العصر، ليقوم المعلم حمو لدكانه، ولكنه قبل أن يستوي قائماً ينظر في عيون المحيطين به مؤكداً حكمته... أن المخلوفي معدن حقيقي... معدن نفيس... من أولاد الدرب المتواضعين الأصلاء، لن ينسى، ولن يطيب له مقام أو عيش إلا هنا... لا في قصر ولا في خيمة خارج هذه البقعة... وهنا بالذات... كلهم يرجعون... كلهم يضيقون بالسكن هنا وبالصحبة والجيرة، لكنهم سرعان ما يعودون... ألم يعد المخلوفي نفسه بعد غيبة سابقة، أم أنهم لا يعتبرون تلك عودة أصلاً؟!

كان ينطق بثقة واضحة المصدر هذه المرة، فهو نفسه، كان من أوائل من غادروا الدرب إلى فساحة الفضاء فيما بين المدن... ثم إلى رحابة الطبيعة بإزاء كاليفورنيا... لم يعرف كيف ينظم وقته ولا نظره ولا حركته هناك، رغم الفضاء والخضرة وزرقة السماء... وما لبث أن عاد إلى شريكه في الدكان القديم... ومكانه الحالي يراجع الشركة ويستأنف مهنته وسكنه كما كان... أم نسي القوم منه ذلك، ولم يعودوا يعتبرونه عائداً؟!

ظل الحاج ساهماً... وقد تجاوزه الدور في رقعة الدومينو، حل محله غيره دون أن يعير ذلك اهتماماً... ظل ساهماً شاعراً بهول الفراغ حوله... بل حولهم جميعاً، فالمخلوفي كان حقاً يملأ الدرب، يمنحه ثقلاً ووزناً ومذاقاً... كان يملأ فراغاً... لا لم يكن ثم فراغ معه إطلاقاً... شعوراً بالأمن كان... وبالحماية... ثم هاهو الفراغ بعده... وقبله كان مثيله أحمد رقيبة مع الفارق... رقيبة الحميم... لن يكون صحيحاً أبداً أنهم يعيشون بعد اليوم على أمل... إنهم يعيشون، تضيق بهم سعة الفراغ حولهم... تغمرهم... تخنقهم أو تكاد... أحياناً كان يبدو مبرراً وإن كان غير مقبول، أن يغادر محتاج للشغل، وطالب رزق، يغادر دون أن يقطع بهم صلة... ها هي ذي الجيارة تغص ببعض ممكن غادروا من أجل ذلك يؤوب بهم المساء... كل المساء تقريباً... يحدثون،

يلعبون ويشاغبون ولا ينفضون إلا للنوم... بعضهم ممن يتعذر عليه ذلك كل مساء أو أي مساء في الأسبوع، موعده المحتوم نهاية الأسبوع، مساء السبت وبعض نهاره... قولتهم فيما بينهم، من لم يظهر في الدرب أو في الجيارة بالذات طيلة أسبوع فقد مات... مات حقاً أو مجازاً...

لا، الأمر الآن يختلف لم يمت أحمد رقيبة... لم يمت المخلوفي... واللائحة تطول... بدأت تطول والأعمار تقصر والأفهام تعجز... ومع كل دار تغلق... مع كل جار يغادر، يتكاثف الفراغ، وسعة الفضاء تضغط على الأنفاس والقلوب...

20

كالملعقة كان إحساسها... فقدت كل شعور بوجودها طوال زيارة السيد تلك، لم تفهم لها معنى من قبل، ولا فهمت لها معنى من بعده بالتأكيد، سمعت بملء ما يمكن من سمع، أمها تتحدث عنها، عن خطبتها مباشرة ومواجهة... عرفت وسمعت أنها تبحث عن مشير وناصح وموجه... وسمعت اسمها بكل وضوح في سياق واضح، بالتأكيد سمعت كل ذلك، لكن ماذا تم من ذلك؟ وماذا لم يتم؟ وكيف فهمت أمها الاستشارة إن كانت حصلت فعلاً، وماذا تنوي أخيراً؟ لماذا لا تكلمها مباشرة، وهي المعنية أولاً وأخيراً؟ وماذا لو استشيرت هي بالذات، نجاة... تسعد أم ترفض؟ تقبل في صمت أم تعارض؟ ترفض حمادي؟ وماذا؟

بعد الزيارة أُغلق باب الموضوع... كان قبل ذلك مغلقاً إلا عليها هي صاحبة الأمر، أما بعد الزيارة، فلم تعد ترى أو تسمع تلميحاً أو عبارة أو إشارة على شدة يقظتها وتفتحها لالتقاط أية نأمة دالة، هل معناه أن القرار تم إيجاباً... قرار أمها على الأقل، يضاف إليه قرار الحاج والد حمادي وحمادي نفسه...

ويضاف آخر الأمر قرار الوالد الغائب، أحمد رقيبة الذي لن يكون مؤثراً في حاله وابتعاده ولا مبالاته الحركة الوحيدة التي لاحظتها نجاة، ولا يمكن ألا تنتبه إليها هي زيارة والدة حمادي، أمي السعدية... زيارة كانت مرتقبة جداً بعد زيارة عمي الحاج، وبعد استشارة سيد السيد، ولد السيد، زيارة جاءت بعد ارتقاب طويل بل بعد قطيعة غير معهودة بين الأسرتين، أو هكذا أحسنت نجاة. بدت لها الفترة أشبه ما تكون بالقطيعة، هي التي كانت تتوقع حركة وزيارات وتقارباً... على دفعات متتابعة ومتصلة منذ افتتاح الموضوع من قبل عمها الحاج، حاولت نجاة أن تسترق السمع والبصر، بيد أن المرأتين كانتا بطريقة عفوية وجد طبيعية فيما يبدو، تحسنان المسارة والتهامس في موضوع حيوي، جد حيوي، تكاد نجاة تجزم بأنها تدفع حياتها ثمناً لمعلومات مؤكدة عنه... محاولات نجاة وهي تقوم بالخدمة، تختلق الأعذار لاقتحام خلوة المرأتين ذهبت أدراج الرياح، لم تكن المرأتان تغيران من وتيرة حديثهما الهامس الدامس، لكنهما لم تكونا تبينان عن مخارج ولا مقاطع... كأنهما تتحدثان بضغط باطني متجه إلى الداخل كمن يتحدث مصراً على أسنانه... وربما تكملان بحركة العين وإيماءة الملامح... أية شفرة عصية؟ ولماذا؟

حديث المودة لا يخفى بين المرأتين، والعلاقة بنت زمان، والصداقة منذ عهد بعيد، وجوار الدرب... إنهما صديقتان زوجتا صديقين...

صداقة زمان، ولا يقلل منها شيء مهما كان... الصداقة... الوفاء... ليسا ثوباً ينضوه الناس بيسر عن جلودهم... إنها الجلد ذاته وما تحت البشرة ذاتها... وأكثر من ذلك... أكثر...

مهما يكن فلا بصيص مما ترجوه نجاة، مما تسترق له وتحتال... لاشيء يند عن صوتي المرأتين... لا حس ولا نأمة تصدر عن صوان معدنهما البارد الصامت، لاشيء يند حتى عن سعدية حماة المستقبل، وهي تقبل مودعة خطيبة

ابنها المفترضة، عروستها وعروسة ابنها العزيز الأعز كما تقضي الأصول، وقبل كل شيء، أين هي الهدايا والتفكرات التي طالما قرعت سمعها وخيالها عن هذه الفترة السعيدة، فترة ما بين الخطبة والروحة... فترة انتظار سعيد من قبل العروس، ملأى بهدايا أهل العريس، فترة تنتقل فيها الفتاة من حيز التهميش إلى أن تصبح مركز اهتمام ومحور كل حركة أو حديث... لماذا إذن هذا الغموض يضاف إليه التجاهل... يضاف إليه الكثير الكثير مما تشعر به نجاة ولا تجد الفرصة للتعبير عنه؟ أتكون في هذا مجرد ساذجة متحركة مستعجلة؟ إذن ينقصها الكثير من الخبرة بالناس والسلوك، وتمنت لو أن زيارة من عمها الحاج تتكرر، فهو على الأقل، جدير بأن يرفع صوته بشيء ما، ثم إن زيارته إن حدثت مرة ثانية فلن تكون زيارة غموض أو فراغ... تتمنى ذلك بحرقة... فصوت أمها نفسه لابد أن يرتفع في شأن ما لتفهم منه نجاة ما يهمها... ما تريد...

راودتها أحلام المتعة والفرحة، متعة فترة الانتظار والاستعداد، تلك التي ما تزال تتشوق إلى معالمها... تراءت خيالات اليقظة والمنام، تلك الخيالات التي ظلت ملجأها من حرقة الغموض والتجاهل... أحلام بهيجة سارة منعشة تناقضها صورة أحلام مضادة... وطيف حمادي ذاته، طيفه الذي تشعر أنه كان مألوفاً في خاطرها وناظرها قبل ما يجري، أصبح بدوره عصياً على الوجدان، لا تلتقط له ملامح في الغمام الغائم الكثيف، لا يحل ولا يرتحل... وتعمل نجاة جاهدة لاستحضاره عله يؤنس، بل يمكنه أن يؤنس فعلاً ويحادث ويحدث، لكنه يأبى إلا أن يتمرد عن إرادتها ورغبتها... تحاول أن تستبعده موضوعاً مادام لا يتمثل صورة ولا يمثل... علها بذلك تريح أو تسريح، فيأبى إلا أن يملأ عليها السمع... لماذا لا يزور فعلاً وعملاً... زيارة حق حقيقية على قدمين؟ لماذا يرفض أن يحل... يرفض أن يرحل؟ أي محنة وإلى متى؟

أحياناً تشعر من شدة الضيق أنها يجب أن تفجر هذه الرمانة لتعرف ماذا

يجري وماذا يدور حولها؟ لو فعلت ذلك ماذا تقول الوالدة سليمة؟ وكيف تستقبل هذا الموقف من نجاة العاقلة المتعلقة؟ نجاة الأنثى الوحيدة في الكون التي تجد الفرصة لمعاينة لحظات وحالات ضعف الوالدة في معاناتها من عقوق الزوج (الوالد) ... فرصة المعاينة تلك، تحس نجاة دائماً أن أمها تتركها لها عمداً، ولا تحدث صدفة... لتتدخل نجاة بعد ذلك مخففة عن والدتها مواسية بغير توضيح للموضوع والقصد طبعاً... نجاة هذه تتعرى مرة واحدة لتشكو أو تظهر التحرق والاحتراق على خبر الزواج...؟! وإزاء من...؟ إزاء سليمة التي لا تشكو أبداً، ولا تفصح أو تتبرم في الظاهر على الأقل... والظاهر هنا هو الأهم والجوهر في الحال والوضع على ما هو عليه. سليمة هذه، لا يمكن أن تقبل من ابنتها، أو لها أن تتهاوى إلى هذا الدرك، متلهفة على العرس والعريس كائناً من كان، مهما كانت الظروف.

في خضم ما هي فيه، لم تكن نجاة تجد لها ملجأ ولا أنيساً... سميرة لا تعيرها سمعا، أبداً... أبداً... وهل تفهم لو حدثتها؟ هل تمسك لسانها؟ وقبل ذلك أين هي وهي المشغولة زعماً بدروسها، بينما هي في انصراف تام إلى أمور أخرى، لو كان لنجاة مزاج لعرفت كيف تعاملها عن صبيانياتها... عزيز... ذاك الذي لا يلمح له ظل... فعلاً لا ظل له، تفكر نجاة في ذلك... ليس له ظل في الدار على الأقل، لأنه لا يتحرك بها نهاراً... النهار... بطوله مغلق على عزيز النائم الغائب عن عالمه بما فيه وما عليه...

لا يبقى أحد إلا الجدران وسليمة... من إذن يستجيب ويجيب؟ لا الجدران ولا سليمة... ومع ذلك من حق نجاة أن تتحدث ومن واجبها ألا تفتح الموضوع مع أحد!

وتبدو الفتاة مرتبكة الحال في حركتها في الدار في شغلها المعتاد، تشعر بذلك من نفسها، وتشعرها به والدتها سليمة... لم تعد في مزاجها المعتاد ولا في

طبعها المألوف ولا تملك ما تفعل، إلا أن تظل مستسلمة غائبة في انتظار شيء... شيء لابد من حدوثه... شيء تبشعر به يقترب دون أن تعرف كنهه، ودون أن تتحمل مجاراة التفكير فيه... من يدري؟ قد يحصل الحدث السعيد؟ من يدري؟ قد ينزل الخبر البهيج.

من... يدري؟

21

جاءت يلفها الغموض وعادت يلفها الغموض. ماذا يريد السيد أن يقول؟ بل ماذا يعني بما قال؟ وأكثر من ذلك، هل كانت الزيارة من أجل ابنتها أم من أجلها هي؟ هذا السؤال لم يكن ليلح مرة أخرى، ويظل ملء الخاطر... شغل البال، لولا أسئلة السيد... وأسئلة اللحظة والجلسة والزيارة والطريق ذاته!

لو كانت الزيارة من أجلها هي، ولنفسها بالذات، لما تأخرت عن موعدها كل تلك السنوات... بل إن رفضها الباطني لأن تعرض حالها على السيد هو ما جعلها تقطع زياراتها التي كانت مألوفة إلى ذلك المقام، دار السيد. الزيارة إذن كانت من أجل نجاة، حاضرها ومستقبلها، ولا يمكن لأحد أن يشككها في ذلك...

صحيح أن في حالها ما يلتقي بحال نجاة ووضعها مع الفارق... على الأقل يلتقيان في حالهما، من حيث ما تبدو عليه نجاة، مثل أمها في قابلية التحمل وهي المتعلقة المؤنسة في الوحشة أمام طيش عزيز وغرة سميرة! ولعل خوفها من أن توافق فتسلم ابنتها إلى غربة، ليس إلا خوفها الحقيقي الباطني من أن تبقى وحيدة تغرق في الوحشة والظلمة...! هو ذا... قد يكون سر إلحاح

الزيارة، وسر توقيتها، والسرعة التي أنجزت بها، أم لا؟ ماذا إذن؟

وهكذا يكون لحاجتها وذاتها دخل وأي دخل في الموضوع... مهما يكن فهذا ليس كل شيء في الموضوع ولا في الحال على عمومه، والسيد عندما يلمح إلى أحوال أخرى وحالات وراء القصد غير نجاة، وعدا موضوع نجاة كما عرضته سليمة، فهو يعني الكثير الكثير، سواء فهمته سليمة أم لم تفهمه، هكذا يتراءى لها كل شيء وهي تستحضر وتتابع...

إن السيد عندما يشير ويلمح إنما يعني حال الزوج الغائب، ذاك الموضوع الذي لم تفتح سليمة به شفتيها لأحد، ولا للسيد... إلا أن يكون قد أدرك من حالها واستبطان لسانها ودموعها... وكل حركتها... إنه كان يقصد إهمال زوج ومعاناة زوجة مستضعفة وحيدة في محنتها... وإنه كان يرمي إلهام سليمة رباطة الجأش والصبر والاحتمال... وإذا كان السيد يفهم ما وراء الإشارة والعبارة، وهو لاشك فاهم مدرك، وهو مطلع كما كان والده وأسلافه قبله، فإنه منذ أول لقاء علم بكل السر وجماع الأسرار والأسباب... كل المحنة مختصرة ومفصلة... قرأ ذلك في صمتها ومن نحيبها... من منطوق كلامهما وما سكتت عنه بإرادة فأفصحت عنه بدونها، أعربت عنه بالإشارة وبالإيماءة وما في عمق الملامح، أبلغت عنه بتلعثم العبارة وزوغان النظرة... وأحاط بكل شيء علمه وإدراكه...

ذاك هو السيد... ذاك موقفه وقدرته كما تحس بها وتعرفها قبل أن تزوره وبعدما زارته... أما وهي أمامه، فكانت بعيدة جداً، مطوح بها حيث لا تدري، فدلفت إلى خلوة السيد يلفها الغموض، وخرجت منها عائدة أدراجها يلفها الغموض وأشد، لماذا لم تفهم الرسالة؟ وكيف تفهم؟ لا شيء لها؟!

التوقع، التطلع لوعة في عيني نجاة، حيرة وقلق ثم لهيب يحرق قلب الأم

بالذات... الأم التي كان دورها أكبر من مجرد إفشاء السر قبل نضوجه، قبل كل شيء وفوقه، كانت أحداث زيارة السيد أغرق في الغموض مما حدث أثناءها.

إذا كانت سليمة لم تفهم شيئاً من استشارة السيد أو استخارته... فهي لم تفهم شيئاً مما جرى لدى مغادرته... وفي طريق عودتها... ما تراءى لها وما عانت منه، ما شاهدت وتراقص واقعاً أمام خطواتها وصوب عينيها حيثما وجهت وتوجهت... شيء يفوق الوصف والتعبير، ولم تعتده في حياتها من قبل... لا في حلم أو يقظة... إلا أن يكون جنوناً... وقد كان كذلك... كذلك حسبته قبل أن تتداركها قدرة ما تردها إلى الصواب، لتدرك من جديد، حيث هي وما حولها كما كانت تدركه من قبل... أمام ذلك، عندما تستعيده سليمة وتحاول أن تفهم، لا تملك إلا أن تقول إن الدافع إلى الزيارة نفسها كان أغرب، دون أن تشعر به على حقيقته أو تملك القدرة على الكشف عنه لنفسها أو لغيرها.

دوامة أفكار وخواطر متضاربة، في مثل هذه الحال، كانت نجاة، طوق نجاة فعلاً من بعض الهموم التي تسمح كرامة الأمومة كما تفهمها سليمة، بالكشف عنها والحديث؛ أما والحال كما هو الآن، فذلك مطمح بعيد، ولا مشارك في الآخر أي غير الوحدة والانكبات، ولم ذات الصدر حتى تفرج من ذاتها الأقدار، أو يطويها الزمان... والنسيان!

22

يا أمة ضحكت...!

يسير وباطنه يلهج... البيت الشهير والمثل السائر الدال على الحال والمآل... ناس تبدو له تائهة ضائعة فاتنة مفتونة... والثالوث الفتاك، عدو الأمة الأكبر والمجتمع... فقر وجهل ومرض، يعيث فساداً في الجسد المنخور، كأنهم أعجاز نخل خاوية، لا ترى لهم من باقية... أي قوم هؤلاء... ورثة من؟ وإلى من ينتسبون؟

يسير وباطنه يضج بالقضايا والمتعارضات، يحمل على كاهله عبء الكون كله ملخصاً في أمة العرب وأمة الإسلام... والثالوث الفتاك جهل وجهل وجهل... يعيث ويعشش ويبيض ويفرخ... والناس... الناس الحقيقيون يغزون الأفلاك والأعماق والأجواء... ورثة من نحن؟ وإلى من ننتسب؟

يسير، باطنه يضج، وخاطره يموج، يذكر تلك العهود الخوالي على فقرها وضنكها وحرقتها... يذكر والله تلك العهود... وهل تمحى؟ كيف؟ يذكرها... أياماً كانت وعهوداً زاهية... العرب كانوا عرباً والإسلام إسلاماً والدنيا

دنيا حقيقية... كان الظلم ظلماً، الاستعمار استعماراً وكان الإيمان والنضال والتضحية... كان المتوقع والمعول أن الأمة بعد ذلك... عرباً وإسلاماً تقفز قفزتها تمحو الفارق، وتعبر إلى ضفة التقدم والتصنيع والعدالة والازدهار... انظر ما حدث من شرق لغرب ومن أقصى غرب لأقصى شرق!

أياماً وعهوداً كانت زاهرة... صرخة ظفر الله المدوية في العالم من أعلى منبر الأمم المتحدة... والجمالي، وعزام... كانت قنابل ومدافع، لا... بل صواريخ بلغة اليوم... العالم كله كان يهتز والقلوب، قلوب الأمة لخطاب حق غاضب من هؤلاء وغيرهم، فيحصل العجب العجاب، والناس إذ ذاك مستضعفون إلا من إيمانهم، مستعبدون مستعمرون إلا في عقيدتهم وتصميمهم... انظر إليهم الآن... انظر إلى امة العرب والإسلام... انظر وقل لي ورثة من وإلى من ينتسبون؟ كلهم طوائف متناحرة، دول متنافرة، نوايا ونيات فقدت طهارتها والنقاء... أغنياء... أعيان... مذاهب شتى وألوان بلا طعم ولا لون... أتباع وأشياع... والعدو الأكبر تخلف وتخلف... انظر وقل لي إلى من ينتسبون؟ ومن هم؟

خواء... خور... وخوار!

يسير يضج بالهموم الكبيرة والمطامح الكسيرة... يسير وحسرته ومرارته، متأبطاً رزمة جرائده العربية والأجنبية يقرؤها ويفهمها على طريقته ليعيدها إلى صاحبها بعد ذلك... ماذا يقرأ؟ ماذا يفهم؟ ترهات خزعبلات... تكرار... لا. أكاذيب ودعايات باهتة صفراء بدون ملح... الصحافة يعرفها... لها كذبها ذلك الكذب الذي هو صدق الصدق لما يراد به من خير عام... من يصرف هذه الغمة اليوم؟ من يفهم منه هذا الكلام؟ صحافة بدون ملح... حتى الأعجمية منها رغم ضخامة المؤسسة والشعار... كل شيء تغير إلى ما لم يكن متوقعاً، بعد القفزة التي صنعت درجاتها من نسيج عقول ووجدان جيل كامل، من أقصى

شرق لأقصى غرب... ذهبت حدة الحرف ووهنت حرارة الكلمة... ماتت ومات فيها الموت... كانت كلمة يطلقها اللسان، تنشرها شفتان... هكذا شفوية... مجرد شفوية فقط، تذيع في الآفاق تضرب النفوس في الأعماق... تسري من سمع لقلب ومن قلب لوعي ليد وساعد وإنسان... هكذا كانت الكلمة، بلا وسيط ولا متوصل عدا الإنسان... كانت تحفز وتحرك، تبني وتهدم، تحيي وتميت، تفعل العجب العجاب...

كلمة شفوية كانت...

أما إذا كتبت، التهبت نوراً وناراً، ذاكية مذكية لكل شيء في كل شيء، لا تبقي ولا تذر على عدو، ومن عدو وخائن... لتنزل برداً وسلاماً على المخلصين الصابرين المكتوين بحرارة إيمانها والمحترقين بالوفاء لمثالها... الكلمة كانت... والحرف كان... بعض أولاد اليوم بذاكرة الماضي قالوها/ تغنوا بها، دون أن يعوا مغزاها ومعناها كما يجب، وكما هو في الأصل... وهم إن كانوا وعوا شيئاً فغيرهم عنه لاه غافل... رغم الترديد والتفكير تغنوا بها وعبروا عنها بحق: الحرف البراق... فقد الحياة!

يا أمة ضحكت من جهلها الأمم! يسير سي إدريس متأبطاً جرائده، صاخبة أفكاره، متضاربة خواطره وحواراته... ماراً على كل ما يعيب: آباء شاردون حائرون غائبون وأمهات، وأطفال بلا رقيب ولا حسيب، «أولاد الشوارع» رحم الله أيامك يا يوسف بك... تلك الأيام المجيدة العظيمة... كان كل حرف فيها... كل حركة وتوجه، رسالة استنهاض لأمة العرب والإسلام، أمة التاريخ وأمه... أين جلال الصوت وصفاء الكلمة يا يوسف بك؟ أين أولياء الجيل، الآباء المربون وأين الدروس العظيمة والأخلاق؟ انظر واسمع... ألفاظ يندى لها الجبين وحركات والأدهى... الأمر والأدهى أن تتدخل لتوجيه صبي أو نهي صبية، ليبصق في وجهك إن لم... أو يسمعك العجب العجاب من

قاموس غريب فاحش... أهذه أمة العرب والإسلام والتاريخ... أم التاريخ؟!

انظر بالله... فتيان وفتيات في الضياع ونساء ورجال في جهل مركب وغفلة... آه...هذا بحر آخر... حريرة أخرى مخلوطة بالعسرية والعياذ بالله! كل ما استوعبو من العالم، ميني جوب... ميني شورت... ميني قفطان... ميني تعليم سريع معلب... قل ميني بشر على ميني ثقافة وميني أخلاق! والفتيان، آه يا شباب العرب والإسلام... الفتيان آفة الآفات... كارثة الكوارث، إلا من رحم ربك... وقليل ما هم... أين هم؟ وآباء في ذهول وشغل فارغ وانشغال بال وهناء حال!

توقع إذن أن يلحقوا بغزاة الأفلاك، انظر وتوقع...

يا أمة ضحكت...

يتوقف سي إدريس أمام المقهى، يلحظ الخواء والخلاء والخور والخوار، كما يتراءى له. الفراغ والهول كل ما يلحظ حوله في كل مكان وحيثما اتجه... وهو في همه وغمه... ينظر حوله متحسراً يجول بطرفه في المقهى يرى ما يرى كل يوم... معارك وهمية، انتصارات أمجاد وهزائم صبيانية... لا، لا، أولى به أن يقول قردية! له أن يقول ذلك، هو الذي عايش جيلاً بصوت ظفر الله وقوة يوسف بك! ماذا يقول مما يرى... هو الذي جاء بيوسف بك من أقصى مشرق لأقصى مغرب... هو الذي جعل الفرجة رسالة وطاف بيوسف بك أرجاء، وخالط أوساطاً، رغم أنف المستعمر وجبروته... كل نأمة كانت رسالة وتضحية ونضالاً... انظر ماذا حل اليوم بالفرجة واللعبة...!

يأخذ مكانه المعتاد، أو بجوار مكانه المعتاد، لا مانع من مجالسة هؤلاء، أو هو مضطر إلى ذلك.... فهو قومه على كل حال، والدرب دربه، والحال حاله مهما يكن، يجالسهم ولكنه ليس منهم، ليس من مستوى وعيهم، يخوضون

معاركهم الوهمية على رقعة الضامنة والدمينو والورق... على التجاري والقماري والخواري... وهلم جراً!

أخذ مقعده في الزحمة المحيطة بالطاولات ما بين لاعبين، ومتفرجين... في النهاية لكل نصيبه؛ فكل جولة تنتهي بفريق رابح وآخر خاسر، فريق يؤدي المتراهن عليه، وفريق يستهلكه بنشوة انتصار... وهناك المتحلقون المتفرجون المتحمسون المحمسون على أطراف المعركة... هؤلاء تكون طلباتهم على حسب المنتصر المنتشي...

طبيعي! للعظمة الفارغة ثمن.

طبيعي! للنصر الوهمي ثمن.

في الغالب، يتعالى الفريق المنتصر عن الإفصاح عن طلباته للنادل، قبل إرضاء المتحلقين والمتحذلقين، فهم جمهور الفرجة ومنشطوها، في الغالب، حسب العرف، يتعالى الفريق المنهزم بدوره عن أن يكون بخيلاً عن جمهور عائق مفتون أيضاً...

في الغالب، وحسب العرف... الكل يستفيد... الكل ينتصر وينهزم...!

يا أمة ضحكت...!

لابد من فترة، يمر فيها سي إدريس على المشهد كله، مشهد القهوة بمن فيها وما فيها، نظرة متمعنة فاحصة، لا يفوتها من التغيير شيء، إن كان هناك تغيير في الوجوه أو الكراسي والطاولات، أو المطلوبات أيضاً وحركة المناول والنادل والشحاذ... لا تغيير أبداً ولن يكون... حتى الوجوه التي يمكن أن تفقد لحظة ما تلبث أن تظهر وافرة، تحركها حسرة لا مبرر لها عن التأخر وما يكون قد فات! وجوه وملامح، ما تكاد تستقر قيعانها على رقعة مقاعد منهكة

حتى تنطلق بلسان اللهفة تسأل عن الوضع كيف هو؟ من ومن؟

يتخذ سي إدريس جلسته المعهودة إلى الطاولة التي اختارها بالقصد أو بالصدفة، فالأمر سيان، ومهما كانت اللعبة الجارية على طاولته، فهي لعبة وهمية وهمية... وإن كان يجد نفسه في الغالب أقرب ما يكون إلى طاولة التجاري... يهمه هذا الحساب والضجة المرتفعة، وربما اعترف لنفسه، أنه لو وجد الفرصة لكان وهم التجاري أقرب إلى دغدغته، لكن في النهاية ليس إلا وهماً كبقية الأوهام، بينما الحياة تجري... العمر يجري... الكون يدور ويتغير... والناس حولنا غزوا عوالم أخرى وأفلاكاً...

يجلس وما يكاد يستوي حتى يفتح صفحة إحدى جرائده متعمداً ألا يسلم، فهو لا يعتبر نفسه مشاركاً لهم، هذا إذا كانوا يستحقون التحية والسلام، كما يفهم هو ذلك... السلام إسلام وتحية وإيمان وعزيمة والتزام... أين هم من ذلك؟

توافق جلوسه مع جولة ناجحة لفريق، ومع إقبال النادل يسأله عن رغبته التي يعرفها جيداً، تتراوح بين قهوة معصرة وقهوة باللبن حسب الظروف، وحسب الوقت بالذات... الوقت كان مناسباً لفنجان قهوة سريعة معصرة... المهم الفنجان القصير الصغير، فهو لا يطيقها في الكؤوس الزجاجية العادية، خلاف القهوة باللبن... والأهم ألا يكون الفنجان مشقوقاً أو مفروماً، لا. لا... أبداً، فهو لم يتساهل أبداً في ذلك ولن... وكأس الماء طبعاً... هكذا هي رغبته البسيطة المضبوطة المنضبطة... ألف... وعرف... وأخلاق ودقة... كلها تجمعت لتجعل من هذا السلوك شخصاً وعادة وحكماً... النادل يعرف ذلك، ويحفظه عن ظهر قلب... إنما هو يستشير زبونه تأدباً ومجاملة وبفعل عادة... في الواقع ومهما كان الظرف الذي يحل فيه سي إدريس على المقهى،

فالنادل يستجيب للطلب مسبقاً قبل انتهاء جولة لمنتصر أو منهزم... والحساب يأتي بعد ذلك عند انتهاء الجولة التي لابد لها من نهاية... وهل يتحمل النادل أن يرى سي إدريس جالساً إلى الطاولة بدون شيء أمامه يشربه...؟ وهل ينتظر منه أن يؤدي ثمن مطلوبه إن كان له ما يؤدي به؟

يفتح جريدته، ينتقل بين أعمدتها، يرشف بين الحين والآخر؛ يعلق بآهة أو تنهيدة أو شتيمة أو دعاء... كأي متتبع متعصب في مباراة أو معركة حية... بل كأي متحلق من المتابعين لما يجري في سوق التجاري أو دوامة الشطرنج والضامة. يعيش ما يقرأ، يحياه بكل جوارحه، أو هو يبعث فيه الحياة، ويندمج في مشاهده مضيفاً إليها من خلق خياله ورغباته...

تطغى الضجة حول الرقعة أحياناً، فتخرج الرجل من عالمه، ليتابع شغب المتبارين، وربما انتشى بعض الشيء إلا أنه لا يلبث أن يعيد نفسه كالمستنكر يرشف من قهوته، حتى ولو كان الفنجان فارغاً...

تنتهي جولة، ترتفع موجة صخب، يتخلف الفريق الخاسر، يتخلى عن موقعه لفريق آخر، تكون الفرصة مواتية ليثير الفريق الخاسر زوبعة من الاحتجاج والاستنكار على طريقة الخصم في اللعب، وعلى ما ارتكب من تجاوزات... واللعنة... اللعنة على الحظ... زوبعة جدل تتداخل فيها الأصوات متباينة الاتجاه، تغطي على افتتاح جولة المتنافسين الجدد في بدايتها، ثم ما تلبث أن تهمد شيئاً فشيئاً، ويتركز الاهتمام على ما يجري في الساحة... الرقعة. هه؟ أيام غريبة وزمن عجيب... عجيب أعجب! من كان يتصور، مجرد تصور أن تؤول الأحوال إلى أن يكون سي ادريس في مجلسه هذا بجرائده ومقالاته، أو أفكاره عن مقالاته على الأصح، وعن السياسة الدولية والمحلية، والناس عنه لاهون منصرفون... وإلى ماذا هم منصرفون؟ وبماذا هم لاهون؟

هه؟ يا أمة ضحكت!

أيام... أيام عز وأمجاد ذهبت، كان مجرد ذكر سي إدريس أو ظهوره وحده في المشهد يقطع كل ما عداه... أهلا بالزعيم! مرحبا بالأستاذ...! تفضل هنا سي ادريس... لا.لا. بل هناك في الصدارة!

سي إدريس، مول المقال؛ وما أدراك ما العلم والاسم واللقب والشرف الكبير...! أيام: نعم، كانوا يسمونه مول المقال وإدريس المقالات... مولاي المقالات... وما شئت من ذلك... لقب وألقاب كان يحملها وما يزال، وما تزال بدورها عبقة الذكرى ندية في السمع والوجدان، كلما نودي بها... لكنها في تلك الأيام... كانت تحمل الكثير الكثير... وما زال يفضلها على غيرها من مناداة التشريف حتى، وإن أبدى استهانة بمحتواها... يشعر حقيقة أنها الآن تسميات فقدت حرارتها على الأقل دون الحديث عن محتواها، أية مقالات؟ مقالات ماذا؟ وعلى من تقرأ زبورك يا داوود! مضى زمن المقالات عندما كانت كلمة الصحافة كلمة... والعمود فيها عمود... والمقال يهز الدنيا، الآن لا مقالات ولا شيء... لاشيء... إلا المعارك الوهمية والناس تضحك... أمة تضحك، بكاملها تضحك على من؟ الكل يضحك... على من؟

همدت ضجة الفرقاء... والمتفرجين... أنفاس المتحمسين مشدودة... ولا يجد مول المقال متفهماً منصتاً لزوبعته الباطنية... كالعادة...

آه، المقالات، مقالاته، ما تزال نسخ منها في جيبه إلى اليوم وعلى الدوام، وهو مستعد ليقرأها على مسمع واع... وهو ما زال يبعثها وسيظل على ذلك بالحماسة نفسها المعهودة، وبالبريد المسجل المضمون كالعادة... يبعثها إلى الجرائد... دون أن تجد طريقها إلى النشر... بعض الجرائد لا يملك حتى شجاعة الرد في شأنها، عجيب! وكأن أحداً لا يقرأ ما يتلقى، وكأن أحداً لا يتلقاها على الإطلاق، رغم أنها لا ترجع إليه بالبريد نفسه، ورغم احتياطاته التي يتخذها

أغلب الأحيان حيث يرسلها مع الإشعار بالتوصل... بذلك أو بدونه لا حركة ولا سكون، ولا حياة لمن تنادي من جرائد!

مرة واحدة يذكر مول المقال، واحدة فقط، تساءل أحدهم حول لغة المقال... قال في جملة غامضة سرعان ما مزق سي إدريس خطابها شذر مذر... جملة غامضة ركيكة مبعككة عن لغة المقال وأسلوبه. وقاحة وخبث رد لا يستحق أن يعتبر رداً... الوقح الخبث يتساءل حول اللغة والأسلوب... كأنما هو في مستوى من اللغة والأسلوب! عجيب! وسيأتي يوم تنشر مقالات سي إدريس تباعاً في سلسلة تهز الدنيا... بل الأمل أكبر... أكبر بكثير في أن تقوم مؤسسة نشر تامة كاملة... مؤسسة صحافة ونشر... مشروعها جاهز في أوراق سي إدريس أو هو جاهز في ذهنه على الأقل ومنذ عهد بعيد...

كالعادة، لابد أن ينتهي مول المقال، سي ادريس إلى أن يجد مستمعاً ما، يجره جراً على الإصغاء... يجب خلق الاهتمام في المستمع... هه؟

فريق رابح وآخر خاسر؟! رابح وخاسر؟! ما معنى ذلك بالله والناس وصلوا للقمر فاتوا القمر! ما معنى ذلك؟!

كان سي إدريس، أيام العز السالفة، يضطر إلى أن يضيف من خياله وبنات خواطره وأمانيه إلى ما عنده من أخبار، حتى يغذي تطلع المستمعين والمستفسرين المتحلقين: ألا يعلمون اليوم ما جرى في مجلس الأمن والأمم المتحدة؟ كان سي إدريس ينظر إلى المتحلقين حوله، المحملقين فيما يبدو لهم أنه يقرأه، ينظر ملياً وهو يلقي عليهم سؤاله ذاك، حتى إذا بلغ الاهتمام منهم غايته، يلقى إذ ذاك ربما عنده، ظفر الله خان، يوجه المسدس إلى صدر شويمين... أي نعم، يهدده ويقول له: إما استقلال المغرب وإما الموت؟! نعم يهدده إما بن يوسف إلى عرشه وإما الموت الأزرق من مسدس لا يرحم؟! نعم بن يوسف! من علق صورة بن يوسف في القمر، من رسم وجه السلطان في القمر؟ من دور وجع القمر للناس

لوحة مرسومة منقوشة بصورة الملك المنفي؟ من جعل الناس يرون سلطانهم في القمر؟ أيام العز تلك كانت، وكل شيء فيها كان رسالة بهدف محدد. من فعل تلك الأعاجيب؟ هو وجماعته، هو بكلمته الشفوية وبما يقرأه على الناس من جرائده ومناشيره، كان يشد انتباه الناس بقوة يتعجب لها من نفسه... ولم يكن إذ ذاك في حالات كثيرة، يدرك الحقيقة والواقع من غيره... هو نفسه لم يكن ليستطيع التمييز بين ما يخلقه وما يقرأه أو يستقيه من واقع... وإذا حدث أن نط متنطع يشكك، فما أسهل أن يسفهه مول المقال_ إن لم يستطع استمالته _ ببديهة حاضرة: كلمة ظفر الله أقوى من مسدس لمن يفهم الكلام ويعقل... كلمة الحق مدفع لا مرد له، إلا أن يستقر في صدر الأعداء والخونة والمترددين المنافقين!

لم يكن حرج يخالجه. صحيح، في البداية، كان لديه بعض تردد فيما يضيفه لأخبار يلتقطها من الجرائد وإذاعة صوت العرب ولندن، لكن النتيجة الإيجابية لإعلامه، وخبره في الجمهور شجعته... جمهور يريد أكثر من الخبز الحافي، يريده مغموساً بالأمنية والأمل والرجاء، يريده مشحوناً بقوة الفعل والحفز، لخطوة مباشرة... أما الآن، فها هي ذي جرائد من أركان العالم تقريباً، باردة باهتة، تشتري اهتمام الناس بأرخص وسيلة، إشهارات استهلاكية وإشارة سطحية وديماغوجياً... هذا هو الفرق... ملح صحافته إذ ذاك بما فيها من شفوي مكتوب... ملحها وملاحتها أنها كانت تخاطب في الناس مثالاً وقيمة وفعلاً... لون صحافة اليوم ومنطقها، منطق عالم تساوت فيهـعن وهمـ كل القضايا كما ارتفعت أو برزت في المقدمة قضايا الاستهلاك المكرر... يتعجب كيف لا تعتري الدوخة من يفتح صحيفة فضاءاتها طيلة السنة والسنوات، إشهار على امتداد الصفحات وأي امتداد... أحياناً يفتح الصحيفة فإذا جاره أو مقابله يترك ما بيده، أي والله، حتى ولو كان ما بيده سلاح قوي في معركة التجاري والخواري، وينصرف عن ذلك لحظة يتأمل بل يقرأ صفحة الجريدة الموالية، أي

عنوان يقرأ؟ وأية قضية هاته التي استطاعت أن تقتنص انتباهه واهتمامه؟ إشهار على امتداد الصفحة!

أي والله، هكذا... وما يلبث المقتنص أن ينتشل نفسه ليعود في لمح البرق إلى معاركه!

فتحاً... مجداً كانت تلك الأيام العزيزة... عندما اكتشف مول المقال أنه أكثر من لسان... أكثر من جريدة... وأكثر بكثير من بائع جرائد متنقل، كان في الواقع، وكما فهم ذلك سريعاً، وكالة أخبار متنقلة ساعية بقدمين إلى مستهلك الخبر... ثم هو كان مذيعاً وصحفياً معلقاً على ما ينقل وخطيباً... كان صاحب قضية... صاحب حق... وهذا يملؤه شعوراً بالاعتزاز والانتماء... أصبح بحق يجد نفسه صانع خبر ومنبعه وموزعه... هو نفسه لم يعد يهتم بأن يميز بين حدود الخبر والإضافة... لا يهم، الهدف واحد من كل ذلك، الهدف سام والغاية نبيلة شريفة، يجب خلق الوعي ونشره... والناس تفتتن بالخبز المغموس في الأمل والتحدي... تتغذى به وتتنفس... هكذا فهم... هكذا كرر في نفسه على الدوام، وما يزال على ذلك...

وهناك بالطبع مقالاته... تلك التي يلقب بها... مول المقال... مقالات لم يقيض لها أن تنشر لا في مرحلة الاستعمار ولا في مرحلة الاستقلال... إلى اليوم... لكنه فخور بذلك، وما يزال ينتظر اليوم الموعود... يوم النشر... قالوا أسلوب الكتابة...! لغة المقال...! كلام خبيث... يتجرأ منهم من يقول شيئاً عن لغته وأسلوبه؟! أيهم يستطيع كتابة ما يكتب... وفي رأيه الصريح، وهو المحترف لمهنة الخبر، هل تقف لغة أو أسلوب مهما كان، وكيفما كانـعلى فرض أنه يناقض سيبويه ويجافي الجاحظـ أمام محتوى جيد، أمام خبر وتحليل، أمام تحليل واقع!؟

وما يزال عنوان المقال والمقالات هو نفسه العنوان العتيد الأثير لديه: وقائع وحقائق! الفكرة الدقيقة اهتدى إليها من زعيم وطني كتب في مقال له يفند أكاذيب الاستعمار، وفي تحليله كان يؤكد على التمييز بين واقع وحقيقة! من يستطيع أن ينفذ إلى مثل هذه الدقة اليوم... ومنذ ذلك الحين أصبح هذا التمييز شعاراً له فيما كتب ويكتب... وينتظر يوم النشر، لتهز مقالاته الدنيا، يعري ويشرِّح ويلتمع حد حرفه لمعان السيف ويمضي مضاءه...

ما يزال العنوان العتيد الأثير صالحاً، وهو يمارس بين الحين والآخر تعديلات وإغضافات جزئية على النصوص، يساير بها المستجدات لكن الجوهر والمحتوى يظل هو هو!

وهذا يشجعه كثيراً... يعرف بحدس الصحافي وخبرة السياسي أنه على صواب، وأن ما يقال... قيل مرة واحدة في الواقع، مرة واحدة تعتبر استثناء مقصوداً، قيل شيء عن لغة المقال وأسلوبه... كلام... تهرب... تسايس وكيد وخبث... ذلك لا يوئسه، بل يدفعه إلى إصرار...

يتذكر مول المقال، ظروفاً مر بها أيام الاستعمار، هذه الأيام التي كانت معلمه الوحيد ومنشئه وستظل... يتذكر كثيراً من اليائسين الموئسين... بعضهم شكك في قدرتهـ وقدرة الوطنيينـ على قلب الموازين... بعضهم كان يستهزئ: أأنت... أنت منهم... وقائدهم؟ ازّانت للا وزادها نور الحمام! والله هكذا سمعها بأذنيه... نور الحمام وزين للا...

لم يكن قد أصبح بعد معروفاً بمقالاته... كان في بداية الطريق الطويل الشاق... الطريق السعيد بمفاجآته وأحلامه... في كل وقت تنتظر مفاجأة تسعد بها وتحفزك إلى الفعل! من يفهم هذا اليوم؟

لم يأت شيء عفواً... أبداً... أبداً... ولن يأتي، هكذا تعلم هكذا يريد أن

يعلم لو أتيحت له الفرصة، لكن من يريد ذلك اليوم؟ من يريد أن يتعلم أو يشعر بأنه في حاجة إلى ذلك؟!

أبداً... أبداً... لا يأتي شيء عفواً... أيام العز تلك لم تأت عفواً؛ كما لم يأت هو نفسه هو أيضاً عفواً أو طوعاً على الإطلاق... أيام صنعها الناس ـ نستغفر الله ـ بأيديهم وأسنانهم، بالأظافر والأنياب ومول المقال بالذات، سي إدريس العتيد، صنعها بكل جارحة ونبض عرق فيه... صنعها صنعاً، من كان يصدق أن المتشرد الطفل الممزق يصبح فعلاً ما أصبح في أيام العز تلك وإلى اليوم...؟ مشرد تائه، دفعته الظروف ذات يوم... ذات صباح ليتأمل المتهافتين على الجرائد في شارع المحطة... أطفال يتجاذبون الرزم وينطلقون بها كالخطاطيف صائحين متسابقين... ظل المتشرد اليافع الضائع، يتأمل المشهد بنفس نزاعة إلى المغامرة فزعة منها... أي والله كانت تبدو مغامرة.

وامتدت يده مع الأيدي المتخاطفة... لكن الموزع توقف عند ملامحه ليسأله من هو... ورقمه... وجه جديد، صوت جديد ويد... خطف جديد... لا بأس... سأله عن اسمه وأجاب بلسان لا يدري كيف تلوى في حلقه قائلاً إن اسمه إدريس... لم كذب؟ وبسهولة وبداهة كأنه يتخفى على مجرم أو يتستر عن نسب مجيد؟! سجل الرجل ما سمع ونطق برقم وأشار إلى الصبي ليتناول الجرائد وينطلق بها في الشوارع كالخطاف صائحاً: لافيجي... ماروك بريس... من كان يصدق أنه ولد فعلاً من تلك اللحظة ليصبح إدريس ومول المقال... أي والله، من تلك اللحظة بالذات... ولد نفسه بنفسه، وأعطى لنفسه اسماً وحرفة وحاضراً ومستقبلا...

لحظة هي، تلك التي ولدت به وولد بها، مرة أخرى على نفس الطريق... لا... بل على طريق آخر يلتقي بغيره، كان يقفز بحاسة الخطاف ولم يبق تحت

إبطه إلا نسخ معدودات من جرائده... حين اصطدم في الركن بكيان مندفع بقوة ريح عاتية، فتناثرت الجرائد... جرائد الشاب المندفع الذي ما لبث أن تمالك نفسه ما بين الجري والسقوط، تتنازعه النَّفْسُ ما بين التقاط الصحف المنتثرة أرضاً والإفلات بجلده من مطارده... نظرات حادة تشع بريقاً لا ينسى... ينظر الشاب إلى الأرض والسماء، ويشع من كيان الشاب آمر قوي: اجمع الجرائد، اخزنها خبئها. وصِّلها للفقيه في جامع الشلوح... جامع الشلوح... لا تنس...

تلفت الشاب مرتين بين الأمر والرجاء في شبه أمر، في شبه رجاء... قبل أن يسلم نفسه لقوة كالريح تطير به مرة ثانية... لم يضع إدريس لحظة... كانت جرائد غريبة في رسمها وخطها عما ألف أن يبيع... دسها مطوية بين مطويات جرائده المعتادة... ولم تمض لحظة حتى مرت بجانبه زوبعة من رجال الشرطة تطارد الهارب، وتقتفي أثره... ولم تمض لحظة أخرى حتى كانت كوكبة ثانية من الاتجاه المعاكس، تعود به مغلول اليدين إلى الخلف بعد أن اعترضته، ويقاد بوحشية يتعالى معها لُهاثهم من أثر ما تكبدوه من جهد المطاردة، مروا به قرب إدريس، فرفع الشاب بصره نحوه... عيناه براقتان حادتا النظرة، تحيط بهما آثار اللكمات ملؤهما الأمر والرجاء... الفقيه... جامع الشلوح...

لحظة خلق جديد وميلاد كانت، عرف فيها إدريس الجرائد الوطنية، ومعنى أن يكون لك دور وقضية، وأن تحمل أسراراً بثقل الجبال.

من تلك اللحظة، اقترن إدريس بالمقالات الوطنية... تربى فيها وترعرع، يطوف بالجرائد في سرعة الخطاف بأرجاء المدينة وبين محطة وأخرى، يستمع إلى قارئ أو يطلب من يقرأ له عموداً هنا وهناك... فقيه جامع الشلوح، تطوع بتعليمه سحر الحرف ورمز الخط... كل مساء؛ وبسرعة الخطاف يتعلم القراءة والكتابة والحساب... بجهد خارق وحذق استطاع أن يتقدم في اقتناص الرموز

وأسرارها... تسع سنوات استوى فيها إدريس شاباً متمرساً، عرف السجن وازرقت دائرتا عينيه بآثار اللكم والرفس والثبات على العهد وحفظ السر...

وحذق أكثر ما حذق، قراءة الأخبار للناس وعلى الناس... وقائع وعجائب، كانت أولى مقالاته ضد الظلم، صححها معه الفقيه رحمه الله، وشجعه على نشرها باسم مستعار، لم يطق إدريس ذلك، لكن الفقيه أصر، ولم يفد في إقناعه أن اسم إدريس أيضاً غير حقيقي بدوره... وعندما قرأ إدريس مقاله منشوراً على عمود ونصف أبيض مع عبارة حذفته الرقابة... لم يصدّق عينيه ولا عقله... لم يصدق أنه يقف على رجلين ويقرأ بعينين ولسان وشفتين! تحسر فقط على أنه لم يوقع بأسم من أسمائه، رغم أن كلمة لم تنشر مما كتب، ولا أشير إلى الكاتب... لكنه يقرأ بوضوح وفهم وإدراك ما يكفي: «مقال بعنوان وقائع وحقائق؛ حذفته الرقابة!» ويمر بعينيه على العمود الأبيض ونصف العمود بعد ذلك، وهو يتهجى البياض المنظم، يقرأ عباراته النارية ويرى نقطها وتعريجاتها ألسنة لاهبة ملتهبة. لحظة نشوة وامتلاء وميلاد كانت، وظل فقط يحمل حسرة التغييب لاسم ومضمون مقالاته، إلى عتبة الشيخوخة المداهمة في زمن عجيب عجيب... لم تعد معه المقالات تنشر جزئياً أو كلياً أو يشار إلى عنوانها وحذف الرقابة لها مع بياض يزين عموداً ونصف عمود، ويفسح الخيال والوعي لتركيب ما حذف، وتقدير قيمته وصاحبه... كان زمنا حقًّا، وكانت أياماً... لا زمن أمة ضحكت... وتضحك وتلعب وتنتصر وتنهزم على رقعة وهمية... وهماً في وهم... وهو هنا... تحت إبطه جرائده... هامدة باردة... لم يعد خطافاً ولم تعد تستحق الاختطاف... باردة هامدة يقرؤها بفعل العادة، تثير فيه قشعريرة تستدعي العطاس... ينشر الصفحات أمام عينيه ويقرأ لنفسه، فلا يجد روحاً لما يقرأ ولا يشعر بإلهام لحركة أو سلوك، ولا بما يثير تحفيزاً أو إثارة، ولا فكرة مبتدعة من معاناة، مستخلصة من حمأة الواقع وحرارة الحقيقة... عصر الذهب

كان، ولى وفات... ولم يبق منه إلا ذكر وذكرى باهتة من سي إدريس ومول المقالات، ومول المقال وسي بومقال بامقال... عصر تعددت فيه صفحات وسمات وأبعاد... والناس الآن تقضي واقفة على السطح، تولد وتمضي بلا أثر... راغبة في ذلك راضية به، هانئة...!

وهنيئاً.

23

كالعادة، لابد أن يجد سي إدريس مستمتعاً... يخلقه خلقاً، يخلق الاهتمام في الناس، كيفْ تخاطب من لا يهتم؟ تكون كمن يرمي في البحر أو في الفضاء. لابد قبل البذر والحرث من تهييئ التربة... هكذا تعلم... والصبْر... الصبر... الصبر.

مهمته كما يشعر بها أبدية، نذر لها نفسه لأنه في الحقيقة، لم يكن ينتظر أن تنتهي مرحلة الوطنية والنضال ضد الاستعمار... كأنه في الواقع شعر بفراغ بعد ذلك... لا، الواقع أن جيل اليوم والآن هو ما يشعر بالفراغ... فراغ من؟ فراغهم هم بالذات وقبل كل شيء.

وما معنى أن يمر سي مول المقال على كشك الجرائد ـ تصور أن الجرائد أصبحت تباع في أكشاك ومكاتب قارة ولم تعد تخطف حارة دافئة من ينبوع الفرن أو جوف البركان إلى قلب القارئ، يحملها خطاف يكتوي بها لسانه ويده وجوانحه ـ ليأخذ زاده من الصحف ينتقي منها ويختار من بينها ما يروقه، مهمهماً معلقاً، منتقداً لاعناً... ثم ينظر إلى البائع الذي يدرك أن بامقال قد

تزود بما يرضيه، وأن جرائده ستُعاد إليه نظيفة مصونة، نالت قراءتها ورفقتها لمن يعرف حقاً حدة الحرف، وشرف الكلمة... ما معنى ذلك كله، إن لم يكن من أجل إيقاظ العالم الناعس؟

وشرف أي كشك... أي بائع صحف أن ينتصب مول المقال، سي إدريس العتيد بالزيارة المعتادة، وبالمعاملة تلك! من يتحدث عن دفع مقدم أو مؤخر؟! الصحافة رسالة قبل كل شيء، حتى ولو كانت مجرد بيع للصحف، خاصة عندما يتعلق الأمر بزبون متميز... ممتاز... زبون؟ لا، بل هو معلمهم جميعاً وقيدومهم جميعاً...

تشتد همهمة سي إدريس، وهو يتابع ما يقرأ، مثيراً حركات بملامح الوجه وبالكتفين... بل إنه كان يصيب بحركة كتفيه جاره عن قصد... يعرف أنه خارج لتوه من هزيمة الساحة التجارية... هزيمة وهمية طبعاً كالانتصار، هزة الكتفين وحركات المرفقين تصيب الجار المقصود، بعفوية مقصودة مدروسة...! ها هو ذا الجار ونظرته تتحول عن رقعة الورق إلى متابعة سي إدريس الذي يجود بنظرة... نصف نظرة على صاحبه غامزاً له أن رأيت؟! ... ثم يتابع قراءة جريدته أو النظر فيها على الأصح... ليعاود الكرة... والآن يبدأ التوضيح والتفصيح. وتتلاقى ما بين الهمس والتصنت، همس القارئ وتنصت المستمع أحداث وأحداث في المشارق والمغارب، وما بين الكواكب والمجرات... مشاريع ومؤامرات... حكومة تذهب وأخرى تجيئ... هنا وهناك... والناس غزو الكون من أقصاه إلى أقصاه... وأمة العرب والإسلام كأنها بنت كون آخر، لا يعنيها أمر ولا غيره... ليتقدم وليتأخر من يشاء. انظر حولك وانتبه. لست بحاجة إلى بذل مجهود كبير لترى ما يجب أن ترى... وترتقي من الواقع إلى الحقيقة... هذا كل شيء... وهنا الفارق... خلق يعيش في الواقع وقائع لا يتحكم فيها وإنما تدور به كما تشاء... وخلق آخر... خلق التقدم والاكتشاف

والاختراع يعيش الحقائق... يصنعها صنعاً... فلا شيء... لا شيء أبداً يأتي عفواً... أبداً.

مرة بعد أخرى، يتوقف سي إدريس، متأففاً مما يقول، من محتوى ما يقول، كأنه يقوله وهو كاره، عيناه تحررتا من سطو الجريدة وباله، فالفكرة الآن أسلست له القياد، ووجدانه وخياله يعملان بلسان فصيح... وهنا حقًّا تكون قد حلت تلك الدرجة من الوجد والوجدان التي لا يعود فيها بامقال يميز بين ما يقرأ الآن، وما قرأ منذ عقد أو عقود وما سمع أو اخترع...

مرة بعد أخرى، في توقفاته وتأففاته، يجود سي إدريس على مستمعه ـ أو ضحيته ـ بجملة أو عبارة مشجعة تنسب إليه خصلة رفيعة أو سمة مميزة ممتازة، يستثني بها سامعه مما ينطبق على الآخرين... إنه معلم قبل كل شيء، وخبير يعرف أن الاحتفاظ بالاهتمام أصعب من خلقه في الشخص، لذلك فالرش بالمديح مرة بعد أخرى يجدد النشاط، يساعد ويسعف المستمع، فإذا هو مؤيد بحركة الرأس وربما يصبح مبادراً مسابقاً إلى الفكرة يتلقفها من ذهن بامقال قبل أن ينطق بها؟

هو ذا شغل الخبر والإخبار، والعلم والإعلام!

هي ذي حرارة الحرف التي تحرق منطوقة أو مكتوبة أو مضمرة في حلق أو على بياض منعت سواده الرقابة... من يستطيع اليوم أن يقرأ بياضاً بتلك الروح... والكلمة روح... بل من يستطيع أن يكتب البياض؟!

بين الحين والآخر، لابد أن تصدر عن بؤبؤ السامع غيبوبة شرود في متاهات سي إدريس المقالات، الذي يحسن قراءة كل شيء ويحس بكل شيء، ولا فكاك لأسيره فهو يمكن في اللحظة المناسبة أن يستعين بيده، يجذب سامعه إلى المتابعة، ويجدد نشاطه بعبارة مادحة.

هكذا يجر المستمع بفيض التحليل والاستطراد إلى ساحة قيم رحيبة فسيحة، وينهمك مع محدثه في معارك محلية وحروب دولية وكونية، ومرة بعد أخرى أيضاً، يطلق بامقال سؤالا قصيراً مفاجئاً على محدثه، كأنه يقرص به ذهنه، ثم يمضي يجيب بنفسه على ما سأل عنه...

ينظر مول المقال حواليه في هيئة متأفف مما حوله، حركة تدل على أن ما يجري من ضجة لا يسمح بحديث جدي مسؤول... أو أن موضوع الحديث أهم وأسمى من أن يتحدث فيه على هذا النحو، في هذا الجو المزعج... هنا يومئ سي إدريس على صاحبه، لينتقلا إلى ركن آخر... يومئ ويقوم ليتبعه صاحبه كالمنوَّم؛ ويد تمسك بمعصمه خشية الإفلات.

ينتحي مول المقال ركناً قصياً بقدر الإمكان، مقدماً له كرسياً بجانبه، إنَّها الآن حظوة الرفقة والصحبة والامتياز. تحضر القهوة وأي مطلوب آخر، بإيماءة معروفة آمرة يتلقاها نادل عجوز نشيط...

الآن في عبارة سلسلة سائغة، وبرائق بال، ينعم سي إدريس المقال بصاحبه أو صيده... ربما الآخر كذلك سعيد هانئ حسب درجة النضج والإنضاج، وربما يكون مجرد محتمل صبور... وتنساب الأخبار والتعاليق من أقصى الكون إلى أقصاه... بعضها مكرر وبعضها تجود به القريحة بنت اللحظة... عالم يبدو منخوراً خاوياً...

انظر حولك... اسمع وانظر واقرأ... وتساءل: أين الضمير؟

24

تربعت الرحمونية وأمامها الصحون والصواني، وبدأت الفتيات تقبلن الواحدة تلو الأخرى... بهيجة... سعاد... آمال... ينفضن عنهُن تعب الليلة، يسرحن شعورهن بأُصابعهم، نديات الوجنات بما داعبن من ماء الصباح فاتراً أو بارداً... قبل حمامهن الكامل مع زينة الخروج لمن يقتضي منها الحال ذلك منهن.

كالأم الرؤوم، كانت المرأة توزع على فتياتها من خيرات الصحون والموائد كل حسب هواها... تشجعهن على المزيد... تسألهن عن ليلتهن السابقة وما عندهن من جديد... كانت ليلة عرض للملابس أغلبها من صنع أيديهن، عرض مشترك مع آخرين... لا بأس. هذه طريقة جديدة بالنسبة لما كانت تعهده الرحمونية سابقاً... كل زمان له حاله ومقاله، كل زمان له نساؤه ورجاله... الفكرة كلها منهن... ترددت الرحمونية في البداية... لكنها الآن أدركت أهمية ذلك دون أن يمس في شيء بطريقتها المعروفة في التعامل مع القماشين والخياطين وباعة الملابس الأهلية النسوية... تسألهن فتتسابق في الحديث والوصف الشيق، في انتظار الصور... والأهم الأهم، السلامة... تحمد

الله على سلامتهن، فرغم جرأتها وخبرتها، ما تزال تتخوف على الفتاة ـ أي فتاة ـ من أن تغشى مكاناً عامّاً... بل خاصاً في عموميته: فتيات في سن الزهور يعرضن ما عليهن من تحف القفاطين والجلابات... في أتم زينة بين رجال شباب ونساء! تحمد الله على سلامتهن... المرأة ـ كما ترى ـ خيرها في أن تعود إلى بيتها سالمة... تنصحهن وتعيد أن يتجنبن الشغب وأهله من أي طرف كان... ذكراً أو أنثى... الخسارة مع السلامة ربح وأي ربح... والوجه الوجه... على الفتاة منهن أن تحمي وجهها أولا وقبل كل شيء... أولاً وأخيراً. الوجه... الوجه! والهرب تمام المروءة والعقل في الأوقات الحرجة والمنذرة... الوجه رأس مال الفتاة، رغم إيمانها العميق بأن كل زرع له كياله...! وجوه كثيرة صبوحة وأخرى أقل بكثير، تعلمت الصناعة على يد الرحمونية، وخدمت هنا حتى تزوجت... عشرات منهن زوجات وأمهات في درب السلطان والمدينة القديمة وفي مدن أخرى... مع ذلك الوجه راس مال... رغم أنها فوجئت أحياناً بمن يتزوجن قبل من هي أجمل منهن... ولها تفسير وفهم لذلك... ليت الفتيات تدركن حكمة ذلك!

إذن كان العرض جيداً والطلبات أيضاً... سترى المبيعات... كل فتاة تعرف قيمة ما قدمت من قطع، وغن كانت المعلمة الدلالة العارضة ستهاود في الأثمان... رغم كل شيء تفضل الرحمونية طريقتها في التعامل مع الأسواق مباشرة، مع دكاكين الخياطين والقماشين... ربح قد يكون أقل، لكنه مستور وهو الأهم... لكن ما العمل؟ الفتيات تفضلن الظهور والفضائح... لا بأس من تجربة كل شيء، والمهم الأهم أن الطريقة المعهودة هي الأساس...

كانت فترة الإفطار الأخيرة هذه، فترة حديث وتوجيه واستعلام، تقول بهيجة إن أحدهم طرح عليها العمل معه، بل ضايقها وأنهى إليها أنه مبعوث من طرف العسلي... ويبدو لها أنه ملح وأنها ستصل معه إلى مشكلة... حتى

في السوق، تابعها أكثر من مرة وهي تنصرف من عند الخياط... واضطرت إلى أن ترجع أدراجها إلى حيث كانت كي تبحث عن نصير قبل أن يتركها...! والواقع أنها أحست بخطواتها تتعثر في العرض، عندما التقت بنظراته الوقحة المستفزة... لولا لطف الله... كانت ستسقط أمام الأنظار... يعرض العمل مع العسلي... يغريها بأجر مضاعف! ... عن عمل مجز وشريف نظيف!

كانت الرحمونية تتابع وتستوعب الموقف، تعرف كيف تتصل بصاحبه، تكنيه القطراني لا العسلي... ذلك النذل الكبير... ومن أعاجيب الزمان أن ينافس الرجال النساء... إذا عد العسلي منهم... نذل وجبان... كله رذائل متراكمة متجمعة متحركة على قدمين... إنه في الواقع، تعجز الكلمات... ولا داعي للاشتغال بموضوعه فهو دنس ويدنس كل مقترب منه. عمل شريف نظيف معه؟ إنه ينبش في أسرار الناس وخباياهم... وأكثر... مثله لا يستحق... ستتولى موضوعه... لديها من يتولى موضوعه، وإذا كان له من شغل، فليتجنب بناتها... لابد من إيقافه عند حده.

لا تملك المرأة المجربة إلا أن تتحسر على أنها لا تستطيع أن تكون مكان كل فتاة من فتياتها... هي واثقة من نجاعة ردها على من يتجاسر عليها، لكن الحاضر أن البنات في سنهن، كل ضجة حولهن تجعلهن ظالمات، رغم أن الجاني والجناية في وضح النهار... والقطراني لها معه شأن، تعرف مقصوده من العمل الشريف المزعوم... يتاجر في فضائح الناس... يبيع فضائح بعض لبعض... وأكثر...

المهم أن تكون الفتيات جميعاً يقظات متضافرات. مظهر القصد والجدية هو أحسن حماية للفتاة... العرض الحي كما تقول هو فضيحة لهن فوق اللازم، وسوق الدلالة وهو أسبوعي أهم في مردوده، وبدون تماطل أو تراخ...

تقول آمال وكأنها أدركت حكمة هامة من خبرتها القصيرة بالمعارض، إن أغلب من يتقدمون للفتاة عن طريق المعارض، لا يطلبون زواجاً حقيقياً... فهم إما باحثون عن فتيات لعروض مماثلة... أو أنهم مدفوعون بدافع لهو... تعرف صديقات استجبن لأول دعوة، فخاب أملهن... أمل كان حلماً عريضاً في الشهرة السريعة والمال الوفير.

نظرت الرحمونية نظرة استحسان إلى آمال، وأكدت لهن أن الزواج يجب أن يكون هدف الفتاة... شريطة ألا تسقط الفتاة على صفحة وجهها من أول إشارة... لابد من التمهل والاستشارة ولابد من الممانعة... في هذا الموضوع بالذات، يجب أن تكون المعنية بالأمر، الفتاة، حاسمة لا مترددة ولا متخوفة... لهجة الممانعة المطلقة مع الاعتداء ورفع الهامة، وإظهار أن أمرها يرتبط بأهلها وأوليائها... هذا وحده ما يجعل المتقدم الخاطب جديًا فيما يريد وأشد رغبة، إن كان صادقاً، وإلا...

تؤكد لهن أنها ولية أمرهن، وعندما يؤول الأمر إليها، عندما تصل الأمور إلى هذه النقطة، فنظرتها إلى الرجال صائبة... وهي إلى اليوم لم تخب في زواج واحد مما تم على يدها منذ ربع قرن ويزيد... عشرات العشرات وفدن عليها لا يعرفن كيف يقعدن... منهن من خطتهن بيدها بعد أن أكملت رضاعهن... هي الآن أمهات مستقرات هانئات... حديثها إليهن شبه معاد، لكن دورها كما تراه، يقتضي ذلك ... ليتها تستطيع أن تنقل إليهن خبرتها الطويلة بالأسواق والرجال وسائر البشر... باب الرزق المحدود... باب الكفاف والعفاف ما يزال مفتوحاً ويظل دائماً كذلك... وأمهن الرحمونية لا تبخل عليهن بشيء... على العاقلة أن تزن الأمور، وكلهن عاقلات ويجب أن يكن كذلك... آمال بالخصوص يا ابنتي، تمسكي بما قلت وبما هو فيك معهود، أنت بالذات... السعي وراء ضربة الحظ السحرية التي تغني مرة واحدة... بعيد جداً، أقرب إلى

الحلم... بل هو حلم كبير... وقليل دائم خير من كثير وفير مقطوع، أو محفوف بالمخاطر.

سعاد تبدو محظوظة، وراءها خاطب يبدو جاداً، والرحمونية في طريقها لمعرفة كل شيء عنه... إنما على الفتاة أن تلتزم الحكمة والنصيحة. عملها وشغلها صناعة يديها يجب ألا تذهب هدراً، كل شيء يجب أن يرتب ويُوضَّح منذ البداية... أمها الرحمونية ستوضح ذلك عندما يستقر رأيها، سعاد أنامل الذهب... أكرمها الله بأنامل ساحرة بأصابع من ذهب... كل ما تطرزه أو تخرمه ذهب في ذهب... هل يضيع ذلك كله بين جدران أربعة وتحت سلطة رجل؟ كل شيء سيتضح ويتوضح في حينه... إنما على الفتاة ألا تظهر التعلق الصبياني قبل الأوان... من يدري، قد تكتشف خُلّة ما أو شيئاً مما لا يرضي في الطالب الراغب الخاطب... حينئذ يصعب التراجع... يا ابنتي لا تعوّدي أحداً على مرافقة ولو لدكان الخياط أو سوق الدلالة... لا تعوّدي أحداً على موقف مستمر على انفراد، بدون مبرر من بيع وشراء أو ارتباط حقيقي كامل... كل رفقة بدون مبرر مع أحد مهما كان، تنقص ولا تزيد أبداً من الرغْبة فيها من المرافق نفسه، وبالأخص من غيره إذ تبين أن الأول كان عابثاً أو قاصداً للعبث... هل تستعملين بعد ذلك برّاحاً، يصم آذان الناس بأنك شريفة، وأن شيئاً لم يكن بينك وبين أحد؟ من يسمع؟ ومن يصدق؟ وما الفائدة؟

تؤكد الرحمونية وتعيد. كلامها موجه إلى سعاد بالذات، تدل على ذلك حركة عينيها التي تجول ثم تعود للتركيز على وجه الفتاة. تؤكد أن لا مرافقة ولا صداقة... الحذر من أكاذيب الحب وحبائله في هذا السن، في هذه الفترة والعنفوان... الحذر كل الحذر من معسول الكلام، معسول المشاعر، كلماته، حركاته خفقاته، ومشاعره... إنه سرعان ما يتبخر!

كانت المرأة توزع نظراتها في نهاية الحديث، وقد اكتست لهجتها غنة حنان خاصة، كأنها تتذكر بها أشياء وأشياء... لا تخفي عنهن ولا عن نفسها، أنها كانت ذات شأن في عالم الحب والحنان... لم يكن لها مثل ما لهن الآن، من يرشد ويساند ويوجه... الآن تتحدث عن ميدان الحب كأنها تخطط لمعركة... بشرى الصغيرة، محدقة، تكاد تلتهم الكلمات والملامح والحركات... فضولها حاد يستوعب كل ما حوله أو يعمل جاهداً لذلك...

انتبهت الرحمونية للصبية المشرئبة فنهرتها... هذه الماكرة الصغيرة سيكون لها شأن... وأي شأن!

25

في دنيا القنوط وقساوة السؤال، وحرقة انتظار ما ينتظر وما لا ينتظر... تبدو معالم ظليلة هانئة كواحة في بيداء تلك الجلسة في خلوة السيد... ألوان وسماوات وبحارٌ ينتفي فيها ومعها كل إحساس أرضي بأي شيء مهما كان... إلا هذا الإحساس بأنك محمول على أجنحة الراحة، تحوم في عوالم زاهية لا تثير فيك إلا ارتياحاً ومزيداً من ارتياح، بعيداً... بعيداً عن كل متعة مألوفة... إحساس بنعيم، وشعور سعيد لا يبعث فضولا، ولا سؤالا، ولا صدمة اكتشاف أو توقع... عوالم تثير غاية العجب والغرابة... بعيداً عن كل اهتزاز أو انفعال مهما كان، وكيفما كانت طبيعته... تموج النفس في هدوئها، تهدهدها دفقات السكينة عميقة من كلمات السيد، حروفه، ألفاظه... من أين مصدرها؟ أحقاً كان يتلفظ أو يشير أو يتحرك؟... ونظراته التي لا ترى ولا ترى ولا يغيب عنها شيء... أحقاً كان ينظر؟

تستعيد نجاة تفاصيل تلك الخلوة... ما يحضرها من تفاصيل وما يستعصي... فلا تتبين إلا أثراً لم يقاومها لحظة منذ ذلك الحين: إحساسها الغريب الممتع بأنها احتمت بفيء من حر هاجرة جهنمية لا ترحم، أو أنها الصادي يطفئ

لوعة الحلق والخوف في رحيق سائغ أو رائق من سلسبيل أو... أنها قطعة المعدن الحامي حتى درجة الاحمرار والانصهار يهمد سعيرها في ثليج مذاب... منذ عودتها إلى جانب أمها متخلفة عنها ببضعة أمتار إلى الوراء، كأنما يشد خطوها قيد أو يثقلها حمل رصاص... لم تحد عن ناظرها معالم الوجه المشرق الملتحي متورد الوجنتين والشفتين كملامح الوليد... لم يكن ذلك لأنها وقحة النظرة ولكن لأن رؤيتها علقت بمهابة المحيا وجلاله... علقة لم تستطع منها فكاكاً... لم تكن شاردة عن ذلك ولا مواجهة أو تائهة، بل أدركت حرج موقفها فيما لو انتبه إليها ورفع نظرته الخفيضة والتقى بنظرتها العالقة... حرج الفراشة ومحنتها في انجذابها للنور واحتراقها بلهيبه... لكنها في الواقع لم تكن تعاني بإحساس من احتراق، أو بأي ألم مهما كان في درجته ونوعه... إنما كانت منجذبة فعلا... مشدودة إلى النظر حتى التحديق في ملامحه... رغما عن كل جهد منها للتحرر من ذلك... لم تكن تستطيع فكاكاً من مبعث النور والنار...

لفتها طوال الجلسة سكينة، لم تستوعب منها شيئاً عدا تردد اسمها على لسان أمها، ترددأ لعله كان يكون مفاجئاً وأكثر صدماً لها في غير هذه الجلسة... ربما... وربما كان لها أن تبتهج في هذه الجلسة، لمجرد أن الوالدة سليمة ذكرت اسمها بالواضح الفصيح، رددته في خوف عليها، وفي لهفة لم تعهدها نجاة أبداً من أمها... والسياق كله يفهمها أنها مطلوبة لزواج، ذاك الذي كانت تتلهف على سماعه... لعلها كانت تسعد أكثر لو كانت في غير هذه الحال، لكن الأمر يمر عليها فيما تسمع وترى، وكأنه يعني كائناً آخر! لعل لحال أمها دخلا في الموضوع، ربما... فأمها في انفعالها وبكائها طغت بحالها على كل ما همهمت وهمت به... تلتقط نجاة من بعيد... من بين النحيب وبما يلزم من وضوح أن الوالدة تقصد السيد، تستشيره في أمر يهم ابنتها... تلتقط الفتاة ذلك، كأنه يهم غيرها... تشعر أنها في حال أخرى، ولو طالت الجلسة ما طالت، ما كانت

لتتحرك بأي إحساس أرضي، عدا شعورها بهذا الخدر اللذيذ والغياب الخفيف، كأنه بداية نوم سعيد أو مدخل حلم ممتع... شيء لا عهد لها بمثله.

لفتها طوال الجلسة سكينة حال وانجذاب نظرة إلى محيا الرجل، أُحست بانجذابها المخجل، ولكن نظرتها مسمرة مجمدة، وما كانت لتنقطع عن النظر والتحديق بإرادة منها...

لا تدري الآن إن كان الرجل شعر بذلك، وما هي متأكدة منه هو أنه لم يفاجئها تنظر إليه على ذلك النحو... لو فعل... لأحست بذلك بقوة مهما كان طعم نظرته، لكنه لم يفعل، ربما تعففاً منه... أكان لينهرها لو فعل؟! أكانت إلا أن تبتلعها الأرض خجلا من نفسها؟! أحست والجلسة تنتهي، لا تدري إن كانت أُمُّها المبادِرة بالخروج أو أن الإشارة منه، إنما أحست أنها تقتلع اقتلاعاً، وتستيقظ بفجائية وعنف من غيابها الممتع الخفيف... لكن الصورة ارتسخت، لا ينسخها شيء... ارتسمت بعمق في ناظرها والوجدان، معيناً للمشاعر الهانئة السعيدة، والتذكار الودود الجميل...

26

لم تكن الزيارة واردة على الأقل في مثل ما كان يجري في خاطر سليمة من تصورات... لم تكن الظروف لتسمح بها؛ ولا يليق منها وهي من هي، والدة الخطيبة... أم العروس المنتظرة أن تزور بيت الخاطب العريس وأهله، قبل أن تعطي الجواب والقبول أو حتى بالرفض المؤدب المجامل في عبارة التأجيل قصد الاستشارة... وزواج ليلة تدبيره عام...

وهل ينتظر منها أحد أن ترفض...؟ هي نفسها لم تكن تنتظر ذلك من نفسها... متأكدة كانت من أنها بعد المهلة المطلوبة ستجيب بالقبول والترحيب، بمجرد أن انفرجت شفتا الحاج يطلب القرب لحمادي من نجاة... أية كرامة إذن تسمح لسليمة بأن تزور بيت الخاطبين؟! مؤكد أن ما بين الأسرتين أقوى وأعرق من كل شيء آخر... لكن سليمة لا يمكنها أن تنظر لنفسها إلا كأم العروس... ولو كانت هي الخاطبة من دار السعدية، لابنها عزيز مثلا... عوض ما هو عليه الحال؛ لما حظيت لدى صديقتها إلا بمثل ما يراود خاطرها الآن... القبول ممكن متوقع ومطلوب، لكن بعد التريث والاستشارة... عرس ليلة تدبيره عام... حكمة الأولين.

كانت سليمة تخطو نحو دار الأحبة في غير رغبة منها، لكن لم يكن لها خيار، وهل تتجاهل ما تناهى إليها، وتنتظر حتى تفاتحها السعدية أو ينقل إليها الخبر من قبل زواجها الحاج أو قبل الآخرين الأبعدين؟ أبداً... لا يجوز، ما بين الأسرتين لا يسمح بذلك، ومكانة الخبر نفسه بالنسبة للجميع، وبالنسبة لها هي سليمة بالذات: عودة حمادي المفاجئة إلى أرض الغربة! ... وقبل أن يتلقى الجواب أو يلتقي بخطيبته، وقبل أن يمضي عشر المدة المقدرة لعطلته التي كانت تقدر ببضعة شهور، كما أخبرها الحاج والد الفتى نفسه!

لم تكن سليمة مرتاحة... فهي لا تدري بأي أسلوب تتحدث: تواسي أم تظهر الابتهاج؟ كانت قلقة في أعماقها أشد ما يكون القلق. إذا كانت لم تعط بعد جواباً، فلم تمض إلا أيام معدودات... فما معناه؟ من حقها أن تقلق، إلا أنها تحب ألا يظهر عليها شيء من ذلك... الأصول تقتضي منها ألا تظهر... أو تتلهف...؟ إنما هي في زيارة عادية لدار أحبة تعرفها وتحبها كما تحب أهلها... وعليها ألا تتحسس من زيارة عادية كهذه في مظهرها... وعليها أن تنتظر الباقي، أن يخبرها أهل الدار بالخبر اليقين... إذ ذاك يتبين لها رأس الخيط، وتعرف ماذا تقول، وما تقدم أو تؤخر... المتوقع خير... خير إن شاء الله... الحاصل خير على كل حال... وإن كانت رجفة القلب، وخفقة العين تومئ بغير ذلك والعياذ بالله من الخواطر السود... خير... خير... إن شاء الله.

رغم الحفاوة التي لم تكن كما تعهد سليمة من صديقتها، رغم مظهر الهدوء الذي تبدو به سعدية... فلم تكن سليمة بالتي تخفى عليها الدلالات... هي المجربة لما تخفيه القلوب، تغْتل به الصدور، ولا يجري به اللسان إلا غفلة أو انفلاتاً... وهيهات...

قالت السعدية إنه كالبرق طار منها... طار من بينهم جميعاً... هكذا كالبرق الخاطف... قالت ذلك وزمت شفتيها في شبه إصرار على مقاومة

البوح... تبينت سليمة ذلك من شبه الصفير المنطلق من بين إصرار السعدية، والمتضافر مع حركة غير ضرورية، لحك الرأس بطرف الوسطى، للإيحاء بحركة البرق الخاطف والزائر المنفلت انفلات الوهم حركة انفلات مماثل لسرعة البرق أيضاً... التقطتها حواس سليمة في أوج تيقظها صادرة عن السعدية، في أوج مقاومة البوح لإظهار ما بها من ضيق على غياب حمادي المفاجئ، وعودته الخاطفة إلى أرض الغربة...

وصمتت المرأة كأنها تتابع أثر انفلات في سليمة، ثم أخذت وجهتها في حديث طبيعي خال من كل تكلف... ما حدث قد حدث، وهذه ليست أي امرأة كأي امرأة بالنسبة للسعدية... إنها الحبيبة اللبيبة، والصديقة الحميمة سليمة... وكان من المتوقع أن تصبح النسيبة القريبة... لولا هذه المباغتة من غياب حمادي في لمح البرق بدون تدبير ولا استئذان... لا... لا... المباغتة جاءت من أصحابه هناك وراء البحر... جاءت عن مشغليه... وردتْ عليه برقية عاجلة تدعوه لأمر هام... يتعلق بشغله... تقتضي الحضور على وجه السرعة، بسرعة البرق الوارد الهارب... هكذا قال لهم وهو يجمع حوائجه بعجلة ويغادر...

انخفضت لهجة السعدية، وهي تكرر جملتها الأخيرة ساهمة في حركة توحي بأنها غير مطمئنة للرواية... أي شغل هذا الذي يختصر شهور عطلة محددة مسبقاً، مدروسة؛ نظير سنوات غياب لتصبح أياماً معدودة... ثم لحظة خاطفة... بلا أجل ولا ميعاد...؟! ثم كيف تنسى وهي الأم العليمة بقلبها، كيف تنسى ارتباك حمادي عندما سألته عن البرقية المدعاة، أو على الأصح عندما سأله والده الحاج عن ذلك، وأكدت هي سؤاله... كان ارتباك حمادي واضحاً، والبرقية على كل حال زعم من حمادي، لم ترد على عنوان الأسرة، ولا رآها أو اطلع عليها أحد... قال إن البرقية وردت على عنوان صديق له...

قول لا يخلو من غرابة، وهو الذي ظل يراسل والديه على عنوانهما بانتظام، ولم يطلع عليها ولا رآها أحد... كان مرتبكاً، أظهر لحظة أنه يبحث عنها في جيوبه... ثم قال إنه لاشك قد تركها لدى صديقه... ثم ارتحل!

كالبرق انفلت، وخوف السعدية أن تطول غيبته كما طالت من قبل سنوات عديدة... ومن يدري متى يجود عليهم بخبر عنه... كانت تقدر أن زواجه ببنت البلد، بنت الدرب يجعله وثيق القلب والخاطر بهم... وها هو ذا يطير كالبرق... هارباً.

قلب الأم تعرفه سليمة، ومن غيرها يعرف كمده العميق، عندما ينطوي على ما به من حسرات وجراح...؟ شعور حاد بأن الدار في مأتم أو أشبه بذلك... على الأقل قلب صاحبتها السعدية ولسان حالها المعبر في ملامحها وثنايا الحديث...

سارعت سليمة تواسي وتصبر... تحاول أن تنظر إلى الموضوع من جهة متفائلة... كل غيبة لها حد، وكل مسافر وله أوبة... الطائر مهما يحلق ويجوب، فإلى عشه يؤوب! وحجة الغائب معه... الله يكون في العون، يحفظ ويرعى في الغيب... ومع ذلك فهو كان خاطب ابنتها، وكانت مطالبة بجواب في فترة انتظار مصطنعة، يعرف الجميع معناها... ماذا بقي الآن من ذلك الموضوع؟ وهل يخفى عليها ما بقي منه؟ هذه المرأة الآن لا تملك شيئاً من موضوع، لا وعداً ولا قطعاً، لا تأجيلاً ولا تعجيلاً، ألم تقل إنه طار كالبرق بلا تدبير أو استئذان؟ أليست متخوفة من طول غيابه... وربما من انقطاع أخباره؟ ماذا تملك إذن من موضوع خطبة وزواج؟!

انقضت فترة الزيارة، وخيط أمل بعيد... بعيد، بعيد، كان ما يزال يراود خاطر سليمة في أن تفاتحها صديقتها في شيء بينهما، يربطهما، ويربط قريبين

منهما... لم تسمع شيئاً مما تريد، عما تريد، ولا سألت بدورها عن شيء من ذلك.

عودة أخرى غريبة تعاني منها سليمة في طريقها من دار صديقها السعدية، جارتها في الدرب وزوجة صديق عزيز لزوجها؛ طريق غريب، تقطعه في العودة وهي أشد اضطراباً، يكاد يغشاها شيء مما غشيها أثناء عودتها من زيارة السيد.

غريب حالها، تشعر بذلك من ذاتها ولا حاجة بأحد لتنبيهها لو اطلع على مشاعرها الحقيقية، ألم تكن حائرة خائفة على ابنتها من غربة؟ إذن الآن هي في سعة من أمرها وفي حل من كل ذلك.

كانت حكيمةً إذن، عندما أحجمت عن مخاطبة ابنتها في الموضوع، هداية خفية كانت، والآن هل انتهى فعلا كل شيء في شأن زواج نجاة من حمادي؟ وهل تنتظر بعد شيئاً في هذا الموضوع؟ ماذا تنتظر؟

كانت تهذي حقاً؟ فهي حتى وإن لم تكن قد أعطت جواباً بالقبول، فشعورها اليوم بالمهانة والضيم قوي عميق... لو كانت العروس مرغوباً فيها إلى الحد المطلوب، ألم يكن ذلك أدعى إلى إلحاح أكثر من الخاطب وأهله؟ إلحاح وطلب تعجيل وإسراع... صحيح، في رواية السعدية وفي علم سليمة الأكيد، أن زيارة حمادي كانت طويلة، ولم يمض إلا أياماً، أسبوعين أو اقل... معناه أن الإلحاح لم يكن وارداً، ولا طلب التعجيل في الجواب بعد أيام قلائل من المفاتحة...

كانت تهذي، تموج بها التيارات، ترتفع بها المشاعر وتنخفض، تشرق بها وتغرب... طريقها معتم غائم مظلم... ثم ماذا تقول لنجاة في انتظارها الصامت؟ إذا كانت لم تفاتحها من قبل، معتبرة من الحكمة كانت، أن تختزن لها

الخبز السعيد حتى تلقيه إليها كاملاً تاماً، فما العمل الآن؟ أتسرع الآن، والآن فقط، لتقول لها إنها أخفت عنها ما كان يجب أن تعلن في حينه، والآن تعلن إليها ما ربما يجب أن تخفي؟

طريق عودة... طريق عذاب...!

27

لم يكن مألوفاً أن تنفتح هذه الثغرة التي تمثل باباً في جدار متداع بالزنقة 14 من درب اليهودي، فقد أزَّ منذ الصباح الباكر ذلك المصراع المتآكل لباب صدئت مزاليجه ومساميره، وقوة لا تقل عنه تآكلا ووهناً تجاهد لتحريكه وفتحه... تحرك أخيراً بأناة وزأر، منفتحاً عن هذه الثغرة الفوهة التي لا تبين عما وراءها... أما القوة المتآكلة التي جاهدت لفتحه بعد طول إيصاد، بل بعد إيصاد شبه دائم، فكانت للخالة الستاتية التي ما كادت تفتحه... حتى أتمت بغاية الحذر صعود الدرجات الترابية المتبقية، لتطل برأسها على فضاء الزنقة، تطيل التأمل والنظر إلى اليمين ثم إلى الشمال... ويهتز لذلك كيانها الضخم المترهل، يزداد انتفاخاً وتكوراً، وكأنّها تشهق الهواء والفضاء، تتزود بما يكفيها منه شهوراً أخرى تغيب فيها عن الأنظار...

لم يكن مألوفاً أن تفتح الستانية هذا الباب، حتى في خرجاتها المعدودة طوال السنة والسنين، فمخرجها المعتاد كان بجانب الباب مباشرة، باب المتجر الكبير العميق الطول، المخصص لتخزين وتلميع المصنوعات الخشبية، من خزانات وأسِرَّة ورفوف غرف النّوم، وغيرها من المرافع، وأطر الأسرة

وملحقاتها... كان باب المتجر يفتح صباحاً ويغلق مساء، لكن الستانية كانت تملك دائماً حق الدخول والخروج، متى شاءت سواء كان الوقت فتحاً أو إغلاقاً، مخترقة صفوف المعروضات المتراصة، تزاحمها بهيكلها الضخم وهي تمرره بينها بصعوبة بالغة... كانت وحدها ـ وصاحب المتجر طبعاً ـ تملك المفتاح بحكم العادة والقانون... تم كل ذلك في حكاية يطول سردها، عندما أراد المالك اقتطاع مساحة المتجر من الدار، وتوسيع بابها الأصلي ليلائم المتجر... إذ ذاك اشترطت الستاتية الاحتفاظ بحقها في الدخول والخروج، بالإضافة إلى تلك الثغرة التي فتحتها بعد ذلك في الجدار كمدخل خاص مستقل بحكم العادة والقانون...

كانت في خرجاتها المعدودة تدب في المسارب والمسارات بين مصفوفات المصنوعات الخشبية، وأكوانها والمرفوعة بعضها فوق بعض، فتنعكس لذلك صورتها على سطوح المرايا المختلفة الأحجام والأشكال، بأحجام وأشكال أشد غرابة واختلافاً... كانت تدب متكورة في كيانها المتكتل المترهل، يتحرك في الظلام الدامس أو شبه الظلام، كأنها شبح يتحرك بين التوابيت والقبور، مسارات ضيقة كأنفاق في متاهة حقيقية تتقن وجهتها، حتى تدفع مصراعاً لا يكاد يلحظ، تنشق فتحته الصغيرة الضيقة القابلة وحدها للانفتاح ـ بحكم العادة والقانونـ لتمرر المرأة كيانها من خلالها ببالغ الصعوبة المألوفة لديها، وهي تهمهم كالمعتاد بما يشبه الشتائم واللعنات، على «من ضيقها عليها» لتنفلت إلى الخارج، أو تغيب في ملكوتها إلى الداخل...

كان عليها ـ بحكم العادة والقانونـ أن تبحث لنفسها عن مخرج خاص مستقل غير باب المتجر المخزن، فيما زاد عن خرجاتها المعتادة، ولحركة من يكون معها على الدوام؛ فكانت لها هذه الثغرة في الجدار رغم أنف المالك، ومقابل حق مكتسب من مكتري المتجر نفسه.

تزودت الستاتية من الهواء والنّور بقدر ما كانت تحتاج، أو بما يكفي فيما يبدو، وتراجعت دون أن تستدير عائدة أدراجها بأناة، تهبط الدرجات الترابية المحفورة... تاركة الباب الثغرة مشرعاً في انتظار حركة للزائرين والزائرات للتهنئة والاحتفاء؟، في يوم كبير غير مألوف من أيامها... في انتظار الغائب الحبيب العزيز العائد...

واقعاً وأسطورة كانت... الستاتية قلما تُرى، وبقدر غيابها بقدر ما كان الحديث عنها غامضاً... وحيدة في مسكن غامض مظلم، أشبه بقبو تحت الأرض حيث لا قبو، وإنما حفير طبيعي، يبدو ان البناء أُقيم عليه وحوله دون أن يغيره، وربما يكون حكم العادة والقانون، هو الذي جعل ربّ الملك يبني حول وفوق ما تحوزه الستاتية، تاركاً ما به على ما فيه... حق أو حقوق استخلصتها لنفسها عنوة، وبحكم الواقع الذي أصبح في قوة العادة والقانون... وحيدة في مسكن غامض لا يؤنسها أو يتحرك معها فيه، إلا الدلو المربوط إلى حبله الطويل الملتوي على نفسه في البئر قرب فوهته، والذي ترمي به العمق لتجذب به الماء... وحينئذ ترى أو يخيل إليها، أن صفحة الماء تلمع مظلمة في ظلام أشد...

واقعاً وأسطورة كانت تملأ أرجاء الدرب وما حول الدرب، بما يحكى عنها... فهي لم تكن وحيدة بالمرة، لا لأن ابن أختها ومؤنسها البشري الوحيد، يقيم معها كلما لم يكن متغيباً... بل لأن الناس يذكرون أنها تعاشر حية البئر... أفعى منحدرة من القرون الخالية، لا مثيل لخلقتها بين الأفاعي والحيات، نبت على قشرتها الشعر الغزير، يُسمع لها فحيح يتردد أحياناً في سمع الزنقة بكاملها، يتبينه الجيران من أعماق جدران بيوتهم ذاتها...

واقعاً وأسطورة... كانت؛ يروي المستمعون أحاديث تناهتْ إليهم، تتبادلها المرأة العجوز والحية التليدة... طبعاً صوت المرأة البشرية العجوز لا يختلط بصوت الحية الفحيحي، الأشبه بمرور تيار هواء في قصبة ضيقة جوفاء

متعرجة... تغير نبرة الحديث وتعرجاته وموجاته تدل على أنها تحاور... تحاور من؟ وتتلقى السؤال والجواب... حوار حقيقي وكلام واضح في ظاهره يطرق آذان المستمعين الفضوليين... وهي هي الحية الأفعوانية المنحدرة من قرون خلت... هي التي تخبر العجوز بكل ما يحدث في الزنقة والدرب وتزودها بالأخبار... فالمرأة لا تتخلف عن أية مناسبة من فرح أو قرح، دون أن يدعوها أو يخبرها أحد... وهي إذا زارت لا تطيل المكوت أكثر ما يتطلبه الواجب، بل أقل مما يتطلبه... دون أن تكف لحظة عن الحديث الهامس لنفسها أو لحيتها على البعد، وإجالة النظر في الوجوه... مثيرة حولها مشاعر متناقضة من الخوف، والرهبة، ومن احترام وتقديس... ثم سرعان ما تقوم مودعة، يتبعها من يحمل إليها نصيباً وافياً من خيرات المناسبة... لها ولمن تعاشرها، تلك المعلومة...

تراجعت الستاتية منحدرة متأنية إلى الوراء دون أن تدور أو تلتفت، كانت تتلمس بقدميها موقعها على الدرجات الترابية المعدودة، حتى تصيبها بصفحة قدميها أرضية المسكن التي تسرب إليها الضوء متسللاً من فتحة الباب...

تظل المرأة برهة متوقفة جامدة برهة، وجهها إلى فوهة الباب على أرضية المسكن الواطئ، بعد آخر درجة هبوط، وظهرها إلى صدره... تظل واقفة جامدة، يعلو صدرها وكتفاها، ويتلاحق تنفسها بما بذلت من جهد في حركاتها البسيطة... تلتقط أنفاسها، تستعيدها واحداً واحداً، كأنها تتصيدها من حولها قبل أن تتحرك في ملكوتها، حركة بطيئة بسيطة.

تبدأ الستاتية في شبه تجول دائري، لا يفهم له أول ولا آخر، ولا يبدو له هدف، تتجه نحو البئر تنظر إليه في عمق، ترفع وتعيد النظر كأنها تبحث عن شيء، تحدق في الأعماق المظلمة لتبينه، ثم تدور حول الصحن مرات، وتغيب في غرفة... تغيب تحت السرير ذاته، تبدو كمن يفتش عن شيء ضائع... شيء محدد وضروري ثم تخرج خاوية الوفاض، تبدأ كل حركة ببطء معهود، ولسانها

لا يفتر عن همهمة مسموعة لكنها غير مفهومة أبداً.

لاشك أن حركتها اليوم غير عادية، ومشاعرها أيضاً، لكنها لا تعرب... أو هي تعرب على طريقتها... وها هي ذي، بعد جمود موقف بين الغرف في وسط الصحن، تنفر فجأة، كأنها تريد أو توشك أن تطير، بحركة كتفها... شيء ما، كأن قضيباً سحرياً لمس كيانها الضخم المترهل، فاهتزت تنشد الخفة... تتحرك بقدمين دقيقتين تحت جسمها الكبير في قبقاب خشبي... تبدو ملامح تعبير ما على محياها، ترتفع همهمتها، تصبح أقرب إلى دندنة أو تتحول إليها... إنها مرحة ما في ذلك شك... كأن وقوفها وجمودها لم يكن إلا تهيئاً وتحضيراً للذات، لتستقبل الفرح وخفة النفس... أيبدو نشازاً حقاً، ألا تنقلب النفس فجأة من حال إلى ضده؟ ما القاعدة إذن؟

تخطو الستاتية نحو مسقط الضوء من الباب الثغرة المفتوحة على مقدم الصحن، تقف بمواجهته، كأنها تحتضنه... تحتضن ما وراءه من عزيز منتظر...

28

طافت الرحمونية بأطراف المنزل تتفقد ما أنجز من أشغال الصباح، وعرجت على المطبخ. بشرى تدب كالنملة في نشاط... صباح الخير أمي للا... أزاحت غطاء الطنجرة تري أمها للاها، خالتها، عزيزتها،... حريرة الصباح. نظرت الرحمونية ملياً، ثم غرفت لها بشرى بالمغرفة الخشبية تتذوق الطعم، تنسمت الرحمونية النكهة، قبل أن تمتص قليلاً بأطراف الشفتين، سكنت وأظهرت علامة الحياد، نصف استحسان، تعرف بشرى معناه، نجحت إذن، ولا يمكن لعزيزتها أن تسمعها المديح على ما أنجزت أو تظهر الإعجاب، تلك قواعد التنشئة، وهي تكفي، وعلى الفتاة أن تنشد التقدم باستمرار...

في الواقع، كانت الرحمونية أكثر من معجبة بهذه الشيطانة الصغيرة، ستكون ربة بيت، زوجة ناجحة في كل شيء من أشغال الدار، أما الباقي فالرجال نزوات... موهوبة هذه الشيطانة الصغيرة، في خلق أذواق الطعام وتشكيل النكهة... يمكنها أن ترضي أذواق الرجال بذلك... أكيد، ذاك الطريق إلى قلب الرجل... لكن عليها أن تعرف كيف تحتفظ به بعد ذلك... كلهم يعجبون

بالمرأة الحاذقة، بالمرأة الحاذقة الصناع والجميلة طبعاً ومع ذلك... إنما للنزوات الرجالية قانونها الذي لا يغيب إلا مع ذوات الشأن... وقليل ما هن... قليل ما هم... المسألة في الدوام، كم يدوم الحب وهل...؟ هذه الشيطانة الصغيرة قد تكون موهوبة، عيناها، نظرتها، خفة حركاتها ونضارة ملامحها وإشراق محياها، وابتسامتها التي لا تغيب... كل ذلك يعشقه النساء قبل الرجال، وإذن يمكنها على الأقل أن تحتفظ بزوجها أطول مدة ممكنة... أما الدوام... الدوام لله وحده...

لم يكن فيض الخواطر ليمنع الرحمونية في شيء عن إتمام جولتها، أو يقلل من يقظتها لما تراقب أو ينقص من همتها لذلك... الدافع يتعدى حس ربة البيت إلى أشغالها وواجبات دارها... إنه دور المعلمة المربية والمنشئة... كانت قد مرت على رقائق الرغيف المسمن والبغرير... وأواني القهوة والحليب جاهزة، والزبدة والمربى وبراد الشاي منتصب في صينيته على حدة، مغطى وكؤوسه بقماش مخرم... تتملى الرحمونية ما أمامها وحولها، راضية عميق الرضى... تملؤها هذه الصغيرة بشرى بشطارتها وحذقها الفائق... فائق جداً... لم تر له الرحمونية مثيلا في مثيلها، ومثل سنها هذا... الشيطانة أكثر من امرأة قبل الأوان، وأكثر من صبية في عمرها؛ امرأة في إهاب صبية... ترى ماذا يكون منها عندما تبلغ مبلغ النساء؟! شيطانة بشرية صغيرة، ألطف من أن تكون من طينة بشر أو نطفة عادية... تنبئ عن ملامح جمال أخاذ وجاذبية في طريق النضوج... لا ألطف... لا أخف وأظرف!

تتابع الرحمونية حركات الصبية بحب وإشفاق... لن تظهر لها الكثير مما تضمر لها من استحسان... هذا واجبها كأم معلمة ومنشئة... إنما لا تستطيع نظرتها إليها أن تخفي إعجابها... سيسعد حقاً من ينعم بها في بيته... ليتها تسعد به أيضاً... المسألة في العشرة والدوام لا في مجرد اللقاء والاتفاق... تعرف

ذلك بالخبرة... يا بنتي الزواق يطير ولو كان من قصدير... زواق الفرح والأيام الملاح... الأيام الأولى... الأيام لحظات تمر كالشهور والأعوام في عشرة الرجال ورباط الزواج... والدوام... الأصعب المحال... قلوب الرجال كقلوب الزمان متقلبة... مهما تكن حدة الحب وقوته، ذاك الذي يذبحه لسان الرجال حبائل من حرير للإيقاع بالمرأة... الزمان كفيل بكسر شوكته... والزواق يطير... والنفاق...

اقتطفت برأس السبابة قرصة من البغرير الذي تحذقه الصغيرة أيما حذق، تذكرها بمهارتها فيه أيام شبابها وفتوتها في زمانها، الآن أصبحت هي المعلمة الكبيرة عاجزة عن إبداعه؛ وها هي ذي الصغيرة وحدها من دون الأخريات تجيده على النحو الذي كانت تحذقه الرحمونية بامتلائه المضبوط لا أقل ولا أكثر، وبنخاربيه العميقة المنتظمة... يجب الكثير الكثير لتحضيره... الكثير من اليقظة والحنكة في الصب على السطح الخزفي الساخن، على النار المدروسة المحكومة المقدار، والمسح الحاذق بالخرقة المطلية بالبيض ما بين وحدة وأخرى...

أف. الأيام بدالة... تلبس الحرير والدربالة...

تكرر الرحمونية تأوهاتها، وتغيب في ذكرياتها متابعة ومستحضرة ما ترى وما مر بها... وكل شيء... كل شيء من الخاطر الصافي والرأس... البغرير مربوط بقلب صاحبته... تقرأ على أديمه ما في ضميرها... هكذا تعرف الرحمونية وهي بالذات ضاعت منها جودة البغرير، عندما ضاع منها الهناء وصفاء الخاطر والبال... فراغ الرأس... هذه الشيطانة الباسمة المشرقة على الدوام... بشرى... وتحذق البغرير بالذات... تحذقه مشرقاً ناضراً مبتسماً كقلبها، فخوراً بانتفاخه المضبوط ونخاربيه المتراصة المنتظمة كشهدة نحل شهية... نحلة شهية بشرى هذه، الله يحفظها من عين الحسود ومن كل شيء.

تذوقت قطعة البغرير، وربتت هذه المرة ولو بحركة مقتضبة على كتف الصبية باستحسان، لا بأس، فهي تستحق التشجيع بين الحين والآخر... تتابع حركات الصبية في رشاقتها بما تفعل وهي مستغرقة في عمل التعسيل والتسوية للبغرير... تنظر إليها وقد طفحت ذاكرتها بعبير الحب والشباب... عندما كانت لا ترضى للحبيب بغير إفطار البغرير من يديها الحاذقتين... هي أيضاً وهي بالذات الرحمونية في أيام فتوتها، كانت تعرف كيف تصنع الأحلى والأعجب بيديها... إنما هناء الخاطر كان المساعد وبدونه لاشيء... إلا الهم... لاشيء يبقى إلا الذكريات... شيء واحد يبقى مع الذكريات كيفما كانت... شيء فرطت فيه ولا سبيل للندم... الذرية!

آه... تتأوه وتتحسر على أنها فرطت في أن تنجب إذن... ربما كانت الآن تكون شيئاً آخر مع ابن يقف إلى جانبها أو ابنة... البنات على حد ما وهن محيطات بها... نجمات زاهرات كأنها ولدتهن من صلبها... ذلك يطفئ بعض اللهفة المشتعلة بعد فوات الأوان... رفضت حقاً جنة الجدران الأربعة، أو جحيمها، لكنها تعرضت لأكثر من جحيم... آه... من الرجال والزمان... المرأة مخدوعة... مخدوعة حتى العظم إذا جعلت رأسمالها حب رجل، يصوره الحب الجميل ذاك الذي بيديه مفتتح العلاقة... لا الحب الآخر الذي رفضته... ولم تندم إلا على أنها لم تنجب... لكن، على كل حال، لا يمكنها أن تشرك بربها، لو قدر لأنجبت راغبة في ذلك أو راغبة عنه!

آه من لحظات زمان... ومن عهوده... أياماً وشهوراً وأعواماً يعرفُ الزمان كيف يطرزها بهاء وصفاء وحبًّا عندما يجود... الزمان نفسه الذي يعرف كيف يختطفها خطفاً... يبددها أشتاتاً... قدداً...!

تائهة كانت الرحمونية، غائبة في ذكر وذكريات، يمتزج فيها الأحلى بالمر والبهيج بالكئيب، في عوالم نائية، يركب بعضها بعضاً، متسارعة متباعدة،

تدندن المرأة من فعلها:

طاح الكاس، وتفرقو شقوفو.

طار الحب، وبقينا نشوفو.

ـ الله الله عليك يا مي للا، حلوة... حلوة... قوليها... عاوديها مرة أخرى عافاك... الله يحفظك!

بشرى الصغيرة مأخوذة باللحن والكلمات، بالدندنة الممتعة الحزينة، لم تسمع أمها للاها بهذا المزاج منذ طويل كثير... ربما لم ترها أبداً على ما هي عليه، تشجعها هذا التشجيع، وتغني لها أو معها...

ـ عاوديها... ثاني الله يخليك أميمتي...!

تنظر الرحمونية إلى الصغيرة الحاذقة التي كانت تتابع النغمة العفوية بكل جارحة فيها، ولسانها بلا شك يدور بين فكيها خفية... نغمة حب وعذاب تمايل لها قد الصغيرة، مع إيقاع خفيف بحركة متناغمة مع موجات أمها للاها...

ـ عجبتك؟

أكدت الصبية بحركة للرأس إيجاباً، بابتسام وعيناها تشرقان تشعان بكل ما فيهما من حدق...

ـ قوليها مرة أخرى... عافاك...

تعيد الرحمونية المقطع، تغيب في عالم الأغنية بصوت أكثر ضبطاً ووضوحاً وقصداً، رافعة من إيقاعها، متمايلة ممسكة يدي الصغيرة تراقصها، حتى أتمت متهاودة كأنما صوتها والإيقاع، ينأى متدرجاً متباعداً وختمت متأوهة بعمق...

أخيراً، بعد لحظة قصيرة كأنما تتابع عالم الذكريات أو تقف على بوابة تودعه، كما تودع ضيفاً زائراً أو عزيزاً مسافراً، وكأنها تفيق إلى عالمها،

عالم ما حولها، فتقرص خد الصغيرة باستلطاف... هذه الماردة الصغيرة لا يستحقها رجل على وجه الأرض... امرأة ستكون وأي امرأة... ومع ذلك، لو نصحتها وهي حتماً فاعلة ذلك عندما يحين وقته، فستوجهها نحو مصيرها المحتوم... مصير الحب والألم... مصير الفراش المبرقش الجميل يحترق بنار نوره المعشوق...

لابد لكل امرأة من أن يطويها تحت سقف بيت رجل... رجل... زمان... يعتصرها قبل حلول النزوة المنكرة... سنة الزمان والرجال... المرأة زمانها الرجل... هكذا حفظت الرحمونية عن محيطها، من تقول إحداهن عن رجلها: زْماني...!

سُنة الزمان والرجال كما عرفها المرأة... الله يتوب والسلام!

تنفض الرحمونية رأسها من خواطرها، تعود لنفسها من هذه التأملات الصباحية... مهما يكن عمق الذكريات... مرارتها؛ فهي جميلة واليوم جميل إذا بدا فيه المزاج بالغناء والرقص، حتى لو كانت بعض الذكريات حزينة... ومن الحزن ما يبهج... الحزن المرتبط بذكرى ممتعة عزيزة، ليس كل الحزن... ليس كل الحزن مؤلماً، ولا كل الفرح بهيجاً خالصاً... هكذا تعلمت... هكذا تعرف... الماضي العزيز مهما كان ويكون، فهو واحة يستظل المرء بفيئها من لفح الحاضر ولهيبه مهما كان بدوره يكون...

تنظر المرأة إلى بشرى متسائلة عن البنات إن كن قد أفقن، على الأقل المتأخرات منهن... نؤومات الضحى مادامت أخريات ممن يضطرهن الشغل في الدار أو خارجها، قد أفقن وأفطرن وخرجن مبكرات وبمحضر الرحمونية طبعاً... فهي تفيق قبل الجميع ماعدا هذه الصغيرة الحاذقة... وتودع الجميع على شغله أو تسلمه إليه في المنزل...

الوقت منتصف النهار أو يوشك، وقد طافت بشرى على البنات قبل ذلك توقظهن، والرحمونية قد عادت من جولتها المعتادة في بعض الأسواق عدا سوق الدلالة، الذي له يومه وعدته، عندما يكون لديها شيء يجب أن تقوم بنفسها عليه... بل إنها عادت من جولات قامت بها اليوم بمزاجها الحي... قامت بذلك كالعادة وحدها، بعد أن تركت الصغيرة تعود بالمشتريات الغذائية بمساعدة بعض صبيان الباعة في سوق الخضر... كالعادة تحررت لجولات خاصة مخصوصة، بل دقيقة متخصصة، تتطلب فحصاً وحديثاً ومساومة مع هذا وذاك، لا لتشتري بالضرورة، بل لتعرف مستوى السوق ومستقرها، لا تستثني من ذلك الحرير ولا الذهب ونفائس الأواني والأثاث!

الصبية أعدت كل شيء لنؤومات الضحى، إفطار أنسب ما يكون ميقاته الغداء، أما الغداء الحقيقي فهو في الواقع جلسة عصرية...

29

لطَمتْ وجهها مولولة... هكذا فجأة، انتبهت إلى نفسها، صاحت تنادي نجاة... كررت نداءها... أعادت ولا مجيب. تركت ما كان بيدها من مرمة التطريز، وقامت تتحرك بين الغرف، قصدت الحمام، ثم صعدت نحو غرفة سميرة، ولم تكن تفهم كيف أن نجاة العاقلة المتعلقة تقصده، سميرة تشوش عليها مراجعة دروسها... سميرة المتشيطنة التي لا تبحث إلا عن تعلة تصرفها عن الدراسة... إذا كان ذلك قد حصل، فلن يعني أكثر من أن المتشيطنة احتالت على نجاة، تتسبب بصحتها لتمضية الوقت في غير المفيد... خارج الدار... حمام الخارج ليس ضرورة لفتاة مثلهما... وإذا فكيف بدونها... وبلا إخبار أو استئذان؟

هرعت سليمة بشتات أفكارها، بانفعال غاضب مسبقاً، تصعد الدرجات نحو غرفة البنت الصغرى سميرة، لتفاجئ المشهد: سميرة بالفعل كالعهد بها تضيع وقتها في استعراض نفسها أمام المرآة بما يستحق أسوا العقاب وأقسى التقريع... لكن الوقت غير مناسب الآن، وأين نجاة إذا كانت غير موجودة هنا... في غرفة سميرة وصحبتها؟ وسميرة المرتاعة من مفاجأة المشهد وما

ينجم عنه، لا تفهم شيئاً في السؤال ولا في الجواب! تظل مشدوهة، لا تفهم أمام ذعر أمها، متجمدة في وضع يعكس صورتها الجاذبية على المرآة، في وضع المفاجأة بيد مرفوعة وأخرى تغطي بعض ما على وجهها من تزاويق... أين نجاة؟ أين...

أين نجاة؟ لا يمكن أن تكون في غرفة عزيز... هو نفسه لن يكون في غرفته... ولا يعرف أحد متى يؤوب أو يغادر... مع ذلك، توجهت، وفتحت الباب على مصراعيه لقوة واندفاع... لا شيء، رائحة السجائر تشيع في المكان... فوضى عارمة على الفراش والأرض والأركان... علب سجائر متنوعة فارغ وبعضها يحمل بقية أو لم يمس منه شيء... كؤوس مقلوبة وزجاجات بأحجام مختلفة فارغة... عفن وفوضى... اختلط فيها كل شيء بكل شيء من مألوف وغريب... عبث لا أحد له، لم يعد بالإمكان التستر عليه... ولم يكن بالإمكان إيقافه عند حده... عاجزة هي... عاجزة أشد ما يكون العجز، عن توجيه عزيز أو إيقافه عند حده... انفلت منها تماماً... المهم الآن، أين هي... نجاة؟

قصدت الحمام الفوقي وكافة الأركان التي لا يختبئ فيها فأر هناك! وصعدت إلى السطح كأنما من عادة فتاة متعلقة عاقلة مثل نجاة أن تصعد إلى السطح قبيل المغرب إلى حوالي العاشرة ليلا... وتمكث كل هذا الوقت بدون حركة...! وفوق ذلك كله، كأنها في السطح تسمع كل هذا النداء والضجيج ولا تجيب... إلا إذا كانت لا تسمع... بل فقدت كل إحساس... وإذن يكون قد حل بها مكروه!؟

لاشيء، لا نجاة ولا أثر من نجاة... ولا ما يدل على أنها صعدت إلى السطح، أو مرت به، فأين تكون؟

عادت سليمة وهي أشد انفعالا، تنزل الدرجات إلى السفلي تعاود البحث... لعلها نائمة في غرفة ما أو ركن... لابد أن يكون ذلك هو ما

حصل... ومع ذلك لا شيء ينم عن وجود نجاة في المنزل حية أو ميتة...!

لطمت خديها مراراً... وبدأت تصيح وهي تصعد من جديد إلى غرفة سميرة... ترتمي عليها هذه المرة، تمسك بخناقها سائلة بعنف: أين أختك... أين نجاة؟

تلتقي سميرة وأمها في البحث والسؤال والحيرة... ومن جديد وبهمة زائدة تفتش الغرف والأركان وتحت كل شيء... كأنما انقلبت الفتاة نملة أو إبرة! كل شيء... تحته وفوقه، وما بينه وبين غيره، أرجاء الدار من أسفلها إلى أعلاها، من أحقرها إلى أغلاها؛ لا تنبئ عن وجود أو حس، أو أثر موهم بوجود نجاة...

تضع سليمة رأسها بين يديها تحاول أن تفكر بهدوء؛ تتذكر آخر مرة رأت فيها نجاة أو حدثتها، كانت قبيل الغروب... كانت إذ ذاك في صحن الدار السفلية، تدير آلة الخياطة تطرز بها ما كانت منهمكة فيه من تزيين محتويات فراش وأثاث بيت الزوجية المنتظر لنجاة طبعاً... وللبنتين معاً، حتى قبل كل خطبة أو حديث في الزواج... أصول الأمومة تقضي بذلك... يخيل إلى سليمة أنها رأت ابنتها تخرج، كما تفعل عادة لتأتي بأي شيء تفتقده الدار... مما هو معتاد أو ينقص شغلها في الخياطة والتطريز بجانب أمها... مثل ذلك يأخذ في العادة زمنا جد محدود... لا يحسب... دقائق معدودات... لكن أين هي الآن؟

لطماتُ الوجه تتابع الآن، وترتفع الولولة، والرعب يركب الدار بكاملها، ولا تملك سميرة أمام الموقف غير المعهود، إلا أن تتفزع، وإلا أن تحاول دون جدوى، إمساك أمها لتكف عن اللطم الوحشي لصفحتي وجهها...

الساعة تقارب منتصف الليل، وقد انقطع كل أمل في أن تكون نجاة في موقع معهود مألوف في الدار أو خارجها... اللهم إلا إذا كان مكروه حصل...

وإنه قد حصل فعلاً فيما جرى لحد الآن... لو انبثقت نجاة حالا من شقوق الزليج حية سالمة، لكان فيما أثارته من رعب بغيابها، كافياً ليمثل المكروه... أقسى المكروه... لكن هيهات... وأين هي؟

أخيراً تدرك سميرة أن عليها أن تخرج... لترى في الدكاكين القريبة المعتادة إن كان بعضها ما يزال مفتوحاً... ساهراً... لترى إن كان هناك من أثر... أو خبر... لتُسرع نحو الباب بإيماءة تأييد من أمها لفكرتها... لكنها لا تلبث أن توقفها... توقفها لترتدي جلابتها وتصحبها في الخروج... كأنما في لوعتها وارتياعها، لم يعد بالإمكان لواحدة منهما أن تفارق الأخرى بعد الآن...

أين أنت يا بنتي العزيزة؟ عبارة مخنوقة تتردد على لسان سليمة كالتعويذة... في رنة تحمل من آيات التأبين واليأس، أكثر مما تحمل من آيات الأمل والرجاء... عبارة أصبحت تصدر متتالية واهنة لا تكاد تلفظ أو تسمع، كأنما هي من الحلق للحلق، وقد آبت وابنتها سميرة من جولتهما القصيرة الطويلة فيما حولهما من مظان قريبة أو بعيدة، دون جدوى... فالدكاكين مغلقة، والليل منتصف، ولم تبق إلا أضواء بعض المقاهي الساهرة للمقامرين ولاعبي الورق والدومينو... ونجاة الحبيبة لا أثر ولا خبر...

تؤكد لنفسها، تؤكد بصوت غير مسموع، أن المكروه الآن حصل، هو حاصل، محقق، وحتى لو أطلت نجاة في هذه اللحظة بالذات معافاة سليمة... فما حدث لحد الآن كاف... وفوق الكفاية... ومع ذلك فما أبعد الأمل... ما أبعده!

كان لابد أن تَرِدَ الفكرة مع تقدم الليل، وأن تفرض نفسها على كل ما عداها: زيارة مراكز الشرطة، والمستشفيات... والسجون... يا حفيظ يا ستار...!

ولا أثر... لا أثر في مركز الشرطة القريب، وقد تطوع الضابط الشاب، أمام حال سليمة، فكلم مراكز أخرى، سائلاً وإن كان عندهم علم بنجاة بنت أحمد رقيبة، أمها سليمة بنت إبراهيم بلعبدي... وأوصافها، سمراء، في العشرين، سمرة خفيفة (حمرانية)، متوسطة القامة، وتميل إلى الامتلاء... مرتديه... كانت ترتدي... لا تدري سليمة ولا سميرة ماذا كانت ترتدي عندما خرجت... غابت...

ولا أثر، لا أثر في مراكز الشرطة التي خابرها الضابط بالتلفون، وعملاً بنصيحته قررت أن تتوقف عند هذا الحد، وقد جاوز الليل منتصفه... وما وقع وقع...

الضابط نفسه فاه بالعبارة الأخيرة بعفوية كاملة في هيئة المُسلّم المستسلم، يجب الانتظار، لا شيء غير الانتظار، وضبْط النفس، والصبر... وعند الصباح إذا لم يجد جديد، يتم البحث في المستشفيات وغيرها، كان الضابط الشاب يختار كلماته بعناية مشجعاً ومواسياً... وقبل أن يطوي دفتره، سألها عن معارفها... الأقارب، الذين يمكن أن تقصدهم الفتاة في حالة تذمر أو... واقترح أن يأخذهما بالسيارة إلى منزلهما، فالوقت متأخر... قال ذلك دون أن ينتظر ردهما، وهو يومئ لرفيقه في نوبة الحراسة.

كان الضابط يحادثهما باستمرار، يطوف على عدة موضوعات بأسئلة عادية، ويعلق على أحداث مرتْ به... يشجع ويسأل عن رفيقات نجاة... وهل ترافق أو تعرف شاباً؟...

بدت الأزقة بفراغ وهول لا حد له، كانت سليمة تجيب بعفوية كاملة، لم يثرها ما يجب أن يثيرها في العادة من سؤال الشك والإيحاء في سلوك نجاة... فراغ وهول يملك الأزقة ويغطي الجدران الكالحة في بياضها الجيري المعتم،

زحمة الناس ولغطهم النهاري مع ما له من إزعاج فهو رحمة، كل الرحمة والرحمات بالنسبة لما عليه الحال والشعور، أية جدران ستؤوي قلب أم فقدت فلذة كبدها، ولا تعرف كيف ولا أين؟

كان الضابط الشاب يتريث بين سؤال وآخر، وكأنه يتابع خواطر سليمة، أو يترك لها الفرصة لتستجمع ما لديها بين الحين والحين... ومع ذلك لم تقل سليمة ولا سميرة كلمة واحدة عن الزوج والأب، أحمد رقيبة، مما جعل الشاب، وهو يتوقف بهما عند المنزل يسأل سؤالا مباشراً عن الرجل، وعن غير نجاة من أفراد الأسرة.

أية جدران تؤوي كيان أم ملتاع! التياع، لئن تبدّى في أوله صورة انفعال على طيش ورعونة غير مألوفة من نجاة، فقد آل إلى غيظ أو ضيم وشعور بالمهانة يستقران ألماً ممضاً، ويقيناً بالمكروه الذي حل، وبمجهول طبيعته ووجهته... أي عذاب؟ قُتلت؟ صُدمت؟ غُرقت أو أُغرقت؟ أُحرقت... جرجرت... شنقت...؟ أي جحيم! لم يعد للكيان الجريح من ردّ فعل غير الصمت والأنين...

رمت سليمة كيانها على سطح الزليج مباشرة في صحن الدار... سارعت سميرة تحاول رفعها وتوجهها إلى إحدى الغرف... لم تجد إلا الممانعة، وثقل كتلة رصاصية هامدة عنيدة، ولم تستطع أكثر من أن تجعلها تقعد في شبه قرفصاء، محتضنة رأسها بكيفها، كأنما تمسكه من أن ينفصل أو يهوي، محدقة بفراغ رؤية لا تبصر، في المربعات الصغيرة المتوازية المتقاطعة، كأنها تقرأ تفاصيل الهول أو تتبع سطور خواطرها المتضاربة...

جلست سميرة على حافة الفراش عند مدخل الغرفة المقابلة، كئيبة ساهمة، تتابع والدتها متحفزة لكل حركة طارئة، تلفُّها الحيرة والهلع، ويضنيها

شعور بالعجز عن التصرف... ففي خبرتها المتواضعة ، كل هول يهون أمام ما يجري من حال أمها وغياب أختها...

يمضي الليل... آخر الليل، ثقيلاً بطيئاً، قاطع الحد، دون أن يغمض لسليمة جفن، أو تتحرك عن وضعها كأنما قُدّتْ من جمود... بينما بدت سميرة رغم مقاومتها تتمايل في مجلسها بين الحين والآخر بفعل الإرهاق، تغفو لتصحو... وتصحو لتغفو...

لحظات إصباح بطيئة، تقبل معها خطوات عزيز متثاقلة متراخية... يسمع لوصوله صخب أمام الباب، وهو يتبادل التعاليق مع شلته، أو يحدد آخر مواعيد اليوم الموالي... فتتعالى الضحكات وتتجاوب النكات والمستملحات والتعاليق الماجنة في آخر لحظة يوم من عمر، أو عمر من يوم... سمع هدير، وانطلاق قوي لمحرك سيارة تستأنف توزيع شلة الأنس بجزاة على الأحياء والدروب...

حركة المفتاح حول قفل الباب تتكرر بحركة يد لا تملك أن تتوافق... تتوقف الحركة وتبدأ من جديد كأن صاحبها يأخذ أنفاسه بين مرحلة وأخرى، من جهد هذه المعركة الدقيقة الطويلة في آخر ليل طويل يلفظ أنفاسه الأخيرة... تطول الحال، ويصادف سمع سميرة في لحظة، ما بين صحو وإعفاء... تدرك الموقف فتقوم لتسحب مصراع الباب الذي كان مفتوحاً، لتبقى حركة يد عزيز مجمدة في الفضاء، تبحث دون جدوى عن ثقب المفتاح، مشفوعة بنظرة مشدوهة بلهاء بفعل المفاجأة وبجهد جهيد، ليستجمع قواه وشتات الموقف العصي على إدراكه الخامل في هذه اللحظة بالذات، بينما تكون سميرة قد تركته مجمّداً، وعادت إلى مجلسها... يدخل عزيز، يُفاجأ بما يرى... الحال كله ينبئ بشيء غير عادي... فوق... غير عادي... ماذا؟

ـ نجاة!

ـ ما لها؟

تحيطُهُ سميرة بالموقف باختصار... لأول مرة منذ محنة اليوم، تشعر سميرة بأنها ترغب في البكاء، أو تبكي برغبة في ذلك... تحكي لعزيز... وقد طمأنها دخوله بعض الشيء على ما هو عليه من حال في آخر الليل، بداية الصباح... وشعرت بما هو أهم وأعمق، بأنه أخوها، درع يحمي ويؤنس، إنها وجدت من تتحدث إليه بما هم فيه.

ظل عزيز يستمع مشدوهاً... طار عنه في لحظة واحدة أثر الخمول والسهر وطيش ليلة بكاملها، نظر إلى حال أمه في وضعها المؤنس المؤسي، في محنتها ووحدتها... لم تنبس بشيء، ولا نظرتْ إليه منذ دخل، كانت مجمدة على جلستها وإلى تحديقها الدائب الغائب في أرضية الصحن... رنا إليها لحظة ثم أقبل نحوها في تهيب... أقْعى بجانبها ورَمى ذراعه حول كتفها يحتضنها إليه، وسرعان ما تهاوت نحوه بصمت، بيْد أنّها كانت في أعماقها تنتحب بصخب يهتز له كيانها حيناً بين حين...

مضت لحظة على هذا النحو، ثم قام عزيز يرفع أمه، يساعدها على النهوض إلى جانبه، قامت بتثاقل كبير مستسلمة طيّعة، وسار بها يشدها إلى صدر الغرفة، حيثُ أجلسها، وأسرعت سميرة تساعد أمها على التمدد وتغطيها بلحاف...

بدا الآن كل شيء هادئاً، بل عادياً جداً... إلى حد يسمح لذهن عزيز بأن يعمل ويفكر بما يجب أن يعمل... الواقع وقع بكل ما فيه... ولابد من تقبله ومواجهته.

زرّر عزيز جاكتته في حركة تأهب للخروج، نظرت إليه سميرة متسائلة ومدركة قصده. يجب انتظار بداية النهار، فلا شيء يعمل الآن، أو يمكن أن يعمل...

اتجه عزيز نحو الباب في عزم، هو بالذات لا يستطيع أن ينتظر...

كان شعوره قوياً بأنه مقصر... أو أنه منذ اليوم أصبح مسؤولاً؛ كأن هذا الحدث كان ضرورياً ليفيق من حاله... خطوات معدودة خطاها عزيز خارج الدار ثم توقف، كأنه يدرك أنه لم يحدد وجهته: إلى أين؟ وبدا مشغولا بجد، يسترجع ما مضى... وكأن ملامح نجاة... كأنها تطلعت إليه في هيئة المتسائلة أو المشتكية أو المتذمرة... ملامح تبدو كالوهم... مرسومة وراء غيم... لا، لم يكن ليأخذ الملامح تلك إلا على أنها تساؤل عن حاله أو استنكاره له، لن ينتظر الغد، من أين يبدأ؟

30

رغم الرطوبة والظلام، ما تلبث العيون أن تتعود على الرؤية... تلك الفترة القصيرة الفاصلة ما بين فترة الضوء الساطع، ينتقل منه المبصر إلى خط العتمة المضببة أمامه، تعرفها الزائرات، تذكرهن بأول خطوة على عتبة قاعة حمام ساخنة فسيحة ندية. فترة التبين عند العتبة، لا تشعر بملامح أو حركة إلا تعالي أصوات من هنا وهناك، كأنها صادرة من قبو أو فراغ بعيد،... ثم يتحول كل شيء تدريجياً إلى بعض رؤية، لتنخرط المبصرة بدورها تخطو في عالم العتمة المضببة...

تتبين العيون شيئاً فشيئاً عدة غرف متقابلة، ثلاثاً أو أربعاً... ثلاثاً على الأقل مع صحن فسيح ومكامن وأركان متعددة... ملجأ دائم ومقام صالح لمختلف أرواح الشر وألوانه...! أليس هو منزل الستاتية ومقامها الدائم؟ من يستطيع السكون والسكن هنا غيرها وكائناتها الغريبة ومخلوقاتها التي لا ترى ـ لغيرها على الأقل ـ وإنما يلمس منها الأثر؟

بهلع ترمق العيون بعد لأي موقع البئر، فتقشعر الأبدان مستحضرة كل ما يذكر حولها من حكايات... من يدري، فبإمكان الزائرة لمنزل الستاتية هذا،

أن تتصور وتتأكد في تصورها من أن ما يروى، ليس إلا أقل القليل مما يحدث أو قد يحدث؟!

بهلع تتبين العيون المحملقة صاحبة الدار الستاتية، في هيكلها الضخم المترهل تظهر الحفاوة بزائراتها المهنئات... ويبدو واضحاً أنها في حاجة إلى المساعدة فيما هي فيه، فتهب الأكثر نشاطاً منهن، الأكثر معرفة وجرأة من بين الحاضرات تقوم بالمبادرة والمساعدة... ثم تتشجع أخريات متطوعات في مختلف الأشغال من كنس وتنظيم وغسل ونفض وترتيب، تتعثر بهن الخطوات في البداية بدافع التوجس والتردد، ثم بعامل الاحتكاك في الحركة وتعارض الاتجاه، وسرعان ما يستتب الأمر، فتختص كل منهن بشيء، وتتعاون بعضهن في آخر... إنهن في النهاية، بدون إعلان أو تخطيط، وقعن في النظام والتنظيم... ليصلن في النهاية إلى أواني الشاي مرتبة جاهزة منتصبة!

مهما يكن، فالمناسبة سعيدة.

مهما يكن فهذه الحركات المساعدة العاملة في المكان والمقام بهمة وحماسة، هي أبعث على الاطمئنان والأمان، إنّها بمثابة تضحية أو قربان يقدم لما يمكن أن يعمر المكان من أرواح شريرة أو خيرة... فما أساء أحد مهما كان ويكون، ولو كان الشيطان ذاته، إلى من يخدمه ويخدم مقامه بإخلاص! بعض النشيطات الكريمات يصل بهن الأمن والأمان وزوال التهيب والتوجس، إلى التحرك ما بين دار الستاتية ودورهن في إحياء المناسبة...

31

بدأت بعض نساء الحي تفدن على ثغرة الباب المفتوحة حوالي منتصف النهار، كن يتريثن كثيراً عند المدخل، تحدق الواحدة منهن جيداً في المنحدر ليتبينّ موطئ القدم... ولعل تريثهن كان يطول بسبب التهيب والتوجس والتعوذ، فما كان لواحدة منهن أن تغامر بزيارة مسكن الستاتية وحدها أو عن طيب خاطر... إنه الواجب الذي لا مفر منه... ووفود الزائرات مثنى وثلاث عامل مشجع ولكنه ليس كافياً، فحتى مع الجماعة داخل البقعة المخيفة، لا تدري الواحدة منهن أثناء الجلسة أي شر يمكن أن يتلبسها... حتى الفضول على قوته عند النساء، لم يكن ليدفع هاته المخاوف بعيداً...

تتريث الواحدة... وتظل تتردد أمام درجات المنحدر، تتلفت خلفها أمام من يشجعنها وهن مترددات أكثر، ويدفعنها للتقدم برفق خائفات... ويظللن يراقبن انحدارها المتلفت متوجسات مشفقات... وهي في شبه التفاتة عسيرة دائمة... فضيق المسرب، وصعوبة تحصيل القدم لموطئها بسهولة على درجات شبه وهمية، لا يترك فرصة لالتفاتة حقيقية أو استدارة كاملة... حتى

إذا أوشكت أن تغيب، وبدا أنها أسلمت نفسها للتجربة والمصير، تَلتها غيرها بالتردد المعهود نفسه والتوجس، عند موطئ القدم... وهكذا دواليك...

بين الحين والآخر كانت شهقة ارتعاب تعلو من إحداهن لدى الشعور بانفلات، في بحثها الشاق عن موطئ على إحدى الدرجات... ثم يعود الانحدار والتوجس والشهقات.

تعلو زغرودة مترددة خجلى من إحدى نوافذ الزنقة 14... ما تلبث أن تتبعها ثانية أكثر ارتقاءاً ووضوحاً، ثم تتجاوب الزغاريد مصعدة من عمق دار الستاتية، ومنحدرة من عديد النوافذ المشرفة...

تتدحرج الستاتية مصعدة درجاتها المعلومة ببعض الخفة والمساعدة، تتبعها بعض ممن حضرن، وتقف أمام ثغرة الباب على أرض الزنقة تتبين ما ظلت تنتظر... يبدو لها محيا الحبيب مقبلا هالاً مبتسماً... ابنها... عزيزها حبيبها علي... علِيُّها الذي غاب سنتين... أكثر... من يستطيع أن يقدر غيبة الوحيد الحبيب الغالي في السجن بزمن حقيقي؟ رجل لا كالرجال... من يشبهه في عنفوانه وصلابة عوده، واستقامة متنه؟ سيد الرجال... وسيد الشباب... زين الدنيا بأسرها... هو... هو بعافيته وكماله، لم ينل منه الغياب ولا وحدة السجن وغربته... لا ينال من وحيدها الحبيب شيء... هو هو، علي الشخش... علِيُّها يتحرك نحوها بهامته وامتداد قامته، يتقدم في ثبات تتمايل فتوته في خطو متئد لا مسرع ولا متعجل... يبتسم لها ابتسامة تزداد اتساعاً... وحيدها... حبيبها... علِيُّها... شخشها... لا ينال منه شيء... أي شيء... أبداً... وإن كانت مما في بَوحْها تود أن تقول إنه أكثر هزالاً... مما كان... هزال بسيط لا ينال من صلابة عوده وعافيته... ويجب عليها مع ذلك، أن تقول إن هزاله ذاك أحفظ له...

يتقدم على الشخْش بتؤدة وثبات بالغيْن، وبحركات مختالة تزيد من مهابة قوته ومظهره، تحيط به شلة من أصحابه وأتباعه... شباب في مطلع الفتوة... ولا شيء في مظهر الرجل يوحي بأنه عائد من سجن سنتين أو أكثر... يتقدم في خطوه، يجر معه بعض الفضوليين، عدا الجيران والمعارف الذين يمدون إليه أيديهم وألسنتهم بالتحية والترحيب والسلام... لسان حاله يرد على الجميع شاكراً، وهو يومئ بعيني جرأته المعهودة إلى كل شيء حوله... كأنه لم يفارق الزنقة أو الدرب لحظة واحدة... كأنه لم يعرف في حياته سجناً... هو الذي ينتقل من فترة سجن إلى أخرى، بينهما فترة استراحة هي أقل الفترات وأقصرها في حياته... السجن ليس أكثر من تغيير فراش بآخر... وأي آخر؟! لا عليه فهو مرة هنا ومرة هناك... يؤثر عنه أنه كلما غادر زنزانته أوصى خيراً بفراشه هناك... ريثما يعود... يعتبر نفسه في زيارة إلى عالم خارج السجن أو في إجازة... يحكي ذلك عن نفسه بابتسامته العريضة...

ترتفع الزغاريدُ والضرب على البنادير والأكف، من جانب الشلة المحيطة بعلي الشخش... ومن النوافذ المشرفة، والمتابعين والمشاركين من كل اتجاه...

بدورها الستاتية تتحرك باستمرار باتجاه الحبيب المشرق المقبل... بودها لو تطير... إنها تطير إليه فعلاً... لولا أن كتفيها هما فقط، كل ما يحاول أن يطير في هذا الكيان الضخم المترهل... تتحرك بكتفيها وكأنها تسرع فعلاً، إلا أنها لا تزيد عن أن تدب... دبيبا بطيئاً مترنحاً... مقبل عليها بعافيته وسلامته وهنائه... تضمه بذراعيها في فضاء الزنقة... يترنح هيكلها مع ضمته القوية على كيانها... لئن كان هيكلها ضخماً إلى هذا الحد، فعوده قوي متين، فارع جبار...

تتجاوب الزغاريد حول الكائنين الملتحمين في الضم والتقبيل والشم... وحيدها العائد المؤنس الحبيب... وأمه التي لا أم غيرها أو مثلها... مخلوقان

عجيبان في خلقتهما، في تعلقهما:.. كانت المرأة تضم وتربت على كتفي الشخش، وما تفتا تضمه ذات اليمين وذات الشمال، كأنها بالضغط والتمايل تدفع بكيانه المحبوب داخل حناياها... كأنها بذلك تصل أعماقها بأعماقه... وعلي الشخش، متوترة عضلاته البارزة كالجبال بموقف الضغط والعناق لوالدته، يهادن في الضم ويفتر مرة بعد أخرى، كأنه في رجولته يتعفف عن كل المسايرة لهذا الضعف الأمومي الحنون أمام الملإ، والمرأة بين الحين والآخر تبعد وجهها عنه قليلا دون أن تخف ضمتها حوله، تتملى ملامحه، لتعود تغمر ذاتها في أنفاس ذاته، تتسممه، وتمرر كفيها على كتفيه. هو بدوره في أعماقه ورغم التجلد الذي يمثل سمة عميقة فيه، اكتسبها طبعاً أو ولدت فيه فطرة، يشعر براحة غريبة كلما أحاطته بهذا الحنو، كلما أتاح لها الفرصة لتفعل ذلك به... إحساس راحة ونعيم، يذكره بإحساس المقرور المطارد بالخطر في ليلة عاصفة قارسة ممطرة، وقد أواه فجأة فراش دافئ ناعم... هكذا، آواه، كما هو... مبتلاً موحلاً بكامل ما عليه، وغشيه بدفء الغطاء الشامل يلمه من قدميه كما هما في حذائهما الموحل إلى قمة رأسه، ويأخذه في نوم الأمان...

هو ذا شعوره... هي ذي أمه...

32

وطيس المعارك يرتفع حامياً على سطح الطاولات، النادل العجوز يتلوى في حركته بين المقاعد بمرونة تيسرها الدربة ولا يسمح بها السن. نظرة عيادي ترنُو إلى مكعبات الدومينو في حسرة... أقصي لثالث مرة، وأدى ضريبة الخاسر... ليس في هذا جديد، ولا فيه ما يبعث الأسى... إنما الأسى في أن يكون القَشاشْ هو المنتصر...! هذا الفم الأغور واللسان السليط القذر... سد عليه... سرْ وخلّه... سد على الوليد... على الزين المقلوب، والوجه فاضي مكبوب... حلاوة الحذجة وحبّ الرمان...! سد عليه في الحبس، يقطع الحس، لا حركة لا نفس...! سد عليك يا وليدي المعلم... إيوه سر تعلم... تعلم تدخل، تعلمْ تخرج... تعلمْ تحبو، تعلم تدْرج! بُس اليد، بُس الرجل وبس الراس، واخدم المعلم يرضى عليك وما يطرا باس!

أعوذ بالله من زعاف لسان لا يهدأ ولا يرتاح... أفعى رقطاء!

كان عيادي يرمق الرقعة والمكعبات المنقطة... لم يسعفه الحظ، وليت ذلك حصل مع آخر غير المهرج الأغور... تتعرج المكعبات المكسورة، تترج

ملتحمة، تنفتح وتنغلق كما تفعل معه أو يفعل بها عندما يُواتي الحظ والخاطر... ولم يكن عيادي يبخل على نفسه بمعالم الانتصار، حركة ولفظاً، لكنه لا يذهب في ذلك مذهب التشنيع والتشهير... مذهب أغور الفم، المهرج... ولا يستطيع ذلك لو أراد.

لا تطاوعُه النفس، ولا يبلغ شأوه... ومن يستطيع ذلك؟ كل كلمة... كل حرف من فم القشاش الأغور نفثة سم... جرح وجرعة علقم في جلق عيادي وسمعه... تذبيح مُتأنٍ بحد مثْلوم مفلوم!

وتلمظ عيادي وحرك رقبته، كأنما يدفع عن نفسه إحساساً بالمرارة والحرج... نظر حوله يبحث عن متنفس، وما لبث أن تحرك يقتلع نفسه اقتلاعاً من المشهد... متنقلاً إلى طاولة التجاري بصَخَبٍ لا يقل عن سابقتها، لكنه صخب محدود مقبول، وهرج عادي يختلط فيه الضحك بالمرح والدعابة بألفاظ التحدي والنصر، عادي جداً كما يحدث كل يوم... عيادي نفسه في انتصاراته على هذه الرقعة أو تلك، يرفع نفسه الزُّهو والفخر، ويضرب على الطاولة ضربة كأنها على ظهر الخصم تقصمه، يغمز ويلمز بالخفيف الظريف المقبول... في حدود لا يتعداها ولا يمكن... يأتي بما يضحك له وخصمه، عليه وعلى خصمه... لهذا خُلقت اللعبة لا لغيره من نفث الزعاف... الجارح، أعود بالله من سياط ألسنة هذا القشاش الفياش الغشاش... لو أنه ينتبه إلى نفسه وحاله... العسلي يرتع في داره، بل في عرضه... أليست الدار عرضاً... وأي عرض؟! العسلي يكتري دكاناً في الدار ظاهره السمسرة وباطنه العذاب أو العكس...! وما خفي أعظم... أعظم بكثير وأكثر! أحوال الناس، صميمياتهم وخصوصياتهم تفتح وتشرح وتملح على يديه... باطنه العذاب وأشد!

انتفض عيادي وعاد إلى نفسه يتابع جولات التجاري، وخُصومات السوق ومزايدتها... عينه على لحظة التوهج، لحظة التقاء الفارس المنتصر

بالصولجان... بالبهجة وشارات المجد... لحظة تصنَعها بالذكاء والمناورة... عندما تراوغ بورقة ضعيفة تتهاوى لها أسلحة القوم... مراقباً بعين اليقظة والحذر بادرة الغش... تحسسْ حيرة المأزق في تململ صاحبك الخفي... انْظر إليه يصُر كتفيه، يضيق به المقعد... يرنو مستنجداً... لا تتركْ فرصة العمر، هنا فرصة تكسير المناعة وحصنها العنيد العتيد لدى الخصم... عينك عليه ولسانك يضرب لإرباكه... ضرب لسان بشري يبهج المتفرج والسامع... حتى الخصم، قد شاركك بردٍّ ما، أو استجابة مفيدة... إنسانية بدورها... العياذ بالله من ألسنة مهرجة سليطة سامة!

تابع تهاوي الأوراق، تقاطعها على الرقعة والدلالة مطلا برأسه يلم بمحتوى الأوراق لدى اللاعب الأقرب إليه... نشوة وتطلع يعرف المتمرس وقعهما في النفس، عادية جدّاً أوراق اللاعب الأقرب... بيد أن ما عند ظهيره يؤخذ في الحسبان... ويمكن بالحذق والفطنة أن يصبح عتاداً ينزل الهزيمة بالخصم يُكبده خسارة الشَرْيَة... ما يزال حلقه يغص بالمرارة والجرح، متابعاً معركة السوق الحامية وخلط الأوراق والأثمان والأصوات والخواطر... في انتظار جولة تجارية جديدة...

في مرارة غصته، لم ينتبه عيادي وهو يتابع مناوراتها ومزايداتها، للقابع على القرب منه، غير حافل بعالم البيع والشراء، ناشراً أجنحة صحافته حائلا بينه وبين الكون حوله، منغمراً في مؤامرات... ومؤتمرات... مولاي المقال، إدريس المقالات، بامقال...!

ولم يكن بامقال بالذي تفلت منه فرصة كهذه، عيادي خارج السوق، هارب من معركة، رمته هزيمة اللعبة، فريسة ضيم واجتراح... فرصة متاحة، هدية مصونة، وفي ورق سيلوفان مبرقش، يغري ويجذب بتحليل الكون كله... ولكن لا بأس من التخفيف... ظروف التخفيف تدخل في الاعتبار هنا

أيضاً... يجب أن يفتتح بحديث خفيف يستدرجه... لابد من موضوع يهمه بدرجة كبيرة ومباشرة... ما رأيه إذن؟ لم يكن عيادي ليسمع السؤال أو لينتبه إلى مصدره، فمرارته تحولت عن كل شيء إلا الرقعة... كأنه يغرق الهزيمة في المتابعة والتركيز... حماسته معدة لذلك.

ويغوصُ بامقال في الصفحات المنشورة على مصاريعها مفتحة أشرعتها على الرياح الأربع... ينهي جولة بين السطور، ثم يطويها ويسأل صاحبه مرة أخرى عن رأيه، وهو يلكزه بمرفقيه، حتى لا يترك له فرصة للتجاهل... لكزة غير رفيقه بقصد... ما رأيه؟ فيم؟ ويوشك عيادي أن يعود إلى رقعة تركيزه وهو يركب على سؤال سؤالاً سطحياً، دون أن ينظر إليه... فيمَ؟! وتعود لكزة المرفق... تعود بشبه خشونة أو أكثر... ما رأيه؟ كلخ... حمير... ماذا يقول عيادي أكثر من ذلك! وكأن لكزة الجار تشجعه في تعليقه القاسي على اللاعبين... هو الذي لم يبتلع مرارته بعد؛ أعوذُ بالله... لكل طريقته في المناورة واللعب... لكن الأخطاء الكبيرة لا تغفر ولا تقبل... وهي تفسد اللعبة والفرجة على السواء... كلخ! وأكثر!.

كان بامقال قد طوى جريدته، أو لمَّ بعض أشرعتها على الأصح، واقترب بوجهه من صاحبه المنغمر في حركة الرقعة شبه الملتفت إليه... اقترب من أذن عيادي وهو يلكزه برفق رفيق هذه المرة، لمجرد التنبيه إلى ما سيسر له، ويقول إنه لا يسأله عن اللعب!

يلتفت التفاتة كاملة... لا نصف استدارة ولا شبه... تبتسم في وجهه نظرتا المقال واسعتان ثخينتان... أهلا...! يبتسم له، وقبل أن يجد الفرصة ليستدير عائداً إلى رقعته وتركيزه، يقدم له المقال صفحة مطوية واضعاً أصبعه على الخبر... انظر... رنا عيادي إلى سبابة الرجل في موقعها الضاغط على الصفحة، تكاد تنفصل كعابها مارة على حروف العنوان بتتبع وتؤدة، يتساءل

عيادي إن كانوا، إن كانوا أخيراً قد نشروا فعلاً مقالة صاحبه أو مقالاته...؟! لا، لا. يجيب الرجل في هيئة غير المكترث بموضوع السؤال، وينطلق يقرأ العنوان المقصود على سمع عيادي وسبابته الطويلة المعروقة تتابع الحروف: حرب على الفساد... الرشوة... المحسوبية...

لم يكن عيادي راغباً في الفهم، ذهنه الخامل عن هذا التوجه لا يسعفه، وفعلاً لم يفهم... ودارت عيناه في محجريهما تبحثان عن مخرج من فخ أدرك متأخراً أنه وقع فيه إلى القعر... فخ بامقال وأحاديثه التي لا تنتهي... وابتسامته الآن تحت النظارتين السميكتين اللماعتين مطمئنة على مشروعها، تنتظر استجابة مرضية...

يزداد شعور عيادي بالحرج، لا تسعفه البديهة ولا خمول العزيمة بأكثر من أن يقول في هيئة المستعجل على عودته إلى وضعه باتجاه الرقعة... صحيح...! حقيقة...:! ويزم شفتيه بالكلمتين الخالصتين المخلصتين لوجه الحق والحقيقة! لكن بامقال قد انطلق، دون أن يعبأ بشيء، يقرأ تفاصيل الموضوع بهمس مسموع، مختلط بتعليقاته على ما يمر أمام نظارتيه... هذه هي الصحافة... صحافة حقيقية... محاكمة الفساد بكل مظاهره... هذه بلاد المروءة والشجاعة والرجال... مجتمع العقول والضمائر... حزب حاكم بكامله يتهم بالفساد... قيادته تحاكم وهو الحاكم! هذه مجتمعات حقيقية... وما رأيك في أمة العرب والإسلام؟ لينظر كل منا وراءه وأمامه وإلى جانبه... أليس أولئك الأجانب الأعاجم العلوج أولى بالانتساب إلى حضارة العرب والإسلام... عدالة العُمَرين وقوة الرشيد وابن تاشفين؟!

فخ حقيقي ضابط مضبوط، محكم محكوم وعيادي لا يدري ماذا يقول... فهو لم تتح له فرصة الفهم، ولا يدري ولا يريد أن يدري ما الموضوع... ثم هو مبيت نيته على ألا يفهم، وألا يشارك، بل على أن ينقذ نفسه من فخ مشبك شديد

التعرج والتعقيد، وأفر المداخل والمبتدآت، بدون آخر ولا مخرج ولا خبر!

قال عيادي لمجرد طرد نفسه من المشاركة، ولإشعار المقال بأقل ما يمكن من المجاملة الدالة على أنه لا يرغب في استزادة ولا متابعة:

ـ أولاد الحرام!

هل يخفى على المقال أن الجواب لا علاقة له بالموضوع... يجب ألا يخفى عليه ذلك، لان عيادي لن يزيد بعد هذا إلا التحصن بالصمت المطلق، هذا عزمه، هذه عزيمته، هه!

ابتسامة النظارة الثخينة مطمئنة إلى مشروعها، تسأل الآن بهدوء ووضوح، باتجاه مقصودها الحقيقي، لا يهم انحراف الجواب ولا عموميته أو ابتعاده عن الموضوع، المهم والأساس أن بامقال حظي بجواب، ولن يوقفه شيء. يسأل الآن عن ضمائرنا نحن وشخصيتنا وتاريخنا ومستقبلنا؟

مرغماً عيادي، أصبح في استدارة كاملة إلى نظارتي صاحبه... وانتهز بامقال فرصة الحيرة التي اعترت عيادي، ليستبد به ويديره بمقعده نحوه، ويكاد يصبح بمواجهته... لينظر ما حوله، سمسرة العسلي والعسليات، تجارة الغش، ثروات ترتفع وفقر يلتمع... فساد وأجيال فارغة، أوكار وأغوار تتوالد في دواخل الناس وأعماقهم... لو فتحت القلوب، ماذا تجد؟ لا تقل تودداً، تعاوناً، محبة... لا تقل تعبداً، صلاحاً، وفضيلة... لا تطمع في نقاء وتربة خصبة مهيأة جاهزة إلا لغش وانحراف... وتمثال الفساد يعطي السلام، وعليك مني السلام، يا أرض أجدادي!

انظر حولك... انظر... ويسارع بامقال بتثبيت وجه عيادي بمواجهته حتى لا يلتفت فعلاً ويفلت... هيهات... انظر حولك... ليس هنا فحسب. افتح عينيك وبالك على ما يجري حولنا في العالم أين نحن وأين الآخرون؟

كيف وصلوا وكيف لم نصل؟ ورثة العمرين والرشيد وابن تاشفين، نحن أم الآخرون؟ وانظر الآن حولك هنا... في هذه الجلسة، ماذا ترى؟ ألا ترى؟ انظر وتمعن. وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت! أفق يا أخي. أفق معي...

ويا أمة ضحكت...!

شحنة نظرته تلهب سمك الزجاج، محدقة بعمق في عيني عيادي المذهول من تدافع ما يسمع... وكانت يدا المقال قد تركت صفحاتها لتمسك بكتفي عيادي الذي يتابع بدون فهم ولا استجابة... علينا أن نرفع الرأس... نرفع اليد والصوت ونشمخ بالأنوف... نحن ورثة العظماء وأمة العرب والإسلام... علينا أن نتعلم نحن الكبار قبل الصغار، كيف نعلو ونضحي... ونعلم أبناءنا ذلك... منا نحن يتعلم الجيل، كم ملاّك منا اليوم يستطيع التبرع بداره مدرسة؟ كم معلم أو أستاذ يستطيع أن يضحي بوقته يعلم الأجيال الصغيرة والكبيرة... ألسنا أمة التعاون والتعاضد والتآزر؟ كم طبيب وكم محام... وكم... وكم من أولي المال والكنز يستطيع أن يكون القدوة في جهاد الوقت والمال؟ كيف إذن ننهض؟ أنبقى فريسة ثالوث الجهل والمرض والفقر إلى يوم يبعثون؟... أنبقى... ويبقى المفسدون والغشاشون يرتعون ويتناسلون والضمائر تموت؟! العقول والضمائر كائنات حية فينا وبنا، شبيهة بالغرس والنبات إذا أهملت ذبلت وماتت وذرتها الرياح...

سيل لا ينقطع، وذُهول عيادي عميق عميق، أُخذ على غرة مصلوباً مُنَوّماً... والسيل لا ينقطع، ويسأله ما رأيه؟ صحيح، حقيقة، كله حق وحقيقة، عندك الحق... إيه... إيه...

ترتفع ضجة المعركة من مراكز الطاولة المجاورة، أيمان مغلظة وأيد تهتز... يجدها عيادي فرصة للإفلات من أسر صاحبه، يستدير ليلم بما حصل

في لمح البصر مردداً... كلخ... كلخ... وبهايم...!

فعلاً بدا لعيادي أن خطأً لا يغتفر كان سبب خسارة وربح... خطأ غفلة وبلادة، أولى بمرتكبه ألا يعاود الجلوس إلى الطاولة... فعلا يجد عيادي أنه يتأفف من مستوى اللعب، وبوده لو يفر بنفسه ويناى عن هذه الرقعة والفرجة، لولا لسان القشاش لظل في رقعته يتفرج ولو بعد خسارة... كن السبُع وكُلني! هذه كلمة اللعبة، والفرجة نفسها، بهجتها تضيع إذا نزل المستوى إلى مثل هذه الغفلة...

فعلاً يعول عيادي على أن ينصرف بنظره وباله عن الفرجة، على الأقل ليربح ذهنه... نظارتا بامقال ترصدان حركاته، بل إن همساً بلغ درجة من القوة أطلقه سي إدريس المقالات، دون أن يجد منفذاً لكيان عيادي المنشغل بخبطة الغفلة والبلادة على الرقعة... ضاع الهمس والمسموع وحتى الحركة المنبهة المشوشة، لكن عزيمة المقال لا تيأس.

نظارتا المقال ترصدان بهدوء واستكانة حال عيادي الباحث عن منفذ لضيفه بمشهد الرقعة، تدرك النظارتان بخبرتهما أنه لابد أن يلتفت على ألا يفلت.

فعلاً، يتلفت عيادي، بل يستدير في حركة عفوية تنشد الخلاص من أسر رقعة متدنية المستوى إلى هذا الحد... حركة عفوية تدل على أنه نسي مقام من يترصده على جانبه، وما يكاد يتم التفاته بحركة المقعد يوشك أن يتأخر به قليلا، حتى تواجهه الابتسامة العريضة الهادئة تحت النظارتين السميكتين لبامقال! يا لله! بسرعة يحاول عيادي أن يؤسس انخراطه في جو الرقعة، بسرعة مدهشة يعود أدراجه وباله إلى الرقعة... يطل على يد هذا، ويتطلع إلى أوراق ذاك، يحدق في الرقعة، ويجول بالنظرة، هنا وهناك كأنما يؤكد لنفسه ولمن يترصده،

أنه ليس هنا... بل هنا في الرقعة... منهمك في اللعبة، لا في غيرها ومصمم على ذلك!

كلخ... كلخ... بهايم وأكثر...!

يؤكد ذلك عيادي بهمس متعمد مسموع، يريد به أن يعرف من يحب أن يعرف، أنه غائب ذائب في عالم آخر يستغرقه في كليته، ولا يتحمل مزاحماً أو منافساً.

يستقر الوضع بعض الشيء، يضمن عيادي لنفسه أنه أشعر من يريد، بما يريد، يحس بنظارتي بامقال تجوسان في كيانه، حذو العنق والرقبة والكتفين، يحس بأنفاس الرجل ساخنة تداعب مقتربة منه في تودد واستجلاب...

يقفز عيادي كالثائر على ما يجري في الرقعة... كلخ... والله العظيم كلخ...!

آه، آه، واأسفاه على يوسف...

يا أمة ضحكت!

33

انتفضت سليمة على صوت طرق الباب، كحالها طوال أيام المحنة... أسرع عزيز نحو الباب يفتحه على غير عادته منذ اختفاء نجاة... فقد أصبح سنداً لأمه وأخته في وحدتهما... على الأقل، أصبح مهتماً ولا يكاد يتغيب رغم أنّ جهوده في البحث كلها ضاعت سدى... لعله بقدر ما كان حانقاً، كان جرحه أيضاً عميقاً بغياب نجاة، نجاة بالذات... كيف تفعلها؟ وبدون مقدمات؟ وهل فعلتها حقاً؟ هل هجرت من ذاتها وغادرت طوعاً وبتدبير منها؟ كيف إذن وبلا مقدمات؟

انفتح الباب، وسمع صوت عزيز يسأل الطارق، صوت غريب أو غير مألوف على الأقل... لم تنتظر سليمة، وإنما أسرعت إلى الباب لتواجه الطارق... أما عزيز فقد تجمد في مكانه... مَن؟ عزيز يجيل النظر بين أمه والطارق الغريب في حيرة من رد فعلها... الموقف كله يلفه الغموض والدهشة والجمود! ماذا يعني كل هذا...؟

يطول الموقف بسليمة، مشدوهة متخشبة تقف أمام الرجل الطارق، ولا تفيد عبارات عزيز المستفسرة... لا يجيب عنها الطارق ولا ترد عليها الوالدة...

على أن يخرج الرجل عن صمته وجموده، فيحيي بتحية الإسلام مبْتسماً باشاً، ويتقدم من ذاته إلى الداخل بهدوء وبشاشة، تفسح له سليمة الطريق، تتبعه ثم تسبقه، ترشده إلى حيث يجب أن يجلس، أمام دهشة عزيز وعجبه...!

تدعو سليمة ضيفها إلى الجلوس بالإشارة، وبعبارة غير مسموعة، ما زالت في دهشتها كأنها لا تصدق ما ترى أو لا تقدر على مواجهته... كررت إشارتها في هيئة تلطف وترجي، كأنما الضيف بذلك يلبي لها أمنية غالية...

وتنتبه سليمة إلى حال ابنها العاجز عن مسايرتها أو القيام بما يجب، فترحب بالضيف بعبارات أكثر وضوحاً، ترحب بعبير سيد السيد، بظله وفضله وبركاته، ثم ترفع صوتها بعض الشيء موجهة خطابها لعزيز، تعرفه بالضيف الغالي:

ـ مرحبا... ألف مرحبا بالسي التبعي... ومرحبا بسيدي وسيده!

كانت ما تزال تغالب وقع المفاجأة التي زادت من تعقد حالها، فيما هي فيه من مصاب... زيارة مثل هذه... زيارة مثل هذا الرجل لا تخطر ببال أبداً... أبداً... وتظل واقفة، منتصبة قرب الباب، ترقب الرجل في تهيب كأنما هي الضيف... تظل كذلك، حتى ينتشلها الرجل من غموض الموقف قائلاً:

ـ سيدي ولد السيد يسلم عليك!

ـ وعليه السلام.

تملؤها رهبة وارتعاب؛

ـ سلام الخير والبركة.

تكرر وتُعيد:

ـ وعليه السلام، وعلى كافة أمة سيدنا محمد!

ظلت في وضعها، جامدة في وقفتها أمام الضيف، حتى أشار إليها بالجلوس، لكنها لم تدرك إشارته أو لم تستطع أن تتحرك لتلبيتها... فتابع الرجل حديثه من ذاته، يرجوها ألا تدهش من زيارته... ألا تدهش مما ترى وتسمع، وكله خير في خير... وهي فيما هي فيه من محنة... كله خير في خير بمشيئة الله...

رنت في وعيها عبارته عن محنتها بوقع خاص... إذن محنتها معروفة... من ولد السيد نفسه... يا بركة الله وسيد السيد... ودون أن تشعر أو يدعوها أحد، جلستْ على السداري مضمومة الأطراف أمام الرجل...

نظر التبعي إليها ملياً ببشاشته وهدوئه، ثم إلى عزيز الذي اقترب من مجلسهما وظل واقفاً يترقب، غير قادر على التلاؤم مع موقف لم ينجل بعد.

عاد الرجل بنظرته، وقال بهدوء وبإخبار مفاجئ متسائل، أنّ الأمر يعني موضوع نجاة!

ـ نجاة؟!

هتفا معاً، سليمة وعزيز.

ـ نعم نجاة... بنتكم وبنتنا نجاة... هي بخير وعلى خير... وفي دار السيد!

تهاوتْ سليمة وارتخت ملامح عزيز المتوترة بحثاً عن استجابة ملائمة، لموقف غير منتظر...

ترك الرجل فرصة للصمت، يتيح للمرأة أن تستوعب وتستعيد وعيها بما حولها... ليقص عليها ما عنده، بهدوئه وبشاشته المعهودين: نجاة طرقت باب الدار، محتمية بالسيد!

لم تفهم سليمة أن تكون ابنتها محتمية: ممن؟

غير الرجل عبارته... جاءت الفتاة قاصدة... نزلت ضيفة... جاءت زائرة، المهم أنها في أمن وأمان... بخير وعلى خير... كل الخير وكل البركة... والسيد يطمئن ويقرئ السلام... يمكن زيارة نجاة في كل وقت على الرحب والسعة... والدار دار الجميع... داركم بالذات!

لم تفهم سليمة ما تقول بعد، السيد يقرؤها السلام، هي بالذات، والدار دارها من قبل ومن بعد... ماذا تقول؟ لماذا لم يخبرها أحد بالأمر حتى الآن؟ هل خطفت نجاة أم أجبرت أم...؟

أحس الرجل بما يخامرها من أسئلة... فانبرى يوضح لها ما حدث... ما حدث كله بقدرة قادر، لكن نجاة فعلت كل شيء بإرادتها ورغبتها... هي التي قدمت من ذاتها على الدار ذات مساء، جاءت بكامل إرادتها وحريتها... وردت وحيدة بدون رفيق أياً كان... وطلبت البقاء في الدار... دون أن يوجهها أحد أو يطلب منها ذلك... الدار دار الجميع... مفتوحة للجميع، ولكل مقروح مجروح!

كان الرجل يمطط عباراته الأخيرة، كأنه يتلمظ بها أو يعمق معناها، هو العارف بحرقة المقروح الذي يقصد الدار، ويعرف ما تعرفه سليمة من ذلك.

وبدا أن ما بين التبعي وسليمة من التفاهم، أبعد بكثير من أن ينجلي عن شيء لفهم عزيز، كانت سليمة تتابع حركات الرجل وإيماءاته بإيقاع يدل على عمق ما ينفذ فيها من قوله وموقفه، ورغم محنتها وما هي فيه من حال، بدت سليمة وكأنها في موقف مواساة بالنسبة لمن هو في وضع من يحمل الدواء... الرجل إذن في وضع بوح ذاتي تدركه سليمة بحكم الخبرة والمعاناة، تدركه جملة ودون تفاصيل... لعل في اطمئنان المرأة على سلامة ابنتها، ما جعلها قابلة لأن تجود بمثل هذا التجاوب مع غيرها... ومع التبعي بالذات... أم أنه انتزع منها الموقف بمجيئه مبشراً بوجود نجاة وسلامتها؟ وأي بشرى أكثر من

هذه كانت سليمة تنتظر؟ أي خبر غير هذا كان كفيلا بإثارتها وإخراجها من جمود وجدانها؟... بل أي قوة كانت قادرة على أن تعيد إليها ثقة فيمن وفيما حولها؟!

الرجل إذن يتألم عن شيء ما بشيء ما... والمهم أنه يخبر بسلامة البنت، ابتسمت سليمة الآن ابتسامة حقيقية، وعاد إليها وعيها بالحال والوضع، الآن هي إنسان عادي... ترى فعلاً وتسمع حقاً وصدقاً، وتحس بنفسها وبكل ما حولها... الله يا ربي، ما ألطفك وأوسع الرحمة والراحة منك.

الرجل أيضاً، كأنه عاد من سرحة خاطره، سرحة عميقة خاطفة، وعاد لنفسه إلى الوضع حيث هو أمام أم مقروحة، يحمل إليها رسالة بشرى. أسئلة كثيرة تجول بخاطرها، يعرف ذلك ويدركه، أجاب عن بعض ذلك وبعضه لم... بعْد...

التبعي عليم بما يفعل. لعله تعلم الكثير من مرافقة السيد الوالد في آخر عمره ومن السيد الابن... عشرة سنوات صلاح تعلّم الكثير... وتعلم أيضاً من بوح المقروحين الزائرين المحتمين والزائرات، لذلك فهو يقدم إليها الخبر والموضوع مجزءاً مقسّماً، الفرحة نفسها تحتاج إلى مقدار، وإلى توزيع ومقدار كالدواء، والجرعة المفرطة منها تضر أكثر مما تنفع.

المرأة الآن سمعت ووعت سلامة ابنتها، هذا أول شيء وأدركت المكان والزمان... فليترك لها أن تهيئ ما لديها من لهفة وسؤال، لها الآن أن تضبط حركتها والقول.

حاولت سليمة أن تستوعب ما تسمع وقد بدأت تهدأ، هدأت فعلاً... وبدأت الصدمة المفاجئة تزول لتسأله عن حالها؟ حال نجاة؟ سؤال بدا بدون معنى بعد كل ما سمعت.

ابتسم لها التبعي في إشفاق وتلطف، وأجاب مكرراً كل ما سبق أن أخبر به... نجاة بخير... بكل خير في حمى السيد وحمايته وفي أمن وأمان... في رعاية السيد وضيافته... يحوطها الخير والبركة... كل الخير وكل البركة... لتهدأ... ليهدأ قلب الأم عن كل توجس وتخوف، ليستعد طمأنينته وليقضي الله أمراً كان مفعولا...

التفتت سليمة إلى عزيز المتبلد في موقفه، تحثه على الترحيب بالضيف العزيز حامل البشرى، والمنة الكبرى التي من الله بها عليهم بهذا النبأ السعيد... لا تدري كيف تشكر هذا الرجل الذي يأتي لينتشلها من محنتها ويعيدها إلى الحياة... ولا تدري كيف تشكر سيد السيد... الحمد لله على كل حال، وكل شيء بقضائه، بحكمه وحكمته...

كلماته تتدافع، متداخلة الأفكار متقاطعة الخواطر، يغالب بعضها بعضاً ويسابق... وقامت في هيئة من تستعيد كامل وعيها بدورها، لتقوم بواجب الخدمة والضيافة... أقله الشاي وما إليه...

يبادر الرجل وهو يدرك قصدها، فيقوم يشكرها ويعتذر لأن السيد ينتظر عودته، مع ما عليه من واجبات أخرى لا يقوم بها غيره... لم تستطع المرأة أن تلح، فقد نهض الرجل فعلاً وتهيأ للوداع بحزمه وبشاشته التي لا تقابل بغير الرضوخ والطاعة... أبدت المرأة أسفَها لغفلتها طوال الوقت عن واجب الضيافة... بدأت تكرر اعتذارها بكلمات معادة بما كانت فيه من حال... بادرها الرجل بألا تتعب نفسها، هو يعرفها... امرأة أصيلة وبنت دار كبيرة وكريمة، أكد ذلك وسار أمامها باتجاه الباب، حتى إذا كانا على مقربة منه قال لها التبعي، وهو يتأهب للخروج:

ـ سيد السيد يطلب منك المسامحة... يعتذر ويطلب السماحة!

دهشت مما تسمع، واتجه بالها أول ما اتجه إلى التجاء نجاة إليه... فعلام تسامحه سليمة في ذلك... فدار السيد مفتوحة والبنت بكل خير، وإذا كان هناك من يعتذر فهي التي يجب أن تعتذر، أن تشكر وتعتذر...

أدرك الرجل اتجاه أفكارها، فأوضح أنه لا يطلب المسامحة من أجل ذلك، وإنما من أجل شيء آخر!

تساءلت بملامح جهل واضحة، قال التبعي وابتسامته تتسع وبشاشته، وهو يضع على كتفها ويوضح أنه يعني حالة العودة، تعب العودة بعد الزيارة... لاشك أنها تعبت فوق ما تعودت وما تحتمل... لا بأس عليها... لا بأس...

كانت تتابعه، تتحسس وقع كل كلمة منه، وتجمدت ابتسامتها له وهي تشرد في مشاهد وانفعالات وأهوال... وينظر إليها الرجل بملامح عطف وإشفاق. ملامح تجعل منه كاشفاً ومكتشفاً عن أغوار لا يعلمها من المرأة غيرها، تظل بدورها مجمدة في نظرتها على ملامحه، غائبة بخاطرها فيما مر بها، أو تظن أنه مر بها فعلاً!

34

ماذا كان التبعي يقول؟ وماذا كان يعني؟ تجهد سليمة فكرها وتعيد... تتذكر ملامح الزيارة ومعالم الطريق وتعريج الخواطر... كل شيء يمكن أن يبدو لها الآن واضحاً مترابطاً مفهوماً، معقولاً، ابتسامة السيد الوامضة، وبرقُ نظرته اللامح الخاطف، واستنكاراته المتسائلة، وغوصه في أعماقها لاكتشاف الموضوع والنية والقصد، الله يسامحها، وسيد السيد... ومتى خفي على الأولياء الصالحين شيء من ظاهر ومستتر؟ ليسامحها ولد السيد، ليسامحْها الله...

كانت قد خرجت من زيارته تلك، يلفها الغموض كما كانت تشعر إذ ذاك... الآن يبدو لها النور والضياء، والرؤية الصافية أوضح ما تكون وأصْفى... «الخير فيما اختاره الله!» لم يكن إذن ثم شيء يعمل أو يقال... أيغيب حمادي ونجاة، كلٌّ في اتجاه عكس اتجاه الآخر دون أن يلتقيا لقاء واحداً بصدفة أو قصد؟! ورفْضُها طلب السيد في أن تبقى نجاة برحاب داره... دعوته المبهمة الواضحة لذلك وعزوف سليمة، بل خوفها من ذلك... ما علاقته بكل ما مر بها في طريق العودة؟ ما تراءى لها، ما عانته من أهوال؟! الآن تخرج من دائرة

الغموض إلى فساحة النور، تحدّث نَفْسها بما لم تحدثْها به من قبل، لتفهم وتزداد إيماناً وتسليماً بما وقع... وكله خير... خير وبركة...

طريق عودتها تلك، كان دوخة... دواراً... لا لم تكن الدوخة والدوام ما أصاب سليمة حين خروجها من زيارة السيد رفقة نجاة... عليها أن تُصارح نفْسها بالحقيقة الآن... لقد تراءت لها فوهات عميقة كانت تنبثق عند قدميها حيناً بعد حين... كانت تتفادى ذلك بتوجيه خطوها تارة بعد أخرى... لتقل إنها أغوار سحيقة كانت تنفغر فجأة أمامها، عند قدميها وهي تخطو، فلا تملك إلا أن تتوقف أو تنحرف إذا أمكن... كانت تجر معها الفتاة مع كل انحراف أو توقف مفاجئ عن الخطو... لعل الفتاة تعجبتْ كثيراً من ذلك واستغربته، لكنها على كل حال، فيما كان يبدو عليها، لم تكن ترى أو تعاني ما تعاني وترى أمها... أم كان يتراءى لها أيضاً شيء آخر... على نحو آخر؟!

مهما يكن، لم تكن سليمة بالتي تذكر لابنتها ما يتراءى لها في ذلك الحين، ولا كانت نجاة بالتي تفهم ذلك... تلك الفوهات لم تكن مجرد أغوار يملأها الظلام والفراغ... بل كانت ملأى بالهول تطل منها رؤوس وقرون والسنة عجيبة لكائنات غريبة، ولهيب ونيران بألوان لم تعهدها... زرقاء خضراء صفراء...! أكثر من ذلك... أكثر بكثير... كانت المرأة تحس بدبيب أو خفيف أو خشخشة أو زفير يتبعها، وكلما التفتت للتأكد تراءت لها رؤوس وحشية متقلبة على الأرض أو معلقة في الفضاء، أفاع وأحناش وذئاب وأسود... وحوش مفترسة وكائنات غريبة تتراءى لها بكل وضوح، بكامل عدوانيتها وتحفزاتها للانقضاض والاهتمام... محنة وأي محنة كانت؛ ونجاة إلى جانبها لا يبدو عليها شيء مما ترى وتسمع أمها، والغير من المارة ليس في شيء من عالمها... هكذا ظلت تدوخ وتتماسك، تنحرف وتتقي وحدها دون غيرها من خلائق الله... وفجأة... فجأة بعد المحنة والعذاب، يذوب كل شيء ويغيب، لتجد سليمة

نفسها وقد عاد إليها توازن خطواتها، واطمئنان خاطرها وسيرها وإدراكها لما حولها، لتسير بأناة نحو دارها...

أكل ذلك مرتبط متماسك ولا تدري...؟ أكان لها أن ترفض طلب السيد أو تعارض رغبته؟! أكانت لتعود أدرجاها إذ ذاك إلى دار السيد ممتنة شاكرة مرحبة بالقرب، تاركة له الأمر حتى يأمر أو يلمح بالرضى عن ذهابها؟! وكيف تدرك ذلك إذ ذاك؟ ودعاؤه بالصبر وبشر الصابرين، أكان يعني علمه بما لم تذكر له من حالها هي، وبما أصاب كرامتها؟ أكان تطييبه لخاطرها بالدعاء بعيداً عن أن يعني ما كانت ستتعرض له من محنة في طريق عودتها؟ أيخفى عليه شيء؟ أيخفى على أهل الله شيء؟ كيف غاب عنها أن تدرك ذلك في وقته، هي التي لم ينصرف بالها إلا إلى مس أصابها، أو عاهة في الصبر أو السمع؟

هكذا يؤوب كل شيء إلى مجراه الطبيعي والمنتظر في علم الغيب... هكذا تمتحن سليمة بأكثر من صورة، وعلى أكثر من نحو، وهكذا... وهكذا تبتعد نجاة كل البعد عن خط حمادي كما ابتعد هو وأكثر... هكذا لا يكتب لأحد منهما رؤية الآخر لا خاطباً راغباً... ولا مخطوباً... كل شيء يعود إلى ما قدر له، بلا دافع ولا مانع ولا حاجز... أتكون واهمة فيما تستنتج؟ ما المعنى إذن؟ وفيم كل هذا الكلام الرامز من التبعي؟ هكذا يذهب كل اعتراض. كل شيء يرتفع وتصبح إرادة السيد... إرادة نجاة... أمراً واقعاً بلا توجيه ولا إكراه أو معارضة... ويظهر ما حسبته سليمة عقوقاً من المتعقلة نجاة، مجرد تلبية لإرادة خفية مسطرة... كل شيء إذن في طريقه كما يجب أن يكون... وكيف لها أن تدري بذلك...؟

وبشر الصابرين...

35

تبدأ في الهُمود شيئاً فشيئاً ضجة مقهى الجيارة، كما تأخذ النار في الخمود تدريجياً بفعل بلل متسرب، الوقت ما يزال بُعيْد العصر أو قبيل المغرب... الطاولات متنثرة بزبائنها خارج المقهى وداخله؛ يرتفع لغط مجموعاتها ما بين لاعبي الورق والضامة والدومينو، تتدافع منهم أصوات الخيبة والانتصار... ضجة لا ينتظر لها أن تهمد قبيل منتصف الليل في العادة، وعلى خلاف كل معتاد يدب فيها الخمود شيئاً فشيئاً، بقدر ما تتقدم خطوات علي الشخش وشلته بين المقاعد والطاولات.

حركات أيد تجمدت في الفضاء عاجزة عن إتمام حركتها بضربة انتصار، مسددة إلى صدر الخصم بدل رقعة اللعب، لتقع على عرض الطاولة...! عبارات يتقطع سيلها وتغيب مقاطعها في الحلوق كأنها تعود إلى مصدرها... عيون تتوقف حدقاتها متوجسة، تتحسس وقع أحذية الشلة بطرف البصر، متحفزة لكل طارئ.

بحركات عفوية أُخليت مقاعد قريبة أو مجاورة لطاولة الركن التي سددت نحوها الشلة خطواتها... بعض الزبائن أسعفتهم سرعة التصرف فبادروا

بالانصراف، وأغلبهم قعَد به التجمد عن مثل ذلك، كأنما يغيب في مكانه بانتفاء التحرك، ناهيك عن متعة فضول في فضاء مشبع بالحيرة والتوجس.

استوى علي الشخش، شاب مديد القامة، عريض، مفتول الكيان بادي العضل، تبين حركاته عن فيض نشاط، وقابلية فائقة للعدوان يزكيها شعوره بقدرته المتميزة... ويزيد من مظهر قوته الخارقة ضيق القميص المحصور على جذعه، وثني كميه القصيرين أصلا، إلى ما يحاذي الترقوة من أعلى الكتفين...

جلس علي الشخش إلى الطاولة منتصباً كالمتحفز، وجلست حوله شلته من فتية يبدو من حركاتهم أنهم أتباع وتلامذة ومعجبون إلى درجة الافتتان... كانوا مثله يقلدون حركاته دون أن يمتلكوا ما يمتلك طبعاً...

طلبوا ما يشربون... النادل العجوز النحيف يلبي طلبات الجماعة بحماسة وهمة زائدة، ولا تبدو عليه حيرة أو فضول... مشهدهم مألوف لديه رغم أن زياراتهم لا تحدث إلا نادراً... فهم يتنقلون بين المقاهي والمجالس، بحسب ما تدعوهم إليه الحاجة أو حب الظهور، وإثبات الوجود... تستهويهم في الغالب أماكن مثيرة للتحدي والتعارك الحقيقي بطبيعتها أو طبيعة من يرتادها. أما هنا في الجيارة فكل شيء مسالم.

استقر المقام بالشلة، وبدأت الأحاديث تدور حول مغامرات الشخش وأفاعيله بأعدائه... معارك سلسلة لا تنتهي والفتيان يساعدونه في التذكر وإحياء المشاهد... يبادرون إلى تشخيص بعضها بحركاتهم تمثل لكماته الموجهة إلى الأعداء... ورفضاته... بل أفانينه في إثارة خصمه ومواجهة هجومه بانحناءة تجعل في مقدوره حمل كيان عدوه إلى أعلى والتطويح به... مشاهد وحركات تذكي في الفتية حماسة تنعكس على تحفزاتهم، وكأنهن يخضون معارك آنية نابضة بالحقيقة والحياة.

يشربون بأناة ما طلبوا من لبن وعصير وقهوة مكسورة... وحلويات... يتأففون بين لحظة وأخرى ويغيرون المطلوب بآخر... لا بأس، ولا راد لرغباتهم والنادل العجوز مستأنس بذلك، مألوف لديه... يقول في نفسه ولصاحبه دائماً: أعطهم ساعتهم واشتر السلامة بالطاعة والتسليم... لا بأس... لا بأس. ينفذ العجوز الطلبات، يلبي الرغبات، يغير ويحول، لا تعتريه خشية أو تذمر... الزيارة نادرة لمثل هذا المقهى... لكنها تحدث وتظل متوقعة، فالشخش لابد أن يمر في يوم من الأيام، كأنه يتفقد ملكوته في كامل درب السلطان وسائر دروبه... يختار لنفسه في كل حين مجلساً في مقهى أو دكان أو غير ذلك... أحياناً قد تكون الزيارة من أجل موعد محدد، أو لاصطياد خصم بدون إشعار أو إنذار، وتلك تكون كارثة، وفرجة أيضاً لمن يريد...

عيون الزبائن رانية متوجسة... متابعة بنصف نظرة، بقلوب واجفة مترقبة... لا يمكن أن يرجى خير من زيارة الشخش وشلته، ولا يُنتظر منهمَ راحة حتى وإن لم يفعلوا شيئاً غير معتاد، وجودهم وحده يستفز...

تسري أحاديث الشلة، تتقاطع ضحكاتها ولمزاتها... تتبارى في إظهار البهجة والنشاط... ويرد اسم «الولْد»... يُذكر عفواً أو بقصد... فتتوتّر عضلات الشخش... ترتسم رعشة متناوبة على خَديه...

الولد غَريم وعدو منافِس... نَبت في مرتع آخر لا يهم الشخش... مرتع المرسى... أولاد المرسى... أمر مضحك... الولْد ولد من أولاد المرسى... أولاد الحوت... قلوب السرديل، وعيون السرديل، ولون السرديل! الولد... يفخمون الاسم، أولاد السرديل، ليصبح في سمع الشخش وفهمه أكثر إثارة للضحك والسخرية... لكنه عندما يتردد ولو بدون تفخيم، وبقصد حسن، يصبح مزعجاً... مزعجاً حقاً... ولو كان خارج الدرب... اسم مزعج لمجرد ما تبدأ الأفواه تردد مغامراته وأحداث أيامه، ليمثل ذلك خطاباً واضحاً متحدياً

للشخش. لا. لن يصل الأمر بالولد إلى التفكير في مزاحمة الشخش في مرتعه هنا... في دربه وملكوته، لا يمكن ولن... المرتع هنا عرين عزيز ومعترك فسيح محصن... وسيكون الولد وولدان المرسى كلهم أغبياء... جداً... جداً... ومغرورون وجهلة... جداً... جداً، إذا فكروا مجرد تفكير أو خطر لهم مجرد خاطر أن يقتحموا أو يخترقوا... هل يتصور عاقل، فأحرى مغامر شاطر في مثل ما يجب أن يكون عليه هذا الولد، إذا كان كما يصفون؛ أن يهاجم الأسد في عرينه وبين أشباله؟!

مع ذلك... رغم ذلك... لابد من حد لهذه الشائعات عن بطُولَة ولْدية ولْدانية... بطولة ومغامرات وأحداث... خرافة... خرافة كبيرة ينسجها صبية أغرار أو نساء، وربما أعداء، ليخلقوا هذه البطولات لمن يسمونه... الولد.

تتواتر رعشات الخدين على ملامح الشخش... الولد... الولد... الولد... لا... لا... لا... ليس هو إلا بنتاً... البنت... البنت... هذا هو، أنثى... بنت... البنت... البنت... البنت، وكثير عليه أن يحمل نعت الولد، نعت وصفة لأبطال شجعان، ومتى خرج الأبطال من المرسى وأولاد المرسى؟!

فيما بينهم، كان أفراد الشلة على دراية بما يدور في أعماق الشخش، وبما تعنيه رعشات خطي الخدين على وجهه... يتحدثون عن الولد بالبنت في جهرهم لبعضهم ولقائدهم... وهم على يقين كامل، بأنه لا يستحق أن يكون خصماً لشخشهم، وأن البنت تسمية مناسبة له، وربما أكثر مما يستحق، وأكثر من ذلك، كانوا على يقين مماثل بأن المواجهة بينه وبينهم، بينه وبين الشخش بالذات، وبين ولدانه وبينهم، ستكون محسومة لقائدهم، لعلي الشخش وفتيته، من يقف في وجه الشخش وأصحابه؟

كانوا يتبارون في سرد بطولات قائدهم، حكايات ووقائع مكرورة فيما بينهم، لكنها في كل مرة تكتسب جديداً في صيغة أو عنصر... بعضهم يذكر

بعضاً ويشهده... يشهدون بعضهم بعضاً، فكل واحد منهم ساهم في واقعة أو معركة، بيده أو سلاحه الأبيض أو بهراوة وما شابه... بعضهم الآخر شارك بالإخطار والإخبار في أخرى... أو بالحضور والتشجيع للقائد في المعارك التي يخوضها الشخص وحيداً، بأمر منه أو بظرف خاص أو تدبير... الشخش عندما يتحدى شخصاً أو جماعة بمفرده، فبمفرده يخوض المعارك، وتظل شلته بمن يكون حاضراً منها مجرد شاهد على النصر...! النصر... النصر؟ وهل يمكن الحديث إلا عن نصر في أية معركة يخوضها الشخش، مهما كان الخصم؟ معارك كثيرة خرج منها الشخش مصاباً، بجرح أو جروح تتفاوت، ولكنه كان يظل دائماً في قلب المعركة، رابضاً على هيكل خصمه، أو طارحاً له جاذباً، إن لم يولي الخصم هارباً يجر أذيال خيبته متحملاً آلامه؛ أو تاركاً جثته هامدة لرحمة قاهرة!

الشخش وحده لا يسقط، أو هو يسقط لينهض، ليظل ناهضاً حتى النهاية مهما كانت إصابته، ولا يهرب أبداً أو يتهرب من قوة مهما كانت، أحياناً كثيرة يدفعونه دفعاً لإخلاء المكان بعد انفضاض المعركة لصالحه... يدفعونه منتصراً ليمضي سالماً على حال سبيله قبل قدوم السلطة أو الشرطة أو... يعاند ويعارض ولا ينصرف إلا بتؤدة كاملة وفي خيلاء، متفقداً بنظرة متعالية ما حوله من آثار المعركة ونتائجها... أحياناً تقبل سلطة ما إلى المكان قبل انصرافه، فلا يغير من إيقاع حركاته أو خطواته سواء أخذوه أو تركوه... أبداً... أبداً ما كان شيء ليدعو القائد إلى سلوك التحايل والتجاهل...

ويقولون... الولْد... الولْد فعل... الولد جاء... الولْد هنا وهناك! من يقف أمام الشخش؟ من مثله؟ لا... لا ولْدان ولا بُنوت لا فرد لا جماعة... علي الشخش، هو وحده علي الشخش.

36

وضعت جميلة الصحن الفضي على الطاولة الصغيرة، يتوسطه فنجان القهوة، وكأس الماء المثلج أمام أحمد رقيبة الذي كان يداعب سيجاراً فخماً بين أصابعه، ويمر بعينيه على صحيفته... مد يده للفنجان فانتبه إلى جميلة التي ما تزال واقفة متنحية جانباً، كعادتها عندما يكون وراءها شيء، رشف من قهوته قبل أن يلتفت إليها... قالت إن قديدير ينتظر في الصالة الكبيرة.

نظر رقيبة إلى ساعته، الخامسة وزيادة، بالفعل هذا وقت قديدير... بل إن الرجل قد انتظر أكثر من نصف ساعة... لا يهم، هذا شغله وتلك مهمته؛ ولن يتعبه انتظار مثل ما يتعب رقيبة من وجع الرأس، بعد النومة الثقيلة لما بعد الغداء. يعرف عاداته، فالقيلولة والنوم نهاراً لا يناسبه، لكن للظروف أحكامها... فقد كان عليه أن يلبي الدعوة ويدعو بدوره جماعة من رجال الأعمال من جنسيات مختلفة، لا بأس. يتعجب من قدرة هؤلاء الأجانب على تحمل أنواع النشاط والشراب دون أن تضيع منهم لحظة من نهار، من واجب الشغل، بينما عيبه الكبير أن يضيع منه النهار إذا خرج عن عاداته، وشر ما في الأمر ضياع المزاج إلى وقت متأخر من المساء، لعله كان مثلهم في قابليته لكل نشاط منذ الفجر إلى

ما شاء الله... كان ذلك في بدايات عهود حاجته... فكيف يحتفظ هؤلاء بذلك في كل أحوالهم؟

كانت جميلة ما تزال تنتظر وهو يرشف من فنجانه تارة بعد أخرى، بدون أن يرفع بصره عن الصحيفة أو يكف عن مداعبة السيجار...

لا بأس، يمكن لقديدير أن يأتي... أو على الأصح ليسبقه إلى غرفة المكتب... هناك أنسب للشغل... وإن كان رقيبة يشعر أنه في مزاج لا يقدر معه على متابعة حسابات صاحبه، لن يبذل أكثر من سمع طوعي غير واع... قديدير كفء ومخلص... لا بأس... لا بأس...

ورفع رقيبة صوته وراء جميلة، يتابعها بطلب التعجيل بقهوة لهما في المكتب... لكنه وجدها ما تزال في مكانها، تساءل، قالت في تردد إن هناك آخر ينتظر، لا. ليس في الصالة، بل أمام الباب في الخارج، هناك منذ ساعات... غريب ويصر على المقابلة، لا تعرفه، لا يمكن أن يعرفه أحد في الدار! غريب يطلب المقابلة، غريب وملحاح... وهو منذ... منذ ساعات ينتظر... لن ينصرف!

قطب رقيبة متسائلاً. هزتْ جميلة كتفيها بإهمال، كأنها تقلل من شأن الزائر رغم كل شيء، تقول إنه يريد الالتقاء به، يصر على ذلك. يريد الالتقاء به شخصياً لأمر يدعي أنه هام... هام جداً...

ترفع كتفيها بإهمال وبملامح تعجب، تؤكد أنه لا يبدو طالب شغل... أبداً، لا يبدو عليك ذلك... لا يبدو عليه أي شيء.

جبهة...! لصقة! هذا هو، بَدَا لَها: سنطيحة ولصقة!

لم يهتم رقيبة بموضوع الزائر مادام لا يعرفه، وليس طالب شغل، ولا سائلاً طبعاً... بل ربما بدا له سلوك جميلة غير معتاد في هذه الأوصاف والاستنتاجات،

واجبها أن تصرفه بطريقة أو أخرى، سلوكها غير معتاد في أن تبلغ أمر هذا... الفضولي أو... لكن لماذا هذا الإلحاح في الالتقاء به؟ أيكون شوافاً من أولئك المشعوذين؟!

لا حاجة به ولا إليه... ليبق هناك ما شاء ولا مزاج لملاقاته... ورفع رقيبة نظرته إلى جميلة ـ ما تزال تنتظر ـ أدركت قصده... ولكن الرجل الغريب يلح إلحاحاً غير عادي، ولن ينصرف فيما بدا لها ولو قضى ليله والنهار أمام الباب. لصفة!

لفظت كلماتها في تذمر وبكل ما تملك من حركات نفاذ الصبر، أخوف ما تخافه أن تعود إلى الزائر ناهرة أو رافضة بأمر من صاحب الدار، رغم رغبتها في أن تصرفه خائباً؛ لكن نظرته وتحمله مُفْزِع فزعاً لا حد له، يخيل إليها أنها لن تنسى نظرته إليها أبداً... كلما كرر رن الجرس، وخرجت إليه، كان يبدو لها مهيباً في ابتسامة بدون معنى، أو بكل المعاني بما فيها التخابث... كأنه يعرف مسبقاً أنها مدربة على صرف أمثاله!

يقضي أحمد رقيبة وقتاً ساهماً، كأنه يتحسس جوانحه في قدرتها على محادثة أحد... إذا كان غير راغب في التداول مع قديدير في شؤون الشغل والمال، فهل يكون قادراً على لقاء أحد؟! وكيف يجد نفسه مجبراً على لقاء أحد بلا معرفة ولا موعد ولا موضوع؟!

كأنما أفاق أحمد رقيبة بهذا التساؤل الذاتي، فرفع بصره إلى جميلة مقطباً مستنكراً، فهمت قصده وقدرتْ سلوكه، إذن سيكون عليها أن تعود بنبإ الخيبة إلى الواقف الملحاح عند الباب منذ ساعات... محنة لا تحتملها، وجهد فوق الطاقة، نظرت بدورها إلى رب الدار مشبكة يديها أمامها... هذا الرجل لن ينصرف، ولن تعرف كيف تصرفه...

لم تضف شيئاً، وهيئتها لا تدل على أكثر مما قالت. لو كان الرجل عدوانياً في مظهره لأخبرت بذلك، يعرفها، يعرف حذقها الفائق وإدراكها. ولو كان لأحمد رقيبة أعداء لانصرف ذهنه إلى منعرجات أخرى... إذن؟

تؤكد جميلة أن الرجل لا يصنف في شيء مما يفكر فيه، هي نفسها راقبته طويلاً دون أن يحس بها، راقبته من فتحة النافذة، راقبته في كل حركة من حركاته، وفي قعوده واتكائه على الحائط، وفي استغراقه أحياناً في تأمل أوراق النبات الخارجي، كأنه يقرأ رسالة... راقبته وهو يكرر كل الحركات والسكنات... لم تستنتج إلا أنه ينتظر وسيظل ينتظر، كما قال لها ذلك.

لصقة، جبهة، سنطيحة كبيرة... وبزاف!

تركها رقيبة تنصرف على أن يقابل الزائر، بعد جلسته مع قديدير...

37

في غرفة المكتب، جلس رقيبة أمام طاولته بمواجهة قديدير الذي كان غارقاً في أوراقه، وسرعان ما طفق يقلبها ويحدث بأرقام عن حسابات الأشغال المنجزة والمشاريع... كان رقيبة يتابع بفتور، ولم يزد عن ملاحظات عامة، أن لا داعي للتنافس على مشاريع بعيدة عن المراكز الكبرى والمدن، فهذه في العادة تثمر متاعب كثيرة...

وينبري قديدير يطمئن صاحبه... فعندما تتأكد فائدة المشروع... الفائدة الحقيقية... الجدوى الملموسة المحسوبة، فلا يهم بعد ذلك ما يقتضيه الأمر... لوازم الخيام للرجال جاهزة، وكل شيء مهيأ، ويؤكد قديدير لصاحبه أن المقاولة الجيدة لا تترك مكانها فارغاً، ولابد من الاشتراك في كل شيء... ليطمئن، فكل شيء معد، وبأقل متاعب وبأكبر ربح...

ظل قديدير ينتقل بين صفحاته وتصاميمه، غير عابئ بفنجان القهوة البارد المهجور على جانبه، ولا ملتفت إلى مظاهر الملل وعدم المتابعة على صاحبه... كان يبالغ في التدقيق والتفصيل، لا ليبرهن على جديته فيما يبدو، بل حفاظاً

على عادة لا يريد أن يفقدها هو ولا صاحبه... مهما يكن، فرفقة عمر لا تسمح له حتى على مستوى الشغل، بالتهاون أو العبث بالثقة.

كان أحمد رقيبة قد أشعل سيجاراً مركزاً، محاولاً متابعة ما يعرض عليه، كان يوقف قديدير حيناً بعد آخر يستعيد منه بعض التفاصيل، لكن دون اهتمام كبير واضح على نحو يحس قديدير ويعرفه في صاحبه، بيد أن ذلك كله لم يمنع قديدير من تأكيد خلاصة كل مرحلة من عرضه... الخلاصة في كل شيء مثمرة... مربحة بالملموس... متأخرات المردود مغطاة بضمانات كافية وباحتياطيات مالية من اجتهاد قديدير... لا بأس... حتى المتعثر من مقاولات ومشاريع مختلفة، كاف ليمول نفسه بنفسه مؤقتاً... لا بأس... لا خوف من أي شيء... ولا بأس...

أنهى قديدير عروضه، وبدأ يطوي أوراقه لينقل الحديث إلى أمور أخرى... أمور الأهل والأولاد، يقصد بذلك الأسرة الأخرى في درب السلطان، سليمة ومن معها، سليمة وأولادها... يطمئن قديدير صاحبه عن كل ذلك، كل شيء على ما يرام، النفقات جارية... كافية وفوق الكافية، كل شيء على ما يرام.

لم يكن أحمد رقيبة ليسأل عن تفاصيل أي شيء يتعلق بهذا الموضوع، فذلك يثير فيه حساسية داخلية لا يحتملها، بل يتجنبها، أوامره كانت بأن يتكفل قديدير بهذا الموضوع، وبما يلزمه دون الرجوع إليه، لعل رقيبة لم يكن بحاجة ليعلم شيئاً، لكن عادة قديدير ألا يبخل بعرض كل شيء، فذاك دوره وواجبه.

دخلت حورية، قام قديدير يسلم منحنياً ومبتسماً، كانت في لباسها المنزلي المخفف، مطرز الحوافي، يموج حريره الأصفر، متجاوباً مع الشريط المماثل يلم شعر الرأس في لفة واحدة، متناغماً مع الحزام الرقيق والوردة اللؤلئية المرصعة لمقدم حذاء نصف، في شفافية زجاجية تضم القدمين...

دخلت حورية بما يشيع على محياها من بسمة عافية وإشراق، كفيلة بأن تنعش عين الناظر، قدمت لرقبية كأساً فواراً بقرصه المذاب، ساحبة من يده السيجار برفق وابتسام، داعية له بالشفاء، ظل رقيبة يتابع حبيبات الكأس متنافسة في تساميها نحو الأعالي حيث تنفجر كويراتها بهدوء على سطح الماء... ثم تجرع الكأس دفعة واحدة مصعداً آحة ارتياح، كان أحوج ما يكون إلى القرص لاستعادة مزاجه. هي، وحدها حورية، تعرف ذلك في الوقت المناسب...

أثناء ذلك، سرى حديث جانبي كالهمس بينها وبين قديدير، حول الشغل ليناولها بعض الأوراق، ويعرض عليها خلاصة الوضع، كما سبق أن عرضه على زوجها مع بعض عجالة، كان قديدير يدرك اهتمام المرأة، لكنه كان يساير بقدر حماستها، فهو لا يريد أن يتعب أحداً ولا أن يظهر مقصراً...

فعلاً، كانت حورية تتابع، تدقق أحياناً وتلاحظ... بل تنظر إلى أحمد رقيبة مظهرة رأياً أو طالبة استزادة شرح، أحمد رقيبة في وضع من لم يستعد مزاجه بعد، يكتفي بإيماء لا يفيد، بقدر ما يوحي بالمشاركة.

كانت حورية بخبرتها قادرة على أن تناقش وتعطي التوجيه والتوجيهات، أحمد رقيبة نفسه ينتدبها في جلسات من هذا النوع لمتابعة عروض قديدير ومناقشته... وكثيراً ما صحبت رقيبة إلى الأوراش في ميدان الأشغال منذ بداية علاقتهما وبعد الزواج، كانت على علم بسير الأمور، ولم يكن قديدير وهو يرافقها في الكثير من جولاتها ليبخل بما يساعد ويفيد...

بدا عليها الاطمئنان ورنت إلى زوجها وهي تختم موضوعها مع قديدير، متسائلة إن كان هذا كل ما عنده. يدرك قديدير من ذلك أنها اكتفت، فيومئ بأنه أنهى، مؤكداً اطمئنانه على الوضع... ثم يسألها عن رضى... تطمئنه شاكرة عنايته ولطفه.

استراحت حورية، وقديدير مستمر في مجاملاته يتهيأ للانصراف معتذراً عن دعوة رقيبة له ليشاركهم العشاء... لا يمكن، فعليه واجب الاستيقاظ باكراً جداً... وفوق ذلك وقبله، عليه أن يهيئ برنامج الغد... يشكر ويقوم مودعاً.

أخذت حورية بيد رقيبة تسأله عن الحال... تحسن بلا شك. تعرف ذلك... القرص سريع المفعول... سيزيد التحسن، تعرف جيداً طبيعة الكدر الذي يعتري مزاج صاحبها في مثل هذه الحال... لا تريد لكدر أن يطول أو يتعمق... يتفقد رقيبة سيجاره المنحى جانباً كاتماً ناره الباردة في جوفه ودخانه. ترتسم وقفة جميلة مذكرة بالزائر المنتظر. تفضل أن يستقبل حالاً أو يُصرف لحاله قبل... أن يجن الظلام... لصقة! يمكنه أن يبيت هنا، لن يتردد في ذلك، علكة... وسنطيحة.

يشير عليها رقيبة بإدخال الزائر لينتظر في الصالة الكبرى، ويرنو إلى ملامح حورية يستطلع رأيها. هادئة كانت أو تتظاهر بأنها كذلك، حتى تساعده على استعادة مزاجه... مهما يكن، فلن يقلقها شيء في حضور زائر ملحاح مهما يكن غريباً، وإذا لم يكن طالب شغل، فهو طالب إحسان ما أو خدمة من نوع ما... ماذا يمكن أن يكون؟

ليكن...

38

بدا الرجل واقفاً يوليهما ظهره، وهو يطوف ببصره على التحف وقطع الزينة المعلقة والمرصوفة على الجدران والرفوف المتنوعة والطاولات... بدا مأخوذاً منغمراً كأنه يفك شفرة نقوش أثرية... لم يحس باقترابهما، وظلا للحظة صامتين يرقبانه من خلف وهو يتابع تأملاته...

أخيراً، تنحنح رقيبة ليعلم الزائر بقدومه فعلاً، وبدا من إيماءة كتفي الرجل أنه أحس فعلا بقدومه، لكنه لم يكن متعجلا في أمره... بل أتم حركة تأمله بهدوء قبل أن يستدير... السلام عليكم. أومأ رقيبة برد التحية، وهو يتفرس في الرجل... لا يبدو أنه رآه من قبل... أبداً. لا يبدو أنه يعرفه أو رآه من قبل... الأمر بالنسبة لحورية أوضح وأجلى. لا يمكن أن تكون له بها معرفة... إذن من يكون؟ ماذا يطلب؟ مع ذلك لابد من مجاملة، ومظهر الرجل هادئ لا ينذر بأي شر، بل وتراود محياه ابتسامة مضمرة بملامح لا تخلو من إشراق مقلق، فثقته بنفسه تبدو بالغة الحد، وبساطة هندامه أبلغ، لكن في نظافة وعناية لا تخفى... حتى اللحية الخفيفة غير المهذبة الحوافي، والمختلطة المعالم على ملامح الوجه وأعلى الرقبة، تبدو على عناية وفي غاية النظافة.

جلس رقيبة، وهو يومئ لضيفه بالدعوة للجلوس، بينما ظلت حورية تراقب الموقف.

ـ نعم؟

ـ ينعم الله عليك... السلام عليكم.

واسترسل الرجل في دعاء للمكان وصاحبه، سرعان ما تحول في نهايته إلى شبه همس كأنه يحدث به نفسه...

وعاد الرجل إلى نفسه يسأل أحمد رقيبة إن كان لم يعرفه...! أدار رقيبة رأسه علامة النفي، فاتسعت ابتسامة الرجل.

دخلت جميلة بالشاي بدون استئذان، كأنها تساهم في التعجيل بصرف الزائر الثقيل، وتحرص قبل ذلك على ألا تفوتها فرصة تعريفه بنفسه، والتعرف عليه... لصقة هذا... وأكثر من لصقة!

ظل الرجل صامتاً يرقب حركات الفتاة وهي تصب الشاي، وتقدم الكؤوس بابتسامته المضمرة وإشراقة محياه المقلق، إذن لم يعرفه رقيبة، تساءل الرجل من جديد في سمة من لا ينتظر جواباً، بقدر ما يتهيأ لبداية حديث يقدم به نفسه:

ـ التبعي!

نطق بذلك الرجل، وأكده بحركة من رأسه وشارة بيده، إنه التبعي! التبعي!؟ من يكون... الاسم غير غريب... غير بعيد... يطوف بالخاطر... يراود البال... يحاول... ثم يهرب... ذكرى باهتة عصية المعالم تعبر ذهن رقيبة... اسم له رنة خاصة وطعم في السماع، لكن من؟ أين ومتى؟... لا، لا يعرف الرجل، قطعاً لا يمكن أن يعرفه... يخلق من الشبه أربعين... حتى في الأسماء كما في المخلوقات... قطعاً لا يعرف الرجل... ورنة الذكرى السمعية

مجرد وهم... ولم يَدَّعِ الرجل معرفة بأحد... وإن كانت طريقة تقديمه لنفسه بالاسم المجرد، توحي بأنه يريد أن يحيي ألفة سابقة... ذلك فن بعض المتحدثين والشطار! لا يهم... وفي هذا الظرف من تعب البال... هه؟

ازدادت ابتسامة الرجل تحصناً في هدوئها العميق، وهو يواجه بها نظرة رقيبة، عيناً في عين، كأنه يستنطق أعماقه أو يستبطن، ليقول بعد برهة إنه التبعي صاحب السيد... ولد السيد... درب الطلبة؟!

آهة عميقة تصدر عن رقيبة، وكفه تصيبها جبهته، ذكرى قوية بعيدة قريبة، لا يمكن أن تنسى، كيف يصرف عنها البال أو ينصرف...؟ رجل لا يشيخ ولا يتقدم في السن... هو... هو بعينه... لكن لم يكن طبعاً ليخطر بالبال... بعض تغير في معالم اللحية وبعد عن البال... بعد كلي تماماً... وها هو ذا الآن ينتصب يملأ الخاطر كله بالحضور، التبعي... طبعاً، آهة، وآهة، تصدر عن رقيبة في تعرفه المضني على ضيفه آسفاً على كسل البال... ويلومه في رفق ومودة، أما كان له أن يعرف بنفسه منذ البداية وقبل البداية عندما وصل باب الدار... من العار... وعيب كل العيب، أن ينتظر مثله كل هذه المدة...

ظل الرجل يتابع حركة رقيبة بابتسامة، مهوّناً الأمر بحركة من رأسه على صاحبه... لا، لم يكن ينتظر، ولا أحس بالانتظار، وكلنا ننتظر... كلنا في الانتظار... لا، لم يتعب، ولم يحس بالانتظار، إذا كان المقصود إحساساً بفراغ الوجود وضياع الوقت... بالعكس، عكس ذلك تماماً... أتيحت له فرصة لإنجاز كثير من واجباته أثناء ذلك، ومازال أمامه الكثير... عليه الكثير منها... ولو ظل الدهر أمام باب الدار، لما تعب أو أحس ضيقاً أو تكلف جهداً... ولا انصرف! أبداً... أبداً...!

لم يبد على رقيبة فهم ولا قدرة على متابعة الرجل، لكنه أيده، أبدى

مجاملة... وأفاض في الاعتذار والترحيب... حورية تأخذ مكانها في جلوس مستكين تتابع ما يجري...

مهما يكن... بعد كل شيء... وقبل كل شيء، لابد من افتتاح الموضوع، وإن أصبح واضحاً لدى رقيبة وحورية أيضاً، أن الأمر يتعلق بمطلب إحسان... بمسعى إحسان على الأصح، فلا سيد السيد، ولا التبعي ممن يطلب الإحسان لنفسه... وإنما قد يكون، وهو المؤكد، مسعى لعمل إحساني خيري ما أبعد ما يكون عن منفعة شخصية... أبعد وأبعد عن ذلك... مهما يكن، فالأمر لا يدعو لأي قلق، وإن كانت ظروف المزاج غير ملائمة وأيضاً... أيضاً... لماذا تهجم عليه هكذا دروب جفاها، تناساها، لماذا لا تتركه مرتاحاً كما أراحها... درب السلطان، درب الطلبة... هكذا... ذكرى بلا استئذان، ضد الرغبة، تخترق الكيان... هكذا فجأة، بالرغم وبالضد... لا يهم... لا بأس... الظرف يقتضي الترحيب والمجاملة والتحمل... لابد من تحمل الظرف بكامله... ذكرى ليست بعيدة كل البعد. أبداً... أبداً... ولذلك تحضُر ثقيلة تبعثُ في النفس رغبة في الإصابة بمرض النسيان لو كان هناك مثله... نسيان موضعي موقعي... أما التناسي فممكن... ممكن تعميقه كما فعل رقيبة ناجحاً في ذلك إلى الآن... درب الطلبة فجأة ومرة واحدة، عودة قوية ومجلاة بحضور عيني التبعي وولد السيد...؟! مهما يكن فهي عودة مؤقتة وعابرة جداً، لن تجد فرصة لإزعاج البال... أبداً... أبداً، وإنما يحصل ما يحصل لمجرد تعكر المزاج فحسب، لا يهم. الظرف كله مؤقت عابر... عابر مؤقت وليس فيه من إزعاج حقيقي. ذكرى درب قديم... فليكن ولتعد ذكراه لغيبتها وتغييبها، بمجرد انتهاء الظرف... بل وقبل ذلك... ليكن... إنما كيف اهتدى الرجل إليه؟... ولماذا الآن بعد كل هذه السنوات؟ ما الذي جعله يخطر بالبال... بال التبعي بالذات؟ في العادة... في العادة... ذكرى مقام السيد ولد السيد، أن المحسنين

والمتصدقين والخيرين، هم الذين يقصدون الدار طوعاً، لا من يتبعهم أو يتابعهم، ولو كان التبعي ذاته... فما معنى الظرف إذن؟

غير ذلك كان... غير ذلك بالفعل ما يجب أن يكون. الموضوع يفتتحه التبعي نفسه بالصلاة والسلام على سيد الأنام... الرجل مبعوث... يقول التبعي إنه مبعوث وحامل رسالة... كلها خير... كله خير في خير. الرسالة مودة وأخوة وخير كبير كثير... خير ما في الحياة لبني آدم وبنات حواء... القرب والجوار والنسب...!

القرب!؟ القرب، طلب القرب... وعلى سنة الله ورسوله يطلب سيد السيد... ولد السيد، من أحمد رقيبة يد ابنته العفيفة المصونة نجاة وبصداق...:

صعق... صعق الرجل... دفعة واحدة عمت رقيبة موجة عرق ساخن وفي برودة الصقيع، تلفحه ريح على قمة من جهاته الأربع... صعق رقيبة فعلاً! ماذا يسمع؟

ازدادت ابتسامة التبعي وهدوءه... مهما يكن، البنت تخطب من وليها، وأبيها... رغم كل شيء، ما حظيت به البنت من هداية وارتكان إلى دار السيد، فهي في أمن وأمان... هي أمانة في الدار... مصونة حتى يتم أمر الشرع...

مصعوقاً يظل رقيبة يسمع، غير عارف بحدود ما يقول أو يفعل... مصعوقاً مبهوتاً يظل، وابتسامة التبعي في هدوئها ونظرته المتطلعة تراقبه. تخرج حورية عن صمتها وموقف الحياد، لتسأل عن بعض التفاصيل تعرف أن رقيبة في حاجة إليها... مهما يكن وبالنسبة لها ولواقعها، ليس الأمر أكثر من دهشة الخبر الأولى... والباقي عادي جداً... عادي، لا أكثر من فتاة تتزوج... رجل يخطب فتاة، ماذا يصعق في جوهر الموضوع؟ نجاة في دار السيد... ذهبت

إليه... التجأت من ذاتها... وبعد؟ ما الفرق والمعنى في ذلك؟! ما الجديد في الحكاية كلها من أولها إلى آخرها، عدا ما يلهج به التبعي من أنها آية... آية... وبرهان... وتنبيه... هذه الفتاة أريد لها الخير كل الخير، خير الدنيا والدين، الآجل والعاجل... سيرتها نعمة من الله وآية وبرهان...؟!

ماذا يقول رقيبة، ونظرة الرجل وموقفه يطارد الجواب، أبوها صحيح... وليها... لكن الأمر مفاجئ... مفاجئ، لم يهيأ له الرجل، ولعله لم يكن ليهيئ له نفسه حتى لو كان ذلك ممكناً... ربما كان يكلف قديدير بشيء من ذلك، فيما لو اضطر لمعالجة الموضوع... فيما لو اضطر حقاً مادام قد قطع علاقته بالدرب، أهله وأخباره، وأو كل أمر الأهل هناك إلى كاتبه وكاتمه...

المزاج نفسه لا يسمح في هذا الظرف بمعالجة هذه الأفكار... وهكذا رغم كل احتياط، تخترق المشاكل قلعته المحصنة وعليه أن يتخذ قراراً... ويعطي جواباً... إلزام إذن؟... من نوع ما سحقه طوال عقود عمره من إلزامات... تلك التي ولى عهدها بالنسبة إليه... يتجاهلها... يغفل عنها... يهملها، لا تهم التسمية ولا التعبير... المهم، أنه لم يعد لذلك... ولم يعد ذلك له... هكذا أراد ويريد... نظرة التبعي وابتسامته تأخذ حلقومه ورأسه لاستخلاص الجواب... ليس عندي جواب... ليقل إنه لم يعد أباً... لا يشعر بأبوة لأحد... وخاصة في مثل هذه الظروف والمزاج... الجواب؟ ماذا يقول؟ ماذا؟

تنبري حورية تساعد... مهما يكن فالبنت بعيدة عن والدها منذ سنوات... مفترقان منذ مدة... سنوات... وما حدث ويحدث إنما يتم بغير علم ولا إرادة منه... تماماً تماماً، والأمر ليس بيده... فاقد الشيء لا يعطيه... ولا يمنعه...! فلننتظر. يجب ترك الأمر لبعض الوقت... الأمر في الواقع بيد الفتاة... بيد أهلها هناك، عند أمها، هناك، لا هنا. هنا، الكل بعيد عما يجري هناك... الكل غريب هنا عما يجري في الدرب...

كانت حورية تنطق بلسان رقيبة، تدرك ذلك كما يدركه، رغم أنها كانت أميل إلى حسم الموقف، وإنهاء الموضوع بجواب قاطع... إيجابي طبعاً... ولم لا؟ وحتى بالرفض... لم لا؟ المهم أن تضمن إنهاء الموضوع مرة واحدة، لم لا يرفض الطلب إذا كان هناك من مبرر...؟ المهم ألا تترك فرصة لتكرار مثل هذه الزيارة مرة أخرى، من طرف التبعي أو غيره.

ظل رقيبة تائهاً، لماذا لا يترك وشأنه، لو استطاع أن ينسى... وهو يستطيع فعلاً... واستطاع... لكن بدون هذه الإقتحامات لقلعته المحصنة... واقتلاعات عسفية ترمي به في دوامة الإلزامات والالتزامات... الجواب... الجواب... ماذا يقول؟

لا تسعفه راحة الكف على جبهته بشيء، يحس رقيبة بضغط كبير وشبه اختناق، ضيم داخلي واكتظاظ أنفاس تتردد في داخله، لماذا يكون عليه أن يعاني مثل هذا الموقف. موقف لا أغرب منه يفاجئه...؟

نظرة الرجل، نظرة التبعي وابتسامته الهادئة تلح أكبر إلحاح، في انتظار الجواب... انتظار القبول والترحيب والحبور... ماذا يقول إذن؟ ماذا يقول أكثر مما تقول حورية وتفكر به، ألا تقرأ أفكاره وتعرف رياحه؟ ماذا يقول إذن؟

ولا يملك رقيبة إلا أن ينهض كمن يقتلع نفسه اقتلاعاً من موقع موحل أو لاصق... جوابه ليس على الطلب في ذاته، كل بنت إلا ومصيرها السعيد أن تتزوج، السيد ولد السيد فوق الرأس والعين، الجواب ليس على الطلب في ذاته، الجواب أن الموضوع خارج اليد، خارج البال... ليس لديه الآن بنت يزوجها أو يطلقها... حقاً، هذا كل ما يستطيع أن يقول. ليس تحت يده ما يزوج أو يطلق، ليس له رأي في الموضوع ولا رأس ولا فكر ولا نية... الموضوع خارج فكره... لا يملكه... تماماً كما قالت حورية، وكما تقول أو تفكر... هنا في

هذه الدار، لا شأن لأحد ولا علاقة بما يجري هناك... كل شيء منتهي ومحسوم محسوب... هذا كل شيء...

كان رقيبة يتحدث مقاوماً رغبته في الانفجار، متجملاً مجاملاً مع ذلك...

عينا التبعي وابتسامته تلحان الآن برفق واصطبار... هذا جواب، جواب خير، كله خير في خير إن شاء الله... كان يؤكد ذلك كما لو أنه سمع ما يرضى أو ظفر بمبتغاه، كان يحرك رأسه وملامح وجهه يغمرها بشر غامر، وسرعان ما ينتبه إلى وقفة رقيبة فيقوم مودعاً داعياً... متلفتاً إلى كل ركن، ثم يبتسم لرقيبة وزوجته.

ـنراكم بخير، بكل خير.

وكأنه يدعوهما إلى حفل الزفاف!

39

تبدو الدنيا فاقدة لونها هذا اليوم... غريب... على كثرة ما تزعج به من ألوان في العادة، تبدو اليوم عديمة الألوان... عديمة اللون على الأصح، فهي لم تظهر يوماً بغير لون، واحد يملأ الآفاق والأبعاد يطبع الأشياء والأشخاص، حتى عندما كانت تغير ألوانها (لونها)، فإنها لا تبدو بأكثر من لون واحد آخر وحيد طاغ باغ... لا يمكن أبداً أن تحتمل الدنيا بدون لون، مهما كان مؤذياً أو قاتلاً، لاهباً أو حارقاً...

يحس الهبطي باختناق حقيقي كما لو كان في وسط عديم الهواء... اختناق يجعله حقيقة يمرر كفيه واحداً بعد الآخر، تارة بعد أخرى على رقبته، ويوسع رئتيه بحثاً عن هواء... اختناق في التنفس، شعور حقيقي به؛ واختناق بصري وسمعي، لا يرى ولا يعي... الدنيا بدون لونها أكبر عذاب... أشد تعذيب، وإن كانت بلونها الحاد الأوحد عذاباً فهو على الأقل... على الأقل القليل عذاب يضحك ويبكي... ما الدنيا بدون ضحك ولا بكاء، مهما تناوبا وامتزجا أو التبسا...!

اختناق حقيقي يزيد من شدة خنقه على الرقبة وثقله على الصدر والقلب... زحام درب الاحباس وضيق أقواسه وانحناء سقوفه... كارثة... كارثة كونية كبرى لا يدري الهبطي لماذا لا يشعر بها الناس، أو لماذا لا يظهرون شعورهم بها على الأقل... هاهم أولاء يمرون أمامه - إن كانوا يمرون حقيقة - وكأنهم في يوم جد عادي... هاهم أولاء يتحركون - إن كانوا يتحركون حقاً - وكأن شيئاً لم يحدث...

وكان لاشيء مزعجاً قد حصل ويحصل؛ وكأن لاشيء مثيراً أو قاتلاً قد وقع ويقع... كأن الاختناق لا يعنيهم وهم المختنقون المتحركون... هذا ما يمكن أن يطلق عليهم من أسماء: المختنقون المتحركون الذين لا يشعرون... حتى لا يقول عنهم إنهم أحياء أموات أو أي شيء آخر من هذا القبيل... الاختناق يمنعه، والشعور القوي بشدته على رقبته يعوقه عن أن يضحك عليهم أو يبكي، وإلا الفعل كما لم يفعل أبداً في حياته.

يضج الهبطي بالاختناق، وكأنه مكْسوٌّ به، ينظر إلى عريه، يتأكد من أنه غير مكسو بشيء، إلا من هذا الكون الذي يلبسه دائماً ولا ينضوه عنه أبداً؛ يتحسس ثنايا جسمه وأطراف أطرافه... لاشك أنه ما يزال كما كان، يحس بأنفاسه، بروائح ذاته، بكل ما كان فيه كالمعتاد... لم يتغير فيه شيء. ولون الدنيا والخلائق هو الذي تغير... لم يتغير فحسب، وليت ذلك حصل... بل إنه انعدم... لا لون... لا يمكن ... وليضج الاختناق...

ضج بالفعل... ضج بصوت لا لون له، ولم يبد من ألوان الناس أنهم سمعوا له لوناً أو رأوا له صوتاً! ضج يجري تاركاً أقواس درب الاحباس وراءه، مخترقا درب البلدية... يكاد يفقد الرؤية كما يفقد التنفس والنبض وحس الاتجاه... آه أخيراً... وأخيراً... صفراء... دنيا صفراء... خلائق بالأصفر في الأصفر... تغير لون بلون... المهم اللون... والعذاب اللالون... المهم أن الهبطي في لون، الدنيا حوله وفيه تموج في اللون... والعذاب... العذاب اللالون...

هاهو ذا الهبطي يهتدي باللون، يحس بقرّه وصهده، يؤلمه ذلك إلى حد المتعة ويريحه إلى درجة العذاب... هاهو ذا يتنفس اللون، ينبض به، ينجرف أو يحترق ولكن دائماً في اللون، في راحة اللون ولهيبه... اللون... اللون...

وأحس الهبطي بأنفاسه تعود إلى طبيعتها، إيقاعها ينتظم في مجاري كيانه، يرفع بصره ويجيله كالمبتهج بانبهار، ما يرى وما يكشف باللون ووراء اللون... كون أصفر كامل الصفرة، مغلق الصفرة؟، محتر الصفرة... بارد... صقيع...

الناس في أصفرها الأصفر، وموجات اللون المطبق سائرة سادرة شاردة لا تكاد ترى اللون... لا تراه ولا تحس فيه بشيء، لا يبدو عليها شعور براحته أو عذابه... وهو وحده يشقى وينعم بما فيه...

الجدران صفراء، والسحب وأصوات الرعد والبرق ما أضاء منها وأرغى، وما لم يولد بعد... كون بلون شامل كامل، والخلائق الذائبة فيه، غارقة في اللغط الصامت والغياب، وفي الحركة الميتة. وحده الهبطي، يحس بكونه، ووحده الكون اللوني يفسح المجال لابتهاج الهبطي ولحركته العفوية المتناغمة مع إحساسه وخطوه... كل شيء باللون له معنى وله الفرحة والبهجة، أمواج اللون تشير لكل شيء وعلى كل شيء، أقواس الأحباس، تلك التي تبدو من عالم مجهول للهبطي، تلتئم معالمها وتلتحم أطرافها وأعطافها، تعود إلى دفئها... دفء ألفتها الذي يحتضن الهبطي... بمجرد ما يكتسيها اللون أو تكتسيه... قبل ذلك... بدون ذلك، تبدو... لا، لا تبدو شيئاً على الإطلاق، لا يبدو منها شيء... الآن، باللون يعرفها الهبطي كما يعرف الأرض والسماء...

الأرض... الطريق... والدروب... والخطوات كلها تهتدي باللون، يهتدي فيها الهبطي باللون الواحد الشامل، وبالإيقاع المألوف...

بونا آدم... بونا... آدم... بونا...

40

مقهى الجيارة، مركز النبض، ملتقى أُزقة ودروب، في لحظة من لحظات فورانه، لحظة من نهار، تأخذ من عصره على ما شاء ليله... إلى ما شاء رواد ليله حسب الهمة والحماسة والاحتمال. أحياناً يشتد الرهان، تغلي المنافسة، ترتفع حرارة الرقع والسوق، فتمتد إلى أن يسفر ويصبح ولله الحمد... تلك أحيان قليلة لكنها ليست نادرة... معدودة وليس معدومة...

لحظة الفوران تبلغ أوجها بتقدم المساء، من بدايته قبل المغرب إلى ما بعد ذلك... حماسة الرواد تتطاير أُصواؤها، فتتجاوب في الفضاء، تعكس حركة حول الرقع وفي الساحة حول المقهى، وحول كل طاولة... رقع الضامة معارك حامية، ضاربة بيادقها بعضاً ببعض، تتساقط وتتدافع بعضها تلو بعض... اللاعبون المتنافسون، يستلهمون العنترية والهلالية في الحصار والضرب والهجوم وفي التنكيل بالأعداء الخصوم... الضامة الأُولى سيف مسلط على الوديان والسهول. الخصم... الخصم محاصر محدود الحركة، محسوب الخط محكوم بمضير مؤجل... إلى حين. الشهود يلهثون ويلهجون... لعبة التحكم... نقلة... أو نقلتان... هل من مخرج آخر؟ ما الثمن؟

مكعبات الدومينو بمنطلقاتها تفتح آفاقاً أرحب لمن يعرف؛ وبعضها الآخر يسد السبيل... يسد النفس ويمنع الحركة... السد. يطول البناء والتأسيس ويلهج العد والحساب... ما في يدك يكمل ما في يد الغير ويحاصره... شريطة أن تعرف أو تحاصر بما عندك مهما كان.

الأرقام تتصاعد من سوق التجاري، أسواقه الكبيرة والصغيرة، التجارة تجارة بما هي ربح وخسارة، وينادي الرابح الفائز هنا وهناك، بالمتراهن عليه... ينادي بسوابق نصره ويسجله مشفوعة بنظرات اعتزاز وغبطة كف هنا وهناك، وغمزة مرحة مترنحة من زهوها لهذا أو ذاك... يطلب المتراهن عليه من كؤوس مترعة من لبن مخلوط بعصير الفواكه والمكسرات، بروح الفواكه والمكسرات... وأخرى، كؤوس مشعشعة بالشاي المنعنع الفواح تصحبها حلويات مختارة من بنات العسل والقشدة... هنا وهناك، معارك طاحنة حامية ضاحكة باكية تعلو على مآسي الدنيا وأفراحها الحقيقية والمصطنعة... سوق التجاري لا تهدأ إلا لترتفع... تبدأ هادئة ثم تسخن لتحمي وتحتر... والشرية الكاذبة بنت المزايدة المناورة، توقع في الخسارة المؤكدة إن وجد الخصم الشاطر الحاذق الشمام... خسارة مضاعفة... عن وجد الشاطر العليم بالسوق، دواخلها وخوارجها، ويصيح المشتري بأعلى صوت وبغمزة لرفيقه الحليف لجمع ما عندهما معاً... جمع ما لا يجمع إلا نادراً... في شرية تعتبر واحدة من خبطات الدهر... لو... يذهل الخصمان المتقابلان... والسوق سوق... وما هي إلى جولتان ويكشف الفائز عن أوراقه مكتسحاً ما سبق وما لحق... شرية الدهر، خبطة تجارية بأقل القليل من التدبير؛ بل بلا شيء تقريباً، كيف يصبح اللاشيء شيئاً...؟ وينادي بصوت النصر والاعتزاز بالغنيمة المتراهن عليها... أكواب وطيبات مختلفة من كل لون وضحكات، حسرات من كل لون... وفخر وافتخار جراء القتال والجهاد والحساب الدقيق... وحس التجارة... ليذهل الفريق الخصم ما شاء

وليتخاصم، فهذه معركة تخصه ولا تهم الفائز... لا... لا تهمه إلا من حيث أنها الإقرار الحقيقي بفوزه وانتصاره... زينة الفوز وحلاوته ولمعانه... والسوق سوق على كل حال...

41

اخترقت السيارة شوارع أنفا منحدرة لتغرق في أضواء الشاطئ الصفراء الغامقة يغلفُها الضّباب؛ وبتؤدة بالغة، كان رقيبة يتهادى في قيادته، على يمينه أسفل الحافة تنتظم المسابح الأنيقة يغذيها البحر مباشرة، مهملة خارج الموسم؛ وعلى اليسار، الجادة الأخرى، تتهجى العين أسماء ملاه ومطاعم؛ تتحدى حروفها الأرجوانية... الزرقاء... كثافة الضباب...

ينحرف الطريق متهادياً، متضافر الأضواء الزاهية المتقلصة النور بفعل الضباب في إضفاء مسحة سحرية على لوحته. لكن رقيبة يتوقف في النهاية أمام المدخل الكلاسيكي لملهى ليلته... يتمهل قليلاً أمام المقود، كأنه ينفض عنه غفلة ذهن أو أثراً من غفوة... لا، كأنه يوقظ كائناً خامداً في زاوية منه، آه يا سطوة المكان... يا سلطة الذكرى والعنفوان تامسنا. تامسنا... لم يكن المكان نقطة بداية في مسار حياته الجديدة، لكنه كان من نقط البدايات الأولى... لم يكن المكان إذ ذاك أكثر من حروف مجسمة ومقاطع لها طعمها الخاص المحدود، كلما تلفظ به وأعاد المكان بينه وبين نفسه أوحى إليه بأكلة معسلة، أو بأميرة هلالية

غير محددة السمات إلا من شبه رداء حريري شفاف، تترامى أطرافه منعرجة في الفضاء على هبات نسيمية رخاء كأجنحة الفراش... الحارس، الحارس على الباب المقوس يتحرك في وقفته مهيئاً سمت الاستقبال... ذكرى بداية طريقه عندما أراد أن يجاري بدوره، ويظهر أن له رأياً في الحياة ومعرفة بأماكن اللهو والمتعة... إذ ذاك اقترح هذه الحروف السحرية لتي لم تكن له علاقة بمدلولها، إلا من حيث شعوره إزاءها بالتهيب أو ما يشبه التهديد... شعور يخامره في المواطن الجديدة، إلا أنه عَزم على تجاوزه، وليس من مناسبة أفضل لذلك منه وهو مصحوب...

صاحت حورية متعجبة من اختياره إذ ذاك، وهزت كتفيها مقبلة شفتيها في حركة لها كل المعاني إلا مصادقة اختيار الصواب... ثم أومأت أن لا بأس، فلنجربْ... لم يكن يدرك وجه تحفظها، وظل على ذلك بعد سهرتهما مباشرة، عندما أكدت أن المكان كلاسيكي... لم يدرك معنى حكمها إلا فيما بعد بوقت طويل... سنوات... مهما يكن فلقد أمضيا وقتاً طيباً في المكان، وكان وقته أطيب برفقتها؛ يمكنه أن يعترف بأن المتعة كانت منها... من وجودها، أما الفضاء والمكان بحاله وما فيه فلم يكن إلا أرضية... تامسنا، لم تكن أكثر من تامسنا... لكن حورية التي تعرف كيف تجعل من كل لحظة متعة، فكل شيء يختلف لمجرد وجودها... يقول عنها في نفسه كأنها تخطر وفي كل وقع أو خطوة توقظ أو تخلق ذرة متعة... لو تملت ميناء ساعة معطلة لتحركت في الحين عقاربها راقصة... إنه تلك الساعة المعطلة، وزمانه ومكانه ووجوده كله!

الآن... وقد أوغل معها في الطريق، وجاب معها مجاهل المتعة في عوالمها التي لا تحد ولا تنتهي، يمكنه أن يؤكد أنه سعيد بذلك، راض مطمئن؛ ويمكنه أن يؤكد ما هو أكثر من ذلك... كم كان ساذجاً... وإلى حد كبير عندما اعتقد انه كان يحيا أيامه قبل أن يلقاها ويحيا معها... حرك رأسه مرة أخرى، ينفض

عنه أفكاره تلك. تامسنا، يا سحر المكان وعبق الذكرى. يدها كانت على كتفه تنتظر عودته من يم الشرود. نظر إليها، كانت تبتسم ابتسامة هادئة عريضة، فيها من حنان أكثر مما فيها من مؤاخذة أو عتاب، طبعت على خده قبلة خاطفة، وسبقته إلى النزول... لا مانع من أن ينعش ذكرياته عن كان ذلك يريحه أو يحفزه، بالماضي نحيا كما بالمستقبل، إنه الزمان ينسج الذكرى نسيج الكيان... زمانهما... نسيجهما.

على عتبة المدخل، رفع بصره إلى قوس الباب ونقوشه الغليظة منسجمة مع السور الحجري مكونة مشهد قلعة محصنة، اجتاز الحارس الذي أومأ بالتحية، الضباب يبدو أشد كثافة من فسحة المدخل الفسيفسائي. بدآ يهبطان الدرجات في حديقة عميقة على شكل مدرجات تلتمع أرضها الرخامية حول النباتات والأشجار، موزعة إلى أروقة وممرات...

اختار السير في الرواق اليميني حذو الأقواس... هبطا الدرجات... مجموعة بعد أخرى منحدرين في المدرجات الرخامية وانفتح لهما الباب الزجاجي فدلفا إلى الداخل... أضواء ملونة وموسيقى مرحة راقصة... على المقصف تلتهب في خفوت وهدوء مصابيح قانية بشكل شمعات طبيعية. على الطاولات المنتظمة في القاعة... تلتهب الشموع... تذوب في الهمس؛ ووحدها الحلبة تصطخب بالصوت والحركة، وتسبح في شلالات الضياء الملون، تتحرك على أرضيتها المموهة في جذب وتباعد أعمار يافعة، وقلوب طافحة، تعتصر الكيان والوجود حبة حبة، قطرة قطرة، لحظة لحظة...

42

بقعة نائية مضيئة في الظلام المخيم على أطراف الدروب، شمال سوق القريعة... على ضوء مصباح غازي تتحرك بكل اتجاه بضعة أشباح... عزيز ورفيقه علوامي يتحركان حول مجمر طيني التهب فحمه، وتصاعد البخار من الحافة الدائرية لالتقاء المكب وطاجينه الفخاري... يتحركان متعاونيْن على إعداد وجبة عشاء بهمة وبحمية ونشاط، يتبادلان كلمات التوبيخ تارة، والتنويه تارة أخرى، على ما يبدو من أحدهما للآخر على أنه إنجاز ملائم أو إخلال بما يتطلبه إعداد وجبة طيّبة... يتباريان في إظهار مهارتهما بسعادة غامرة...

بقعة خلاء فسيح من أراض زراعية خارج حدود المدينة المعروفة، وعلى حدود أحياء جديدة ممتدة بذاتها، فيما يشبه مدناً جديدة...

خلف حلقة الضياء، وراء الشابين، تقوم حويطة من أحجار مرصوفة مسقوفة بأعواد وقش غير متراصة، تظهر فراغات غير منتظمة... شبه استراحة... شبه مأوى، في حالات الصحو ومواسمه، لا تفي بأكثر من مجرد الشعور أو الإشعار بالاحتماء والاستقرار.

لا تسع الحويطة قامة شخص في ارتفاعها، ومن ثم يدخل إليها ويخرج منها زحْفاً وانحناءً... ضوء خفيف ينبعث من عمقها... من الداخل... والفتيان خارجها منهمكان في إنجاز متطلبات الوجبة، يرفعان بين الحين والآخر المكب، يتفقدان الطبيخ أو يضيفان إليه شيئاً، فيتعالى الغليان والبخار، ثم يهمد بمجرد إعادة الغطاء المقبب لينسد على قاعدة الطاجين.

في غاية السعادة يبدو الفتيان، وقد أنهيا آخر ما يجب إعداده... نفضا أيديهما، وتركا الباقي لفعل الجمر والوقت... بدا الفتيان في البقعة المضيئة ينتظران شيئاً، ويصرفان فيض نشاطهما في حركات تحاكي معركة ملاكمة... كل منهما يكيل للآخر ما يشبه الضربة، يتظاهر خصمه بالتصدي لها، ورد مثيلها لغريمه... كانا متقابلين يواجه كل منهما الآخر في شبه انتصاب على ركبتيه... يتحركان متمايلين حسب ما تقتضيه المواجهة، مغرمين بمتابعة التواءات ظليهما إلى جانبهما على جدار الحويطة...

في غمرة لهوهما، لم يكونا لينتبها إلى الشخش الذي تسلل نصفه خارج عتبة الحويطة، منبطحاً على بطنه، مستنداً إلى مرفقيه يرمق حركاتهما بحياد... وما لبثت حمية الخصمين أن ارتفعت، فاستقاما واقفين على أقدامهما، يتحين كل منهما فرصة يصيب صاحبه، أو يرميه أرضاً... مشهد لا يمكن أن يثير غير متعة وابتهاج في خاطر الشخش، والفتيان يبدوان متعادلين في مهاراتهما، لا يفتر أحدهما إلا لينشط، ولا يضعف أو يختل إلا ليقوى، ويتزن... ثم إذا بعلواني يبرز من جنبه مطواة صائحاً في اهتياج:

ـ وهذا؟!

تقهقر عزيز خطوات إلى الوراء، وعيناه تتابعان الحد اللامع في قبضة خصمه... يبحث عن مخرج وصاحبه يتقدم نحوه ملوحاً بسلاحه...

قبضة الشخش القوية على كتفي عزيز، ووعيده له بأن يرفع عينيه... يرفع رأسه... ثم وهو يتجه نحو علواني يقرص أذنه بالسبابة والإبهام، ويعيره:

ـ خواف؟!

وينبهه إلى علائم الخوف التي تظهر على يده الممسكة بالسلاح الأبيض، ممتدة نحو الخصم... لا... لا... هذا يضعف الهجوم إذا كان الخصم خبيراً... السلاح الأبيض... إشهار السلاح الأبيض بقبضة اليد، يجب ألا يبرز عن جسم المهاجم به بأكثر من طول الساعد...

وسحب الشخش المطواة من علواني يوضح له كيفية الهجوم على الخصم بسلاح أبيض... ثم سرعان ما توقف... ورمى السلاح من يده متأفقاً:

ـ أخخخ...

لم يكن الشخش من مستعملي السلاح الأبيض أياً كان نوعه... معاركه كلها بقوة الساعد ومهارة الحركة... مهما كان خصمه ومهما كان سلاحه... ومع ذلك، لم يترك الفرصة تمر دون أن يفيد الفتيين... جذب إليه عزيزاً، ينبهه:

ـ حل عينيك في صاحبك...

موقف الدفاع الصحيح، ألا يتابع حركة السلاح في يد خصمه... إنه يغفل إذ ذاك عن موقع التصويب وموضع الضربة... العدوْ يضرب بعينيه قبل أن يضرب بالمطواة... حدّقْ في عين عدوك تعرف موقع الضربة... ثم أنت بالتحديق فيه تشككه في نفسه وسلاحه...

ويؤكد:

ـ حل عينيك وارفع راسك...

خفّت حدته المغلفة بالغيرة، وجلس بارتخاء، فجلس عزيز بقربه وهو يمسح وجهه، بينما انحنى علواني على المطواة يمسحها، ويعيد نصلها إلى غمده

ويخفيها في جنبه، ثم ينصرف لتفقد الطاجين... ليعلن أن العشاء جاهز... ويأخذ مجلسه بقربهما...

وطفق الفتيان يتابعان أحاديث الشخش بافتتان وهو يوضح لهما من خبرته، أن الجسم هو السلاح الحقيقي لبني الإنسان، إذ أتقن وجه استعماله... وأنه لذلك لم يستعمل أداة في حياته قط...!

كانوا على وشك أن يجلسوا للعشاء، حين صدرت عن الشخش حركة تنبيه وترقب... بدا عليه التصنت والتحفز كما بدا على رفيقيه، اتضح لهم أنها خشخشة بين الأعشاب الجافة المحيطة... قد تكون لحيوان ضال أو سارح بليل... لا، لا، حركة الشخش تومئ بأن الأمر قد لا يكون كذلك... امتدت يد عزيز نحو المصباح الكهربائي اليدوي يريد إشعاله وتوجيهه نحو مصدر الحركة المريبة، إلا أن حركة من الشخش منعته من ذلك... ثم ما لبث الشخش أن ترك رفيقيه مكانهما، وتسلل بخفة حتى غاب عنهما في الظلام...

ظل الفتيان في موقف الترقب... لم يكونا خائفين بقدر ما كانا متحفزين متشبعين بفضول المغامرة... من لا يعتز بلحظة يمضيها في رفقة شخش درب السلطان، وشخش الدار البيضاء بكاملهما، فما بالك إذا أصبحت اللحظة مغامرة تذكر وتحفظ وتتكرر؟ فجأة علا صوت حاد رقيق يصرخ... صوت نسوي هلع يلعن ويستنكر ويتوعد، وضحكة للشخش تعلو أثناء ذلك، معلناً أنه اصطاد سمكة وحشية في الظلام؟

وبدأ الأمر يتضح وخطوات الشخش تقترب، وشبحه يغشى بقعة الضوء متأبطاً عويشة، وهي تضرب بيديها وقدميها في الفراغ صارخة... وضعها بينهم، فانصرفت في ثورتها تصلح ما تهدل من شعرها، وتسوي جلابتها، وتذكر بأنها فقدت حذاءها...

أحاط بها الفتيان يهدئان من روعها، بينما الشخش ينظر إليها مبتسماً في لهجة المتشفي المشفق... تطوع علواني بالبحث عن حذائها الضائع، فأخذ المصباح اليدوي واتجه ينقب في الظلام...

تساءل الشخش عن مجيئها في هذا الوقت مستنكراً فعلها... هزت كتفيها بلا مبالاة، مستمرة في ثورتها:

ـ وأنت مالك؟

فتاة بادية العناد والصلابة... نبهها إلى أنها تعرض نفسها للخطر في مثل هذا الليل... في الظلام... وحدها... كان من الممكن ألا تجده... ألا تجد أحداً منهم... أمعنت في موقفها مستهزئة من خوفه عليها وتحذيرها:

ـ وأنا مومو؟

حاول عزيز أن يتدخل مراراً، فكانت تخرسه بحركاتها. تناولت الحذاء من يد علواني دون كلمة...

تحلقوا في العراء حول العشاء، طاجين اللحم بالبطاطا والزيتون موضوع بينهم على وصلة الخشب، فواح الرائحة نفاذ. الجماعة مراعية لشعور الفتاة، فتاة خفيفة سمرة بملامح حادة، بادية العافية والنشاط في نحافتها، أيدي الجماعة تتسابق لأطايب الطاجين عدا الفتاة التي ظلت عازفة عن الأكل، الشخش يجاملها ويختار لها ويقدم بعض الطيبات... بدأت ترق لمعاملته... سألها عن سبب مجيئها... أجابت مندهشة وبجرأة كاملة:

ـ أنت... أنت السبب!

تكرر عليه دون ملل أنها ستظل وراءه... تحبه... لا تخجل من ذلك ولا تخاف أو تداري... الآن، هي مطرودة من المنزل... أبوها طردها... صحيح أنها طردت أكثر من مرة قبل الآن... لكن، هذه المرة، الوضع يختلف...

وهي لن ترجع أبداً، لن ترجع... ولن تفارق حبها... أبداً... أبداً... ليكن ما يكون...

بحدة كانت تتكلم وبانفعال... بهدوء كان يتابعها مبتسماً... كالمشفق عليها... توقفت كاتمة أنفاسها، لم تكن متأكدة من موقفه، من فعل حماستها فيه. ظلت ترمقه ثم دفنت رأسها بين ركبتيها وانخرطت في البكاء، ربت الشخش على كتفها بحنان... كان يبتسم لها ويقدم لقمة... تأففت، نحت يده عنها، مسحت دموعها واستعادت على الفور ملامح الجد... يتزوجها! عليه أن يتزوجها...! ليشهد الجميع على ما تقول له. ليس أمامه إلا أن يتزوجها... هو إنذار أو... وهي لن تفارقه على كل حال! حمقاء، دائماً يكرر لها ذلك بالجد والهزل... حمقاء... ماذا يتزوج؟ ماذا تتزوج فيه؟ ليس له مستقر وليست له رغبة، وأمه لن ترضى أبداً، لن ترضى، يعرف ذلك ويدركه من حديثها معه عن المرأة والزواج؛ كلما خلقت ظروف للحديث عن الموضوع، وهي قلما تفعل، إلا وبدأت تحوم حول بنات البلد تمدح وتطري... وتعرج مباشرة على بنات درب السلطان وبنات المدن بلسان لا يرحم... قليلات الحياء ثم مبذرات... ذميمات... مريضات... متسخات... وأنت يا عويشة تعادلين كل بنات السوء... تعادلين... وزيادة... ثم... أنت متزوجة؛ رغم كل شيء كنت متزوجة... زوجوك بعلمك، بغير علمك؛ برضاك، بغير رضاك؛ لا يهم... وعلى كل فأنت غير مطلقة...!

تنظر إليه... تنظر ملياً نظرة استنكار، خائف؟ تستفزه بالسؤال أكثر مما تستفهم، خائف منهم؟ إنها لا تطلب صدقة ولا عوناً منه... هي فقط تحبه وترى أنها لا يمكن أن تحتمل الحياة مع غيره... أم أنه يأخذ عليها أنها أصحبت ذات سوابق زوجية؟ لا تخجل من ذلك... هربت من بيت الزوجية، ولا يخجلها ذلك، أم يريد لها كما أرادوا أن تقضي العمر سجينة مع شيخ لا تحبه، ولا يقوم

لها بشيء... أمه؟ خائف من أمه؟ وما أمه؟ ليذهب إذن إلى البلد ويأتي بها راعية تصلح زوجة له... وأي زوجة!

كانت تنفُض يدها من الموضوع يائسة من أن يفهمها، أو يرقى إلى مسؤولية الرجال... هو الذي يقال عنه الرجل أو سيد الرجال، كما تروي أمه أو يروي عنها... لا تطلب نفقة ولا تشترط كساء ولا منزلاً... وهي بنشاطها قادرة على الإنفاق عليه وعلى جماعته وأمه أيضاً... تسرق؟ نعم... نعم، تسرق وتسرق...! ومن يستطيع ذلك... بمثل مهارتها...؟! أصبحت لها سوابق في هذا أيضاً... سوابق؟ لا يهم، المهم الحياة... ولو وجدت رجلاً يقوم بها وترتاح إليه، ما كانت لها سوابق... ولا سرقت ولا فعلت شيئاً مما تفعل... الآن... الآن هي قائمة بنفسها... ويمكنها أن تعيش في هذه الحويطة مع من تحبه وترتاح إليه... والعراء أفضل مسكن وغطاء... حتى السجن مع من تحب يكون أحلى... ولكن... على من تقرأ زبورك يا داوود؟ لا يفهم، لا يفهم، أمه؟! أمه وراعية الغنم من بنات البلد!

تناولت عويشة سيجارة من علبة عزيز، أشعلت وطفقت تنفث دخانها بعصبية، نظرتهم إليها نظرة عطف، والشخش يحاول تهدئة روعها. ضحك ليقول لها إن سكنى السجن تفرق بينهما، وهي تعرف ذلك... يضحك؟ كأنها تمازحه، كأن الوقت مزاح في مزاح. هذا عيبه... يضحك عندما تكون معه في حديث الجد، أما هي فقد قالت ما عندها... وأمه؟ هل يتزوج أمه؟! استفاق الشخش للعبارة والسؤال. فلتة قاسية، حمقاء، انتفض كيانه ونفرت أعصابه وارتسمت الرعشة على خطي خده... تلعثمت أمام نظرته النارية وجمود قسماته... استكانت وساد وجوم... مثل هذه الحالة من الشخش منذرة بكل الأخطار...

كانت عويشة تتمتم مستغفرة الله عما صدر من لسانها، تتفل حواليها متعوذة من شر يومها...

مع ذلك... عاد الشخش إلى هدوئه... حمقاء... حمقاء... يقول عنها ذلك... يقوله ويكرره، ولا تزيد على أن تؤكده هي ذاتها... حمقاء محببة وهذا أيضاً صحيح... المرأة سجن الرجل كما يقول ونعيمه؛ قيده وحريته... وهذه الحمقاء المحببة من صنف آخر فريد: عاصفة صغيرة هوجاء تطير وتُطير معها كل شيء... ماذا تريد؟ لتعتبر أنهما زوجان أم تبحث عن زفة؟! زفة السجن؟! وقهقه ضاحكاً مبسوطاً، زمت شفتيها متذمرة... زمت أكثر حتى لا تقول ما لا تتحكم فيه... على كل حال؛ يجب أن يَعرف أنها إن كانت تهتم به، فلأنها تريد أن تنقذه من تجواله على الساقطات؛ وهي تعرفهن... ومهما ينكر... فهو يتردد عليهن كغيره من الساقطين... كأي واحد آخر... ليفكر في هذا جيداً... أما هي فتحبه حقاً، وتريد أن تصون حبه وكرامته...

تناولوا الشاي عقب العشاء... غمامة الكآبة ما تزال تغلف ملامح عويشة... بينما انصرف الآخرون إلى أحاديث متداخلة، لا تخرج عن أجواء مغامرات الشخش ووقائعه وأصحابه، يتخللها التنقيص من أخبار الولد أو «البنت» كما يسميه الشخش وجماعته... أخبار الولْد في الطرف الآخر من المدينة، أخبار تنافس ما يروى عن الشخش، أخبار ترد تباعاً تنافس أخبار الشخش... ومن تكون هذه «البنية»؟ صبي مخنث مدلل أشبه بالبنات منه بالفتيان والرجال، يطمح إلى تقليد سيده الشخش!؟

لابُد من معركة معه لو كان يستحق... وهل يستحق فعلاً؟ لم يترددوا في أن يجيبوا بالتحقير... وإذا كان لابد من معركة في يوم من الأيام، فلتكن مع غير الشخش من أصحابه وهم عشرات... مئات... كل أولاد درب السلطان... حتى بنات درب السلطان إلى جانب الشخش ومعه ضد أي مكان... الأولى

أن تكون المعركة بين بنات الدرب وتلك البنية التي يسمونها الولد! في الطرف الآخر من المدينة.

مع ذلك، كانوا في غالب الأحوال يطردون خاطراً في أنفسهم... الولْد حقيقة... أخباره أصبحت حقيقية... وذائعة؛ مهما كان فيها من مبالغات وادعاء... والمدينة على اتساعها لا تحتمل خصمين من هذا المستوى... الكل أصبح يردد أخبار الولْد في الطرف الآخر، المدينة القديمة وحوالي الميناء، وإذا استمر الأمر فقد... قد يحلم الولْد ببسط نفوذه على منطقة الشخش نفسها، أو قد يستهوي بعض الفتية بالتبعية له... كل هذا بعيد... يبدو بعيداً يكدر المزاج، ينغص نعمة الحياة، ولا مناص من التفكير في معركة فاصلة قريبة.

رَنا الشخش إلى ساعة معصمه، وتأمل ملياً وشم الثعبان الملتف على ساعده المفتول... تحمل وخز ذلك الوشم في العاشرة من عمره أو أقل... كان رهاناً من تلك الرهانات العديدة التي خاضها، والتي كان المتألق فيها دائماً... أسبوع من الوخز المتواصل بما يتطلبه الثعبان من تفاصيل وتدقيقات... والرهان يقضي بألا يتأوه أو تظهر عليه ملامح الألم، بل أن يضحك لو استطاع... وهو ما استطاعه فعلاً... كان يضحك من شدة رغبته في البكاء والصراخ، يضحك حتى القهقهة، ويسخر متجاوزاً أحاسيس الألم السطحية والدفينة ـ ومن ذلك وبه حمل اسم الشخش ـ رهانات كانت تحديات واختبارات ومحكات لإرادته وشجاعته وصبره وتحمله منذ نعومة أظافره... من يحمل قطعة الثلج، بالة بكل سمكها وطولها على كفيه، في البرد القارس حتى تذوب عن آخرها؟! أي ألم وتجمد؟ يوم كامل من بداية الصباح إلى ما يقارب منتصف الليل؛ والحكام والمراقبون والمتفرجون يتناوبون؛ يذهب من يذهب لقضاء ما يعن له... ويعود متى يعن له؛ ليجد الشخش الصغير صامتاً صامداً حاملاً بكيفيه بالة الثلج في البرد القارس؛ وأثناء ذلك بين الحين والآخر، كانوا يناولونه كأساً دافئاً من

الشاي أو الحليب... ويسألونه عما يطلب أو يستسلم...؟ صامداً صامتاً ظل حتى أقر القوم بفوزه، بعد أن لم يعد حاملاً على كفيه من بالة الثلج الكاملة إلا لساناً خفيفاً شفافاً مثلوماً في عدة مواضع لا يشكل أية صعوبة، ولا يحميه من تمام الذوبان إلا برودة الطقس المتزايدة... والناس في حاجة إلى شيء من النوم للغد... يومذاك، يتذكر، وهم يلحون عليه في أن يستسلم، أو في أن يطلب ما يحتاجه؛ فقد رأوا عليه علامات الزرقة والرعشة... لم يزد على أن طلب مساعدته في أن يتبول حيث هو... يتذكر...! لم يذكر لأحد أنه كان يعاني من إحساس بقاعدة قدميه تغوص في الأشواك الحادة الطويلة العميقة... وبعظام رأسه توشك أن تنفجر بحد إبر تضرب سقف الرأس، تثقبه وتنقر فيه وتشقه باستمرار، وبهمة فراخ طير تسعى لكسر القشرة نحو عالم النور والحياة! كل ما كان يقوله عقب كسب كل رهان، أنه لم يشعر بشيء، وأن الأمر كان شبيهاً بأكل حلوى كبيرة... كبيرة جداً... أكثر مما يلزم!

لسعات الوشم كانت أحدّ وأوسع انتشاراً من لسعة الثعبان الواحدة المروعة... رسم القشرة الثعبانية بأدق التفاصيل على امتداد الالتواءات، كانت لا توحي بنهاية العملية، وتحيل إلى إحساس بالعذاب الأبدي أو الحلوى الأبدية حسب تعبيره... وأقسى شيء كانت، بداية كل يوم من الأيام السبعة... البداية تذكير مكثف بكل ما سبق من ألم... إحياء له وإضافة إليه... مراراً روادته الدوخة... وأحس بأنه يغيب عن الوجود... وأن أكل الحلوى يتغلب على صبر الرجال الصغار... ولكن هيهات... لا... ويزف، كالحال بعد كل رهان، إلى منزله بالزغاريد والهدايا، بكبش أقرن وبأكياس السكر والسميد وصناديق الزيت... وكل المؤن... ولا تملك الستاتية إلا أن تضيف لسانها إلى المزغردات، وتولم فخورة بوحيدها ووحيد الدرب بكامله... شخش درب السلطان والدار البيضاء بكاملها...!

.

تهللت أسارير الشخش وعمه الرضى عن نفسه وحاله... تاريخ الأمجاد والرهانات والمعارك... ونظر بعطف إلى الفتيين الخائضين في تفاصيل تاريخه، ينشدان المزيد ويطلبان الشهادة والتصحيح فيما يرويان من ذلك... وأشار إليهما أن الوقت قد حان لنهاية السهرة والعودة إلى المنازل...

43

رغم كل شيء، فالتبعي لا يبدو في نشاطه المعتاد؛ كما لا يبدو في فتور، فواجب الفجر يأتيه دائماً بقوة تطرد عنه كل نوم أو كسل، ولكنه مع ذلك لا يحس في نفسه بنشاط زائد كالعادة، ولا بالحماسة المألوفة... يحس بتثاقل حقيقي، وبانكسار خاطر كما لو كان خارجاً من حلم ثقيل... تماماً، ذاك شعوره عندما كانت طبيعته تتكدر وراحة نومه بالكوابيس... كان ذلك عادة وطبيعة قبل أن تدركه بركة السيد الوالد ليلتحق بخدمته وبخدمة خلفه... كانت طبيعة معذبة في النوم وفي اليقظة... بنت محنته التي لم يكن يتصور لها علاجاً... الله أكبر، لا إله إلا الله... لم تهاجمه خواطر من هذا النوع مع داعي الفجر والفلاح؟

يدرك التبعي ويعي أنه ليس في نشاطه ولا في مزاجه المعتاد... وأنها ليست المرة الأولى، كأن طبيعته تحيا من جديد أو تفيق بعد تجمد، إن لم يكن واهماً... واهماً يريد أن يكون ويتمنى... وسلاحه إرادته، إيمانه وخبرته وعون ربه وبركة سيده... لن يحتمل عذاباً بعد هذه السنين... عقد ونصف لا يمكن بعده أن يعود إلى البداية... لمحة خاطفة من محيا صبية تبتسم له، كانت آخر ما

يذكر من عهد، وآخر ما يشعر بأنه يحلي أحلامه منذ مدة قريبة أو بعيدة... كانت تهف عليه بمحياها الصغير الوضيء، بريء السمرة والحمرة بين آونة وأخرى، على فترات جد متباعدة، الآن تهاجم برفق متتابع ملحاح، بجانب محياها الصغير الأليف، تمثل ملامح امرأة ثاقبة النظرات، قوية الموقع، تعكس من النبل بقدر ما توحي من القسوة... ترفع وجهها على نحو جانبي، تبدو معه ملامح الصبية كالمتخفية بها أو المختفية جنبها... حركة توحي بسطوة المرأة وهالة موقعها لدرجة تكمم في أعماقه السؤال، تحول بينه وبين الصبية... الصبية تبدو مستسلمة في شبه رضى ينبئ عنه طيف ابتسامة هاربة... أتبتسم الصبية له أم لوضعها في شبه حضن المرأة؟ أتبتسم حقاً... حقاً؟!

يبسمل التبعي ويحوقل، يحمد ويشكر سراً وجهراً، وهو يتجول بين الخلق في الصالة الكبرى وفي الصحن، يوقظ النيام؛ يتم جولته ويعيدها مرة وأخرى. يستنهض الكسالي ويململهم في العادة بصفحة القدم، برأس قدمه الحافية بعد أن يخرجها من البلغة. تتحالف حركة القدم الخفيفة الرفيقة مع الصوت المردد: سبحان الله، الصلاة خير من النوم... سبحان الله... يا عباد الله... قوموا تغنموا، يتجول التبعي، يحرك ويململ، يهلل ويسبح، يحمد ويشكر، يكرر ويعيد...

حالة فجر اليوم، حال التبعي فجر اليوم حادة قوية، يحس في داخله برغبة جامحة في أن ينحني على كل واحد من القوم... واحداً واحداً... ليمسح على صفحة وجوههم... واحداً واحداً... أن يلمس الوجوه المسلمة لراحة الكرى، بلطف ومودة، وأن يهمس في آذان الخلق النائمة برنة هادئة منسابة، بما تيسر من سورة أو سور يحفظها، تسري طلاوتها، فتوقظ على خير وجه وأحسنه خلقاً هاجعاً وقلباً خاشعاً... ليس أحلى، ولا أطلى من سور أو بعض سورة كريمة مرتلة على أنسام فجر مسبح، تنساب في كيان البشر، لتهزه برفق

ملائكي هزة المرح والحبور بيومه... بفجره ومسائه... بوده لو يستطيع أن ينثر الرحمة رذاذاً والأمن والمحبة هواء... بوده لو ينسج المودة خيوطاً بين الخلق ويرسم البسمة على كل وجه... هذه القلوب الهاجعة إلى راحتها المؤقتة، بعد التعب والحرقة وعذاب ما تعاني وتشكو، عليها برفق رفيق أن تنشط إلى عبادتها مبتهجة شاكرة ساعية إلى الخير... بوده... بوده وبوده، لكنه رغم كل شيء، لم يكن نشيطاً هذا الفجر. خواطره رغم المسعى والإرادة تحملها ريح أخرى، ويمتصها مصب آخر... ومنحدر هائل يشعر التبعي بأنه سينفغر في كيانه... إحساسه بالثقل هذا الفجر، رغم حركته ودفعه لكيانه نحو واجباته، أكبر وأكثر من أي وقت مضى به... إنما... إنما تحركه الضرورة والواجب.

هكذا ينهي التبعي جولته الأخيرة على نوامه، ويتوجه للوضوء قبل أن يتحول إلى التهليل والتكبير، يسبح ويحمد ويشكر، يتهيأ ويهيئ الأسماء والقلوب لنداء الأذان... لم يتأس التبعي لما هو فيه، أتجفوه الراحة مرة أخرى ويكسوه العذاب؟ مسحة الوضوء على الوجه غُلالة يطل منها محيا صبية على ملمح امرأة، نفحة الفجر يخالطها ندى شوق دفين، وغنة الأذان بوح استغاثة فجرية... أيعود به عالمه؟ أيقوى شيء على أن يعود به؟ محيا الصبية وملامح امرأة في هالة من قسوة ومروءة!

لم يكن أبداً كاليوم بعيداً عن نشاطه المعهود... يشغل باله حلم وواقع أو أنه لم يعرف في حاله حلماً من واقع... في حركته هنا طيلة عقد ونصف في رفقة السيد الوالد وخدمته، ثم في خلفه حالياً، علم الكثير... تعلم الكثير... سمع ورأى الكثير... هؤلاء القاصدون المتسابقون إلى التبرك والشكوى والتظلم... هؤلاء الساعون إلى الشفاء وتغيير الحال والساعيات... طالبو وطالبات الرزق والإنصاف والإنجاب وصلاح الذرية... علم منهم وتعلم الكثير الكثير، مما يتحمل البشر من ألم وصبر، ومن قدرة البشر على الصبر... وعلى الإيذاء والشر!

سنوات طوال أجمل ما فيها صدق رؤيا ورأي السيد الوالد صاحب البركة، حينما استمع إلى شكوى التبعي في أول يوم التقى به... قال الشيخ صاحب البركة وهو يمرر بيده على كتف التبعي، مبتسماً ومهوناً عليه ما يعاني منه أن مكانه هنا... هنا ترى وتسمع ما تهون بجانبه معاناتك ومقاساتك... هنا أنت تخفف من مقاساة غيرك... وعلى بركة الله كان الأمر كذلك... وكذلك كان...

وجد التبعي ضالته هنا... أصبح كأنه ولد يومذاك... هنا... سأله صاحب البركة السيد الوالد إذ ذاك، فأصدر التبعي آهة ارتعاب يقول: إنه متبوع! يقصد أن وراءه من يتبع أثره، أنه مطلوب في محنة لمحنة، لم يفهم أن السؤال عن اسمه أو لم يسمع... نظر إليه صاحب البركة السيد الوالد، سيد السيد الكبير، الله يرحمه... نظر إليه ويده على كتفه وابتسامته تهون وترحب، وقال له: من اليوم، أنت التبعي... ومنذ ذلك اليوم يعيش التبعي في حرمة الدار، في حرمة المكان وصاحبه، لم يحس أبداً بأنه متبوع... أو مطارد أو مطلوب... نسي كل شيء، نسي حتى محيا الصبية وملمح امرأة وقورة في جلال مروءة وسطوة... نسي... هل نسي حقاً أنه أسلم صبية بيديه طوعاً إلى المرأة تلك؟ بأية قوة أمر صامت منها، وبأية رغبة دفينة منه؟ نسي حقاً أم...؟

عقد ونصف من سنوات العمر، دخل الدار يلهث تعباً ورعباً، ينشد أمناً وحرمة في يسراه كيس يحوي ما تواضع من رزق، ويمناه إلى صدره يحمي ويحمل... يحتضن صبية! تعلم الكثير... رأى وسمع، وما يزال يسمع الأنين نفسه وألوان الألم فيما حوله... وبركة السيد على بركتها تفيد ولا تفيد، تنفع ولا تنفع... فمن يصلها أو تصل إليه وكم؟ أينفجر فيه الشك هكذا مرة واحدة؟ أعوذ بالله من الشك، هي حرقة قلب ظلت خامدة تتقد اليوم من ذاتها.

التبعي بالذات، يرى في نفسه أن بركة المكان وأهل المكان الصالحين أفادت ونفعت فيه... أليس عقداً ونصف عقد من الأمن والسلام؟! ويرى ويشهد أن بركة المكان وأهل المكان الصالحين أدركت وتداركت الكثير من غيره... رأى ذلك رأي العين، شاهده وشارك فيه... وكما قال له بركة سيد الكبير المرحوم، إنه أصبح بالفعل يخفف معاناة الآخرين... كم هم الآخرون... الآخرون الذين لا تدركهم بركة، لأنهم لا يجدون الفهم أو الوسيلة أو الطريق إلى ذلك؟

كان التبعي بعيداً عن أسئلة من هذا النوع طيلة سنوات وسنوات... ما الذي يبعثها في الآن قوية حية نابضة؟ يرى الناس الزائرين المتبركين المشتكين، كل يوم بوجوه جديدة... حتى الذين يطيلون الملكوث، لا يلبثون أن ينصرفوا ليأتي آخرون غيرهم... يقول في نفسه إلى متى؟ وكم؟ لم السؤال؟ كأن الجواب جاهز لديه أو ممكن! كأنما سيزيد على أن يقول إن شر الناس يتعاظم، وظلمهم وتظلمهم يتوالد بغزارة، كأن المنبع أقوى بكثير من مصبه... بكثير وأكثر، في الجدران، في الذوات ظواهرها والبواطن، يسكن ظل ما تحت الأظافر والإبط والأجفان ورموش العيون... الأمر يستفحل كما يرى التبعي ويشهد... يدرك الآن أنه لم يكن ناسياً. قوته وما يعتمل في داخله وتطوح بهنائه.

وتلوح الصبية... محيا البراءة المغيب في ظل من ملامح امرأة قوية الحضور... يلحُ حضور الصبية بقدر ما يلح الشعور بمآسي العالم حوله ومحنة الناس... أين الصبية الآن من معاناة الناس وما حوله؟ أتكون قد زارت هنا بعد الفراق ولم يدر أو ينتبه؟ صبية... ما تزال تحضره بملامح السنتين أو أقل، كما جاء متبوعاً يحملها يحميها ويحتضنها، يحميها ويحمي نفسه ببركة سيد السيد... يراها في الحلم أو في الواقع... لا يدري... ولا يراها إلا صبية كما كانت، قبل أن تغيب عن ناظره منذ عقد ونصف!

لوعة القلب، حرقة الخاطر تهجم بعنف، تراود ملحاحة تسأل وتعيد: أين تكون صبيته الآن... فلذة الكبد... صغيرته الحبيبة؟ تبسم في ملامح مستسلمة كأن قوة جاذبة أو ضاغطة تمسك بها إلى ظل المرأة... كأن قوة مغرية أو كاتمة تقف به عند الصمت، ونظرة المرأة في هالتها التي تحضره قوية طاغية في مروءتها، في سطوتها وقسوتها، بأية رغبة دفينة منه أسلم إليها الصبية؟

لماذا سلم واستسلم؟ جاء يحمل الصغيرة على كتفه ناجياً بنفسه من متعقبيه، وقد ضاع منه كل شيء... جاء يحملها ليسلمها بقوة مجهولة إلى أول امرأة تأمره بنظرة وهالة وسطوة، ليسلم نفسه إلى راحة الكرى... كان متعباً حقاً، مرهقاً جداً... وجاء هارباً بنفسه وبصبيته بعد أن ضاع منه العش والميراث، وقبله ضاعت الزوجة الفتية في حمى النفاس وبميلاد الصبية... ولم يبق بعد ذلك إلا الجلد وحبيبته الصغيرة... أسماها حبيبة، لتكون على مسمى، بلسماً لجرحه العميق، واحتمل ما احتمل ليفر بجلده فجراً قسراً في يسراه كيس يحوي ما تواضع من رزق، وبيمناه الصبية الصغيرة حبيبة، يحميها يحملها ويحمي نفسه معها، في حمى دار سيد السيد... وليسلمها ببلاهة، كأن قوة ما سلبت كل جبروت قوته على العناد والمقاومة.

إذ ذاك، لم يكن يدري أنه يجد له قراراً... كان يطلب حمى لفجر واحد أو فجرين... وصل منهمكاً في غاية التعب والإرهاق والطفلة على ظمإ وجوع... المرأة تلك بصولتها تسلمته في الصحن... لا، تسلمت منه الطفلة فأسلمها صاغراً منهكاً، رآها تسقيها وتطعمها... كما روته وأطعمته... وقبل أن يبتلع هو اللقمة، أحس بخدر النوم يسلبه إرادة الحركة والقول، ولم يتذكر إلا ملامح الصبية كأنها ترنو إليه في بعده عنها... بعد نظرته الغائبة، تبدو الصبية بجانب هالة المرأة مستسلمة كالراضية أو راضية كالمستسلمة... يريد أن يقول لها القليل... يريد أن يذكر الكثير للمرأة... يريد ويريد... ولكن أين اللسان؟

أين الحركة؟ أين النظرة ذاتها؟ إنه أسلمها بيديه فعلاً...! أواه. ما للأغوار تنفتح هكذا... ما لها تنفغر وتنفجر؟!

ويرى التبعي مراراً... يرى نائماً ومستيقظاً أنه يتسلم عصا الراعي، يتردد ويستنكر، فما كان في يوم من الأيام راعياً ولا هو يريد ذلك، وقد استقر به الحال والمقام في حضرة سيد السيد وداره... لكن الإلحاح يشتد عليه، لا يدري بأي صوت أو قوة. إلحاح الصوت الذي يسمعه، وكأنه يعرفه، دون أن يحدد صاحبه ولا مصدره؛ وقوة ضاغطة لها حجية الإلزام، وكأنها الرغبة والإرادة لا يعرف مأتاها ولا معناها... يمد التبعي يده بإلحاح داخلي... يتلقى العصا الطويلة الرفيعة التي ليست قضيباً رطباً ليناً يهش به على قطيع، ولا قوة متينة صلبة يحمي بها نفسه من متابعيه وغرمائه... يفيق...

ويفيق التبعي ليجد السكينة والهدوء حوله في الصحن... لا محيا حبيبة يضيء ولا هالة المرأة تؤنس! بعيد المغرب أفاق، بعد نوم نهار كامل أو يكاد... يسأل، لا أحد، زيارة السيد انتهت أو فاتت ولم يدركها... لم يدرك شيئاً إذن، أواه. أي عذاب آخر؟ وأين هو؟

في خلوة السيد التي اقتادوه إليها، يذكر كل شاذة وفاذة، يبشره السيد بالحلم... خير... خير كثير... وعن حبيبة الصغيرة ومحنته فيها، يطمئنه السيد أنها لن تكون مع المرأة إلا في خير كبير وهو حتماً ملاقيها هنا... هنا بالذات... هي لابد إليه راجعة بألف خير، والمرأة التي تراءت له أو رآها فعلاً وصفاً هي لها أكثر من أب ومن أم... ومن الآن... من الآن... ليس هو متبوعاً بأحد ولا ملاحقاً من أحد... من الآن، هو التبعي وهذا حاله ومقامه، مقره ومثواه... حماه وأمنه وأمانه... يتردد الحلم والعصا، وتتردد به راحة الخاطر وهناء النفس في خدمة المحتاجين، في رفقة السيد وبين أركان داره، وفي أحضان خيره وخيراته...

لماذا إذن تنفغر الجراح بعد اندمالها... حتى الأمل في أن يلقاها كما بشر الشيخ صاحب البركة بذلك، لم يعد مقلقاً ولا مثيراً... انفتح قلب التبعي لكل الخلائق، ورأى حبيبة في كثيرات زرن مع آباء وأمهات أسعدهن الرجل بخدمته، ورسم الابتسامة على محياهن الصغير البريء... وعادت بعضهن أمهات وزوجات... رآهن... تذكرهن... وسعد بحالهن... ولم تعد حبيبة واردة لا في الحلم ولا في اليقظة... ولماذا الآن؟ وأين يلقاها؟

لماذا يُطوِّحُ باستكانته وأمنه إلى ظل السيد وخدمته، وأي قوى تفعل به ذلك...؟ لا، ليس كفراً ولا جحوداً ولا إنكاراً لنعمة الظل والخدمة... لكن قوة ما يعاني وما يتردد في سمعه ولبه، لا يسمح بتردد أو قدرة احتمال، هذا شعور التبعي... قوة كالتي جاءت به، تعمل الآن على أن تعصف به، ومهما تردد فلن يطول به ذلك. ولكل شيء نهاية... لنعمة الظل نهاية، للسكينة والأمن نهاية، للتردد نهاية... ويا سيدي وابن سيدي، هي نار أخرى تلهب الجوانح، تدفع راحة الليل والنهار، لا راحة على جمر، لا سكينة لقلب أو خاطر في عتمة غور بلا قعر ولا قرار... لا منتهي... ويا سيدي وابن سيدي، هذا شوق يهز النفس يتسلل مع الأذان، يوغل بعزم أم الكتاب، ويا سيدي، وابن سيدي، والعياذ بالله من كل شيطان رجيم، ليس نداء الكفر والجحود، ولا بطر النعمة... إنه، سيدي وابن سيدي، توق على الناس، لهفة، أبوة جارفة وشوق يتفجر هديراً كاسحاً... يا فاتح النعمة، ومشرع باب الرحمة، صاحب الظل المنشود والفيء الممدود... ليس كفراً ولا من قبيل الكفر، إنه يبدو كالفجر فجراً، فجر تابعك العبد الضعيف على جلال ربه... يبدو كالفجر فجراً أشرق وأبهى وأشد نورانية، نورانية أرضية تضاف إلى نورانية طريقك... ملامح الصبية يا سيدي وصوتها وحرقة القلب... قلب الأب الثاوي تحت الرماد يفيق يا سيدي وابن سيدي... وكله بك ومنك وإليك؛ ولولاك ما أشرق على العبد الضعيف إلى

رحمة ربه فجر ولا كساه إمساء، لولا رحمة ربك وبركة نورك... ببركة نورك لا تجعل ظمأ العبد الضعيف للبحث عن صبية، غياباً ولا هجرة لمتاع دنيء... هو القلب يا سيدي وقاك الله لوعة القلب... هو القلب يلتاع... والضعف البشري يجرف... اجعله ببركتك سعياً في خير ولخير... أنْر وافتح، واجعله توقاً لا يضيع أجراً ولا ينقص إيماناً ولا حباً... ارحم وأنعمْ وأذنْ... لن تكون أكثر من طرف من نهار... فلا بد للخطو أن يتقصى، واللسان أن يسأل والقلب دليل... نبض القلب للقلب سيكون المرشد الأمين لمآل صبية ومقامها... القلب تثقله الحسرة واللوعة والندم... لماذا فرط؟ حبيبة... صبيته يلقاها أم يشفى من ذكراها؟

إن التوق الصادق والشوق، يتفتق عن مكمن غائر يفور فجأة، فلا تجعله يخطف أو يدمر... أنْر وارحم وأذنْ برحمة ربك ونعمتك.

لأيام وليل متتابعات، يفتقد التبعي راحة البال، تلفه دوامة الهواجس واللواعج... وحين عزم ودبر وقدر، لم يزد ولد السيد على أن استمع إليه في ابتسامة من روْح، بسمة عطف وإشعاع مودة...

وحين عاد الرجل مرة أخرى إلى حديثه، سايره السيد في انشراح صامت، ووضع كفه على كتفه في دعاء طويل صامت.

وأمضى التبعي ليال ممضة يلهبه الجوى وملامح صبية يغيبها وجه امرأة صبوح وقور، في هالة من سطوة... إنه نداء، صوت ومشهد يتكرر ويعيد... هكذا تفور وتزداد محنة التبعي، تطوح به أجنحة الشوق، ويقعد به هول العجز ومخافة الخسران... أيهجر إلى الدنيا وأغراضها بعد كل ما أبلى وصابر؟ أو يضمن ألا يتفجر به الحال إلى الأخطر... أو يتلبسه أمر، إن ساير على العناد والمكابرة وباطنه يغلي ويفوز؟!

يتمثل في منامه أنه يسعى بين الناس يستقصي، بعضهم يضحك منه وآخرون يضللونه، وبعضهم يحاول أن يفيد فلا ينفع بشيء، يتمثل له وقد أوغل في دنيا الناس من جديد، فإذا به يلبس ما يلبسون، يتحدث كما يتحدثون... يظلم ويعتدي كما يفعلون! ألا يخشى فتنة بعد ما أبلى وحصل؟

ويظل لربه واقفاً ما بين العشاء والفجر... وفيما بين لمحة كالغفوة وإشراقة كالصحوة، تتبين له ملامح الصبية تدنو وتنأى مشيرة داعية وراءها، صبية يحس بها كأنوار أو فراشات وعصافير، تعرف بشقشقاتها وألوانها دون أن يرى لها كيان... ورأى في كل ذلك جلال امرأة، كأنه يعرفها في قوة حضورها... والصبية هي التي تبدو مالكة أمرها وأمر الكون حولها... مغرية محببة حبيبة... كانت حبيبة... منادية مشيرة مشرقة موردة المحيا بإشراق الفجر...

لم يعد يدري من أمره شيئاً، ولابد لصاحب الأمر أن يحسم له، يعالجه أو يرميه لمصيره... ليته يأذن ويبارك وينور...

وعندما أذن وأصبح ولله الحمد، وقف التبعي لسيده أمام المحراب... افتحْ واسمحْ وارحمْ وأنعمْ...

قبَّل اليدين والكتفين والصدر، تمرغ في النعمة والظل واللهفة والشوق... غمس الكيان في بحر المذلة والهوان... وأقسم خالصاً مخلصاً، لئن لم يفارقه الصواب... لئن ظل لحماً مكسواً على عظم بروح، فلن يفارق الطريق، ولن يغمض عن نور، أو يغفل عن ذكر... نداء يملؤه بواجب عليه... واجب يتعاظم الشعور به مع العمر، مع ما يرىٰ مما حوله... وكله لن يزيد عن بعض من نهار... نداء يشعره بأنه ملاقيها حبيبته الصغيرة، مع أولى تقصياته... شيء كالحقيقة حيناً، كالوهم حيناً آخر، يحثه على السعي والإسراع... كأنها توجد جنبه على القرب منه، أو كأنها في خطر أو خطإ ينقذها منه قبل فوات الأوان، أو كأن

احتضاره في آخر نفس من حياته مرتبط بأن تروي العينَ رؤيتُها، وتشرح الصدر بسمتها... ويا سيدي إن كان هذا من الرجس فاعلم واحسم... وكله منك وإليك...

حينئذ... وحينئذ فقط، يغمره جلال الفجر، يتفتق عن دموع الرحمة... ينظر إليه السيد نظرة طويلة ممعنة تغيب معها ابتسامته الوديعة المعهودة، ولا تخفى أو تغيب إيماءته المضمرة الموجهة بالإذن والرحمة والتفويض... نعمة وفضل ربك الكريم.

ويحس التبعي لذلك بخفة كأنه الهواء أو أخف، وبنقاء وطهرانية كأنه ضمير وليد أو يكاد... إنها ليست هجرة لغرض دنيوي... نداء واجب هي، وصلة رحم وضمير... ربك أرحم بعبده من تلبيس إبليس... افتح واسمح، ارحم وأنعم...

هكذا تم... هكذا أخيراً، أمام خلائق الفجر، بين المأموم والمحراب، يفتح السيد ذراعيه، كامل صدره ورحابة نفسه ومودته، يضمه هاتفاً ومعه خلائق الفجر: الله أكبر. ويضم إليه التبعي الذي غاب في الدموع والأغوار فالمشاهد والنداءات... يباركه... فليلب النداء... لا بأس، ليتقص عن صبيته... حبيبته... لا بأس، والدار داره، الظل له في كل وقت، على ألا يضيع...

44

ماعدا لهيب الشمعة القانية الداكنة، لم يكن يسود سوى شبه ضوء خافت، يضاعف من تكاثف زوايا القاعة بما يوحي بالخلوات الصغيرة المتجاورة في الأركان... أركان مضلعية عديدة بتداخلاتها المنفتحة على وسط القاعة. مع ذلك... وبالإمعان في التحديق يبدو كأن جميع الطاولات فارغة إلا ما توحي به المترسبات والبواقي في أعقاب الزجاج أو على الصحون وسطح الطاولات... من أن هدوءها مؤقت كهرجها، وأن شاغليها يعتصرون من آخر قطرات النشاط... أوائل أنفاس الصباح...

مال أحمد رقيبة بحركة يوسع ما بين الطاولة القصيرة والأريكة فسحة لمرور حورية التي تسربت على إثر ذلك، سحبت زرار جلابتها إلى منتهى أسفله، وانفلتت منها سمكة أرجوانية يتمسك الحرير المنساب بحباته المتلألئة على أعطافها، منحسراً عن الكتفين وعن فسحة الصدر الرقراق، أراحت جلابتها على حافة الأريكة، حركت رأسها يميناً وشمالاً، تسعف شعرها المقصوص المستعرض، ثم جلست بحذاء رقيبة وهو يتابع لهيب الشمعة الداكنة، وجوفها

يكاد يطفح بما يعتمل فيه... يتراقص اللهيب، مضاعفاً كأنه يتمطى خشية أن يغرق في رقراق الشمع المذاب... يرفرف كأنه يقاوم غصة، الغصة، تلك، الغصة نفسها تتضخم في حنجرة رقيبة، فيتحرك بها حلقه صعوداً وهبوطاً... غصة بألمها الذي لا يحيي ولا يميت؛ ولكنه يترك الألم معلقاً والراحة... يتراقص اللهيب... يتراقص مضاعفاً من ذاته في خضم مجاهدته لغصته واستماتته ضد الاختناق...

... يتراقص اللهيب... يرقص يرقص من ضعفه واختناقه في الشمع المذاب، ومن غصة حلقه... وتمتد يد صغيرة بعود قش مقتطع من حصير... يد أحمد الصغير مجذوبة بإغراء لا يقاوم، لتزيل غصة الحلق من أحمد ومن اللهيب... حين ينفخ فجأة ريح وصوت يدفنان الغصة في مكمنها المعلق... صوت ناهر في الطفل أحمد... كفى لعباً باللهب... لعب شيطاني لا يجلب إلا السوء والتبول عند النوم... كفى من هذه النتانة في الفراش التي تختمر ليلاً وتزكم الأنوف بكراهة ريحها نهاراً... كفى، وهيا... وقم لتنام!

ويقوم أحمد الصغير بغصة حلقه، وغصة اللهيب الذي يغريه العبث به... يغويه ويشده... ويؤسيه أشد الأسى أن يغرقا معاً أحدهما في لجين مذاب، وآخر يحتويه الظلام... يقوم الفتى الصغير يتلمس في الخوف والظلام طريقه نحو الفراش على السرير الخشبي، يقوده صوت الأم الناهر المتردد بين القسوة واللين، منذراً بما يشبه التوسل والعطف، من أجل ألا يتبول الصبي أثناء النوم كعادته، وأن يستيقظ في الوقت المناسب لذلك.

كل ليلة تتكرر غصة الفتى الصغير، وصوت الأم بنفس العبارات المتوسلة المتعبة، أرهقها يوم تجوال وشغل لا ينقضي في بيوت الناس، من أجل صغار بلا معيل... كل ليلة تتكرر النغمة والغصة والنفخة الناهرة على اللهيب، في اللحظة المناسبة قبل الغرق في الظلام... كل ليلة ينتظر الفتى الصغير بغصة حادة

تقرض حلقومة حتى ينام إخوته الثلاثة... ويظل أثناء ذلك يعبث ويؤنس وحدته وخشيته بمداعبة اللهيب... فما داموا أيقاظاً فلن يقبلوا أن ينام بجانبهم البوال أخوهم أحمد الصغير... الآن، يتسلل إلى جوارهم وهم نيام، يقوده صوت الأم ويدها... الغرفة أصغر بكثير من أن تسمح لهم بالنوم جميعاً على نحو مريح... مستقيم على الأقل... غرفة بين غرف متقابلة حول صحن تشغل كل منها أسرة مماثلة أكبر أو أصغر... غرفة لم تكن تسمح لإخوة الفتى بأكثر من أن يتجاوروا جنباً إلى جنب على عرض السرير، ومقسمين عرضه بأطوالهم... ملزمين بما يحتمل الثني من أطرافهم بقدر ما يسمح بذلك عرض السرير... وفي غفلة عنهم، بعد أن يستبد الكرى بأجسادهم، ويأخذ مأخذه منهم، ترتخي مفاصلهم، فتتدلى سيقانهم على حافة عرض السرير بدرجات متفاوتة...

من درب العفو إلى درب السبنيول إلى كرلوطي... تغير السكن من غرفة إلى أخرى، دون أن يزداد الحال أو ينقص إلا في مقدار ما يتسرب من ضوء النهار، بما تسمح به فسحة الصحن إلى ضيق الغرفة...

يتسلل الصغير أحمد، ليأخذ مكانه إلى جانب إخوته... وفي حالات أخرى، كان يظل يرقب تراقص اللهيب، ويعاني من غصته في حلقه، حتى ينام حيث هو، فتقوم أمه تحمله وتضعه بجوار الآخرين...

آه... ينتفض أحمد رقيبة من شروده البعيد القريب... خواطر بغصة طفولة مريرة، تلتئم في الحلق... ببقية عود ثقاب يشق ثلة في حوض الشمعة المحتقن، لينساب السائل المذاب مدراراً على جانبها، وينتعش اللهيب نشيطاً مستقيماً... يحس أحمد رقيبة بانسراح يسري في حلقه، يتلمظ مراراً قبل أن يعلن طلبه للجرسون، وينتبه إلى حورية، يشعل لها سيجارة ويعلق على انتعاشها وإشراقها البادي، مؤكداً بابتسام أنها تبدو كالخارجة لتوها من حمام، ولا يتردد في أن يهنئ نفسه بها... هذه الساحرة التي تخلق جمالها في كل لحظة خلقاً

جديداً... تنفث من دخان سيجارتها باتجاهه... يعرف أنها لا تدمن التدخين؛ وشرع هو في تهييئ سيجاره الفخم... يعرف أنها في لحظات من نشوتها وانبساطها تحب أن تخلق كل الرغبات... كل رغبة ممكنة، حتى رغبته في أن يراها تدخن... وتقول باستمرار، كل ما يرغب فيه المحب زينة المرأة... وتؤكد أن التدخين زينة المرأة، وزينتها هي بالذات مادام المحب يرغب في ذلك... ما لم يستعبدها... لاشيء... لا شخص ولا قوة من عادة يجوز أن تستعبد المرأة! أية حكمة؟ وتقول كل شيء في المرأة جميل إلا أن تستعبد... ولو بالمال! المال... الذهب والعقار... كله متاع جميل ويزيد من جمال المرأة... إلا أن يخضعها ويجمدها... جمال المرأة وقوتها في انطلاقها! أية حكمة؟!

يشعل سيجاره الفاخر، ويظل يتابع حركات الراقصين من خلال تعاريج الدخان ودوائره... الجوق الزائر الذي يحيي السهرة ما يزال لم يبدأ برنامجه بعد، وما يجري في الحلبة والمكان كله تنشيط سابق... رغبتها كما يلبيها أحمد رقيبة، في ألا تفلت مناسبة مرح أو طرب لفرقة زائرة، دون أن تحضرها معه... تقول إن أنفس ما يقتنى بالمال ساعات المرح والفرجة!

تنبعث الحركة في الطاولات المجاورة، أصحابها يعودون بعد تغيير الوصلة الموسيقية... تتكاثف تعاريج الدخان، وغصص اللهيب المختنق... تأخذه حورية من يده، وتتقدم به نحو الحلبة مكررة بابتسامتها أن المرح يصنع صناعة... لابد من خلقه في النفس، لا مجرد التفرج عليه. على عتبة الدائرة، تترك الفرصة لقدميها تنفلتان من حذائها العالي... وتتقدم حافية مشرعة الذارعين متألقة في الأرجوان المنسدل... يتسامى في التماعه مع تراقص الألوان والأضواء، والحنايا المشرعة للبهجة... وحدها لها هذه القدرة الخارقة على أن تبعث حولها فضاء نعيمياً مخدراً مريحاً، لا يقاوم بغير الانقياد والانطلاق... فضاء مغر جذاب... عميق في لحظاته بها ومعها... يفتقد رقيبة في رفيقته

السمك والوزن كما يفتقدها في ذاته... يحس بنفسه خفيفاً يحلق في سماواتها من كون النعيم ومن عبير وأريج... لها هذه القدرة على أن يغفو في فيئها مخدراً بالبهجة على أنغام ذائبة مغرية... يتهدهد معها على سطح مائي هادئ... يذكر النغم متنائياً... تهمس في سمعه حانية عليه كما لو كانت توقظه من غفوة... تخطر معه خارج الحلبة، تسلك قدميها من جديد في الكعبين العاليين، ويتركان الحلبة التي بدأت تضج مرة أخرى.

يجلسان... يبل رقيبة حلقه بجرعة كأنه يتمصص الكأس الكمثرية، يشير مجدداً طلب المشروب، والمكان يتهيأ لبداية برنامج الفرقة الزائرة... تتقدم فتاة من الطاولة المجاورة لإشعال سيجارة، يلاحظ رقيبة غمازتها المتراقصة على سعة ابتسامتها وهي تشكره... تهنئه بصاحبته الفاتنة الأنيقة... كانت فتاة مرحة جداً وشفافة؛ وكانت بجلستها المتقاطعة مع جلستهما، في وضع نصف الملتفتة إليهما...

أشار رقيبة إلى حورية يقدمها للفتاة: زوجتي!

اتسعت حدقتا الفتاة عجباً، صافحت حورية وقدمت نفسها: لطيفة، وقالت إنها لم تر ثنائياً يتجاوب مع الأنغام الهادئة مثلهما... وعجبها أكثر من أنهما زوجان ولمدة غير قصيرة فيما فهمت، أي أنهما خارج الشهر المعلوم أو أيام البكور، كما تسميها لدى المتزوجين الجدد سرعان ما تزول! غبطتهما على حالهما وأفاضت في ذلك بخفة روحها المرحة وابتسامتها الشفافة.

قالت وهي تغمز لحورية بشكل ظاهر مشيرة إلى رقيبة إنها طارت به! هنأتها على ذلك وهي تؤكد أنها لا تهنئ الرجال بالنساء. أما لماذا؟ فهددت بأنها لن تبوح بالسر الذي تعرفه وحدها من دون العالمين! ضحكت، ضحكت بقوة وصفاء... ضحك أحمد رقيبة وحورية، وهو يؤكد أنه هو الفائز في الصفقة على كل حال... يقول ذلك وهو يضع يده على كتف حورية، كأنه

يضمها إليه في جلستهما الجانبية.

تساءلت حورية إذا كانت الفتاة متزوجة أو تزوجت، ردت الفتاة بالإيجاب، لها بنت، أنجبتها من تجربة زواج سريعاً ما انتهت، لا خير في الرجال؛ وغمزت باتجاه رقيبة كأنها تعتذر أو تستفز عن قصد. أصدرت آهة، ثم استدركت تتجاوز آهة التحسر مؤكدة أن الرجال ليسوا عملة واحدة ولا النساء... كل شيء مكتوب... عبرت بهزة كتفيها عن لامبالاة بكل ما مضى، وأشارت إلى رفيقة لها كانت تغادر الحلبة لتوها، تتفحص بعينها المكان بحثاً عنها، أقبلت باتجاهها، قدمت إليها كلا من حورية ورقيبة على أنهما زوجان! شهقت رفيقتها دهشة، وهي تعلن انتصارها على لطيفة: الله، هذا يصحح رأيي في الرجال!

قالت الفتاة ذلك، وجلست مباشرة إلى طاولة الزوجين مقدمة نفسها من جديد: حياة.

وبدت فتاة دقيقة الملامح، جريئة وافرة الحيوية والثقة بالنفس، دون العشرين، مدت يدها متمططة نحو طاولتها الأولى تبحث عن علبة سجائرها، ورفعت صوتها تنادي الجرسون... اعتذرت عن تطفلها وهي تسحب دخان سيجارتها، وتقول بأنها تغتنم الفرصة في هذه الجلسة لتتجنب الفضوليين الملاحقين، أخخ... يا ربي البنت ما عندها راحة، لا في الدار، ولا في الخدمة ولا حتى في الفرجة!

كانت بلهجة متذمرة تشكو الوضع، خرجت مع رفيقتها تبحثان عن أمسية تنسيهما بعض الهموم، لكن من يتركهما في حالهما، حتى الشاب ابن الجيران الذي أتت به مرافقاً ومؤنساً على نفقتها، ضاع في الجو، ونسي كل شيء عن مهمته... متذمرة تشير إلى الفتى وتنبه لطيفة والجلوس معهما إلى حاله:

ـ الله عليه... غاب وذاب ونسى كل شيء... إخخ...!

كانت تشير إلى فتى في أوج مراهقته، يتقافز ويتلوى مع الأنغام الصاخبة والأضواء...

عادت تعتذر عن مضايقتها للغير بهذه الأفكار... أكد رقيبة أنه يدعوها ورفيقتها لتناول شيء معهما، نظرت إليه حياة بعبوس مصطنع متسائلة باستنكار: ألا يستحيي من دعوة فتاتين بمحضر زوجته!؟ وتوجهت إلى حورية بنفس الاستنكار المصطنع:

ـ وقدامك... قدامك ألّلا مولاة الدار؟!

ابتسمت حورية مؤكدة أنه يفعل ذلك بترخيص من «الداخلية»!

تداخلوا في المرح والضحكات.

وبدت جلستهم في أتم نشاط وانسجام، وقد امتلأت طاولتهم بالكثير من الطلبات التي كان رقيبة يومئ بها للجرسون، وتناثرت بينهم النكت والمستملحات، وتحركت حياة لتجلس بين أحمد رقيبة وحورية، مؤكدة أنها تريد أن تفصل بينهما مؤقتاً، وإذا أتيحت الفرصة، وساعدتها مهارتها، فستطير به من صاحبته!

قالت ذلك في دعابة، وهي تقبل حورية في نهاية مزحتها!

جاء دور المجموعة الغنائية الراقصة الزائرة، مجموعة لاتينية تتضافر حركاتها المتناسقة مع زهو أزيائها وتراقص الأضواء، لتضفي على العرض مسحة سحرية أسطورية...

في نهاية الوصلة توزع بعض أفراد الفرقة من راقصين وراقصات إلى بعض الطاولات استجابة للرغبات ومشاركة لهم... وأشارت حياة إلى إحدى الطاولات تنبه إلى الفتى الذي جاء برفقتهما:

ـ تبرك الله عليه... ولا هو هنا!

كان الفتى منغمراً في انسجام كامل مع زمرة فتيان وفتيات في طاولة، وقد انضم إليهم بعض أفراد المجموعة الراقصة.

في انطلاقها مع منساب المرح والبهجة، طفقت أنامل حورية تداعب طرف الطاولة، وفي عمق حلقها، تتردد في همس مقاطع صدحة زمنية، حين هتفت بها حياة: الله... الله قتلتني! وصفقت بيديها مشاركة مهللة؛ وسرعان ما توقفت حورية وهي تومئ وتعض على شفتيها منتبهة... فاللحن سرى عفواً بينها وبين نفسها، كأنه من إلهام صدحات ما تبقى في وعيها من أنغام المجموعة الراقصة... ولا تريد التفات أحد إليه...

تداركت حياة نفسها كالمعتذرة، وهي تدير موضوع الحديث إلى نقطة بدايته، قالت إنها لن تفكر في الزواج... ولماذا وجع الدماغ والبطن... انتفاخ البطن؟! أكدت ذلك وهي تذكر بمشهد الراقصات في خفة الفراشات، بقامات ساحرة وأجسام ضامرة... ليتها تتجنب انتفاخ البطن الذي تكرهه... وإذا كان الزواج مسبب ذلك، فهي لا تفكر فيه!

كانت في استرسالها من موضوع إلى آخر، كأنها تلاحق عالماً تخشى أن تفلت منها بعض عناصره، أو أنها لا تطيق صمتاً ولا فراغاً... وسرعان ما استدركت في حديثها عن الزواج وهي تنظر وتغمز إلى حورية، أنها لو تأكدت من أن زوجها لن يحرمها طعم الحياة ويعصر في حلقها الحنظل، فقد تقبل... وأكيد أنها ستقبل بسرعة أكثر ومنذ الآن، فيما لو تأكدت من أن زوجها بعشر معشار ما عليه زوج حورية... أو حتى أقل من ذلك بعض الشيء...!

كانت حياة تتكلم، تنثر حولها الضحكات وألوان المزاح، لا تكف أثناء ذلك عن الغمز الخفيف والحركة في كل اتجاه...

تراقصت الأضواء من جديد والأنغام وإيقاع الخطوات... ورنت حياة إلى الحلبة وأشباح القابعين على الطاولات القصيرة المتفرقة في الأركان... وقالت بعفويتها إنها لم تكن راضية عن السهر هنا، لولا ما أحيطت به الفرقة الزائرة من إشهار... إنها تفضل السنتر... هنا خليط... مناسبة الفرقة الزائرة زادت خليطاً إلى خليط... نبهت لطيفة صاحبتها إلى أنها بهذا الحديث قد تفسد السهرة على الناس، وشددت على عبارتها الأخيرة، وهي تعني من معها في الجلسة. لا، قالت حياة، هؤلاء كبار، قلوب الكبار كبيرة، كانت تفخم عبارتها وإشارتها وهي تنظر إلى أحمد رقيبة وحورية.

كانت لطيفة تتابع حركات فتى قام ضمن مجموعة تبدو في أتم انسجام، وهم يمرون بالقرب، كأنهم يغادرون أو يغيرون إلى ركن آخر أكثر صميمية... لاحظت حياة حركة رفيقتها، فمنعتها أن تشير إليه بشيء. قائلة: لا فائدة منه، والغلطة غلطتها لأنها ظنته رجلاً، أو مؤنساً ترتكن إليه... ابن الجيران لم يكن إلا طفلاً ضائعاً مضيعاً...

عادت الفرقة مرة أخرى لوصلة جديدة من الغناء الراقص، وفي مرحلة من ذلك، أشاعت المشاركة في الحضور، بالحركات وتكرار لوازم غنائية وبالضرب على الأيدي، تم التماسك بالأذرع والتمايل مع النغمات من الجميع...

قالت حياة متحمسة بمجرد انتهاء الوصلة، إن الهم ينفرج مع كل حبة عرق تنتثر من حركة مرحة، ومع كل نفس لنغمة... هكذا تحب أن يكون الطرب... مشاركة وحركة لا مجرد جلوس جامد وأذن صاغية... وأضافت تتساءل إن كان أحد يعرف ما دار بخلدها في فترة التماسك بالأذرع بين مختلف المتجاورين... لم تنتظر رداً، ولكنها أجابت بما عندها، تذكرت فقط، أنها لم تر ولم تعرف أذرعاً متماسكة إلا في الخصام... وأنها خشيت من يدها أن تمسك

بشعر للاها حورية جارتها وتطيح بها، كما تعودت يداها أن تفعلا بالقرينات في طفولتها!

كانت في حركاتها وحديثها، كأنها فعلاً في منافسة حادة أو في خصام حقيقي، ثم ما لبثت أن قبلت حورية معتذرة طالبة منها التحمل، ففي ليلة كهذه تريد الفتاة تفريج كل ما بها... إنها تريد أن تبدأ أسبوعها بعد هذه الليلة، كياناً جديداً لسبعة أيام أخرى منهمكة...!

وانصرفت حياة قليلاً إلى مراقبة المتحركين على الحلبة، تعلق عليهم بعبارات فكاهية، ثم انطلقت في بداية نكتة لتتوقف وتعض على شفتيها، كأنها نسيت المقام وما يلائم، فأوشكت أن تذكر مالا يلزم أمام زوجين صديقين...

مالت حورية باتجاه رقيبة تهمس له، ليندفعا معاً يطلبان من الفتاة إتمام ما همت به من حكاية أو نكتة، إلا أن هذه تمسكت بعدم الإفصاح والتوقف عن الكلام، ولم تزد على أن تقول إنها يمكن أن تحكي لهما ذلك في آخر لحظة عند الفراق إذا أصرا على ذلك، حتى لا يريا لها وجهاً بعد ذلك؟

كان النشاط والمرح آخذين بالفتاة، وكانت في غاية الانطلاق والابتهاج...

كانت فترة انسياب أنغام هادئة، فرصة لتتساءل حورية إن لم تكن الفتاتان أختين أو قريبتين لما بينهما من تشابه الطباع، ردت لطيفة كأنها تستعيذ بالله من أن تكون مثل هذه الشيطانة من أسرتها! وضحكوا في غاية انبساط.

قالت لطيفة إنها خياطة في شركة للملابس، أما عن الأخرى، حياة، فقالت إنها لا تستقر على حال، ولا تثبت على شيء... إنهما فقط بنتا درب واحد...

أومأت حياة بإشارة خفية أنها كذلك، ولا تدري لماذا خلقت هكذا،

ولا تعرف ما ينتظرها، لذلك تعيش لحظة بلحظة، تحاول ألا تفكر كثيراً في ذلك...

كانت مسحة كآبة بدأت تخالط انشراح الفتاة وهي تفصح عن ذاتها، وسرعان ما استدركت كأنما وعت ما يجب عليها في هذه اللحظة، ونظرت إلى ساعتها وإلى لطيفة مقترحة أن يتوجها إلى السنتر... وإلى النيكرو هناك أحسن... حيوية أكثر... وشعور بالأمن... والتاكسيات كثيرة... أما هنا...

بدت لطيفة في هيئة الموافقة، حين تساءل أحمد رقيبة بعفوية:

ـ وصاحبكم؟

آه، تحسرت حياة، مؤكدة أنه ضيعهما وضاع، ثم لتؤكد:

ـ بلاه، أحسن!

عرض عليهما أحمد رقيبة وحورية أن ينقلاهما إلى هناك إذا انتظرتا قليلاً.

رحبتا بالفكرة بإيماءات امتنان وعبارات شكر.

45

بونا آدم... بونا... آدم... بونا...

دنيا بهيجة صفراء تتراقص بأشباحها وأصواتها وحركتها... مقهى الجيارة وطاولات يملؤها الأصفر الفاقع مهزوماً ومنتصراً، منبطحاً ومنتصباً... أكواب مترعة بالأصفر يتحرك بها العجوز الأصفر على صينية صفراء صفراء، بابتسامة اللون نفسه... وبتقبل مماثل وحركات كلها بالأصفر في الأصفر... لا يهم. الألوان هي الألوان، أو اللون هو اللون دائماً، واحد شامل كامل... إذا كان للأحمر لهيبه وإغراؤه... إغراء الحرق والاحتراق... إذا كان للأسود دخانه الخانق كما للألوان أو أشد؛ فللأصفر صقيعه البهيج... جحيمه الثلجي البارد المبراد... دنيا بهيجة يتنفسها الهبطي، يراها رأي العين، يسري بها نبضه، ويفهم بها عقله.

بونا آدم... بونا آدم... بونا...

تتوقف خطوات الهبطي عند صفرة المقهى والناس والجدران، ونشارة الأصفر، برادته المتناثرة وبخاره الفوار... كلها تتكاثف في اصفرار المشهد

الكامل الشامل. يتوقف الهبطي، يتأمل بإعجاب باطني أصالة اللون الفاقع الشدة كما يبدو له... كون وحيد عميق، لون طاغ على ما عداه، باغ عن كل ما فيه وحوله... يتأمل الهبطي ما يرى ويتراءى له، تعمه الصفرة وإحساسها الفاقع البارد في أعمق دواخله، كما لم تعمه من قبل بهجة الأصفر ومتعته... وكما لم يعمه شعور مع أي لون شامل آخر... أية بهجة وأي إحساس؟! تلمه واحة صفراء، تكتنفه اكتنافاً تاماً شاملاً. تلفه راحة لونية أشبه ما تكون بخدر رفيق رقيق كهجعة هادئة لميت في كفن... أو كغفوة وليد في قماط حنون... نومة هامدة هادئة، بطيئة اللحظات بريئة كعريه الطفولي المكتسي باللون نفسه، اللون الوحيد ولا شيء غيره... بهجة اكتساء اللون... بهجة اكتفاء وارتياح.

نظرات صفراء يحس بها الهبطي تقدح... وأخرى تلمح وتلفح، وبعضها يعض ويشد... أشباح تنتظر، تطول وقفتها الصفراء كالمتحلقة المتفرجة حول الطاولات وحول صفرة الهبطي وصفرتها الذاتية... عيون يحس بها تشزر أو تخزر وتفرز للون عريه بلون مماثل أو أشد...

أشباح يائسة بلا بهجة في صفرتها القاتلة الميتة المميتة، لا تنعم، وبعيد عنها أن تنعم بمقدار صفرته... صفرة وصفرة وشتان ما بين... أشباح يائسة تعبت من حركاتها وأصواتها وألوانها... تعبت حتى من صفرة عريه الطفولي... يا للجهل واليأس والغفلة واللون الفاقد المتعة والإحساس... يحس بها في يأسها وغفلتها أذرعاً وأيدي بلون باهت ممتد، ترمي عليه غطاء حائل الصفرة، بلون باهت مضمر وناعس... أو يراها تمتد إليه بمئزار أو معطف... تلسع صفرتها الزائفة نخاع ما على كتفيه من عري، تصب عليه صقيعاً لا يحيي ولا يميت من صفرته الحائلة... بعيد... بعيد عن يأس هذه الأشباح أن تنعم بأي لون... ولونه الفريد المتميز في صفرته اليوم، في انصبابه على الكون حوله... يثير هذه الأشباح، يزعجها أو أنه لا يريحها في كل الأحوال...

تتعمق راحة الهبطي أمام حركة الألوان، وألوان الحركات والأصوات والخزرات في المقهى... الأشباح والحركات والألوان بلونها الوحيد الباغي والطاغي على ما عداه وحوله، وبلونه الفريد الصفرة... كله يدعو لاسترخاء كبير مريح... يدعو عريه لارتياح لا مثيل له إلا راحة الرحم أو القبر والنوم شقيق الغيبوبة والغياب، يسترخي الهبطي كاملاً... يسترخي كل استرخاء تستطيل أعضاؤه، عضلاته وأعصابه وتتفكك مفاصله أو تكاد... يحس بها في ابتهاج صفرتها تتدلى، يستقل بعضها عن بعض بلونه وكامل راحته...

بقعة صفراء جذابة بكثافتها تتنابشها أشباح حول طاولة، بحركات وأصوات حائلة الصفرة، بتراخ واسترخاء تام، تتمايل أطرافه المتفككة المفصولة بعضها عن بعض تحركها كثافة البقعة الصفراء المنافسة للونه... أطرافه تتحرك بارتياح واسترخاء... وتهبط كفه على البقعة في وسط الطاولة والأشباح... فعلاً تعلق به صفرة مكعبات وأوراق... تتقاطر صفرتها من صفرته...

أشباح تفزع وأخرى تقدح أو تلمح، بألوان أصواتها وحركاتها... ويظل الهبطي سادراً في راحته مطمئناً آمنا لنفسه، يتأمل المكعبات المضغوطة في جميع كفيه والأوراق... وكلها تتقاطر منها صفرة كثيفة...

يتضاعف حول الهبطي نعيق بلون ما رأى مثله لوناً حائلاً باهتاً، ولا يزيد أكثر من أن يضاعف من راحته ولونه المتميز في كون كامل أصفر...

أفسدها علينا... يصيح بذلك صوت... لا، بل اعتدى علينا يقول آخر... لعنة الله عليه هذا شيطان رجيم، فاضح مفضوح... بهيمة في دنيا البشر... بهيمة لا أقل ولا أكثر... بهيمة عجماء لولا أنه يسير على قائمتين... لو كان على أربع على الأقل لأفاد واستفاد! اللهم استر...

بعض النعيق يتناهى بصفرة مناسبة تبدو مخلوطة باعتدال، لا حول ولا

قوة... اللهم استر عبدك وبهيمتك... استرنا حتى يسترنا التراب!

بالألوان المعتادة ترتفع أصوات أخرى فاقعة العمق والسطح: يا جماعة، خذوه إلى أي مكان، احجزوه. ليمت إن شاء أن يموت ويريح... ما هذا... سبة وعار وخطر... ماذا نفعل معه أو نفعل به؟ الآن ينتصب مفسداً كل لحظة، محطماً كل ما بنيناه وراهنا عليه... وسيعيدها كلما عنَّ ذلك لبهيميته، وسيكررها متى راق مزاجه أو تكدر... عيب وعار وخطر...!

يتناهى مرة أخرى نقيق بصفرة ملائمة، تبدو مخلوطة باعتدال... يا جماعة... يا ناس، اتركوا خلق الله لله، اطلبوا الستر وحسن العاقبة... وغضوا... غضوا وانصرفوا لحالكم أو انسوه وانتظروا أن ينصرف، لتعودوا إلى ما أنتم فيه، لا بأس إذا ضيع لكم لحظة أو دقيقة. عادته معروفة سينتهي به الأمر أن يبسط على الطاولة ما أخذ... عادته معروفة ونادراً ما تحدث، وليس منها خطر... اصبروا له لحظة حتى يعود إلى مزاجه وينصرف بأمان...

تختلط الأصوات لا يحس بها الهبطي فيما يبدو، وإنما يستمر في وضعه المجمد يجمع كفيه على ما احتضنته يده من مكعبات الدومينو وأوراق اللعب... لا يبدو عليه إلا أنه مرتاح في وضعه المتجمد، يتأمل صوراً ومشاهد خاصة به، كأنه خارج العالم أو أن ما يحصل حوله خارج العالم... تمتد أيد ترمي على كتفيه أو تعقد حوله ثوباً أو غطاء... يترك لها فرصة ذلك لعدم الإحساس بها، أكثر مما هو رضى عن التفاتتها...

رغم ذلك، تظل أصوات المتذمرين من المتبارين والمتفرجين تعلو وتختلط...

العجوز النادل يتقدم نحو تجمد الهبطي، يقدم كأساً من لبن ساخن ويقدم له مقعداً... يقدم العجوز كأسه ويرشف منه رشفة، كأنه يشجع الهبطي لفعل

مثله، كأنه يخاطبه بالحركة التي يفهمها مادام النطق واللفظ لا يسعف...

يظل الهبطي في موقفه متجمداً متأملاً ما يتراءى له دون أن يستجيب إلى هدية النادل أو تخف قبضته عما يمسك بجمع كفيه... لحظة كانت قلما تحدث من الهبطي الذي يمضي في جولاته عادة، دون أن يؤذي أو يغضب، بل دون أن يلمس أو يحدث أحداً... يلمس عادة ما يحس بأنه في حاجة إليه من أكل... يأخذه مما يجد دون أن يسأل أو يستأذن ودون أن يزيد عما يلزم، أما مثل هذه اللحظة التي تبدو مجرد معاكسة للاعبين مرتاحين مريحين، أو تبدو من منظور شبه اعتداء فقلما تحدث... وإذا وقع، فسرعان ما تنحل من ذاتها ببعض الوقت... أليس هو الهبطي ابن الدرب أو معلم من معالمه على الأقل؟

ينتفض مول المقال في تأفف وامتعاض تناثرت له بعض جرائده وأوراقه، دون أن ينتبه، وأوشكت أن تسقط له نظارتاه. يثبت نظارتيه ويمضي لا يلوي على شيء، كأنه مطارد أو مستعجل فجأة على ميعاد.

يبدأ الجمع يغادر، بينما يظل آخرون يحدقون يتابعون الموقف الذي بدأ يطول، وأنظارهم مشدودة بقوة كانجذابها لمصدر نور مباغت شديد.

أصوات متفهمة ترد على نغمة التذمر والغضب: سبة لنا؟ سبة؟ لا، لا. وأبداً. هذي علامة وتنبيه وعيان. هذي علامة لمن يفهم ويعرف... هذا حق مبين واختبار... علامة لنا وعلامة علينا...

كان الخطاب يجد طريقه إلى أفهام البعض، فيغضون بعض الشيء، أو يقتلعون نظراتهم ويعودون إلى دواتهم وما حولهم، متعللين بالصبر، كأنهم يتجاهلون ما يجري أو يتجاوزونه... كل شيء يظل مجمداً، حتى الطاولات الأبعد، في أقصى الأركان وهي تستأنف بعض حركتها، تفعل ذلك متباطئة في شبه همس... وتغض عيونها على ما يجري...

شيئاً فشيئاً يحس الهبطي بمفاصله كأنها تلتحم به من جديد، يعود إليها الاتصال، كأنه يفيق من غفوة أو غياب... يفيق رائقاً مرتاحاً، ينظر حوله هنا وهناك... فعلاً عالم أصفر كما ينبغي أن يكون، وجمع يديه يضم كتلاً صفراء في درجة الكون... يتقاطر الأصفر من جمع يديه... يطرح ما بهما على الطاولة... يطرح المكعبات والأوراق مشعة بالأصفر في الأصفر... تصدر آهة صعداء عن الجمع المتوتر المشدود...

ينتفض الهبطي يرمي ما وضعوا على كتفيه وحوله... يتأمل كونه راضياً منعماً ويخطو بإيقاع معدود...

بونا آدم... بونا... آدم.

46

انصرف الفتيان إلى جمع الأواني وترتيبها داخل الحويطة، إلى حين العودة إليها... بينما ظلت عويشة جامدة في مكانها، متجاهلة إشارة الشخش لها بان تقوم بدورها للانصراف... قالت إنها لن تعود إليهم... لن تعود إلى أي مكان آخر... هذا مكانها... هنا... وكل أرض الله الواسعة مكانها... ستبيت هنا، وحيدة، ليكن... أو أنها ستبحث عن مكان آخر إذا كان هناك مانع من بقائها هنا...!

تمطى الشخش، ألم يقل إنها حمقاء؟ ليكن. لتكن أنت العاقل ولتعد إلى أمك... أما هي فتعرف طريقها... وسيكون منذ الليلة غير طريق الشخش مع أنها أحبته وتحبه... أحبت طريقه!

تأكد الفتيان من موعد الغد ومكان الالتقاء بالشخش وبكل جماعة لحوت؛ سيكون الشخش بالحفرة عند مدخل النفق بالسكة الحديدية، تأكدا من ذلك، ودّعا، وانصرفا نشيطين يداً في يد.

ظل الصمت ثالثهما والظلام... عويشة والشخش... ظلا ذلك لفترة طويلة، يؤنسهما دخان سجائرها المتتابعة... تنفس عن نفسها وتغيظه بالتدخين؛

عنيدة، لو كانت رجلاً لكانت مثله...! تابع فكرته متمدداً على ظهره، مستمتعاً بحركة السحب البيضاء، يسبح في موجها بدر متردد الضياء... تابع فكرته مرسومة في حركة السحاب... لو كانت مثله لكانت معركته المنتظرة معها بالذات...! وضحك في سره لذلك... ومع ذلك، فهو معها في معركة من نوع آخر...

انتبهت إلى أنه يضحك، أو أنه يحدث نفسه بابتهاج. قالت كالمنبهة لوجودها بقربه:

ـ على سلامتنا!

عاد إلى نفسه، استدار نحوها على وضعه الجانبي ليواجهها... كانت بمحاذاته لا يرى إلا صفحة وجهها... مقرفصة في شبه إعراض عنه. لوح بيده دافعاً عن وجهها دخان السجائر المتكاثف... يؤكد لها مرة أخرى كيف أنه انقطع عن التدخين في أنسب مكان لإدمانه: السجن! وكان ذلك رهاناً حراً بينه وبين نفسه. ربح الرهان كالعادة... وكانت تلك نتيجة سجنه الأول منذ سبع سنوات... لم تجب أو تلتفت لما يقول ويكرر. عرفت ذلك منه وعرفه منها. لا أحد منهما يستطيع شيئاً للآخر... لا يمكنها أن تكون كالفتيان والرجال... هي امرأة رغم كل شيء، ليكن. مكانها على غير طريقه... أما في شعوره نحوها؛ فهو لو أحب يوماً لما أحب غيرها... هل لها شك في ذلك؟ أما هو فلا يشك ويعلن ذلك لها لو كانت لتصدق وتتركه! غيرها من النساء أمرهن وأمره معهن مختلف... وعليها أن تبتعد عن طريقه... تبتعد عن أخطاره...

ـ ربي... ربي...؟!

مد يده نحوها... تستنجد بكل شيء متعجبة وساخرة... أقبلت عليه منطلقة... اتكأت جنبه مسندة رأسها على صدره... ثالثهما الصمت

وتيار الخواطر. حدثته عن رغبتها في التجارة، ستجمع بعض المال وتتجه إلى الشمال... هي أقدر من الرجال على الترباندو...

أبدي إعجابه بالفكرة... يمكنه أن يساعدها في تدبير بعض المال... لكنها ترفض... ترفض بحدة... أيقظ حاسة العناد فيها وأحيى الكبرياء.

ليكن أمرها وستدبره بطريقتها... المهم أن تجد لها طريقاً واضحاً... ولا تطلب صدقة من أحد... ولترفض كل مساعدة.

توقفت خواطرها عند فكرة لم تخطر ببالها من قبل... سيكون سخيفاً إذا اعتقد أنها قد تعرض جسدها من أجل المال... عويشة تسترزق بجسدها؟! أيظن ذلك؟! إذن لا يعرفها ولن...! لو كانت من ذلك النوع، لاستحلت الحياة مع زوج تخدعه ولا تحبه... اختاروه لها، وأجبروها عليه... لا، رغم ما له، لا، رغم كرمه... أعز شيء لديها... أعز من نفسها جسدها... أيظن بها الشخش هذا الظن؟! رفعت رأسها عن صدره تبحث عن سيجارة وتتطلع إليه مكفهرة مستنكرة تنفخ في وجهه دخانها؛ لكن نظرته إليها كسرت كل حدته، وملامحه.

ـ عويشة!

كم ينطق اسمها بحنان عندما يريد... رغم رنة الغضب والعتاب... عندما يريد، تجد فيه الأخ والصديق وروح الوالد المفتقدة والزوج... عندما يريد... قربه أمن وحماية... والأخطار بجانبه دفء أي دفء...

والتمعت على موقعهما، أشعة مصابيح يدوية مصحوبة بدك أرجل ووعيد وهراوات تنزل عليهما في هول مفاجئ، من كل اتجاه... يقفز الشخش قفزة النمر متلقياً ضربات تردد صداها على عظامه... عويشة شلها ثقل ككتلة الرصاص يجثم على ركبتها من ضربة هراوية... ليس الظرف ظرف ألم وإنصات

للجوارح... ارتمت على أحدهم من الخلف ناشبة فيه الأظافر والأسنان في عنقه وكتفيه... طوحت بها بعيداً قدفة كالمدفع ولكمة على الخد تراقصت لها نجوم الظهر ليلاً أمام عينيها، لتجد نفسها بعد حين وقربها الشخش محتضناً ساعد يده اليسرى ضاغطاً عليه بكفه الأيمن... تساءلت ماذا؟ طمأنها، كلاب، هربوا...

طمأنها، رأت ما به، فحصت ساعده، جرح عميق دماء بدأت تتخثر، مزقت من طرف التحتية قطعة تضمد بها الجرح، وهي تنصح بالتوجه إلى المستشفى... لم يجب، تركها تضمد الجرح، سألته عنهم، لا يعرف، ولكن واحداً منهم بالذات يظهر عليه أنه من ناحية أخرى... خارج درب السلطان كله... أحس بذلك... أحس بشيء فيه غير مألوف هنا... جماعة الولْد؟ لم يجب عن تساؤلها وكان يراود الفكرة نفسها... إذا كان الأمر كذلك فالرسالة قد وصلت... والجواب عنها أيضاً... أما الجواب الحاسم فسيأتي وقته... تسأل عن عددهم... أربعة... اثنان منهم على الأقل راحا بإصابات بليغة... كسور في مواضع ما... كان يحس أثناء المعركة بعظامهم تدق تحت وقع قبضته... واحد فقط هو الذي تراءى له مسرعاً بالفرار... أربعة كانوا على الأقل... وفي رؤية الليل والمباغتة يصعب التمييز...

وشهقت عويشة وهي تلمح كياناً ممدداً على القرب... جسماً... بشرياً بلا أدنى شك... لا عليها... أشعلت مصباحاً وتقدمت به نحو الكيان... لا عليها... لتترك مالا يعنيها. لاشيء يستحق المشاهدة... وتبينت أحدهم ممدداً على بطنه، فاقد الحركة ملوي الذراع حتى العنق... وقرب يده الأخرى سكين ملطخة بالماء...

جذبها الشخش، وهي تهم بتحريك الجسم...

ـ ناعس. خليه!

ـ ناعس؟!

تساءلت مبهورة...

ـ ناعس...؟

يا بنت... ليس هذا طريقك... انسي كل شيء. تساءلت من هو هذا... الناعس؟ لن تعرفه على كل حال، والشخش نفسه لا يعرفه، ولا داعي لكثرة السؤال. المهم... العمل. ما العمل؟ بسيط. لتذهب عويشة إلى مكان آمن تقضي فيه بقية ليلتها... يجب أن تفهم جيداً أنها هنا في خطر حقيقي... لتبحث عن طريقها فيما بعد. أما الآن لو استطاعت أن تقتنع بالعودة إلى المنزل ـ إلى أهلها ـ ... وحتى إلى زوجها لكان أحسن. رفضت فكرة العودة، ترفضها من جديد، أية عودة؟ وإلى من؟ إلى أي مكان؟! إذن لم يبق إلا أن يذهب بها إلى الحفرة... في الأخدود أو الخندق على طريق السكة الحديدية وهي تخترق درب السلطان. لم يبق إلا ذلك، هذه الحمقاء لن تقبل أي شيء، ولا أي مكان يؤويها بدونه... بدون حبيبها الشخش! هل هذا وقت حب؟ هل دربه درب حب وهناء...؟ حمقاء وأكثر.

كان الشخش يدير الأسئلة تلو الأخرى في ذهنه، يشعر بأن عويشة فرضت عليه أن يحميها بعدما وقع... يحميها من الغير، من كل خطر، ويحيمها من نفسها بالذات... هل توجد امرأة تقوم بمثل حماقتها؟ شعوره مضاعف بأنه مسؤول عن أمنها كمسؤوليته عن واحد من جماعته، لخوت، وأكثر... هذه امرأة بلا سند، وفتاة في بداية تجربتها للحياة، للأخطار، وهي محبة حقاً... تحبه حباً مزعجاً وإن كان يرضيه، يرضيه جداً أن يكون محبوباً من أي طرف كان ومن امرأة بالذات... يشعر بأنه إن كان امتلك في حياته شيئاً حقاً... شيئاً يستحق أن يجعل الحياة جميلة ومحتملة بل جذابة فهو الحب... فيض الحب

من والدته... ذاك الذي ما تفتأ إلى اليوم تمرغه في نعيمه الهادئ الدافئ حريري الملمس... وستظل على ذلك حتى لو قضت... حب لخوت من فتية الدرب وشبابه... حب الناس الذي يشعر به ويصله أصداء وتحايا وزغاريد... وحب هذه... عويشة على حماقتها وصدق تعلقها...

كان عليه أن يقنعها أو يجبرها بالتوجه إلى الحفرة... لا ملجأ لها الليلة على الأقل، من الخطر إلا بالركون إلى هناك... هناك ستجد كل العناية والأنس من بعض لخوّت إلى الغد، ويكون لها الخيار فيما تفعل... أما الآن أمام ما وقع فلا خيار لها... كان يشرح لها ويعيد مؤجلاً أن يأخذها بالشدة... يشرح أن له طريقاً غير طريقها منذ هذه اللحظة، بمجرد أن يوصلها على الحفرة ويوصي بها، ولا داعي لأن يوصي... إنما عليهما أن يتوجها بسرعة فالأخطار محدقة وسريعة... من هنا للحفرة مسافة ستصبح بعد قليل، وبمجرد ما يشيع الخبر، متعذرة الاختراق...

لم تكن تتابعه، مادامت ستفترق عنه، فلا يتعب نفسه بشأنها... وهي قادرة على تدبير أمرها بالليل وبالنهار... الليل والنهار سيان لديها، وهل لها نهار بدونه وبعيداً عنه؟

سألته عن نفسه، ماذا سيفعل هو، لم يجب، لم تلح، والتقت نظرتاهما على بقعة يضيئها المصباح لكائن ممدد، جسم بشري، فاقد الحركة... ناعس... وإلى الأبد.

47

ارتخت حياة في المقعد الخلفي للسيارة وهي تتأوه تلذذاً بفخامتها... الله على راحة... فرحتكم... وربي يزيدكم... واستجاب رقيبة لمجاملتها متمنياً لها زواجاً يرضيها ويلبي رغباتها. استعاذت بالله من أمنيته. لا، يا خويا، لا، وقالت إنها ما رأت إلا المآسي فيمن تزوجوا وتزوجن...

وأمها بالذات؟ أعوذ بالله مما رأت من حياة والديها! الفقر والعذاب والشقاق والنزاع... أعوذ بالله! واستدركت وهي تنهض من ارتخائها لتمسك من كتفي المقعدين الأماميين وتقترب بذلك مما بين رقيبة وحورية، وتقول لهما كالمنذرة إنهما يمثلان حقاً نموذجاً فريداً في الزواج، يمكنهما بذلك أن يحتفظا بحيوية علاقتهما إلى يوم يبعثون... ثم توقفت ووجهت سبابتها نحو كل منهما مؤكدة أن الخطر... والخطر الحقيقي منهما... من علاقتهما هذه. إنها مصيدة نموذجية يمكن بسببها أن يقع الكثير في فخ الزواج... علاقة توهم الجاهل الغفل بأن الزواج متعة وحيوية... حتى يكتشف المأساة بعد وفاة الأوان... أيعرفان وفاة الأوان؟! كانت تتحدث بملء ما فيها من حيوية، متعمدة ألا تستعمل عبارة فوات الأوان، أيفهمان؟ لا للزواج، من أعماق قلبها، لا للزواج... أعوذ بالله

مما رأت وسمعت من عشرة والديها... أي عشرة؟! جهنم أرحم! نزاع وشقاق دائم دوخ الدرب كله... أو...خنز الدرب... كرهت درب السلطان من أجل ذلك ولكن... السكنى... الله غالب... والدها عامل بالسكك الحديدية... حمال بالمحطة... من ناحية الكسب، يكسب الضروري واللازم لو كان هناك تدبير ووفاق... الناس يعيشون بأقل من ذلك في سلام وقناعة... لكن الآفة في أنه لا يفيق من سكره، الوالد... لا يفيق ولا ينتهي أو يرتوي لا من السكر ولا من النزاع والخصام الزوجي... الدرب داخ والجيران... الدرب كله يرى ويسمع ويعرف... أعوذ بالله! سباب وضرب وشجار، وكسر للأواني والعظام...

كانت أكثر من جذابة بطريقتها برواية الأحداث، تروي المآسي بنغمة وأسلوب مرح... وبتعليق يفتن بالعبارة والإشارة... لا تكف عن الحركة والحديث... أعوذ بالله من الزواج يا خويا... أما أنتما فالله الله على راحة، وعلى زواج... وعلى عشرة... الله يزيدكم... أما هي فقد نجت من جو الشجار والعذاب الذي كانت تنام على نفيره وتستيقظ... الحمد لله على دار الرحمونية... واقل من الرحمونية ألف مرة، ولا عشرة باصالح!

توقف رقيبة فجأة، كان بالفعل يقود ويسير بتؤدة بالغة، تأهباً للوقوف بعد الانحراف المباشر من ملتقى شارع باريس بزاوية البنك الكبير... كان كمن يريد أن يطيل اللقاء... لحظات يستمتع فيها بحديث حياة... وجد لها نكهة خاصة، ربما لا تقل عما تشعر به حورية... الفتاة على كل حال... تدخل القلب... بكل ما فيها... مع ذلك بدا توقفه المفاجئ لشيء أكثر من الإثارة العادية في مسلك الفتاة، أو الاستجابة المجاملة من طرفه... كانت لطيفة قد فتحت الباب بمجرد التوقف تأهباً للنزول والانصراف... لكن التفاتة رقيبة بنظرته المهتمة المفاجئة إلى حياة، جعلتها تتريث. تساءل رقيبة ببعض دهشة وتقطيب: باصالح؟ والرحمونية؟ أنت بنت من؟

دهشت حياة ولم تنبس... وظل يتأملها متعجباً يكرر: باصالح؟ الرحمونية؟ من هو باصالح؟ وأنت من؟

بدأت دهشة الفتاة تزول، عزت سؤاله إلى فضول متأخر أو نشوة سهر غير بادية... وطفت عليها مسحة المزاج المرح المعهود؛ أجابت عن تساؤله فاتحة ذراعيها حانية الرأس بحركة استعراض مسرحية ضاحكة:

ـ أنا حياة... حبيبتك حياة، يا حبيبي!

تجاهل حركتها، ومضى في جديته يسأل أين وكيف تعرف الرحمونية؟

وانبرت لطيفة مأخوذة بالمشهد تجيب في تساؤل:

ـ الرحمونية... أمنا كلنا... تعرفها؟

ـ رحمونية درب كرلوطي؟!

صمتتا أمام تساؤله الملح المدقق... وأضاف مشيراً إلى حياة:

ـ أنت بنت الشومينو؟ باصالح الشومينو؟!

ـ تعرفه؟ فضيحة أخرى!

واستمر في تساؤله:

ـ أنت بنت البلدية... قرب الجيارة!

وطفق ينتفرس جيداً في الفتاة على النور الداخلي للسيارة المفتوحة الباب... ملامح باصالح لا تخفى... الشومينو المسكين... صدفة عجيبة... والرحمونية... من أي بئر أتيت يا بنت؟ من رمى بك إلى طريق النسيان؟ ... أحقاً ذُكر باصالح والرحمونية أمامه؟

وزاد رقيبة يتفرس في الفتاة ويسأل من هي؟ لم تنبس، وكرر يسأل عن اسمها!؟

قالت وقد فترت حماستها والمرح، إنها حياة... ثم استدركت أمام نظرته الفاحصة المستطلعة:

ـ في الحقيقة... أنا البيضا، هذا اسمي الحقيقي البيضا... اسم تنساه ولا يصلح للذكر، لا فائدة منه ولا من ذكره... هل يكفي هذا... ماذا بعد... البيضا...

وهتف:

ـ ها... البيضا... بنت باصالح الشومينو... أمك أمك... بنت الشرقي... آه... آه يا بنت... كنت صغيرة... خفيفة شيطانة... آه...

كان يعتصر ذاكرته وصفحة كفه على جبهته، كم تفجرت البنت تلك النحيفة الظريفة أظرف ما كان في عشرة باصالح، وبنت الشرقي... كانت تحتمي عند أي جار عندما يحتدم النزاع في أي وقت من ليل أو نهار... بلكنة في لسان ولمعان في عينيها الصغيرتين، كانت البيضاء تثير الحب أكثر مما تثير الشفقة... باصالح الشومينو من لا يعرفه في كامل درب السلطان ودروبه؟... كان علامة بارزة... باصالح الشومينو... معلمة الدرب والدروب...

مفاجأة حقاً كانت للجميع... غيرت حياة من لهجتها... رجته بحرارة إن كان حقاً يعرف أسرتها ألا يتحدث عن ذلك لأحد مهما كان... لا أحد يعرف أنها هنا... وهي لا تظهر نهاراً ولا ترجع لدار الرحمونية إلا في بداية الصباح... الرحمونية نفسها لا تعرف... يجب ألا تعرف... رجاء... رجاء...!

ظل رقيبة مشدوهاً، والفتاتان تبتعدان بسرعة...

أدار المحرك... تفادى الاتجاه الممنوع وسار في أثرهما... لم يصدق ما حصل، ولم يشعر بأنه انتهى أو يمكن أن ينتهي هكذا... كان عليه أن يفعل شيئاً

محسوساً وهاماً أكثر من وداع مندهش بين أشباح معزولة مجهولة... ذكرى الجوار العزيز الذكر والذكرى، الأليم بوقائعه المرة... ذكر الشومينو باصالح المسكين العزيز... أين هو وكيف؟ أما يزال حياً وكما هو؟ وهل يتغير مثله... باصالح جلد على عظم وحاله... فاقد حاله في كل لحظة إلا حينما يغلي صدره الضعيف الاحتمال، وهو دائم الغليان بقدر ما عقله دائم الغياب... لم يكن مغْلَم الدرب فحسب، بل مغْلَم الدنيا كلها، شغله حمال بمحطة القطار حيث قضى زهرة العمر وطيب ثماره، لم يكن إلا وجوداً شرفياً له، لم يكن أكثر من مشير وموجه لبقية الحمالين... وهل تبقى في باصالح ما يحمل أو يحتمل... ويعود بكسب مقبول كل يوم... لا... لا... إنما يعود بآثار الكسب مرسومة في غيابه وترنحه، بعد أن ينفقه ويزيد عليه في مصاب الأرزاق ومضايع الإنفاق... يعود مترنحاً مشعراً برجوعه بحركات وأصوات... عودة يتلوها هدوء لفترة تكاد تكون مضبوطة محسوبة، ثم ينشب ما يتوقعه الجميع من خصام ونزاع وضرب وتقاذف بالأواني... ليتدخل الغير... وبنت الشرقي في أسوإ حال... يتدخل المصلحون لينتهي الموقف غالباً برجوع باصالح من حيث جاء، لا يدري أحد إلى أين، ولكن الكل يعرف... معناه أن جيوب باصالح ما يزال بها بعض «الصرف» أو أنه متأكد من وجود دائن ما...

آه، الذكرى... والصغيرة الظريفة البيضا... المفاجأة لم تترك لرقيبة فرصة التصرف على الوجه الأنسب بلباقة وحكمة... سار بسيارته في إثر الفتاتين بمهل... عند الزاوية مباشرة، كانتا قد غابتا تحت الضوء اللازوردي لملهى النيكرو، ومصراعا البوابة يتحركان في اتجاهين متعارضين على إثر ولوجهما، أشبه ما يكون بتلمظ وحش عقب ابتلاع فريسته!

هزته الصورة بعمق، اهتز لها بقوة، وظل يتابع حركة مصراعي البوابة المتلمظة...

نبهته حورية بلمسة، اتكأت عليه برفق، ليضغط على البنزين باتجاه الأوبة...

48

على خط مستقيم، شريان طريق مديونة يمتد قوياً مماساً في اتجاهه نحو القلب التجاري للمدينة، يحاذي درب السلطان في مروره، يكاد يشطره في عبوره به، وكأنه يبدأ به ومنه يحل، يمضي مستقيماً، ينشر حواليه حيثما وصل واتصل نبض حياة، يزرع هنا وهناك نقطاً فوارة تلظى بالبيع والشراء...

على خط مستقيم، طريق مديونة، تبرز حية نابضة نقط تماس ثلاث على مسافات كالمتساوية: كراج الجيلالي، كراج علال؛ وأخيراً وحديثا كراج العمراني... نقط تتفاوت ضيقاً واتساعاً، بساطة وضخامة، ضجة وهدوءاً، صيتاً وخفوتاً، ولكنها تظل مواقع التقاء، وشد وجذب... نقط ثلاث تشترك في الكثير وتختلف في الكثير، يتميز من بينها كراج علال في موقع الوسط بأزليته ومحتواه ودلالته.

على امتداد خط مستقيم، طريق مديونة، تتحرك نقطة هادئة، تنتقل متهاوية في مضماره قبل أن تغيب في الأزقة والأحياء؛ مرسلة حولها موسيقى صاخبة مختلطة بأصوات متداخلة، وآلات متمازجة بلا تناسق، يتخللها امتداد

حشرجة خشنة، كأنها تصدر عن جهاز مفكك متراخية أوصاله؛ تمضي النقطة متحركة لا يتبين منها إلا ضجيج عال مرتفع، لعله القصد بالذات من هذه الحركة لسيارة صغيرة غاب منها كل شيء عدا العجلات والمقدم، تحت اللوحات الكبيرة المتلاقية الحافات والمتساندة على هيكلها في شكلها هرم، تكملها لوحة بنصف حجمها ترتكز فوق المقدم. تدب السيارة، نقطة تثير حولها ضجة تلفت الانتباه على لوحاتها المزدهرة بألوان صارخة، تعلن بالصورة المكبرة والحروف، عن أفلام ابن عنتر، ممنوع الحب، ليلى بنت الريف... تحت لافتة سينما الشاوية... إحدى فرائد كراج علال، نقطة البدء والمنتهى لحركة السيارة وتجوالها حاملة معها الضجة والصخب...

سينما الشاوية قاعة بلا نافذة ولا مخرج سوى ما ينفتح منها على كراج علال مباشرة... انبثقت من بين سلسلة مترابطة من الدكاكين، وكأنما استنبتت لتكمل الصورة حتى لا ينقص الموقع العتيد شيء... ويظل يتداخل في الساحة المقابلة شخير حافلات النقل إلى الضواحي مع أصوات البراحين والمنادين على الزبائن، وحلقات العنترية والذكر والطرب والتشخيص الهزلي، وبنادير الحواة ومزاميرهم؛ وبوشويبة الملاكم بقفافيزه الجاهزة لكل من يريد أن يجرب حظه، علاوة على المتفرج، نظير مقابل، وحركات بوروسين بألاعيبه البهلوانية على دراجته...

تنطلق سيارة الإعلان، تدب كجعلان بألوان فراشة من نقطة الشاوية، تتحرك على امتداد طريق مديونة قبل أن تلج الأزقة والأحياء مكتفية بضجيجها المزعج الغامض لإثارة الانتباه في البداية، حتى إذا ما بدأت تغوص في عمق الأزقة تجوب الدرب من أقصاه إلى أقصاه، مخترقة غوامضه ومكامنه بتؤدة، وبمهرجان طفولي متابع ومتسلق ومتشبث، يضاعف الصخب والضجة المقصودة... حينذاك يرتفع صوت يعلن بين الفينة والأخرى عن أفلام الشاوية...

عيون وأسماع تتعلق بالنقطة الصاخبة المتحركة... أذهان وعقول تغوص في ألوان الصور وحركات شخوصها... تغيب في التباسها تخلق من حركاتها بطولات وأساطير... وقائع وأعاجيب، تفوق أحداث الفيلم ذاته ولا تغني عنه، بقدر ما توقظ الحمية لمشاهدته...

تصمت ضجة الموسيقى بين الحين والآخر، متيحة لصوت ينطلق من قلب النقطة المتحركة يعلن عن أفلام الشاوية... يغري ويزيد، بقدر ما ترتفع حرارة الأطفال المتحلقين المتابعين من حوله، وهم يصفقون ويهتفون عقب توقفاته الحماسية المدروسة، ويهللون عند ذكر كل فيلم أو شخص من أبطاله...

تستكين عيون وأسماع من حدة الصخب، تؤوب عقول وأذهان من رحلة البطولات والأعاجيب تعود من لحظة متعة عابرة، مألوفة تسري الخيال وتنعش الخاطر، وتجذب من له سعة وقت وجيب، إلى زحمة التذاكر عند باب الشاوية... ووقائع الدخول... وهي تزري بوقائع الفيلم أحياناً، أو تنافسها على الأقل في مغامراتها ومفاجآتها... يمكن أحياناً... ويحدث في غالب الأحيان، أن المتمرسين المحترفين، يرتمون فوق الرؤوس، ويتحركون فوق الأكتاف، ليمدوا أيديهم إلى القابع وراء طاقة الشباك، وهو يعرف ويفهم صاحب اليد والصوت، ليعودوا بتذاكر يبيعونها بسعر مرتفع يزداد ارتقاء، بقدر ما يتذوق العاديون المزدحمون احتراق اللحظات القريبة من بداية الفرجة داخل القاعة المظلمة، وهم يعاينون ما بينهم وبين التذكرة الموعودة من قمم وهضاب... فلا يملكون إلا أن يساوموا على ثمن التذكرة عن طريق آخر... سومة ترتفع وترتفع بقدر ما تقترب لحظة البدء، ثم تهبط بقدر ما يمضي من لحظات من الفرجة، لمن يريدها فرصة ناقصة بأقل ثمن...!

يسأل الذهن الغافل عما يتبقى من تذاكر في أيدي هؤلاء البياعين المتسابقين... تذاكر يظلون يعرضونها للبيع بعد مضي منتصف العرض... لا

يتعب الذهن في ملاحظة هؤلاء عقب الوقت المحدد لإغلاق طاقة التذاكر، في نهاية الفترة، أن يراهم يحاسبون المحاسب ويتحاسبون فيما بينهم، يقبل منهم ما تبقى في أيديهم... فرزقهم واحد... وكلهم شركاء... على باب الله!

بقدر ما تثير سيارة الإعلان من ضجة منها وحولها، وبقدر ما تثير تذكرة دخول عرض الشاوية من مغامرات، بقدر ما تبدو هادئة حلقات كراج علال، مقابل قاعة الشاوية مباشرة وعلى خطوات معدودات، بمتحلقيها وسارديها وحوارييها، حواتها وبهلواناتها... جمهور هادئ حتى في زحمته يختار المشهد بعد الآخر، وينتقل بإرادته من حلقة إلى أخرى، لا يتحرك أو يضج إلا بترديد الصلاة على النبي أو بالتصفيق عندما يطلب السارد والمفرج ذلك، تنشيطا للأذهان وتحفيزاً للهمم...

وقائع تسري بسرعة سحرية على جدارية، في قاعة مغلقة تتمازج أبخرة الأنفاس مع أدخنة السجائر الرخيصة، تبدو للمتابع ذرات غبار وسحبا دكناء يخترقها ضوء العرض في خطه المستقيم المخترق نحو الشاشة... ووقائع أخرى على الساحة يحييها سحر السرد، وعفوية التشخيص... عرض هنا بالمغامرة والمقابل، وعرض هناك بالعفوية والتطوع... والجمهور هنا وهناك، منه المداوم المدمن هنا أو هناك، ومنه المبادل المتبادل حسب الظروف والأحوال.

تمضي سيارة الإعلان، تغيب، تؤوب عقول وأذهان، تسري في سحر ما تعرضه الأفلام، وتلتوي أخيلة في تفسير ما تراه وتسمعه من ذلك... تتحرك من جديد أيد وهمم منصرفة إلى ما هي فيه... له ومنه... كل يوم...

ككل يوم...!

درب السلطان

روايـة

2

ظل الأحباس

1

ككل يوم، يأتي يوم، يأتي عابراً ليعود مثلُه زائراً عابراً... جولة من عديد جولات، صوت من مثيل أصوات تسري كل لحظة زمن في الأزقة والدروب، من أقصى درب السلطان إلى أقصاه، لا تخلف موعداً، ولا يكاد يقعدها حدثٌ أو طارئ؛ تسري وكأنها من نبض الحياة، عصب الحياة ومجراها في عروق الدرب المتعدد المتلون الفسيح... صوت البالي وخطواته... صوت اللواني... نداء النواني... والقديم كل قديم... كل مستغنى عنه، كل ما هو في حكم اللاشيء، حتى ولو كان شيئاً جديداً... معطلاً أو شبه معطل... كل بالي... كل قديم...

صوت يحمل صاحبه على طول النهار أنباء سوقه المتنقل على عربة مدفوعة على عجلات خفيفة، تعددت فيها الزوايا والأركان، وتقاطعت في جوفها وأعلاها الطبقات، لا يدري المتأمل كيف تتسع أحشاؤها لمثل هذا العالم المتناقض، لا ترفض منه شيئاً أو تلفظه، وكأن حميتها من حمية صاحبها، يبيع ويشتري، يقايض ويبادل؛ ويتطوع لإخلاء البيوت مما يثقلها من نافل المتاع

وفائض البالي والقديم، وكل ما لا يبدو أنه يصلح لشيء أو يفيد في شيء؛ عالم من أشياء تبدو في جملتها متنافسة في أنها غير مجدية لأحد أو لشيء، تجد طريقها للتصريف، لصوت أبحّ، وبصر غائر، ويد مدربة تجيد فحص الأشياء على نحو يجعلها تزداد في كفه وبين أصابعه، بلى على بلاها، وتكتسب على اللاجدوى واللانفع نعوتاً وأوصافاً من تنقيص وتخسيس، كفيلة بأن تجعل صاحبها يتقلص استحياء وخجلا من الاحتفاظ بها، فأحرى عرضها في السوق العتيد وانتظار مقابل ثمناً لها...!

مع ذلك، يمضي كل شيء كما تمضي لحظات اليوم متقدمة لا تعرف التراجع... ينتهي التقليب والفحص وسوق النعوت إلى أخذ ما يؤخذ ودفع ما يدفع، على نحو يبدو وكأن صاحب السوق فاعل خير... ساع لخير الناس مالكي هذه الأشياء اللامجدية التي تضيق عليهم الفضاء...

فاعل خير حقاً، يتقن أيضاً أن يبتسم عن أسنانه الذهبية المنخورة لمن يعرفُ، ولمن يريد أن يبتسم له من عميلاته المعتادات المعروفات لديه... يعرف كيف يعبر عن أنه سخي معهن لوجه المعرفة والزبانة... ولوجه الله الكريم!.. وهن أيضاً، منهن العارفات اللواتي يقدرن كيف يكن قاسيات في مساومته... الدكالي صرفه أحسن منك... يُعطي أكثر وأحسن... والرحماني أحسن منكم كلكم... هكذا يثرن في الصوت الأبح والعين الغائرة، ما لا يفيد معه لمعان الذهب المنخور بنصف ابتسامة حية أو ميتة، يثرن فيه غيرة السوق، فترتفع همته ويأخذ كل ما يأخذ، دافعاً ما لا يريد على مضض ظاهر، أو ظاهري على الأقل...

بعض البالي يتقاطر من نوافذ في سلال مشدودة، وبعضها يتساقط نُدَفاً غليظة أشبه ما تكون بمظلات إنزال، تدفعه وترمي به مجرد رغبة ساخطة في التخلص السريع، أو ليجري مقابله على الحساب، إن كان فيه شيء مما يستحق ذلك...

يسري نداء البالي مجدداً نشاطه الخاص في البيوت، مثيراً فيها همة النبش والتنقيب في الزوايا والأركان، مذكراً بما يجب تذكره لمن ينسى... ومن لا ينسى؛ وكأن صاحب النداء نفسه، يقلب بيديه وأصابعه المدرّبة في حنايا البيوت وخفاياها... يذكر بالأقمشة والملبوسات، بأغطية ونحاسيات، بفضيات وميكانيكيات، عجلات مطاطية ومفاتيح وأزرار، أجهزة راديو وأحذية، جرائد قديمة وأوراق مكتوبة وغير مكتوبة... ويختم ليعيد ويكرر الدور متابعاً نداءهُ عن خبز يابس ونخالة... قطع حديدية... أي قطع كانت، وأي معدن كان... لا شيء يستعصي على السوق، لاشيء يُرد أو يُرفض، إلا أن يكون ذلك بحس المساومة، حس يحبس النبض، يناور محسّساً الشيء ونافياً عنه كل قيمة، لكنه لا يرد أو يرفض...

جولة من عديد جولات، يبدأ صاحبها في أقصى ركن من الدرب لينتهي آخر النهار بأقصى أطرافه الأخرى... لكل يوم كسبه ورواجه؛ ولكن لا يوم يخلو وفاضه من متاع بال وقديم، يَبدُو أن معينه يتجدد من ذاته ولا ينضب أبداً... يتولد لحظة من لحظة... لحظة بعد لحظة... أم أنه مجرد أثر من أفاعيل نداء خبير ملحاح، وخطو متوقف، ودعاء...؟

يوم ككل يوم، جولة من عديد جولات من مثيلاتها، تبدأ لتنتهي وتنتهي لتبدأ؛ دورة تسري لتقف وتقف لتسري، تبدأ وتعيد، تحيي وتميت...

سوق متنقل نشيط، تجارة كالتجارة بكل شيء تبادل تقايض؛ مشادة البيع والشراء، توتره وليونته تصنعها بسمة التردد وخشية الطمع... كل يتداخل في كل، يتراكب، يتناقض ويتعارض، ولا يمنع من أن رب السوق المتنقل هو في الوقت نفسه ضيف زبنائه وزبوناته... لا يمنع الصوت الأبح في ندائه على اللواني... النواني... وكل بال من أن يقبل بتطوع بالغ، دعوة زبونة لينال من بقايا فطور متأخر، تخرجه له فيتناول شاكراً داعياً أحسن الدعاء كأي ولي

صالح... بينما الزبونة انقلبت إلى محسنة تعضد دعاءه... آمين... آمين... لا يمنع السوق من ذلك، ولا يمنع الدكالي أو الرحماني أو أي آخر من أرباب هذا السوق، أن يبادر من ذاته، يطلب من زبونة أو زبون براد شاي بعد المقارعة التجارية بينهما، كأنه يحيي المناسبة، أو يقنع خصمه بأنه على الأقل كريم، مادام في المساومة أشد مراساً، وأصعب!

2

لم تقدر سليمة أن تصدق عينيها، ولكنها رأت بالفعل ما رأت ولا يمكن أن تكون واهمة. لأمرٍ ما خطر لها أن تُطلّ برأسها من باب الدار... ضحى ذلك الأحد... لا تذكّر السبب ولا تستطيع، لأن أي داعٍ كذلك يبدو غريباً لمثلها... إنه خاطر امرأة وكفى... حدس... وهاجس...

أطلت... أطلّت لترى سميرة... بنت الحرام من فعلها... آتية تحمل ربطة النّعناع، وبمحاذاتها ذلك الشباب المائع الذي لا يكاد يفارق مواقفه على متلاقي الأزقة ومنعرجاتها في ساحات الدرب... ينتقل من هنا لهناك، ومن هذه لتلك، منتفخاً في كيانه البدين، الفارع الطول، وفي عنايته الفائقة بهندامه. لم تكن سليمة لترتاح لمثله... إذ لم يكن ليبدو صالحاً لشيء ولا فالحاً في شيء... وأكثر من ذلك فهي لم تره إلا في وقفة خلاعة... يلوك علكاً أو يمتص سيجارة، ويرمي بنظره أو كلمة أو إشارة لإحدى المارات، ممن تثير انتباهه المتحفز للمتابعة، أو تستفز حاسته المتأهبة للتعليق...

... مع سميرة ابنتها؟ هذا ما لم يكن يخطر بالبال... وهو بجانبها كأنهما يتهامسان... بل كانا يتهامسان فعلا... بنت الحرام من فعلها... مرتاحة إلى

محادثته كانت تبدو... يكادان يستندان أحدهما للآخر كما رأتهما... يتحركان بأناة... بمحاذاة الحائط.. هكذا على بعد أمتار من الدار؟! أي عيب وأي عار؟ ومع من؟

تراجعت سليمة برأسها المطل... بجنبها كله إلى داخل الدار... تسترجع أنفاسها، وتتأهب لما يجب أن تفعله مع بنت الحرام تلك... من فعلها! لم يفتها أن تلاحظ كيف أنهما افترقا بمجرد شعورهما بأنها لمحتهما وأنه ـ ذلك المائع ـ خطا بعيداً عن الفتاة نحو الرصيف الآخر... ليتوقف عند الجدار وكأنه ينتظر أحداً!

لم يفتها، ولو على البعد، أن مثل هذه الحركة منهما كانت مرفوقة بتنبيه من أحدهما للآخر، بعد أن لاحظا أنها قد رأتهما من إطلالتها... لعل سميرة هي التي صدر عنها هذا التنبيه بجملة لا يمكن أن تسمعها سليمة... هكذا إذن تكون ـ بنت الحرام ـ مشتركة بل متواطئة... كل هذا من أجل أن تجلب ربطة نعناع لإفطار متأخر يوم الأحد... ماذا إذن كانت تفعل في الأيام الأخر؟! ماذا تفعل في يومها وطريق ذهابها إلى المدرسة وإيابها؟ هذا... هذا إذا كانت تواظب فعلاً... ولا تقضي الأيام في مثل هذا... ربي... الرأس ينفجر فعلاً بالصداع، والحيرة فوق احتمال امرأة وحيدة... عزلاء...

العجب أنها أنكرت! يا بنت... أنكرت تماماً... أنكرت رؤية العينين الاثنتين هاتين! أنكرت بنت الكلبة!

حاولت سليمة في البداية إخفاء ما بها من غيظ وسخط وغضب... وبادرت الفتاة العائدة لتوها بسرعة خطو واضحة، تسألها بهدوء مفتعل عن هذا الذي كان بجانبها؟ أنكرت... هكذا ببساطة تقول متجاهلة مَنْ أحد؟ لا أحد كان أو يكون بجانبها... لا أحد... أبداً... لم ولن... إذا كان أحد بجانبها

كما تقول أمها وهذا احتمال بعيد بعيد بعيد... فقد يكون سائراً كأي من خلق الله... دون أن تنتبه إليه سميرة... ولا يعني ذلك في شيء أبداً أن بينها وبينه شيئاً... كان يسير صدفة بلاشك دون أن تلتفت إليه... هذا... هذا... إذا كان ما ترويه عينا الأم ولسانها صحيحاً! بعيد بعيد... وعلى كل حال، فالفتاة لم تلاحظ شيئاً ولم تشعر بشيء ولم تكلم أحداً أو تشعر به... هكذا... أنكرت!

وسألتها سليمة لماذا تأخرت كل هذا الوقت، ولماذا أسرعت خطاها عندما رأتها! لكن الفتاة لم تُعط جواباً شافياً متحصنة بالتجاهل والتغافل والإنكار... هكذا إذن... هكذا يكونُ غياب رجل البيت... بيت بلا رجل ولا مسؤول... هكذا تكون امرأة في مهب الحيرة... عجيب كيف يكون شعورها الآن أقوى بغياب الزوج... وهو الغائب منذ سنوات طوال... شعورها الآن، كأنها ترمي في بيداء تتناهشها أو تطاردها الوحوش... تتناهبها دون ناصر أو رحيم.

يعود عزيز... يجد الجو على غير المعتاد... لا يهمه الأمر، لولا أن سليمة توقفه ليسمع... تجبره على أن يسمع ويلتقط ويعي... أتسمع؟! أنهت إليها سميرة أخيراً أن ذلك الفتى، ذلك الفتى... لم تكلمه أو يكلمها ـ إن كان هو المقصود ـ فهو ابن أخت أو أخ الشايب، صاحب الدكان... البقال الخضّار... مراراً ذهبت سميرة تشتري ما تحتاجه... ومراراً لمحت ذلك الشاب... لكن لاشيء بينهما... أبداً أبداً... لم يتحرش بها أو يشر إليها بكلمة أو... أبداً... أبداً... أبداً!

يستمع عزيز ويلتقط وقد بدأت الصورة تتضح أمامه... والدتُه اتجهت مباشرة إلى الشايب البائع وعرجه الفاضح الذي يجعل جسمه يتمايل ذات اليمين وذات الشمال مع كل خطوة... ولحيته تبعاً لذلك تكاد تصل ركبته... هذا المسخ البشري... ألا يتحكم في ابن أخيه أو أخته... إن كان بينهما ارتباط

فعلا!؟ أيترك هذا المائع يعيث في أعراض الناس؟ وانهالت على سميرة ببضع لطمات من يدها... بعرض كفها... حيثما اتفق... مما زادها توتراً وانفعالاً... فإذا بها تنهال على كتف الفتاة بعضة حملتها كامل الغيظ والحنق... كلبة بنت كلبة... سترى ما يلحقها من أم عاجزة... امرأة مقهورة... سترى... وسيرى غيرها ذاك الآخر.

نظر إليها الرجل بإهمال... اعتقد في البداية أنها تتجه إليه في قضية تهُمُّه، ولا يريد أن يظهر بها اهتماماً حتى لا يخسر معركة لا يعرف موضوعها بعد... ربما – خمّن – أنها سترد إليه بضاعة بعد أن استعملتها... أو ... ربما ستشتكي من فكة ورقة مالية تدعي أنها بعد المراجعة وجدتْ حسابها غير مضبوط... وبالناقص طبعاً كما يدعي المشتكون دائماً، فلا أحد منهم يعود مشتكياً من زيادة لصالحه، كأن للخطإ اتجاها واحداً... وبدأ الرجل يفهم بعد المقدمات الأولى... وبقدر ما بدأ يفهم... بقدر ما بدأت لحيته الطويلة ترقص وتستطيل، وجسمه يتمايل في وقفته الثابتة... أخيراً توقفت المرأة تنتظر استجابة الرجل... رد فعله على شكواها من ابن أخيه... وثورتها على هذا العبث... مهما يكن فابنتها صغيرة... غرة... وهو شاب أكبر منها، رجل... أيستغل ضعفها وبراءتها... بل أيستغل كونها بلا أب يوقفه عند حده... ألا يرعى حرمة الجوار... والدرب؟! لا يحق له أن يعترض طريق ابنتها... أبيه. لا هو ولا غيره...

فهم الرجل كل شيء، وبعد ملامح التوجس الأولى التي تصاحب استعداده لكل موقف جديد... حل الهدوء الكامل... هدوء متعال متخابث ليسألها سؤالا أكثر من ساذج يرمي إلى غاية في نفسه:

– من هي العزيزة؟

ـ بنتي سميرة...

ينظر إليها ملياً... ليسأل مرة أخرى إن كان ابن أخته المزعوم قد أزعج عزيزتها وهي مقيمة في دارها... هل تهجم عليها في حرم المنزل مثلا... أم أين؟

تجيب المرأة وهي لا تدري إلى أين يتجه الحوار، بأن ذلك حدث صباح الأحد اليوم... قبل ساعة أو ساعتين... يصطنع الرجل ابتسامة... نصف ابتسامة كريهة ويرد عليها ببرودة:

ـ بنات الزنقة... لأولاد الزنقة...!

وتغيب ابتسامته لتحل محلها صرامة ظلّ معها يتمايل جسمه... وارتفعت أنامله تتخلل لحيته الطويلة... الكريمات بنات الكرام، تخطب من بيوتها بالعزّ ورفعة المقام... وبنات الزبالة تبحث دائماً في النفايات عن شيء تتمسك به...

ويخلص الرجل إلى حكمته وخلاصة موقفه، رافعاً يديه علامة الاحتجاج والغضب وإنهاء الموضوع:

ـ حكموا بناتكم... ربوهم؟

كان يطردها بهذا الموقف وبإشارة اليد. عمتها الإهانة، شعور بالضّعة لا يغالب... أتَنْقَضُّ عليه تلوي من لحيته لتُلغي تمايله وتسقطه أرضاً؟ بدا لها الرجل أهلا لذلك وأكثر... وبدت لنفسها قادرة على ذلك... بل غير قادرة على شيء آخر غير ذلك... فالكلمات غابت، ولا يبدو أنها تنفع... ولأول مرة أحست بأنها لن تنفذ رغبتها وقدرتها. ربما لأن نظرته الخبيثة، وتمايله الأَخْبث، بدا لها قارساً في تهكمه ونبزه واتهامه... لم تكن تتصور هذا الشايب الشيباني على هذه الحدة في التعبير والتنقيص وبذاءة اللسان، لسان بارد قارس حار في تهكمه

أم لأنها في موقف لا صبر عليه ولا احتمال له... ينبز ويغمز في عرجه وتمايله، كأنها... كأنها جاءت تنصب عليه!

كانت في محنة غير مسبوقة... لا تتدارك شعورها، لتقول في نفسها إنّها هي رأس المحن... أم المحن... ربيبة المحن، كل محنة تسلمها إلى أخرى، وكل محنة أكبر من سابقتها وما يأتي يعلمه علام الغيوب...

لا تفارقها صورة المائع المغناج يخطو جنب المختالة المتراخية سميرة... ثم والكلبة تنكر ما رأت عين حية شاهدة! والأمّر، ما قدح السمع وقرح القلب من الأعرج الخضار البقال... أتنصب عليه سليمة؟ بأي معنى؟ من يدري أية فكرة كانت تجول بخاطره، وما تزال الآن تعشش في خربة رأسه عنها؟ نظرته إليها وتمايله ولسانه على ما فيه من قدح في البنت والنسب، تزري به نظرته الأخرى إزاءها وما تُضمر... آه مما تضمر نظرته! أقله أنها امرأة بلا رجل، بلا زوج... ألم يكن ذلك واضحاً من كلماته وحركاته... الحكاية كلها اختلاق... هكذا اختلاق من أجل أن تنبهه امرأة إلى وجودها... وإلى وجوده! من يدري أية أفكار تجول بخاطره عنهما الآن، وغداً، وكل يوم منذ اليوم.

رأسَ المحن، مصبَّ المحن، محطَّ المحن تكون هي وتظل.

كانت تنتحب وتحدث نفسها وغيرها بما يخطر ولا يخطر بالبال، دون أن تنظر إلى أحد، لا إلى البنت المنطوية على ما بها، ولا إلى عزيز الذي يريد أن يستجمع ويفهم...

ندبت خيبتها وغيظها الذي ليس له من مفرج، وانخرطت في نوبة بكاء مرير.

ابتلع عزيز أحداث اليوم كلها دفعة واحدة وكما اتفق، واتجه نحو الغرفة التي تتكور فيها سميرة على نفسها، سلط عليها نظرة توعد... كأنه يؤجل معها الحساب... أما ما يتطلبه الموقف فأمر آخر... آخر...

3

الظل... الفيء... النور... السلام...

هكذا إذن ينفتح طريق الأمل والرجاء، كل خطوة في دنيا الناس، كل ذراع أو شبر بارقة أمل منشود... سيراها... يلقاها هنا... هناك... حبيبة، صبية التبعي الصغيرة... هنا... هناك...

كان التبعي يخطو يومه، متفحصاً بعين التقصي والدهشة ما يرى ويلمس... ينشد ملامح صبيته، يحاول أن يراها كيف أصبحت بعد عقد ونصف، كيف تكون؟ لن تخفى عليه مهما تغيرت، ولن يخفى عليها...

راحة تغمره في سيره، في تهجيه للملامح والمشاهد، وأيضاً... أيضاً في تسآله... كان أحياناً يسأل امرأة... ألا تكون...؟ يسألها عن اسمها، أو يتحايل في التعرف، لم يغب عليه أن عين الغرابة تلحظه، تستجيب لتقصيه أحياناً بدفع غير رفيق، وبنية غير خالصة... أيكون لصّاً محتالا، أم فاسقاً داعراً أم ملوثاً مخبولا؟

الظل والفيء والنّور والسلام، تغمره في سيره وتقصيه حتى يؤوب به الغروب أو الليل إلى دار السيد، دار ولد سيد السيد، ليلتقي في ذاته هناء الليل

وسلام النهار، فيء في فيء، ظل على ظل... ورحمة ربك شعور لا أغرب منه ينتاب التبعي، رغم التعب والسعي المرهف من أقصى المدينة إلى أقصاها، فهو مطمئن إلى أنه على الطريق، رغم ما يتلقى من نظرات، رغم ما يلتقط سمعه من بذيء كلام ينعت به... فباطنه يظل مقتنعاً متحمساً. حبيبة هنا... صبيته هناك... في الأسواق في المحاكم والمقاهي وخلف الأبواب... هنا... هناك... لا يكل ولا يمل...

أشرقت في ذهنه، بل في ناظره... صبية... صبية، فتاة، يقعد به التوجس في أن يقول إنها هي، ويجذبه الشوق إلى أن يصدق ما يأمل... لم لا تكون هي؟ وإن لم تكن فقد تعرف عنها شيئاً... وإن لم يكن هذا ولا ذاك، فهو لم يخرج إلا من أجل البحث والتقصي، يهتدي بنور شوقه وحرقة قلبه.

كانت فتاة تخدم جماعة، يتملاها ويتملاهم من زجاج الواجهة... يتملاها في نشاطها، تلمحه؟ ربما. تبسم له؟ ربما. إنه ينجذب إليها من خلف الزجاج... ينجذب إليها غير مخدوع لكثرة ما خاب أمله... ينجذب لولا أن أحدهم ينهرها، فتغيب...

النار... النار... النار التي تشوي ما تحت الجلد حتى العظم والنخاع، يتفحم بفعلها كل شيء في تحوله إلى أن يكون رماداً، والماء... الماء... الماء السائغ السلسبيل الدفاق يروي ويطفئ... يحيي ويميت... تعمقتْ النار... التهبتْ وفي الذات لها زفير... وحلّ الماء... اجتمعا وهو اللطف الكبير... رحمة ربك الكريم الكبير...

يندفع التبعي، يحوم نحو مدخل الإجاصة حيث تحركت فتاته ثم غابت، شعور لا أغرب منه... والتبعي يقتحم الفضاء، يبسط ظله على الهرج. لم يكن هرجاً بالمعنى المألوف... بل تآلف المجموعة نحو مائدة المسرة، ما بين العصر

والمغرب... كل الهرج والصخب كان في نفس التبعي المائل بقرب المجموعة باسطاً ظل حضوره، مقتحماً حرمة الإجاصة... نصف الإجاصة... شعور لا أغرب منه يعم التبعي وقد اتجه أحدهم نحوه... شعور أحس له بتقلص جلده حتى القساوة المؤلمة... لا أغرب منه شعوراً... وبدا شبح الشخص المقبل لوهلة خاطفة في ذهن التبعي، كأنه ينشد الخَلاص من هرجه، مستجيباً لدلالة حضور التبعي وظله، يعتذر عما فعل للفتاة، ويرشد إليها المتقصي... وللحظة خاطفة أخرى، بدا المتجه شبحاً بلا معنى ولا ملامح، مجرد خطاطة... سواد، أو قطاع ظلام مظلم قُدّ قَدّ الكيان... يتجه الشبح مقبلا نحو التبعي كالمتراجع المتباعد، لكنه يقترب ليقطع الفاصل اللانهائي بينهما... في الحقيقة لا يستطيع التبعي الجزم بمن يقترب... ومن يبتعد منهما... لا أغْرب منه شعوراً... المسافة تطوى بينهما وكأن لا أحد يتحرك... يزداد تقلص جلد التبعي أو يزداد أحساساً بذلك... وينظر في الشبح الذي يقترب منه أو تدنيه منه المسافة... شبح لا معنى له ولا ملامح... يتحرك كمن يتخلص من مجموعته... ينقذ نفسه أو يهرب بها من هرجهم... والشعور الغريب الغريب... شبه الشخص يفتقد ملامحه بقدر ما يقترب من التبعي... حتى ليبدو هلامياً... له أن يتحرك ناجياً بجلده من نار وظل وحضور ليتقدم نحو الفضاء الحر... ليتقدم مجزياً للتبعي شكره كل الشكر، على أن ظهر في الوقت المناسب، ليتقدم يسبقه اعتذاره في الوقت المناسب، ليذكر وينقذ في الوقت المناسب... وهو اللطف الكبير، والرحمة الشاملة... ليتقدم يعتذر ويشكر ويخبر... ما الفتاة؟

يبدو الرجل في اتجاهه نحو التبعي مضطرباً يلوي أصابعه على كأس طويلة عميقة، يمسك جذعها ويفيض أعلاها وأسفلها عن قبضة كفه... ليتقدّم بها كمن صك اتهامه بنفسه، يدلل عليها ويذلها... إذلال الكريم المعتز بتوبته... تلك علامة أية علامة عن كل استرحام واستغفار... يبدو في تقدمه المضطرب

بصكِّ الذنب والاعتذار، كمن يرمي الخطيئة والعصيان في فضاء لا نهائي، أو بحر بلا أفق ولا حد ولا قرار... مرة واحدة ولغير رجعة... لا أغرب منه شعوراً... والرجل يبدو للتبعي في توجهه نحوه شبحاً غريب التحول والتّحرك في شكله ودلالته... لا أغرب منه مرأى ولا أغْرب منه شعوراً... والرجل يتقدم يلتهب منه الجذع والأطراف، تترامى... تترامى من فوهة كأسه الحامية نار... نار تلظى... تصب صديداً نتناً ملتهباً... لا أخبث ولا أحرق وألهب... يغرق التبعي كله من طاقيته على قنة الرأس إلى القدمين، سائل خبيث حارق حتى النخاع... يحتوي كل نتانة الكأس ولهيبها... كله يفرغ دفعة، فجأة، على التبعي... حارق حارق... يُصب على طاقية الرأس، يسيل على حوافي هامته من الوجه والخدين إلى الصدر والظهر، يحرق يخترق الثوب والجلد بنتانته إلى العظم والنخاع... وبناره اللاهبة إلى القلب والضمير...

يفور التبعي... تنتفض عضلاته وأعصابه... تغيب قساوة جلده المؤلمة في شعور عارم غاضب بردّ الاعتداء... أي اعتداء... صديد ونتانة ونار تُصب على طهارته... نار شيطانية ترجمه... أي اعتداء؟ يفور التبعي بالتحفز وقوة الرد... الرد الدافع الجامع على لغو الشيطان وفسقه... الرد الدامغ على الشبح الشيطان المتلبس لبس الشبح البشري... أي اعتداء؟ وكأنه المتوقع حمداً وشكراً وعُذراً... أي تعدّ على الحرمات؟

نظرة التبعي في نظرة صاحبه، ويده ما تزال متجمدة في حركتها فوق هامة التبعي، حيث أهرقت كأس النتانة والخباثة والحقارة... يخترق التبعي نظرة صاحبه وملامحه بنظرة ثاقبة... حركة الرجل تتوقف... توقفتْ متجمدة كما لو شُل بالكامل أو اعتراه مسخ ساحر... يمناه بكأسها المقلوب المهرق على طاقية التبعي البيضاء متجمدة، وسائر جسمه وحضوره وظله جروحاً دامية... أية رعونة؟ أية شيطانية عدوانية؟! ملامح ارتعاب على شبح الرجل

كأنما ينفتح أمامه هول مفاجئ لم يكن في الحسبان، أو أنه على شفا هاوية بلا قرار... أية رعونة؟ ... فورة التبعي... ثورة التبعي، وهول الشيطان المعتدي يدعو رد اعتداء بأمثل وأوفى وأجزل... والبادي أظلم... وحشية ردّ جهنمية للكرامة والحق والبادي أظلم... لولا... لولا دفق الماء السلسبيل رائقاً خفياً يطفئ النار... يخمد الفورة... يحل السكينة والراحة واللطف... ملامح الطيبة تتراءى بعيداً عن هنا... أتكون حبيبة في هذا الخبث؟ وهل يجوز؟... هكذا... دفعة واحدة وفي لمحة لطيفة رفيعة رحيمة... لا أغرب منه شعوراً ولا أحلى... أرقّ وأرْقى... ومضة تتجمد فيها حركة التّبعي المتحفزة لردّ العدوان بالأشد الأمثل الأقوى... ومضة تسكب على كيانه ظاهراً وباطناً راحة رائقة سائغة وهو اللطف... من اللطيف الكبير الخبير...

ينحني كيان الرجل المعتدي... يكاد يتهاوى أمام التبعي... قهقهات الجمع التي كانت نفخاً في نار حارقة يتجمدُ بُخارها على أفواه مشرعة وعيون جاحظة... يتهاوى الكأس من اليد المجمدة في الفضاء والكيان المتداعي لشبح الرجل، تتناثر شظايا الزجاج من وقع الكأس على الأرض... تترامى حبيبات وأحجام بلورية تلتمع هنا وهناك... تتدارك الرجل المتهاوي المتداعي المجمد أيدي بعض صحبه...

ويتبدى كيان التوكاني يحوم حول التبعي مستلطفاً مهمهماً... وفتاة الإجاصة بمنديلها تمسح عن لباس التبعي ووجهه بقايا السائل المراق... وما تمسح أو تستطيع: صديد السائل أم نتانة إبليس ظاهراً وباطناً؟... لا ... تمسح بلطفها على صدره... حبيبة لا يمكن أن تكون هنا... والفتاة على لطفها لا تدعو للسؤال... ليست حبيبة...

يظل التبعي جامداً في موقفه غير عابئ، يبدو في راحة أشبه بالغيبوبة... وما يلبث أن ينتفض لينتزع ذاته من الموقف... يتفل حواليه... يتمتم بشفتيه

بدعاء أو ذكر ونحوه... ثم ينصرف رافعاً كلتا سبابتيه إلى السماء... وملامح صبيته تتراءى كما يشتهيها في آفاق أخرى... صافية... غالية... سامية...

تقفز فتاة الإجاصة بخفة إلى مكانها داخل المقصف، تطوف بالبسمة والتشجيع على المتكئين على إفريزه الخشبي، تثير فيهم رغبات صرفها الحادث العرضي عن نفسها وأجوائها... بينما يتحرك نادل بين الطاولات في مهمة نشيطة مماثلة... ينظر التوكاني نظرة مؤاخذة إلى الزبون المتسبب في الحادث، والشلة ما تزال في محاولتها معه لرده إلى حاله واعتدال مزاجه.

أُحدهم يتأفف، وكأنه يجد العذر لصاحبه ويتابعه الآخرون... جاؤوا فراراً من الغم ليجدوه منتصباً أمامهم في أوج الانطلاق... طارت الهمة وحلت الغمة... وكيف ينبت رجل كهذا بينهم فجأة؟! هل ضايقوه في جلوسه وقعوده ليتطفل عليهم بنظرة وموقف، كأنه باغتهم في جنانه يرتعون؟ أليسوا أحق بأن يهنأوا بأنفسهم كما يروق لهم؟

يستقر النقد في سمع التوكاني على المحل والمحمل نفسه... على الإدارة ورب الشيء الذي لا يحمي الزبائن، ولا يوفر لهم الهناء المنشود وراحة البال... احترام الزبون قانون أبدي أُسمى في هذا الباب... أين نحن من الحرية والعدل والتقدم؟! تتغير ملامح التوكاني... تخرج عن سيماء المؤاخذة للزبون أو غيره، يتململ في وقفته بجانب الشلة التي يبدو أنها كانت تعمل على إسماعه صوتها وإفهامه... أوشك أن يتكلم... ماذا يستطيع؟ ماذا يفعل؟ مثل ذاك لا ينفع معه دفع ولا منع!

بلع التوكاني مرارته، تململ في موقفه، زاغت نظرته عن الشلة، أُلمح إلى فتاة الإجاصة وإلى النادل بنظرة خاصة، فجاءت الرغبات تتنزل على الطاولات ضيافة كريمة من المحل وإدارته لزبائنها الكرام...

ابتسم التوكاني ابتسامة قصيرة، ولوى عنقه متحركاً نحو مكتبه... لَيْته لم يتحرك من مكتبه إطلاقاً... ليته، إذن لما سمع ما سمع، ولا استجاب كما استجاب، حصل خير على كل حال، حضوره المشهد خير، وخيراً فعل... خير وقع... إنّما... الرجل ذاك... ليست المرة الأولى التي يقف وراء الواجهة محدقاً في الداخل... غريب وغريب كيف تجرأ على الدخول، وغريب أنه ليس طالب معروف، ولا مستفزاً بالمعنى المعروف، إلا أنه يظل مستفزاً مع ذلك... بسبب ذلك، ويجب... يجب ألا يتكرر ذلك.

4

صرعَتْها المفاجأة، شُدهتْ حورية للأمر، تلمستْ تتأكد مما ترى... أي جنون... نظرتْ إليه غير مصدقة... لم يُظهر اهتماماً باندهاشها البالغ... حركة تدل على أنّه هيأ ما أراد بتدبير وعناية... مجنون... مجنون... تركها لما هي فيه تتعجب... تتلمس تتأكد تتحسس... وتمتم بغير المفْهوم. اتجه بخطوات وئيدة نحو المائدة الفيحاء المهيأة في صدر غرفة النوم، مضاءة بشموعها الملونة، زاهية بالأشرطة والورود... أية أيدي ساحرة نمقت ودققت وأزهرت هذا العجب؟!

جرّ أحمد رقيبة أحد المقعدين، يشير بدعوتها للجلوس، بغاية المجاملة والاحترام... كيف حصل هذا؟ ماذا ومن؟... بدأت تستعيد شريط استبعادها المصطنع المتواصل عن المنزل طول النهار... بل مسرحية استدراجها إلى ما يلهيها عن غرفة النّوم بالذات طوال... لم تعرف يوماً في حياتها بوفرة ما كُلفت به من مهام خارج البيت طوال اليوم... مهام قصيرة متواصلة ملحة يمسك بعضها برقاب بعض...! قال إنه يحتاج إليها إلى جانبه في غداء عمل مع مجموعة... ولم يحضر غيرهما في ذلك المطعم والموعد. وادعى أنهم غيروا الموعد أثناء

جلوسهما هناك! وادعى أنهم طلبوه بالتلفون، وانصرف دقائق ليخبرها مازحاً «بابورهم عمره ما يسافر!»

يضحك لموعد العمل الجديد غير المحدد الذي اقترحوه، عيناه لا تكذبان... لا يعرف الكذب. كله لا يعرف الكذب... لكنها أحست دون أن تهتم... ماذا يعني ذلك؟ ومن هناك أخذها إلى الرباط لموعد إداري مستعجل! مثل هذا الموعد لو صحّ لكان من مهمة قديدير، لكنها لم يضايقها من ذلك شيء مباشر... بعض الراحة وتفقد نفسها وتغير ملابسها لما بعد الظهر... كلها أمور تنقص يوماً واحداً، تسبب لها إزعاج الخروج عن المألوف، لكنها لا تتعدى ذلك في العمق... كل ذلك ليوم واحد... إرضاء لخاطر رب البيت، زوجها وحبيبها... لا، لا ... بل مجاملته لا تقف عند حد... يحجز غرفة في فندق فخم بالعاصمة لاستراحتها... لاستراحتهما لساعات معدودة، متعللا بأن اتصالاته قد تطول بعض الشيء... كل ذلك بدا لها متناقضاً في قصده مع زوغان نظرته عن عينيها كلما حدقت فيه لتعرف.

طفل لا يكذب... ولا يعرف أنه لا يعرف... كل ذلك بدا مخفياً لشيء، وتدرك الآن مدى صدق حدسها... وصدق عينيه كذلك، فطوال يومهما في سلسلة ما كان يشغلها به، لم يستطع مواجهة نظرتها، لا يكذب!

نظرت إليه وهي ما تزال مشدوهة مما ترى... غير مصدقة لشيء أمامها من مشهد غرفة النوم...! لم يزد على أن حرك رأسه علامة الموافقة على ما يدور بخلدها، قائلاً إنهُ ليس مجرماً فيما فعل ولا مخطئاً... أليست حبّه وزوجه؟ أليس من حقه التعبير عن حريته بحرية كاملة لحوريته، بالطريقة التي يرتضي... ها قد فعل... وسيفعل...

لم يكونا قد عادا من الرباط إلا في آخر المساء، أو على الأصح، أنه لم يعد إليها في الفندق الرباطي إلا عندما أراد، ومن هناك والعودة إلى الدار البيضاء

أخذها مباشرة إلى صالون التجميل... بحجة أن يستعدا للسهرة! لم لا؟ كانتْ قد زارت صالون الفندق في الرباط... لكن مادام يريد أكثر... فليكن... كانت تُلجم نفسها عن سؤال... لماذا؟ وإلى أين؟ عرفت أنه يتهرب من الجواب. ليكن ما يريد مادام يريد، ولتؤجل ما عندها. قال إنّها سهرة مفروضة عليه... عليهما... فلتتحمل معه... ويؤكد أنها لن تمل تلك السهرة... فيما يتمنّى ويقدر! على كل حال، يمكنهما الانصراف متى شاءت بمجرد ما يبدأ الحفل! المهم أن يحضرا... لابد... والباقي لا أهمية له، لم يتْرك لها فرصة الاختيار... كان يحمل طاقماً كاملاً بما يعرف أنها تحتاجه للسهرة... لا بأس... إذا كان قد تعسف واختار لها ما تظهر به، فهو يعرف ذوقها وذوقه... ويعرف أكثر منها ذوق جمهور السهرة... كانت تدرك بحسها وبزوغان نظرته عنها، أنه يهيئ شيئاً أو يخفيه على الأقل... لا يعرف الكذب... لا عيناه تعرفان ولا حركاتُه... ومجنون... مجنون... وطفل كبير صغير... لا حركاتُه تكذب أو تعرفُ، ولا حركات جميلة المتواطئة... وكيف أخْفت المجرمة تلك المؤامرة الصغيرة... أي أحمق هو؟ هل له بعد الآن أن يتصنع شكواه مما يعتبره حماقاتها الجميلة؟

هكذا تجد حورية نفسها مدعوة إلى سهرة في مكان بعيد قريب... بعيد عن بالها كل البعد؛ قريب إلى ناظرها: غرفة نومها...! أية غرفة أصبحت؟! بل أي عالم أصبحت تحتوي؟ قال إنّه يوافقها على أنه أحمق... كل الحمق وكل الجنون... ذلك مقصده ومبتغاه... ذاك هدفه منذ عرفها واختار كل منهما صاحبه... كل الحمق والجنون يحتويه لكن بها ومعها، فقد احتمل من جد الحياة وأكدارها ما يكفي له ولغيره قروناً... ولقرون تمضي وأُخرى تقبل...! كانت تتلمس زينة الجدران والبساط... حتّى السرير... وما يتدلى من فضاء... أقواس ملتوية وأُخرى مسطحة... كلها بأوراق مالية زرقاء حمراء خضراء...

زينة الغرفة كلها حتى السقف... كلها أشكال زاهية بأوراق مالية مشكلة... والأرض والزوايا وأطراف اللوحات... ولوحات مختلفة معبرة بذاتها مشكلة من الأوراق المالية... ومزهريات وزهور... أي جنون لا يصدق... مرة أخرى تلح عليها إشارته تدعوها للجلوس بمجاملة واحترام... تأخذ أحد المقعدين... المناسبة ليست ذكرى زواجهما... أو ميلاد أحدهما... قال إنها للقاء لا تذكره... كان قد قرر فيه أن يتزوجها أو يقتلها! وهو يحتفل بذكرى قراره مع نفسه ذاك... كان ينوي أن يقتل ذكرها وذكراها... قتلا فعلا... لا قتلا كالحياة... لا قتلا بالنسيان والهجر... كان ينوي قتلها فعلاً لو لم تستجب لطلبه للزواج بعد كل ممانعاتها، وبعد قبوله كافة شروط الخزيرات التي تقدمت بها، وبالغت فيها، فعلاً كان قد قرر شيئاً بينه وبين نفسه فيما لو أنها لم... رغم كل ما... بينه وبين نفسه قرر ولم يخبر أحداً... وقال لها فيما بعد، وهو يعترف بأفكاره السوداء تلك... إنه مع ذلك قتلها بزواجها منه... قتلها بأحسن طريقة يمتلك وتناسبه لصالحه... وتناسبها أيضاً...!

كانا معاً يضحكان لبساطة تلك الأفكار وحسن ختام ما آلت إليه... يتحدث عن نفسه كحديث عن متهم حقيقي كان يسكنه ويتقمصه، لم يخبر بذلك حتى أقرب الناس إليه، صفيّيه إذ ذاك عيادي والحاج...

كل ذلك يتكاثف، ينبثق وينبثق مسرة وبهجة، يحيي ذكراه... هكذا يحيي ذكرى أعز من ذكرى الزواج، لأنها سابقة له وأساس فيه... هكذا بكل بساطة، يحتفل بنفسه وبحوريته، ويدعوها للاحتفال معه... أو إن شئت... فالاحتفال لها، بها، ويمكنها أن تدعوه هو ومن تشاء، أو لا تدعو أحداً إذا كانت تفضل الاحتفال وحدها بمفردها...!

كانت تنظر إليه في أكثر من اندهاش لما يفعل ويقول، وببسمة هنية، لا بأس بحمقه وجنونه... فهو لا يزيد كما يؤكد على أن يذكرها بوجودها إن

كانت نسيت... يذكرها بيوم من أيامهما، يوم ربما كانت حسب زعمه لن ترى النور بعده فيما لو رفضته زوجاً... يوم كأنه ميلادها الحقيقي بالنسبة إليه، وميلاده أيضاً... أكان يقتلها حقّاً؟ هل تصدق؟ وهل يعرف الكذب؟ تصدق أو تكذب، فذلك كله لن يغير من الأمر في شيء، من أنه مجنون... ظريف لطيف ومجنون مثل جنونها، لكنه بدأ فعلاً يبزها ويتفوق عليها في ذلك.

أدارت عينيها في المشهد الغريب الحافل المحتفل الذي اكتسح غرفة النوم... إشارته المجاملة ما تزال مجمدة على المقعد الذي هيأه لجلوسها كأي خادم حريص، بل كشخص راق في معاملة النساء... مرحباً وشكراً... جلست، وجلس قبالتها مبتسماً شفاف النظرة والثغر، فلم يعد لم سر يخفيه، أحست به يستعيد مرونته التي فقدها طول يومها وهو يهرب من مواجهتها... أشفقت عليه كثيراً مما عاناه معها أو مما جعلها تعانيه على الأصح... في سبيل إتمام مفاجأته... فعلاً لم يكن يريد أن يترك شيئاً للصدفة تفضحه قبل الإبان. وفعلا، مهما فكرت... ومهما طوحت بها أجنحة الخيال وحومت، فلم يكن بإمكانها أن تتصور ما ترى...

نظر في عينيها بعمق وبراءة، كطفل يستدر العفو والغفران عما بدر منه... أمسك كفيها بين يديه ينشد الصفح... مفاجأة، كانت كل سعادته في ألا يشركها في تهييئها... وأراد أن يتعلم كيف يكذب!

نظرتها كانت أكثر من عَفُوّة رضية، كانت فقط بعض معاتبة، فعليه قبل أن يكذب عليها بالذات، أن يتعلم أصول ذلك منها ومقابل أجر! ضحكا في صفاء خاطر... ضحكا في هناء بال، ضحكا لحسن حال ومآل.

وبتؤدة كاملة، قام أحمد رقيبة يزيح الغلاقات والأغطية عما هيأ من طيبات الأكل والشراب... كله باختيار وعناية فائقة... وكل مفاجئ غير مألوف... إنها مناسبة كانت في لحظاتها فريدة متميزة... وهو... هو القائم

بالخدمة، وهي المخدومة... كله مفاجئ وخلاف المعتاد... في صحة حورية الحرية، وفي هناء زواج ليس مثله زواج...

ترك مقعده، واتجه نحوها يطوق جيدها، يطبع قبلة ويفاجئ بهدية الذكرى... باقة حلي نفيس، يستريح بريقه على الجيد وصفحة الصدر، ملتمعاً على المعصم، متراقصاً خلف الأذنين... كل كامل متكامل ينافس غرة الذكرى ورقتها... لتعرف، ولتسمع منه مادام في ذروة جنونه، حبها هو العقل، زواجها معه هو كل التعقل والوزن والتوازن وكل الحمق والحرية والحياة... أتفهم؟ ومن غيرها يفهم؟ من غيرها يعلم؟ أحمد رقيبة لم يولد قبلها ولا بعدها، أتفهم؟

هادئة رضية باسمة قبلت واستجابت لعواطفه، تضحك من كل أعماقها، يشتركان في الضحك كما لم يضحكا من قبل... مدت يدها، فسبقها للخدمة... هذه ليلته وخدمته ومخدومته حوريته...

سايرت مرحه. ليكن، يريدها ليلة مفاجآت... ليكن له ما يريد، منذ اختار طريقها، الطريق إلى حورية، آه من ذاك الطريق...

طريق صديقة، رفيقة دراسة كانت، بدت في حينها مجانبة لكل صواب، قالتْ أكثر من مرة همساً وجهراً، أن لو كان لها نصف ما لرقية أمرباط، لما خطت خطوة واحدة في طريق الدراسة الثانوية، كررت ذلك وأعادت في مناسبات كانت تعقدها باستمرار، فتيات الداخلية للترفيه والتّسلية بالرقْص والغناء... أو عقب حفلة مدرسية تتألق فيها رقية كالعادة... كانت الرفيقة تستنكر طريق الدراسة الشاق المسدود الأفق، وتقول وهي تغمز لرقية أو لغيرها ممن تحادثها: الفن يا أخوات... وطريق اللهو يا جميلات عليكن به، فنّ الشيخات والرقص والغناء لا غيره، وتحكي عن قريبات لها يتمرغن في العز والعيش الرغيد والحب والمال، بلا دراسة ولا حتى حرف من كلمة، وبلا وجع رأس ولا مشقة.

وتقول، أما من كانت جميلة فحرام، حرام عليها، أن تدفن نفسها هنا وتضيع مستقبلها... وتحذرهن من أن الجمال والصبا كلها تذبل وتنتهي، فحرام حرام ضياع الوقت في الضياع... الفن يا أخوات...

طريق رفيقة كانت تتحسر على قلة حظها من الجمال، كأن الخالق نسيها، أو صب من حظها لغيرها، وتؤكد أن الجمال صنعة، ستصنع حظها منه ومن الفن أيضاً... تتحسر على أنها ليستْ موهوبة كمن ينطلقن من الرحم راقصات مغنيات وجميلات... ورقية كانت إحداهن بل أعلاهن في رأيها... رفيقة شفافة لطيفة تحسرت طوال المدة القليلة التي قضتها بالداخلية، ثم ما لبثت أثناء سنتها الثانية أن باتت ولم تصبح... ودّعتْ رقية، وتركت في أذنها وصية وفي يدها عنواناً... كانت رقية من قليلات أسّرت لهن الرفيقة حليمة، أنها قررت وحسمت... ومع غبش الفجر في موسم مضبب ممطر، تسللت الرفيقة مع انفتاح باب الداخلية لسيارة الخباز... أخذت طريقها وهمست في أذن رقية بوصية وعنوان... على طريق... في طريق...

5

ينحدر الطريق ويتعرج... الحافلة تتأرجح بعامل السرعة والانحدار وسوء المسلك، ومعها تتأرجح الأجساد. جبهة رقية على زجاج النافذة، تلتصق به حيناً وتنفصل عنه أخرى دون أن تهتم أو تحس بما يجري حولها، عيناها على الأشجار والبنايات والصخور المتنائية إلى الخلف دون أن ترى شيئاً... مساحات شاسعة تمتد حولها، ترمي من خلالها البصر إلى المنازل والدواب وأشغال الحقول فلا تحس إلا وقع المجهول في داخلها؛ لا تعلم من واقعها إلا ما ترفضه أو تهرب منه. وصفحة تطويها إلى الأبد... خطوتها الأولى في طريق غير الطريق الوحيد الذي عرفته ما بين القرية والمدرسة...

صوت المساعد يعلو منبهاً إلى المحطة التي وصلتها الحافلة... ومحطتها التالية... الفقيه بن صالح... تنحرف الحافلة عن الطريق الرئيسي المستمر، لتجوب أزقة ثم تتوقف في ساحة تتجمع فيها سيارات نقل وعربات خضر وفواكه... تحيط بها حوانيت وأشجار... أول محطة في طريق رقية، المحطة الوحيدة التي رسمتْها في مخيلتها كما شاءت، منذ باتت ولم تصبح رفيقتها،

وتركت في أذنها وصية وفي يدها عنواناً... سألتْ عن ديور الماء منذ خطوتها الأولى على أرض المدينة الصغيرة، عرفت أنها على طرف المدينة وعليها أن تسير نصف ساعة... لو كانت تعرف لأوقفت الحافلة قبل محطتها الأخيرة، لا بأس، لا بأس... سألت مرة أخرى لتتأكد من قصدها؛ وأخيراً طرقت الباب... أعادت ذلك مرة أخرى... قبل أن يفتح الباب متأنياً ويطل منه وجه امرأة في أواسط عمرها... في بقية نوم ظاهر تغالب التثاوب... سألتها عن حليمة، حليمة؟ وقالت إنها صديقتها منذ كانت حليمة بالمدرسة... معها... حليمة ليستْ هنا، بعيدة أصبحت حليمة... ربما لا يعرف مكانها أحد... لكن، لا بأس... أدخلتها المرأة محاولة أن تظهر مرحبة رغم التعب البادي عليها... قالت إنها أخت حليمة... غير شقيقة لها... أختها من أمها... آه حليمة؟ تثاءبت المرأة مراراً، فركت عينيها ووجهها مراراً، لمّت شعرها المنتثر على كتفيها بلا انتظام، رحبَتْ بكلمات غير مفهومة واستأذنت بإشارة من يديها، غابت قليلا، عادت بصينية القهوة مع بعض الحلوى... وقدمت نفسها بالاسم فاطمة، حليمة؟ آه عن حليمة! حلُّومة غولة! لا أحد يعرف أين هي الآن، لكن لا أحد يظن أنها تكون في محنة... آه، حلومة غولة!

كانت فاطمة تتحدث عن أختها الصغرى، غير الشقيقة، حديث استنكار واعتزاز، ذهبت حلومة، لا أحد يعرف إلى أين... لكن عينها دائما كانت كبيرة لا يملأ ناظرها شيء مما حولها... لكنها لن تغيب إلا وراء المال... أين؟ الله أعلم. غولة... غولة ما عندها خوف ما عليها خوف، قادرة، قادة براسها وبغيرها... جبالها عالية... غابتها كثيفة كبيرة... غولة... رغم سنها الصغير وخبرتها القليلة بالناس والحياة، لها قدرة على شم رائحة المال والمصلحة من بعيد... من تحت الأرض ومن تحت البحر ومن فوق السماء... تضربها طايرة... وتشوفها غابرة...

وتأسف المرأة على حالها هي التي لا تستطيع المغامرة، لا تجد جناحاً للطيران... قلبها خواف، يقتلها الخوف... كلام كثير بتعاريج والتواءات غابت في متاهاتها رقية، ولم تع إلا أن رفيقتها وقصدها من الرحلة غير حاضرة... كانت ترشف القهوة جرعات متتابعة منتظرة توقف سيل حديث فاطمة، أو تتحين فرصة تخترق بها إسهاب المرأة في الكلام المفصل الدقيق عن نشاطها وعلاقتها... وقد استوفت كامل يقظتها، فاتسعتْ عيناها وارتفع صدرها، وأبانت عن ملامح لا تخلو من جاذبية... ليست جميلة، لكنها في ملامح عافية مغرية، تبدو متناسقة في انسجام مع ميل للاستمتاع ومزاج مرح. انتهزت رقية فرصة توقف صاحبتها فقامت تستأذن، إلى أين؟ لم يكن سؤال صاحبتها ينتظر جواباً بالمكان الذي تقصده رقية... كان استنكاراً لهذا النهوض المباغث أو للزيارة القصيرة... واستفاقت رقية نفسها بفعل السؤال فهي لا تعرف أين تذهب... تصرفت بآلية، حليمة رفيقتها غير موجودة هنا؛ ولا يُعرف لها مكان فماذا تنتظر هي؟ ألحت فاطمة بأن سحبتْ الحقيبة من يد رقية. فتخاذلت هذه وجلست من جديد.

صبت فاطمة مزيداً من القهوة لضيفتها وعرضت عليها بعض حلويات... هشت لها واقتربت منها وطلبت مزيداً من التعارف، هيا حدثيها عن نفسك، من أنت؟ ما ظروفك؟ ماذا تنوين؟ لا بأس فأنت قبل الآن، لم تفرغي همومك الحقيقية على أحد، لا بأس، فأنت الآن اخترت الطريق... في بداية الطريق... تبحثين عن طريق... لا بأس، لا بأس... افرغي ما عندك من هم محمّل، لمستمعة مجربة لن تتشفى، وهي لا تعرف لك أصلا ولا فصلا فلن تبوح... والأهم أن تفرغي ما بك مما مضى تهيئاً لما هو آت... الآتي، الآتي رغم التفاؤل قد لا يكون كما تشتهين... إنه كالجمال... الجمال كما تفهمهُ رفيقتك حليمة عندما قالت إنه صنعة... الآتي أيضاً صنعة يديك... الله يعاون... والمكتوب... لكن

فيه من صنع الرأس واليدين كثير... الآتي كبداية... كبداية اليوم... كأي يوم بدايته دليل عليه. هكذا سمعتِ... هُكذا تعلمت... الآتي من بداية طريقه وعلى شاكلتها يكون... الآتي مَن الطزيق... طريق... طريق تبدئينه... لآخر تبحثين عنه... كله طريق...

6

يتضح الطريق، بداية تلتقي مع بداية حليمة، لكن أين حليمة الآن؟ وأين ستكون رقية بعد الآن؟ رقية؟ إلا أن الطريق يفرض تغيير الجلد. هذا أحسن وواجب، نصيحة فاطمة المجربة... الأخت التي لم تلدها لك أم... أنتِ منذ اليوم بورقة تعريف جديدة، أنت ثريا... أو سعيدة... أو اختاري ما شئت من الأسماء... حورية... هذا مناسب... حورية... أحسن... ولتغب رقية إلى الأبد وليغب معها أمرباط، هذه حورية النسيمي تخلق من جديد، تلد نفسها بنفسها، وتسمي نفسها... ولتغبْ القرية وعبير كولونيا الخائب ونفحات القرنْفل والحنّاء وكل القرية... ليغب ذلك إلى الأبد وكل الماضي...

تؤكد فاطمة المجربة، الأخت التي لم تلدها لك أم، أن هموم القلب لا حصر لها ولا نهاية، ولا يوجد من لا مشاكل له... الكل غارق في بحر همومه حتى الأذنين لكن الذي يعرف كيف يعيش... يضحك من الدنيا... يضحك للناس ويغني وينكت ويرقص... لابد، ينْسى ويتعلم مع الزمان... الزمان معلم كبير... وماذا أخذت من الدنيا هي رقية الحبيبة حورية؟ ماذا حصل مما

يستحق ركوب الهم أو الغرق فيه؟ ألن تنقذ نفسها من مصير زواج كان أقرب إلى الحبس الدائم أو أسوأ؟ أهذا الجمال خلق ليحبس ويذبل؟ حرام... حرام... ومن المستفيد حينئذ؟ كأن ذلك يكفي لينداح الهم وينزاح، ليغيب نهائياً عن حياة رقية أو حورية... كلا وكلا، العكس هو الصحيح. هذا مؤكد فطريق غولة عفريتة حورية، قد يكون أفضل، أوضح وأبهج من طريق حلومة... تقول الأخت المجربة فاطمة المكتوب بيد الله، كل نفس ورزقها المقدر، لكن النفس يجب أن تعمل لجلب رزقها، وتسلك الطريق إليه...

تبتهج حورية؛ وعلى الطريق... تسير تغني وترقص تحيي حفلات الشيخات بجانب فاطمة والمجموعة... ترعاها فاطمة... فاطمة الأم والأخت والصديقة... ليالي الجمعة والسبت كلها محجوزة سلفاً، أعراساً وأفراحاً، تتخلف عن ذلك قليلا خارج فصل الصيف؛ لكن سهرات أخرى خاصة لحفلات محدودة، تعود أحياناً كثيرة خير من حفلات الأعراس الصيفية الصاخبة...

جعيدات رفيق معاشر لفاطمة يحضر ويغيب، هجر فراش الزوجية وعش الأبناء، والتصق بمجموعة فاطمة الغنائية، يشغل سيارته البيجو العجفاء العتيقة، لنقل المجموعة ومعداتها إلى أماكن الحفلات بمختلف القرى والمناطق المجاورة... قصير نحيف... جلد على عظم، حلاوة روحه، وخفة مزاجه في شفافية فراشة، تحفة مشهد وزهوة ألوان... خفيف... خفيف على القلب...

وجدت حورية في الرجل أباً وأخاً كبيراً يكمل أخوة فاطمة لها... كان من أهم ما تلقنته من دروس الأخت المجربة أن تهتم بنصيبها من الشغل... لاحظت أن حورية لا تهتم بأن تحاسب على ما يتحصل، وما يعود إليها منه... قالت لها ما سبق أن سمعته حرفياً من حليمة: الجمال والصبا ليسا دائمين ولا الحظ... كل ذلك إلى زوال... وعيب المغفلات ألا يحسبن لذلك حسابه... من هذه الناحية كانت حورية مطمئنة، فهي مرتاحة في رعاية فاطمة ورفيقها

جعيدات، ولا تطمع في أكثر من ذلك الآن... كانت ترتع في ألبسة الأخت مما يستلزمه الشغل من ألبسة بلدية رفيعة، تتصرف في البيت... تتحرك في أرجائه كما لو كانت صاحبته، لقد اكتشفت في فاطمة أكثر من أخت... امرأة تملؤها صفة الأمومة وحب الحياة... أما في خضنم الحفلات والدعوات والمجالس التي كانت المجموعة تحييها، فكانت عيْن فاطمة على حورية رعاية وحراسة... لا تبخل بالتدخل في حينه وبالنصيحة والتوجيه... لم يكن جمال حورية ومشهدها الأخاذ مما تغفل عنه فاطمة... مشهد يزداد جاذبية وإثارة عندما يمتد غصنها الباني داخل الدفينة المنسدلة والقفطان، ويرتفع ساعدها البض متناغماً مع مرونة القوام، ورخص الحزام، على تموجات الصوت الصادح وإشراق محياها الوضاء... جنية كانت تتحرك... ساحرة... والقلوب تحترق... والرغبات تلتهب تتبدد يباباً هباباً...

عين الخبيرة لا تخطئ تقدير شيء من ذلك ولا تغفل عنه، ولا تجهل آفاقه ومخاطره... وعلى العاقلة أن تعرف كيف تستفيد...

لم تكن كذبة من صنع روعة الجسد المترعرع الفتان... أدركت حورية ذلك... أدركته هي بالحس واللمس... قرأته في المرآة بنفسها لنفسها... لا، لم يكن كذبة ولا وهماً ولا حلماً... ومنذ ذلك الحين، قررت بداية رحلتها رفقة الجسد والصوت... رحلة حقيقية... رحلة اللاعودة مع آخر ما تَبقى... ترعرع وظل... من كيان الذات المحطمة... والطريق... الطريق مفتوح مفروش...

7

خفق القلب... خفق؟ نعم، لا، خفق البطن، ارتعب الكيان بكامله... ثم... ثم هدأ... همد... وتحرك الرأس، أيحدث هذا؟ ولم لا؟ لم تكن جاهلةً ولا غريرة... كانت أقل تجربة فقط... كانت واعية إنّما بخبرة أقل... وحدث ما حدث... لأمْرٍ ما لم تدبر أسباب منعه، خطأً أم إهمال أم تعمد؟ شيء من كل ذلك... ربما... خفق البطن، كانت متعجبة أكثر منها خائفة أو فزعة، رغم الارتعاب والارتجاف...

قالت فاطمة وهي تضمها إليها، تحتضنها احتضاناً: يا بنتي أنت مازلت صغيرة عليه... لامَتْها ولامتْ نفسها بعنف حيناً وبلين حيناً آخر... وبإشفاق دائماً... ما كان لها أن تهادن في شأن البنت... لم يكن لها ذلك...

لامتْ فاطمة نفسها بعنف وفي صمت... لمَ هادنت؟ لو أن ما حصل حصل لها هي... أو لو حصل لها أكثر، لما همها الأمر، ولكن حورية شيء آخر... شأن آخر... أمانة في العنق... كيف فرطت فاطمة أو تغافلت؟! ذنب لن تغفره لنفسها أبداً... حتى وحورية نفْسها تخفف مشفقة عليها من عذاب الذات... حورية تظهر التجلد والتّحمل أكثر منها... هذا طبيعي لأنها لا تحس

بألم الذنب كما تحس فاطمة... لا عذاب كان أو يكون أكثر من عذاب النّفس للنفس... بنتي يا بنتي... ولكن كيف غَفَلت على كثرة ما حذرت وحرست؟

بالفعل كانت فاطمة حارسة وحريصة... لكنها كانت تضع نهاية أخرى للأمر: تتصور ولد الحجاجي وقد تعب من مطاردة حورية في حفلاتها وأعراسها، وأضناه التجاهل واللامبالاة لما يريده من وساطة فاطمة لقصد عابث، علاقة عابرة بحورية... جعلته على يقين من أن المال والجاه لن يؤديا لهذا الغرض بالذات... حورية شيء آخر... موضُوعها لا يساوم عليه... هكذا إذن لن يملك ولد الحجاجي إلا أن يأتي من الباب الواسع راغباً خاطباً حورية... هكذا بالعز والأمجاد... ويشترط فقط أن تتخلى حورية عن الرقص والغناء... له كذلك... له أن يشترط توقف فاطمة نفْسها، والمجموعة بكاملها، شريطة أن يأتي من الباب الذي كانت فاطمة تهيء مدخله بإتقان! قالت لحورية: يا بنتي يا أختي الصغيرة... يا حبيبتي وحبة عيني، اسمعيني اسمعيني جيداً يا نور قلبي اتركي الرجل يحترق ولن يفلت أبداً... رجل مثله بماله وجاهه يعشق الممتنع... يهوى الصعب والمستحيل... خليه يحترق بناره، الأمر يهمك... مستقبلك كله هنا... وليس في غير هذا المكان... ولتكن هذه نهاية الطريق بالنسبة لك، وبداية طريق آخر هادئ هانئ سعيد... شريطة إتقان الفرصة المواتية...

خيل إليها أن حورية استخلصت كل القصد... وأن المشكلة التي تستعد لها فاطمة هي إقناع الوالد الحجاجي الكبير، قبل الحجاجي الصغير بموضوع الزواج وشروطه من الطرفين... كانت حورية تقنعها بأنها لا تجد لهذا الرجل مذاقاً... ثم هو متزوج! متزوج؟ ومتى كان الزواج مانعاً من زواج؟ الرجل قوي غني ومن أسرة فوق الغنى... فساحة مزارع القطن عنده لا تنافسها إلا شساعة ضَيْعات البرتقال والشمندر السكري، وتعدد عمارات المدن... يا بنتي هذا حظك... اسمعي جيداً وفتحي أذنك... إرخي بالك واسمعي...

خيل إليها أن حورية تستخلص القصد من كلامها وتوافق عليه... وأنها تعرف وتعي، فقد كانت تبدو متأملة رصينة الاستماع... أجل خُيِّل إليها أن المشكلة التي تواجهها هي إقناع الحجاجيّ الكبير قبل الصغير، وبدأت تعد كل العدة لذلك... بينما تبدو حورية مستمعة متأملة رصينة هادئة... كيف يحدث هذا يا بنت؟ ومتى، وأين؟ وهل يعلم الملعون؟ هل يجب أن يعلم أم لا؟ مهما يكن... يجب تسريع الخطى، واختصار الخطة، بل يجب القفز على المراحل... تلك التي كانت فاطمة المجربة تُحيك وتحيك عقدها خيطاً خيطاً، بأناة وإتقان... ومهما يكن فعليه ألا يعلم الآن... وليعلم فيما بعد حتى لا يفاجئ الخطة كلها برَدَّة الرجال عن الحب... تلك الردَّة التي تعرفها... ردَّة البغال... الرجال والبغال ملة واحدة عندما يرتدّون... يركلون... يحطمون كل شيء عليهم وعلى غيرهم، تلك الكبرياء البغالية تعرفها جيداً... وكل امرأة يجب أن تعرفها وإلا كانت أم البغال...!

خففت فاطمة من احتضانها لحورية، كما لو عالجت الموقف كله بخطابها وخطتها... تحررت حورية من ذراعي المرأة وصدرها، لكنها ظلت ساهمة... يدها على جبينها كأنّها تتحسس النَّبض والخفقان... عادت فاطمة تمنح الدفء والاحتضان... لا عليها، فاطمة تعرف ما يجب... وأبوه أغنى من الغِنَى ذاته... وهو نفسه، الحجاجي الصغير، أليس ولد الحجاجي الكبير؟ الغنى يلد الغنى... فقط يجب تسريع الخطى، ولا داعي للندم على ما ضاع من فرصة كانت المجربة تحكيها خيطاً خيطاً... الآن يجب الإنقاذ قبل الارتداد البغلي... منذ اليوم... لن تخطو حورية خطوة واحدة إلا بمحضر ونظر فاطمة... لن... أبداً...

متى وكيف؟ لم تتصور أن ولد الحجاجي بهذه المهارة... لا... لا... لم تتصور أن حورية بهذه السهولة... لكن كيف غفلت هي المجربة عما يجري

حولها... كيف تصورت الرغبة البغلية الجامحة يمكن أن تكبح حتى تستنفد هي نسيج خطتها؟ تحاول المرأة في خضم ارتباكها، أن تخفف على حورية... لا... بل هي تطييب خاطرها من أجل الخطة والمستقبل... ما دام الرجل غنياً... ارتباك يقابله هدوء حورية... هدوء لا تَفْهمُه فاطمة حق الفهم... أو ترى أنه الهدوء المعذب المؤئس... لا... لا... لا تَقتُلي النفس نَدَماً وكمداً... فما حصل قد حصل... كل شيء سيصلح... والرجل الذي لا تجدين له الآن مذاقاً سيصبح بالطعم والرائحة المطلوبة... وعلى قد القياس... سيصبح خاتم الأصبع الحورية... يا حورية... إنما يجب الاحتياط من الآن... زواجه من الأولى يمكن علاجه بعدة طرق... طبعاً الإقامة المستقلة للزوجة الشابة الفاتنة... وهل يعدم ذلك؟ أما تطليق الأخرى فهذا أمر يترك الآن للزمان... الزمان الذي كان فرصة في اليد، لكنها ابتعدت الآن... ولتقبل الواقع... آه، على ألا يرتد البغل ويركل بعد أن قضى وطره... كم كان يتعذب... كم كان يتوسل من أجل أن تتوسط له فاطمة... فاطمة المجربة التي كانت تنضجه على جمر الزمان واللهفة على حورية.

حورية هادئة... هكذا تظل... تنزع نفسها من حضن فاطمة انتزاعاً... تُهمهم ولا تبين... كأنها تصيخ لشيء بعيد... طبعاً... تصيخ المسكينة لصوت الندم، وهذا هو العذاب... عذاب فاطمة قبل حورية... لا... لا... يا قلبي... حبيبتي... حوريتي... لا عليك... لا يفيد ندم، يجب الإسراع الآن... تُهمهم حورية... تهمهم... لا، ليس هو! ليس هو، كأنها تنتفض... ليس هو... ليس هو... ليس الذي ببال فاطمة! أبداً ليس هو... ليس الحجاجي!

تظل المرأة مشدوهة... ماذا تلتقط؟ من هو إذن؟ ليس هو؟! من إذن... أهو سمع أم كلام أم خبط في الرأس والقلب؟! أيطير السمع أم الصمم أم يُهد الجبل على الرأس أم يحل الحمق والخبل؟! هو من؟ من إذن غير ولد الحجاجي

التائه في فتنة حورية الشاكي والباكي عند أقدام فاطمة للتوسط والتزلف؟!

تقدمت المرأة باتجاه حورية، شدتْها من جمع شعر رأسها، من لَمَّة الصدغَين... عصرتْ وجهها بين كفيها... ماذا تقول؟ ماذا تسمع؟ ليس الحجاجي... فمن إذن؟

بهدوء كامل، تزيح حورية كفي فاطمة عن صدغيها... بهدوء وتأن تُكرر أن صاحبها بعيد جداً عن ذهن فاطمة، قد يكون في الواقع قريباً جد قريب، لكنه بعيد عن خاطر فاطمة من هذا الموضوع... بعيد كل البعد... بُعْد الحجاجي الصغير والكبير عن خاطر حورية ورغبتها... من إذن؟ لا يهم.

حورية راضية كانت، لم تكن مُقتنعة لكنها كانت راضية... لم تدفع بإكراه أو إغراء مال أو جاه... بل هي التي شاءت، انساقت واستجابت... ساقت نفسها وأجابت عن نداء... هكذا، هكذا شاءت حورية في لحظة... لحظات حنان دافئة... هكذا بمزيج عطف وإشفاق من نظرة لم تكن تطمح فيها كل الطموح... ولا في شيء قليل منها... لكنّها كانت نظرة تشعر بالأمان، تثير العطف، تمنح الثقة... ولا تثير الإحساس بالخطإ والمخاطرة... هكذا ببساطة وجدت نفسها تواسي... تضمد الجراح الخفية لكائن هش كسير... لا يملك مساحات على سطح الأرض ولا ناطحات في عنان السماء... لكنه يحرك شغاف الوجدان إلى الفعل... فعْل نابع من أغوار النفس... أغوار صافية دافئة كانت تبدو معالمها من نظرته وملامح وجهه النحيف الرحيم، عندما كانت تفاجئه تائها غائباً في صوتها وهي تصدح باللحن أو في التواء جسدها الأرعن مع موجات الطرب... نظرة حسيرة متألمة بالغة الشفافية والصفاء... تنبعث بنداء غامض، بطعم استغاثة واسترحام... لم تشك في أنه كان يعيش غيبوبة حقيقية وهو يرمقها تبدأ وتُعيد في الأداء، كان يسايرها في الطرب، أو تسايره طيلة السهرة... إحساسها أنه كان في داخله يعزف لها لحناً داخلياً خاصاً؛

وأنها كانت تغني له كلمات خاصة، لا يفهم معناها إلا هو... هو الذي يعطيها المعنى، مما يشيع على ملامحه من عوالم... نداء... كان نداء دائماً شغوفاً متلهفاً مسترحماً متحملا عذابه وناره... لكنها التسعت باللهيب... ألهبها حريق ذاته، وكادت تشتم رائحة الحريق في ذاتها... رائحة شيء له طعم حريق حقيقي في أغوار جوفها وسطح أطرافها وكيانها؛ حدث ذلك عندما لفحها حر ذاته، وهو يحتك بها عفواً في الظلام مع نسمة الفضاء الرطبة ذات مساء، والجماعة تتحرك حول السيارة التي انفجر دولابها وهم في منتصف طريق... في سفرة من سفراتهم خارج المدينة... أي حريق يحتمله هذا المخلوق الهش الكسير؟ أي جمر هذا الكيان النحيل؟ أيدرك لهيب ما يحمل ويحتمل؟ جعيدات ليس غيره المحترق الكسير الضعيف النحيف! هو بذاته جعيدات، وهو الذي لم يعتد أو يظلم، لكنه كان جمراً متقداً... لهيباً سعيراً...

تساءلت بعد ذلك حورية فيما بينها وبين نفسها، إن كان الرجل يحس بما رمى به إليها من جمر وأوصل من لهيب، أم أنها وحدها تظل تقرأ عذابه، تحترق باحتراقه...؟ مفاجأة لهما معاً كانت... مفاجأة احتكاك عابر في الظلام مع نسمة رطبة في فضاء رحيب، كأنهما لم يحتكا من قبل عفواً وقصداً... ومفاجأة لهما معاً، مفاجأة أكبر عندما التقيا بعدها... مفاجأة لقاء يجمعهما وحدهما، وجهاً لوجه، ذاتاً لذات، كأنهما لم يجتمعا أو يلتقيا قبل ذلك مراراً على النحو نفسه وعلى أنحاء كثيرة... لقاء كان على انفراد بلا موعد ولا ترتيب... مفاجأة اكتشاف لحن التقطا إيقاعه معاً بالصدفة، بالطبيعة، ومن الطبيعة... التقيا في الإيقاع التقاء غريباً... جاء جعيدات يقصد تجربة اللحن على سمع حورية قبل عرضه على فاطمة والمجموعة... وعلى الغرباوي شيخ الكمنجة بعد ذلك... التقيا على الإيقاع وطفقا ينحتان كلماته من مشاعرهما... كان احتراقاً... كان نداء استغاثة عميقة المنبع والمصدر من جوفيهما معاً، ومن تضاريس الروح...

ظلال غائرة، نبرات ألم دفين، وعزة احتمال... صفاء جميل، تجاوب أعطاف وأرواح... وإمتاع ترداد... لم تكن تصحح له أو يصحح لها، وإنما كان صوتاهما يلتقيان، يمتزجان، يتم كل ما بدأ الآخر، يمدد ما قصر ويقصر ما مدد، كأنها تردد وحدها، كأنه ينشد وحده... وما لبث اللحن أن استوى بالتعاطف والتجاذب والتجاوب... تياراً جارفاً، لهيباً حارقاً، فوران بركان... كان! تياراً كان... طريقاً كان... بركاناً...

مد أحمد رقيبة إليها علبة السجاير الفضية، أعادتها الحركة من شرود الذكريات إلى لحظتها، لحظتهما معاً... ابتسمت، حركت رأسها كأنها بذلك تنفض ركام الذكريات، تناولت سيجارة رغم أنها نادراً ما تدخن، وتناول رقيبة بدوره سيجاره العتيد المفيإ في غمده الفخم... وأمام نظرتها المحدقة المشدوهة، يلوي من جملة أوراق مالية، يعرضها للهيب الشمعة، ويشعل لهما بأناة كاملة... ويظل يقلب الأوراق الملتهبة، تكمل احتراقها أمام نظرته وتقليبه، قبل أن يرمي ببقيتها تتلوى رماداً في المنفضة!

كانت تتابع موقفه وحركاته، واندهاشها يزول شيئاً فشيئاً... لا بل تسليمها له... حماقاته تزْري بما عرف منها... وهي ليلته، يريدها كما يريد، فلتسلم له. المشهد مضحك فعلاً، لعلها سمعت قبل ذلك عمن يشعل السيجارة بورقة مالية في رعونة... لكنها على كل حال تكون ورقة واحدة... ومن فئة دنيا أو متوسطة... أما صاحبها، فيستعمل حزمة أوراق ومن فئة... جنون! جنون! لو أنها استنكرت بأي ملمح، لربما ضاعف وكرر من حركته تلك... ما عليه إلا أن يركب جنونه الجامح ليلته هذه، ويستمر في القطف من زينة الأوراق التي تغطي كل شيء في غرفة النوم الفسيحة... التي أصبحت كوناً كاملاً مكتملاً... جنون ليلته لن ينتهي أو يقف عند حد...

قالت إنه يذكرها بكارثة اقتصادية ستحل بمصانع الوقيد والولاعات إذا

سار الجميع على نحو ما يفعل، وأشعلوا سجائرهم بأوراق مالية! كارثة محققة على تلك المصانع وعلى العمال الذين يسرحون!

قهقهت قليلا، قهقهة شاملة صادرة من أعماق البطن وتجويف الصدر، وضحك بدوره... ضحكاً... ضحكاً يهز كل كيانهما والغرفة والكون حولهما... ضحكاً في صحة الزمان والحرية... كل منهما يضحك لزمان ولى، وطريق أدبر... كل يضحك على زمان وطريق لزمان وطريق آخر... والتقى كفاهما في الهواء في صحة زمان وطريق... ليضحكا من الضحك ذاته... بمناسبة وبدونها، فما أكثر مناسبات التجهم ونقائص المرح والهناء. ليضحكا بقوة ملء ساعة يصنعانها حمقاء خرقاء كلها فوز وتحصيل واقتناص... وضحكا كما لم يضحكا من قبل، لتدخل عليهما جميلة حاملة أنواعاً من أطاييب... وقد تزيت بطربوش وشارب على قميص وبدعية وسروال قنْدريسي، يعض على ساقيها مع قبضة الجوارب والبلغة المطلعة...! وضحكوا كثيراً، ضحكا لعصر الغلمان وألف ليلة... ضحكا والتقى كفاهما مرة أخرى في الفضاء... وقديدير يبرز أمامهما في هيئة راقصة غجرية مهدلة الأطراف ترقص بحركات وحشية متوحشة... ورضى نفسه... رضى... يغشى الحلبة مضفور الشعر، يرتع في بدلة كاملة لفتاة مزوقة الوجه بألوان فاضحة صاخبة، دفينة وقفطان وحلي ومشية ملتوية متأودة، وألوان على ملامح الوجه!

سألها إن كانت تحب أن تسمع موسيقى... ضحكت... ضحكت بصدق من نفسها إذ لم تخطر على بالها موسيقى لحد الآن، وكأن السهرة، أي سهرة يتم معناها بدون ذلك! ضحكت من غفلتها عن ذلك هي التي تعرف كيف تهيئ جلسات الهناء بالرقص والنغم. نعم، أجابت: نعم. وضحكت بعمق لأن مفاجأته أخذتها عن نفسها... سهرة مجنونة في غرفة نوم؟! قال إنها غرفة تسع الكون بكامله، وأحسن ما في الأمر أنهما بالفعل يستطيعان أن يقلصا

العالم كله، يختزلانه لينحصر فيها أو على الأصح يوسعانها لتنفسح للكون... سيان...!

وضحكا... موسيقى... ودلفت فرقة كاملة إلى غرفة النوم تحيط بمقامهما غناء ورقصاً، تسحب أهازيجها إلى فضاء الغرفة عبير الأحراش، رقرقة الجداول وصدى الوديان وسحر الإشراق والإمساء... رقصا معاً... رقص الجميع وغنى الجميع، قديدير وجميلة ورضى والفرقة بكاملها... وأعطى رقيبة للجميع بدون حساب... لا... لم يعط، وإنما ترك الحرية للجميع ليجتني من المعلق والمنثور ما يشاء... ألح عليهم في أن يفعلوا ما يشاؤون بحرية كاملة في ليلة واحدة وحيدة للحرية... لحورية...

وحين همدا إلى نفسيهما قبيل الصبح، خمد إلى صدرها... بكى بصدق يماثل الضحك... غناه يماثل فقره... لحظة واحدة فريدة... فريدة جدّاً وغير متوقعة... تنزل عليه بثروة يتعذر عليه عدها... حتى قديدير لا يملك إلا أن يقول وهو يقدم كشف العملية: سبحانك يا مقدر الأرزاق... لحظة واحدة تزري بكل شقاء العمر... ترجح عقود السنوات الغاشمة العجاف... ولا تنزل على فراغ... بل على امتلاء واغتناء... ثراء على ثراء، وغنى على غنى... سبحانك مقسم الأرزاق!

بكى رقيبة كما ضحك... بكى على صدرها كثيراً طويلاً... لتفهمْه، لتفهمه جيداً، كثيراً... حرمانه عميق، وما يزال في باطنه أخاديد غائرة من الرغبة والاشتياق. يحمد لها، لحوريته أنها أحيت ما به وألهمته كيف يعمل على أن يرتوي... بكى مسلما أطرافه المتعبة... لسانه وخواطره إلى كل ريح... ثم غفا واستكان.

8

عاش الناس آخر النهار... يوماً لا ينسى... مشهداً فريداً غريباً لئن حرك في بعضهم دافع الفضول ولبى حافز الفرجة... فقد أثار في بعضهم الآخر دواعي الإشفاق والخوف من تطوراته. قبل ذلك، بدأ المشهد عادياً... بل إنه لم يكن يحمل أية دلالة أو مؤشر بأنه سيتطور إلى مشهد... كان الشايب يتمايل بعرجه المألوف بين زبائنه ومعروضاته المتنوعة، في يوم لم يكن فيه من يثير إلا تلك المرأة، سليمة، التي أتت بشكوى مصطنعة لا تهدف من ورائها لغير ما تهدف إليه مثيلاتها، من اللواتي يغيب عنهن الأزواج فيوشكن أن يتشبثن بأي رجل... بأي ثمن... بأي وسيلة... فإذا لم يثرن انتباهه أو لم يفهم المقصود ويستجيب بما يجب، انتقلن إلى مستوى آخر في التعامل معه، وإثارة المشاكل حوله... هكذا هن... يعرف نموذجهن ولن يلتفت عليه... كان مرتاحاً إلى ما قام به... فلقد لقّن المرأة درساً إن كان يفيد في مثلها الدرس... وظل خلال فترة من نهاره وشغله يدير في رأسه موقف هذه المرأة، يحاول أن يتذكر تحرشاتها السابقة به، دون أن يفلح في تبين شيء من ذلك... وظل على يقين بأنه سيتذكر

حادثة أو حوادث من مناوراتها... كان متأكداً من أن دافعها هو إثارة انتباهه إليها... حتى لو صح بعض ما ادعت حول ابنتها وابن أخيه... ظل يدير الصور في ذهنه ويسأل ويجيب، دون أن يكف عن تمايله ونشاطه... حتى يئس أخيراً من قابلية التذكر وغاب في مهامه... غير آبه بكل ما حصل، وربما فكر في أن ينبه ابن أخيه ذاك، وإن كان يدرك من طيشه ما لا يفيد فيها تنبيه.

لم يكن لحد الآن أي مشهد مثير في هذا الأحد... إلى أن انتصبتْ أمامه امرأة تبدو فارعة الطول، قوية الكيان، ملفوفة داخل حايك من السوسدي الخفيف لا يظهر منها إلا بؤبؤ عينين غامقتين... كغيرها... مثلهن جميعاً... رنا الشايب إلى قامتها رافعاً نحوها عينيه، ومتسائلاً عما تكون نطقتْ به... طلب لم يسمعه... لم يتبين إلا همهمة... لكنها أبانت عن أصابع غليظة جافة وهي تتحسس بعض الخضر تحسساً فجاً... ثم تنتقل لتخل بنظام بعض الأشياء... قناني مرصوفة تحتوي على حلويات الأطفال وأنواع العلكة... ظل يتابع حركات المرأة، ويدها تلمس بعجرفتها وتعسفها كل ما تمر عليه... نظرها يطوف المكان كله بتطلع غريب... نهرها متسائلاً عم تفعل؟ فلم تحفل به، وظلت ماضية في سلوكها مما اضطر معه إلى التحرك في الاتجاه المعاكس لخط سيرها في أرجاء الدكان، ليلتقي بها في جولتها الغريبة عبر السلع والبضائع... يوقفها عند حدها... هنا بدأ المشهد يكتسي غرابته حقاً وصدقاً... هنا حدث ما لم يكن في حسبان أحد.

فوجئ الشايب بقوة صاعقة ترمي بمعروضاته بعضها فوق بعض... بعضها يهشم بعضاً فترتفع أصداء التكسير، وتختلط وتسود الفوضى كل ما كان من ترتيب وتنسيق... كل شيء ينقلب رأساً على عقب... عاصفة هوجاء ترمي وتكسر وتقلب وتخلط... تطيح بالمرافع والرفوف وما عليها فيلتقي اللبن والزيت والدقيق... ومختلف أنواع المونادا، وتتشبع الأرض زبدة وطماطم

وأرزاً... تنهدُّ وتنقلب طاولات الخضر وتتدحرج مكوراتها إلى الخارج باتجاه المنحدرات بينما يمتزج محتوى الرطب منها بالتراب... مشهد تخريبي مدمر لكل شيء...

يتسمر الشايب أمام هول ما يرى... وقد أصبح تمايله وحركاته في هيئة حارس مرمى... يحاول أن يتكيف مع كل رمية لعله يوقف حركة التحطيم... يتلقف المقذوف أو يحمي نفسه على الأقل... ثم يكتمل المشهد ويبلغ أوجه، عندما تزيح المرأة الغريبة العملاقة عنها الحايك دفعة واحدة، فتظهر عن شبح مخيف يعرفه الشايب جيداً... الشخش... علي الشخش بلحمه وعظمه وكامل جبروته... يتجمد الشايب من هول ما يقع، هو الذي لم يكتب عليه مثل هذا التعسف من قبل لا من امرأة... أو رجل... فكيف من الشخش؟! هو الذي لم يرفض طلباً من الشخش كيفما كان... وهل تلقى طلباً ما؟ لماذا... لماذا؟ لا يجيب الشخش، وإنما يمضي في إنجاز مهمته بكل حمية، وقد توترت عضلاته مشدودة كالحبال، ونظراته النارية تحرق المكان في تطوافها بكل شيء... وزفيره يسمع عميقاً مهتاجاً من أعماق كيانه الهائل...

ظل الشايب كامناً هامداً في ركن يسنده ويحمي تمايله...

حول الدكان وعلى خطوات من مرمى الخطر تجمع البعض يتابعون، تموج في أعماق بعضهم حوافز الفرجة والفضول، وتعتمل في صدور الآخرين هواجس التوقع من نهاية المشهد... ولا أحد يجسر على سؤال أو تدخل...

لا أحد يفهم أو يدرك المعنى والمغزى، قوة الشخش الهائلة، ومعرفة القوم بهول ما ينتج عن كل محاولة منهم لتهدئة أو توقيف ما يجري... من يقدر على ذلك؟

المشهد مفاجئ... كان مفاجئاً صادماً للجميع، فالذين سمعوا عن قوة وشراسة الشخش، لم يسبق لهم أن عاينوا مظاهرها، وهو ما يحصل لأول مرة

أمام الأنظار في واضحة النهار... والذين يعرفون في الشخش مع ما يتصف به من قوة وشراسة في العراك، يعرفون فيه إلى ذلك كله مروءة، وترفعاً عن إيذاء المستضعفين وعن التخريب... يعرفون عنه خلاف كل ما يرون في هذا المشهد المثير...

لا أحد يفهم أو يدرك، والشايب يبدو منزوياً في ركن كفأر محاصر... كان يبدو في موقفه المسلّم المستسلم، وقد فقد الأمل في أن يفلت شيء من بضاعته، يشك أيضاً في أنه يمكن أن يخرج من المشهد سالماً... والشخش ماض بهمة وحمية في تدمير كل ما يراه أو يلمسه، حريصاً على التأكد من إراقة ما يراق، وانكسار ما ينكسر، وتمزيق ما يحتمل التمزيق... وحده يرمي ويصدم ويزيح... وحده، يعلو زفيره موجات متصاعدة متتابعة، مختلطة بهمهمات أشبه ما تكون بزئير مكتوم...

أخيراً، لابد للمشهد من نهاية، نهاية يترقبها المتفرجون من بعيد، متأهبين للنجاة بأنفسهم مما يمكن أن يتطاير إليهم من فوائض النهاية... يطيح الشخش بآخر مرفع من مرافع البضاعة في الدكان، بكل ما فيه وعليه، ينظر حوله إلى اللوحة العجيبة التي استطاع بهمته وقوته أن يرسم حوله على الأرض والجدران وخارج الدكان، يتطلع إلى الوراء باتجاه الأنظار المتطلعة كأنه يشهدها على ما أنجز... وينظر إلى الشايب المنزوي في ركن يرقص هلعاً وخوفاً... يحدق فيه جيداً، يذكره وينقش في ذهنه مقصده... ضرورة احترام المحترمات وبنات الناس وأقارب علي الشخش عامة وخاصة، ليفهم وليبلغ ابن أخيه! وبنظرات نارية ونصف ابتسامة ينهي للرجل المرتعب في ركنه:

ـ وقل... لبنت خيّك يلقاني!

وعادَ عزيز مبكراً جدّاً هذا المساء... لا، بل عاد إلى المنزل قبل المساء، على

غير عادته... عاد ببعض اهتمام، بكثير اهتمام، يحمل بين يديه بعض حاجيات منزلية، ويسأل عن أمور تتعلق بالدار وسير الدار وماذا ينقص أو يطلب!

عاد وكأنه خلق آخر على خلاف كل ما اعتادت سليمة، يسألها عن حالها متودداً، وابتسامة وملامح استبشار وثقة بالذات لم تعرف فيه من قبل، هو الذي ألفوه أن يدخل مطأطئاً قاصداً غرفة العلوي، ويغادر مطأطئاً إلى حيث لا يعرف أحد أو يسأل... هو الذي لم يكن صوته يسمع إلا بالسب واللعن، يطلب مالاً أو أكلاً أو ينتقد نمطها عيشة!

يتفقد عزيز هنا وهناك في أرجاء المنزل، يسأل إن كان كل شيء كما يرام... وفي تودده وابتسامه لوالدته، في تساؤله وعنايته لا ينسى إرسال نظرة نارية باتجاه سميرة... سميرة تلك، الحساب معها مؤجل لوقته المناسب... المهم أنه المسؤول عن الدار، عن أمه وأخته وعن كل شيء، وهو يسأل ويتفقد ويحاسب.

فعلا، كان ما يفتأ يتفقد المنزل، ويجول بأنظاره في أرجائه مؤكداً أنه قادر على حفظ حقوق ذويه وكرامتهم، ولا أحد يمكنه أن يدوس ذلك أو يتجاهل... لا أحد مادام عزيز ينبض فيه قلب، وتتحرك به قدم!

لم يقل عزيز أو يذكر شيئاً واضحاً مباشراً يوضح علة التغيير الذي اعتراه، إلا أن هيئته كانت خير مفصح عما يريد أن يبلغه وأكثر وبدون تحديد: إنه أنجز ما يريد كما يريد، ودافع عن كرامته وكرامة ذويه... وسيظل كذلك، وليفهم من يريد أو يستطيع أن يفهم...

بعض نسوة كن يحطن بسليمة، ظللن بدورهن يتابعن حركات عزيز وأقواله بحياد وهدوء... وما لبث عزيز وقد أبلغ ما يريد، أن يتجاوز مجمع النساء حول والدته، يصعد باتجاه غرفته، يغيب بين جدرانها بعض الوقت، ثم

ينزل، وهذه المرة يلتفت نحو والدته، وجمع النسوة حولها، ليسأل مرة أخرى بثقة المالك القادر الواثق، إن كان ينقصهم في الدار شيء؟!

انجاب كرب سليمة وهي تعلم الخبر وتفاصيل المشهد، ممن عاينوا تأديب الشايب... توافدت عليها بعض النساء في حالة من يقدمن التّهاني، والتف بعض الأطفال، وبضعة رجال حول باب الدار... عرف الجميع السر... فقد كان عزيز أثناء المشهد يقف منتصباً على مقربة باعتزاز... كأنه يتأمل لوحة من إنجازه... وما كاد الشخش ينهي مهمته تلك... حتى خرج ينظر حواليه، وقد ارتسمت نذر العدوانية على كل ملمح فيه... وتحفزت أطرافه...

تخلف المتحلقون خطوات يوسعون له الطريق... يمشي بينهم متئداً مختالاً بعضلاته المتوترة وكيانه المستفز... يتبعه عزيز في نشوة غامرة وامتنان يلازم ظله...

انفرج كرب سليمة جزئياً على الأقل من جهة ما بها من حرج الشايب، وإهانته لها وابن أخيه... إلا أنها في العمق تظل تعاني من حرجها الخاص، حرج البنت التي بدا سلوكها غريباً منذراً إذا كانت هذه بدايته ونتائجه منذ الآن... وجرح الأعمق الأشد على مصير عزيز، الذي اتضح لها الآن أنه طريق الخطر... طريقه شلة ورفقة الشخش... وأية رفقة وطريق؟! الشخش طريق العنف والجريمة والسجن!

9

في خطوات كالعدو، يأخذ العسلي طريقه نحو الدكان، تضارب المواعيد يأخذ بالخناق... وفي مثل هذه المهنة أكثر من غيرها يجب إرضاء الجميع... الجميع زبناء في هذه المهنة... سمسرة وما شابهها... الطالب والمطلوب حتى من يأتيك بخبر من عهد نوح... والذي ينبت العشب تحته من كثرة جلوسه وعدم حركته... كله تجارة وزبونية... البائع والمشتري كلهم زبناء... وليس للعسلي إلاّ التوفيق بين الرغبات والتوسط... مواعيد... لقاءات... طلبات واستجابات... هنا لا يستطيع الناجح في المهنة إلا أن يرفع لائحة زبائنه بغض النظر عن جدواهم في الوقت الراهن... لائحة تتجدد باستمرار... تتغذى باستمرار، هذا بالنسبة لمن يراها مهنة سهلة... ربما... ولكن العناء كل العناء في إرضاء الطالب والعارض... الصعوبة أن يكون لك المجدي الفعال ضمن هذا الخليط الذي ترضيه... كيف تتعامل مع من يقضي يومه نائماً ثم يأتيك مطالباً بحقه...

في خطو كالعدو يأخذ العسلي طريقه... ضاع منه زبون، وضيع معه وقته... كانت امرأة... فتاة بكامل ما تتطلبه اللائحة من تجديد... لكنها عنده،

ورغم ذكائها الذي يمكن الإقرار به سراً، فهي في مظهر من الغباء كبير، أو ليقل العسلي إنها لا تعرف مصلحتها، وهذه ثاني مرة تضيع وقت العسلي بدون نتيجة، وتوشك أن تضيع عليه موعد زبون آخر من المواظبين النشيطين في خدمات العسلي والمغرمين بها، زبون ملحاح حقّاً... مفيد وملحاح... هذه معادلة محببة، والزبون حبيب، ومن حقه أن يجد العسلي في استقباله... وأن يكون جاهزاً له في الموعد المحدد... .مهنة صعبة وزبون خائب يضيع عليك زبوناً مفيداً...

يخطو كأنه يعدو... حتى تقف في وجهه عقبة سوق الجمعة... تنحني قامته المديدة ويتقلص إيقاع خطوه دون أن تفتر همتُه وخواطره... الحمد لله، أكثر من ثلث ساعة قبل الموعد والدكان على مرأى منه... يرتاح لما توافر له من وقت، فيخفف من خطوه ملتقطاً أنفاسه... الآن، يتقوى إحساسه بحرارة جسمه بسبب ما أنفق من جهد... وتبدأ وخزات خفيفة في فعلها تحت قنة الطربوش، لكنه يصبر عليها إلى حين... إلى حين قريب... أقرب... أقرب...

وصل، وأدار المفتاح في قفله وهو يستجيب إلى مؤذن العصر مُهَمْهِماً، على قولة الله أكبر...

وما يكاد يثبت مصراعي الباب في انعطاف كل منهما على الجدار الخارجي لتظهر على أحدهما بالخط المحدد: سمسار... حتى يسلم عليه صاحبه ويدخل خلفه مباشرة... أهلاً... أهلاً... وينظر إلى ساعته... مرحباً... زارتنا البركة... بركة كبيرة...

ينظر العسلي من جديد إلى ساعته وهو يشير إلى زبونه بالجلوس... يعرض عليه أن يأتيه بمشروب من المقهى... الجيارة على بعد خطوة واحدة، لا يبدي الزبون رغبة في ذلك. يلح عليه العسلي... المقهى على مسافة خطوة...

ودعوته يجب أن تحمل محمل الجد ولا تؤخذ على أنها مجرد مجاملة أو بالأحرى مناورة... ولا يتوقف العسلي عن عرضه وإلحاحه، إلا عندما يتأكد من أن الرجل اقتنع به وصدق...

يجذب العسلي مقعده ليكون أقرب إلى زبونه وبمواجهته... يضرب بصفحة كفه على ركبة صاحبه مداعباً وهو يسأله عن حاله، عن الأحوال كلها... عن خبره والأخبار كلها... ما وقع ويقع... كل شيء... كل شيء... وأشار بيده إشارة تجمع كل الأشياء مبتسماً كل الابتسام، يرد الرجل بابتسامة واقتضاب:

ـ لا بأس... لا بأس...

لو كان المجال مجال تعاقد أو تعامل تجاري بالمحسوس، لكان الجواب من نوع آخر... القصد هنا مجاملة ومسايرة... أُنس واستئناس، لا بأس... لا بأس... الأمور تسير...

يقترب العسلي من صاحبه... هيه؟ يفهم الزبون سر الحركة وقصد السؤال العائم، هيه؟ الجديد منْ عندك، يمط العسلي شفتيه، الجديد؟ صحيح، الجديد يا عزيزي... الجديد عند العسلي يرى ويسمع ويتحرك... وجديد حقّاً... جدّاً... يصلح جدّاً جدّاً... إنما لا بد من كياسة... كياسة عاقلة، عنصر مثل الجديد الذي يقدمه العسلي، يمكن أن يطير أو يتضخم إذا اشتم ريح نزوة أو طمع عابر أو استعمال رخيص... المهم كياسة عاقلة هيه؟ أليس هذا جديداً؟

ينظر العسلي في عيني صاحبه مستطلعاً ومؤكداً في حركة واثقة أنه يعرف ما يفعل، والباقي ليس من شأنه، يؤكد أنه هو بالذات يتجنب في الشغل كل نزوة أو أمارة طمع رخيص... خاصة مع الجنس الآخر... وينهي متسائلاً: هيه... وأنت...؟ آتِ ما عندك!

يقترب الرجل من العسلي، رغم أن المسافة بينهما تكاد تنعدم، وينطلق كأنه يهمس له:

الوقت يمضي... يمضي وبعض القلق يعم، لكن الرجلين بعد التهامس يعودان إلى هيئة المزاح...

ـ هيه؟ قلت التلفون؟

يؤمن العسلي برأسه:

ـ عينة ممتازة... إنما...

يتساءل الرجل عما يقصد العسلي، فيرد:

ـ خوفي عليك يعجبك المسكن... بحال بعض أصحابنا!

ينفي الزبون ذلك... أبداً... أبداً... لا... في القصد ولا في الإمكان، أعوذ بالله، الرجل ساكن وغارق في السكن!

يستفز العسلي صاحبه بنظرة تبدو غير مصدقة، متسائلا إن كان فعلاً لا يجتذبه حس كراء ولا شراء...

ـ خلاص علينا...!

يقولها الرجل في ضجر مصطنع، لا اكتراء ولا امتلاك... يؤكد أنه يماثله في حس الشغل، والامتلاك كالاكتراء في هذه الأمور كله غرق... ألا تكفي غرفة واحدة بأوتاد ونبات وثبات؟

لا، لا، أبداً... لكن التلفون... معقول... ضروري ولابد إذا كان من عينة ممتازة... والصيانة طبعاً... لابد... ضروري... الصيانة والعناية... لابد...

يغرق الرجلان في الضحك، يدفع العسلي طربوشه إلى حافة أذنه، وهو يحرك رأسه بخفة مصطنعة في هيئة مغن متحف:

يا جميل... يا جميل... يا جميل
على راحتك بان لي دليل...!

يتجاوب الرجل مع حركات العسلي، ويلتقي كفاهما في انبساط وتناغم.

هيه؟ يعود الرجل إلى موضوعهما، ألهبه تشويق العسلي، وزاد من لهفته اقترابه من حافة اليأس من حضور المنتظَر... الوقت يمضي، ألا تكون مزحة خبيثة من العسلي؟ ينظر إليه العسلي في عتاب... ينبهه إلى أنه هو بالذات حضر قبل الوقت بربع ساعة... لا بل أكثر من ذلك، ما يقرب من نصف ساعة... ما الذي يمنع الآخر من أن يأتي على عكس ذلك تماماً... بعد نصف ساعة...؟ كله خارج الموعد... ما قبله، وما بعده...

ينظر الرجل من جديد إلى ساعته، كأنّه يتأكد من قول صاحبه، يكرر العسلي بإيماءة وجوب التصبر... كل شيء بأوانه... الغائب حجته معه... والجديد أكثر وأكثر...

يرتخي فضول الرجل، يرتاح أو يتظاهر؛ إنما يسأل ليطمئن، وليعرف أنه لن يضيع وقته بالانتظار... في الواقع يخامره توجس من أن يكون حضور الآخر كعدمه، إن كان لا يصلح أو منعدم القابلية للتعلم، كما حصل من كثير وكثيرات... المجال مجال علاقات ومجالس وخبرة بالحديث والاستماع... لا بأس، شريطة الجودة دائماً في السكن والإسكان والسكون! ... والتلفون؟! لا تنس... التلفون، كيف تعرف ما يجري... تلفون بسلك... أو بفم وقدمين... السكن والإسكان والسكون... والتلفون... وزارة كاملة؟!

وضحكا معاً بملء قلبيهما... أي والله وزارة كاملة مكمولة، وأكثر... وزارة بقضها وقضيضها في هذا الدكان الضيق المضيق بلا طول ولا عرض...

أي والله... همة الرجال تصنع المعجزات... طبعاً طبعاً... والأهم جودة الخدمة والعلاقة والدقة... جودة كاملة مكمولة!

وضربا كفّاً بكف... خذْ وأعطِ... أعطني نعطيك... شف واسمع وتحركْ... السرعة والإتقان...

الوقت يمضي، الموعد فات بربع ساعة تقريباً أو بأكثر قليلا... دقائق لا أهمية لها، لكن ما يشترطه العسلي من التزام بالوقت وما شوق به الزبون أو بالأحرى توعده به من مغبة التأخير عن هذا الموعد، يجعل الرجل يتململ بقدر ما الوقت يمضي.

يطمئن العسلي صاحبه، يؤكد بهيئته أن الموعود سيحضر... خبرته تؤكد ذلك... ويقر بنفسه بأنه إلى حد ما لم يعد متأكداً من شيء، ويؤمن بأن الضبط سر النجاح في العلاقات... هو أيضاً يكره التأخر والتأخير... كل شيء يضيع في هذا الحال الحاضر والغائب معاً... المنتظر والمنتظر... كل طرف هو في الواقع منتظِر ومنتظَر، تأخير مرة واحدة يلغي التعامل بالمرة، هذا مبدأ العسلي، وهو مبدأ كل مجتهد في مهنته... فكيف إذا كانت المهنة بلا حدود، أو هي جملة مهن مجتمعة، وكأنها لا مهنة... يدوخ العقل، يدوخ بنو آدم... يكره التأخر والتأخير... يكره التراخي والتدلل وهو مع الجودة كل الجودة والإتقان كل الإتقان... يكره جدّاً جدّاً القاعدة الخشبية القائلة: تأخر عن موعدك يرتفع شأنك! لا وألف لا، قاعدة خشبية مخشّبة تلك... مقيتة ولغة غير مفيدة، ضائعة مضيعة على الإطلاق. الذهب، قاعدة الذهب تقول: الفياق بكري بالذهب مشري...

أفكار الرجلين تتجاوب، تلتقي وتتقاطع... وهما في انتظار واحد، رغم ما يتصبّر به كل منهما، فليست هذه المرة الأولى ولا الأخيرة لزبون يتأخر أو لا يأتي على الإطلاق، رجلا كان أو امرأة... وقد يأتي الطرف المنتظر ولا

يفيد، فتكون المشكلة في التخلص منه أو منها... إنّما اليوم... شيء آخر فيما يقدر العسلي ويؤكد... شعوره الذي لا يبين عنه أنها ستكون خسارة فعلا... خسارة له ولصاحبه إذا لم يحضر الطرف الآخر... وهو ما يبدو قريباً من أن يحصل... يقترب نصف الساعة أن يكتمل، وشيء كرعشة وافدة خفيفة تلمس أطراف أصابع العسلي في طولها وامتدادها؛ رغبة عارمة أيضاً تدعوه إلى أن يميل طربوشه يميناً وشمالا على حافتي أذنيه، عله يستجيب لحاجة حك أكثر حميمية لرأسه... رعشة وافدة خفيفة تدافع أطراف أصابع اليدين، كأنها لرغبة أخرى في موضوع آخر...

وقبل أن يعلن العسلي أغلظ لعناته، تغذيها رعشة ورغبة بديلة معكوسة... قبل أن ينظر إلى صاحبه متأسفاً على ما ضاع من وقتهما، وقد دخل موعد سابق في مجال موعد آخر لاحق، وعلى مسافة، ستولد تأخيراً... وقبل منتهى القنوط من عشرة أبناء آدم وبنات حواء، بعضهم على الأقل ممن لا يحترمون وعداً ولا وقتاً... إذا بشبح يخطف بصره... يمر أمامه يخطو بتؤدة... يمرق بتؤدة خاطفة، لكنها أكثر من منبهة ومثيرة... هكذا بكل بطء يخطر الشبح كفكرة مجنحة تحوم بالخاطر، منبهة بلطف إلى أنها هنا... هنا... يقول الشبح المتئد بخطوه الهادئ عابراً كالطيف فتحة الدكان...

قام العسلي كالقافز إلى الباب، كالمستفز بعد غفلة؛ فعلا كان في غفلة من أمره. هب، ومد عنقه يتابع المشهد، يتأكد، خطا... هيه؟

التفتت إليه، بخطو اختيال كانت تسير، تخطر يعبق حولها الفضاء بالعبير، جلابتها صارخة بانثناءات. واجهته بابتسامة صباح مشرق رحيب المدى... كاملة، مكتملة، مكمولة تبدو وكأنها ليست هي... التطريز المحيط بمرمري الجيد، يتسق في انصبابه من أعلى الصدر الناهض... في شهقة انحدار قوية طويلة منسدلة إلى فتحة الساق... وِشاية القدم الملتحفة بلون الحذاء مدوية

بكون متناغم كامل مكتمل...

لم ترد على لهجته المتسائلة... لهفته وعجبه، في انبهاره بما يرى... آه تلك التي اعتقد أنها مجرد جميلة في حدود... في الحدود المطلوبة فقط لا غير؛ واعتقد بخبرته أن سيحتاج إلى الكثير معها حتى يأخذ بيدها لتعرف كيف تتحرك وتقف وتنظر... وتغشى الجمع والزحام، وتحسن السمع ولطف الكلام... اعتبرها فقط، كما تراءت له شبه بلهاء... ليقل ساذجة يمكن أن تتطور... لكن ساذجة على الأقل... أي شلال إثارة غمست فيه كونها واستحمت؟ فريد... ساحر... وفوق العجب، لا يصدق، وسبحان الخالق الرزاق... هذه... هي بالذات جواز مرور إلى كل مجلس وناد... سبحان المانح العزيز الوهاب...

رغم ذلك، هو هنا يعود من سرحة انبهاره التي تجاوزت إساره بالمفاجأة... هو هنا يفيق إلى نفسه... يكره طبعاً القاعدة الخشبية المخشبة لكل شيء عداها ومعها... وله أن يظهر المؤاخذة والغضب، لكن بقدر ومقدار، والبداية كل بداية لها مصاعبها... يمكنه أن يوبخ... فهذا التبرج رغم تناسقه البهيج، لم يأت أوانه بعد، وقد لا يكون ضرورياً إطلاقاً... ما قل ودل أحسن... كل خطو بحساب وبمعلم... يمكنه أن يوبخ، لكن ما مضى من وقت، ودخول موعد في موعد آخر على مسافة، وإحساس رغبة بديلة برغبة أصيلة تداعبه... وقبل... وبعد... فهذا الكون الفريد يستحق – خارج القاعدة الذهبية – استثناء، يحق له ما لا يحق لغيره في البداية على الأقل.

وبدا العسلي أكثر ألفة ومرونة... بدا قريباً منها كالمنتشي نحوها... كالمؤاخذ المبتسم المبتهج... تلوّتْ في وضعها، ترفع بض المعصم المزين ملتهب الحوافي بزهوة الجلنار:

ـ ويلي... مالك؟!

تساءلت، كأنها تهمس بذلك لنفسها، ناظرة إليه بألحاظ تمعن في تهجي ملامح انبهاره، مستنكرة معبرة عن شعورها باستفزاز من حركاته... متظاهرة بلا مبالاة بحاله...

لم تثمر حركته معها شيئاً... واثقة غير عابئة تبدو في حالها وموقفها، مخالفة كل ما تبلور في ذهنه حولها، كأنّها، غسلت غسلاً، سلخت سلخاً، وخلق خلقاً آخر بمواجهته... كأنما لقنت ليلا ما تفعل كيداً فيه ومكراً به، عن كل ما بنى لها وحولها...

هو هنا فائق يقظ، لن يفسد موقفاً، ليؤجل حس المهنة وقواعده، فالزمن معلم وأكبر معلم... أو ليستثمر حسها الآخر، الآن يبتسم، بدل ملامح الاستنكار بعد الانبهار، يبتسم، خير، خير ما حصل... خير كل ما حصل... الحمد لله على السلامة، وألف سلامة، وألف مرحباً...

لم تبد اهتماماً بمجاملاته، ولا اعتبرت تنازله، لا يهم، يشعر بأن البداية ليست في صالحه، لا يهم ذلك الآن، المهم أن يتحرك الزمن الذي تجمد متفرجاً أو منبهراً بدوره.

تركها العسلي، بإيماءة يريد بها أن يحتفظ بانتباهها إليه... أسرع بخطوات متعملقة يدلف داخل الدكان... صاحبه ينتظر ويتطلع بلهفة وتوجس، متكئاً على أحد مصراعي الباب، مأخوذاً بالمشهد الذي كان يتابعه بنصف تطلع... بلهفة، وبكل شيء منبهر فيه:

ـ هي؟!

لم يجب العسلي عن سؤاله ولهفته، وإنما دفعه دفعاً من كتفه، باتجاهها:

ـ ثقيل... تحرك يا أخي، اجر...!

وتابع صاحبه يتقافز، ويداه على أُطراف هندامه يجذب ويهذب... حتى إذا اطمأن العسلي، عاد إلى مقعده كالمنهار من هول معركة... أزاح طربوشه، دفعة واحدة بكامل التؤدة، وطفق يمر بكفه على قنة رأسه ملتذاً متأوحاً.

10

هدوء غريب يلف الزنقة بكاملها... صمت وهدوء غير مألوف، لا لأن الزنقة صاخبة بطبعها، بل لأن مثل هذه النظرات الغامضة، والملامح الواجمة، ومسحة التطلع الممزوج بالتوجس والقلق، لم تكن لتظهر على قاطني زنقة الستاتية في هذا الوقت من النّهار... وبهذا الإجماع...

على أبواب المنازل، وقفت النّساء والأطفال وبعض الرجال... الكل مسمر في مكانه لا يتحرك ولا ينبس، صمت مطبق، ونظرات سرعان ما تزيغ عندما تتلاقى فيما بينها لتعود إلى مركز رؤيتها، ترمق الستاتية وهي جامدة كالطود أمام ثغرة مسكنها الباب... كالطود مُسمّرة وكأنما بُعثت فيها قوة الجان أو نفخ فيها طارق من غيب... غاب انحناؤها والترهل وثقل الهيكل المتضافر مع عبْء السنين، لتنتصب المرأة مستوية لا تستند على عمود أو جدار، لا تتحرك أو تتمايل... ملامح وجهها لا تقل جموداً عن وقفتها...

في الداخل كان حبيبها علي الشخش، يعد العدة لمغادرة أُلفَتْها منه المرأة كما ألفها هو... كان يتناول فطوراً متأخراً أعدتْه له العجوز بعناية خاصة...

ألوان من الرغيف المسمّن، والمقلي والبغرير بالزبدة والعسل مع الشاي الجيد حفظَتْ حباته في الدفء، في العلبة الخشبية الرقيقة المحاطة بقطعة من قماش الخَيش، وبلفات من ورق ثخين أملس... ولفة أخيرة من قماش أبيض... شاي من النميلي الجيد المعتق لا تأخذ منه المرأة إلا في المناسبات الخاصة... شاي لا تذكر متى اقتنته من لدن المعروفي... المعروفي وما أدراك ما هو...! أشهر بائع لأنفس أنواع الشاي في درب السلطان بأسره وفي الدار البيضاء بكاملها...

اليوم ومنذ الصباح الباكر، أعدتْ الستاتية كل شيء، بهدوء وصمت... دخلتْ في طقوسها منذ البارحة أو على الأصح بعيد منتصف الليل، عندما عاد الحبيب علي الشخش عودة تُعْتبر مبكرة... مبكرة جدّاً... لم تكن المرأة نائمة، فهي لا تنام قبله عندما يكون طليقاً... لا تنام حتى تراه مهما تأخر وطالت غيبته... وعندما يكون في السجن تسهر مع ذكره وذكراه... ولا تنام أبداً قبل أن ينام في سجنه كما تقدر... تظل تناجيه وتحكي له وتسمع منه... تبادله ما عندها وتتلقى ما عنده... ترشده، بل تنبهه إلى ما يحيط به من أخطار، تراها رأي العين، ويسمعها منْها فينحرف عما كان معرضاً له، يحيد عن الخطر أو يتخذ عدة الدفاع والهجوم..! وكثيراً ما تسمع أحاديثها في آخر الليل أو النهار معه، في غيابه، أو مع غيره ممن لا يُرى له ظلّ ولا يعرفُ له مقام... يرتفع صوتُها أحياناً في وحدتها بخطاب الغيرة أو الانتهار أو التنبيه، يلتقطه المارة بوضوح بمجرد إرخاء السمع دون تصنت مقصود باستراق أو إرهاف شديد... مجرد التمهل في الخطو قرب ثغرة الباب كاف لمتابعة حديث المرأة في وحدتها... حينما تتشدد في القول بالتّوجيه أو العتاب على حبيبها... أليس فلذة كبِدها الوحيد الأوحد؟ وأحياناً أخرى يصعب تبين ما يدور بينها وبين الغائب عندما يرق صوتها ويصفو طبعها له، وتدخل في مناجاة مؤنسة... جد حميمية لا يتبينُ حتى المتسمِّع منها مقاطع المبتدأ والمنتهى... يقولون... يقولون إنها

مسكونة... امرأة مسكونة... تعاشر الجن، وتناجي أفعى البئر الأسطورية التي ما تلبث أن تتسلل إلى فراشها، تشاركها الدفء والنفَس!

عندما طرق الشخش الباب أدركت معنى ذلك بحسها المرهف إلى عالمه المشدود إلى وقائعه... لم يكن من عادته أن يطرق... ولا في هذا الوقت المبكر من بداية الليل... فهو يعرف كيف يفتح باب المتجر... ويعرف كيف يتسلل مغمض العينين بين المحتويات والممرات، ملتوياً مع الخزانات والموائد والأسرة... ومختلف المرايا ترتسم على صفحاتها اللامعة في الظلام صوره اللامرئية ما بين محدبة ومقعرة، بعيدة ومقربة... ومن عادته أن يتسلل، ويكتفي بأن يتسلل إلى فراشه بموازاة العجوز، بعد أن يطفئ النور الذي يظل موقداً بانتظاره... وما يكاد يضيق عينيه، حتى تتحرك الستاتية على جنبها بهدوء، وتضع يدها على كتفيه أو صدره، تتحسسهُ بغاية الرفق... بكامل الحنو... ثم تغيب في غفوة عميقة هانئة سعيدة...

طُرق الباب الذي قلما يطرق، كأنه يريد أن يختصر الطريق إلى فراشه بجانب القلب الحنُون... أو كأنه يريد أن يجعلها تستَيقظ له كما لم تكن تستيقظ... من يدري؟ لعله يعتقد أنها تنام بدونه أو بعيداً عنه... وبعد طرقتين متتابعتين خلخل المصراع المتراخي... هزه أفقياً وعمودياً لتتداعى مقاومته وينفتح... ثم سمعته يوصده...

ظلت في إغماضها اليقظ تتابع حركاته... حركات قليلة أقل من المعتاد، لا تتعدى خلع النَّعْل بحك إحدى القدمين بالأخرى... وامتداد الذراع نحو الزر لإطفاء النُّور... ثم التمدد... لا... لم يشرب... لم يتناول ماء كعادته... ولم تتحسس العجوز دفق السائل في حنجرته الجافة المرتوية... ولا شعرت بخفته وهو يتجاوز كيانها الملفوف ولا أحست بنظرته تتلمس صفحة وجهها وما ظهر من شعرها الأشيب بحنان بالغ، وخَدر ممتع، نظرة أليفة تحس بها كقبلات

بوقع الفراشات الرفيعة على الزهور الناعمة النائمة... لا ولم يرفع صفحة الغطاء ليفرج على داخل اللحاف المبطّن بإزار من قماش حياتي الناعم، ليفوح منه عبير العطر والبُخُور كما تُعده له... لا، لم يأت بِشيء من معتاد حركاته... وإنما أسلم نفسه في شبه ارتماء على سطح الفراش دون مبالاة... لم ينظر إليها... أو أن نظراته كانت ثقيلة عجلى... حتّى تجاوزه لها نحو فراشه المجاور كان أثقل أعجل، وتنفسُه وهو الآن لم ينم بعد، كان يخالطه شخير خفي، وهو الذي ينخرط في النوم بمجرد ما يلمس الوسادة، نومة طفل بريء غرير، متعب ممتلئ بشقاوة الصبا...

غابت عنها المناجاة الهامسة، الصامتة المألوفة، ولم تندمج أنفاسها بأنفاسه، وهو بموازاة فراشها يسعد بنومة هانئة... لم تمد إليه يداً... كل ما فيه كان ثقيلا محسوساً، ينقصه الشذى والعبير، ولم يكن قد نام بعد... تحس بأنفاسه بعيداً عن أنفاس النائم أو المهيإ للنوم...

11

ينتفض، كيف لا ينتفض؟ بكل ما فيه وبه ينتفض؛ إذا لم يتفتّتْ أو ينفجر...! رغم عدم رضاه عن خطواته، رغم متبقي الكبرياء، رغم تخوفه من إثارة الحرج، فلم يكن غير الحاج يستكين إليه، يهدئ من هذه النار... رغم التخوف من شماتة ما، فالأمر يحتاج إلى تدبير... إلى مستمع مخلص على الأقل... ليس غير الحاج في هذه الحال...

كانت خواطره تقود الخطوات... مشاعر تلهب السير، تُجهد الكيان... مطارق في الرأس... سياط تلفح كل جارحة... إلى هذا الحد؟ مهانة وهوان وجرح في عمق الاعتزاز... الضيم غيوم تغشى الرؤية والضمير... حدود الكلام واليأس... والبأس. والجروة التي لم تعرف بعد كيف تقعي... لم تكد... حتى...! وحيدته... وحيدة صلبه الشحيح الإنجاب... الأولى والأخيرة... تنكر؟! تنكرين يا كريمة؟ تنكر رؤية العين... تنكر؟

كان عيادي ينتفض حقاً وهو يدير الصور والأفكار عبر خطواته، الحاج وحده يستطيع أن يفتيه في هذه الحال... لا يهم أن يكون شيء من العتب قد

تراكم بينهما في الفترات الأخيرة بسبب أو بدونه، لا يهم، ما بينهما أعمق وأقدم وأدوم، حقّاً... هو هو عيادي، يعرف في نفسه هذا الشعور، لا يُظهر لأحد ألماً أو امتعاضاً ولا ضيقاً من شيء مهما عانى... ضحكته دائماً وهزله يغطي عن بؤسه ويأسه وحزنه... هل اشتكى مرة في أيام الصفاء التام، سنواته وعقوده العديدة السالفة إلى الحاج أو سي رقيبة... ولو مرة واحدة... هو الذي سمع من شكواهما الكثير من أشياء كثيرة... كان بابتسامته وهزئه الدائم؛ في حصن من أي شعور بالحاجة لتفريغ ما به... هل اشتكى ولو مرة لأحد مما يعاني من نقص الخلف... ومن رغبة جامحة عنيفة تجرفه وتعصف به باستمرار في أن ينجب وينجب وينجب... ويكون له ذكر يحمل اسمه، وبنات وذكور كثر من صلبه غير هذه الجروة الوحيدة كريمة... وتنكرين؟ تنكر رؤية العين يا سيدي!

لم يستسلم عيادي لإلحاح الحاج عليه بالدخول، ولم يمهله، بل جرّه جرّاً إلى الخارج... تعال معي... تعال يا أخي... تعال تسمع، الحاج مبهوت ينتظر أن يعرف ولا ينبس أو يسأل، فالحال لا تسمح بكلمة مهما كانت منه، ترى ماذا؟ ماذا؟ بأم عينيه هاتين رأى المشهد. صعق... ثم تمالك وظل يتأمل، وأنكرت كل شيء ببساطة انكرت! أتنكرين يا بنت... وسماها كريمة سعيداً بمحياها يطل على دنياه الجافة... سماها كريمة وسكنت قلبه... وتنكر؟

رأى عيادي جروته – كريمة – في حديث ووقوف وأخذ ورد... مع من؟ مع العسلي يا سيدي؟ هل تبلعه الأرض أم ترفعه إليها السماء برياح سبع قذرة ترمي به أشتاتاً بتاتاً في كل اتجاه؟ تصورْ... مع العسلي؟! هل يندفن حيّاً ومن أين له ذلك؟ تصورْ! وتنكر الجروة إنكاراً صلداً! هل يتجه إلى العسلي يعانقه حبّاً غيظاً وغضباً يخنقه يطعنه؟ تَصورْ... تصورْ عيادي يشكو العسلي الكلب الأجرب إلى العسلي الخنزير النتن الخبيث... تصور العسلي الأقرع يحرك طربوشه الوسخ يحط قرعته المدملة ويقول لعيادي ببرودة وتشف: هل طرقت

بابك؟.. هل خطبتها منْك بالشهود والعز والحلال؟ هل حومتُ حول مقامك ومنزلك... أم أن جروتك الصالحة دام لها الصلاح والفلاح هي التي ما تنفك تحوم حول الدكان، مرة تعرب عن حاجتها إلى شغل مفيد... موعودة هي بعمل في مكتب، سكرتارية... وعد من العسلي الذي يقدر وعده ويلتزم بكلمته... يتوسط لها في ذلك... شريطة بعض الوقت... لكنها تظل تحوم وتحوم لتقول إنها ترغب في الزواج، تبحث عن زوج... موعودة بذلك أيضاً من العسلي... شريطة بعض الوقت طبعاً، وعلى أن تكف عن اعتقادها الصبياني، من أنها تستحق التفاتة خاصة من أجل ما تملكه من دون الفتيات والإناث... وما تنفك تحوم وتحوم تختلق الأسباب والأعذار... عد إلى جروتك واسألها عن سحر ما يجذبها حول دكان العسلي؟ ألست الوالد؟ ثم أين رأيتها إن كنت رأيتها حقاً أو... أين رآها مبلغك الأمين، هنا أم ... هناك؟

كان عيادي يسأل ويجيب، يتصور ويدافع، يخاصم ويتوعد، يتوعد العسلي وجروته كريمة، أية مهانة يتلقى عيادي؟! تصورْ أية مهانة وإذلال يتلقى على حين غفلة منه! تصورْ العسلي يرفع صوته معتزّاً مفتخراً بأنه يشتغل بشرف علناً وبطريقة لا غبار عليها... تصور أنه يدعي ما يشاء، يقول مثلا إنه يتوسط لبنات الدرب وبنيه في أشغال ووظائف، حسب رغباتهن... فليس هو بمسؤول عن رغبات كريمة ومثيلاتها الكريمات... هو في الخدمة... يختار ما يشاء لمن يشاء من قاصديه... إذا قصدت معرض بضاعة ما، أية بضاعة لدى أي تاجر... هل يستجيب لرغبتك أو يصرفك عنه بانتهار؟... ألا يعمل على أن يخلق فيك رغبات أخرى، ويفتح فيك شهية الاستهلاك والابتضاع من سلعته؟! ما يفعله العسلي أقل من ذلك بكثير وأجدى! ينصح ويرشد، أي والله... ينصح ويرشد! تصورْ... ولم لا يقول إنّه أحسن إلى الكثير من شباب الدرب ومن الجنسين ليجعلهم مفيدين... تصورْ... ابن...

كان عيادي في أوج انفعالاته، وكأنه أمام العسلي يشاتمه وجهاً لوجه، وهل للعسلي وجه؟! الزين يحشم على زينه... والخايب...؟!

يستمع الحاج إلى ثورة صاحبه مشاركاً بإيماءات، لكن فورة عيادي تدعوه إلى ابتسام يخفف به من وطأة ما يسمع ويرى في صاحبه.

تصورْ... ولم لا تكون الجروة قد زارت لما هو أكثر، وقد يدعي العسلي ذلك لمجرد النكاية في عيادي أو لإذكاء نار غيظه وغضبه، وبالذات يفعلها العسلي لتأكيد خبثه... أي خبث أكثر من أن يقتات من أعراض الناس ويتنفس أسرارهم... أي نذالة أكثر... حيثما مررت بقربه إلا وهو يحادث امرأة أو رجلا... يافعاً أو فتاة... دائماً ينتظر... دائماً يتلهف... ابن الـ... كيف يحتمل عيادي أن يواجهه فعلا بشكوى... بكلمة أو إشارة؟ كل ما يستطيع فعلا، أن يتوجه إليه بلكمة أو لكمات ولا يكفي ذلك... أبداً لا يكفي شيء مقابل مثل هذه النذالة...

كان ينتحب ظاهراً وباطناً، الحاج لا يعرف من أين يبدأ. لذلك كان يهدىء صاحبه ريثما تتبين كل خيوط الموضوع، عيادي يخبط يداً بيد، ويصفع صفحة وجهه... أخيراً... أخيراً وصلتك يا ابن العيادية! أخيراً يأتيك نصيبك الأوفر من بنت صلبك... وحيدتك ومن الأجرب الأقرع الأصقع...

يهدىء الحاج من روع صاحبه، يحاول التخفيف ولا يملك غيره، قال عيادي إنه إن لم يكن قد قتلها هي، رغم الحالة التي تركها عليها، فسيقتل حتماً ذلك المسخ الأقرع!

ربما تكون فكرة القتل والاعتداء قد طافت بخاطر عيادي خفيفة نائية باهتة، لكنها لم تكن واضحة أبداً... ولم تكن سلسة في لسانه بمثل ما هي الآن...

ردعه الحاج بملامح غلظة، أية فكرة هذه؟.. يجب ألا يتكرر ذلك على اللسان ولا يرد بالبال... أبداً.. أبداً ما لنا والقتل؟ العياذ بالله.

ينظر عيادي في صاحبه متجمداً حائراً... والعمل؟ ما العمل لمن يحترق بنار الإذاية والخبث؟ نقبل العسلي ونعانق؟ خُبثه عم الدرب بكامله... وكان عيادي يتحسر على ما لحق غيره وهم أيقاظ أو في غفلة عن أنفسهم وبنيهم... الآن يكتوي مثلهم وأكثر... ذنبه أنه ليس غافلا ولا يملك ذلك... ليس راضياً ولا يستطيع... العيب كل العيب والذنب على غفلة البعض ورضى الآخر أو تفرجه... الذنب ذنب عيادي أيضاً وأمثاله، لماذا لم يثر أو يفُر قبل الآن، غيرة على ابن فلان أو بنت فلانة... أو لمجرد خبث العسلي الذي يعم الكل ويزيد... يزيد لأن العسلي بلا حشمة ولا حياء، يمط قامته في الفضاء ويحك قرعته المستفزة بانتشاء... المسخ، مسخ الرجال ومسخ حتى القرود... مسخ الدنيا بأكملها... العيب الكبير والعار وكل المؤاخذة على من يعتبرون أنفسهم رجالا وأشرف رجال، وهم لا يقلون عن العسلي في شيء... ماذا يجعل واحداً كالقشاش الأرقط الفياش يرضى كل الرضى بجوار العسلي، ويكريه وكراً؟ ألا يحس ويفهم ويدرك ما حوله؟ الدنيا كلها مسخ في مسخ... المهم في كل ما يجري، حاله هو الآن، عيادي أنت يا عيادي، وحدك المصاب... أصبت في الصميم، ونار الضيم والغبن والغيظ تأكلك من الداخل... أنت وحدك الآن في عذابك، وحدك، ولا يهم الغير... ما العمل؟

أفاق الحاج على سؤال صاحبه من بعض شرود... أفاق على السؤال الملحاح الذي كان علة شروده، نظر ملياً إلى صاحبه، ثم وضع يده على كتفه ينبهه. العمل الآن أن يهدأ عيادي، قد يكون ما حصل أقل هولا مما يصور عيادي، لمجرد أن الأمر يعنيه هو بالذات، ومع ذلك يجب عمل شيء... أي شيء ممكن.

وبدا عيادي في محنته يتوقع ما يهتدي به، كل أمله في الحاج، ومن غيره بعد غياب رقيبة الذي كان يعول عليه... ثالثهم كان، أو أول ثلاثتهم كان... الآن، لا أحد غير الحاج يرشد ويشارك...

وكان الحاج في شرود خفيف، يبدو في هيئة من يتابع خيوط فكره، شروده ينبئ عن ذلك، ما العمل؟ حال عيادي ولسانه يلح، ويستوضح صاحبه، فلا يزيد الحاج على أن يركز النظر في صاحبه، مؤكداً أن ثم أشياء كثيرة يمكن القيام بها... كل شيء ممكن، وكل شيء بأوانه...

نصيحة لابد منها، لا يمكن للحاج إلا أن يقدم النصيحة وبلهجة رادعة يضمن بنا حدود الموقف... لا يمكنه إلا أن يهون بعض الشيء مما حصل، فالعسلي لا يلخص مساوئ الدنيا كلها... هو فاسد مفسد بنظر البعض، لكن البعض أفاد منه. خذ مثلا عقود الشغل نحو أوربا أو الخليج... أفاد منها شباب كثير أو قليل، لكنها تبقى إفادة...

طبعاً... كل شيء يناقش... لا علينا من ذلك... ما يهم، ما يجري، يجب رفع الضرر بأية طريقة؛ المهم التزام الروية والهدوء، والبحث عن موقف أو طريق صحيح، لابد من عمل شيء، وكريمة هي ابنة الحاج أيضاً، ابنة أخيه وصديقه عيادي... هذا كله ثابت ومؤكد... لا مانع من أن تنجذب فتاة أو فتى وراء كذبة أو مظهر خادع من العسلي أو غيره... الرجل له أذناب تنشر وتذيع ما يقدر عليه ويستطيع تقديمه من خدمات... بالحق أو بالباطل، كثير من أتباع الرجل... أذنابه وزبائنه يذيعون في الناس قدرته الخارقة على ولوج كل الأبواب، وفتح كل الأقفال... والشباب... الشباب ذكوراً وإناثاً ينجذبون.

السن، والمرحلة لها منطقها ودوافعها، وأبناؤها، بناتنا وأبناؤنا ليسوا صورة منا... لكل عصر رجاله، وزمانه ومكانه، يجب عمل شيء... لاشك في

ذلك، لكن ليس في خضم فورة لا تبقي ولا تذر مثل ما هو حال عيادي...

كان عيادي يتابع أفكار صديقه، في بعض هدوء ظاهري، هدوء يساير به موقف صاحبه، لكن باطنه يغلي ما يزال... هكذا، ما كاد الحاج يتوقف أو يجد عيادي فرصة لمقاطعته على الأصح، حتى أكد عيادي ما عبر عنه سابقاً، يشعر بأنه قادر على كل شيء حتى القتل... قتلها أو قتله... الحاج يقاطع وينتهر، لكن عيادي يمضي قائلا إنه لا يدري كيف يلتقي نظره بنظر ابنته... كيف ينظر إليها... لا... بل كيف لا يرتمي عليها بالأذى... وأين يقف به ذلك؟!

مهما يكن ارتعاب الحاج من ترداد فكرة القتل على لسان صاحبه، فهو غير منزعج كل الانزعاج... غضب وفورة لابد لها من نهاية، ويشد الحاج على كتف صاحبه. ليسمعْ عيادي جيداً، إذا كان قد جاء يشكو حاله لأخيه، فالحاج يتحمل معه كل العبء، الأمر الآن يعني الحاج كما يعني عيادي، منذ الآن يبدأ بحثهما معاً بروية وتعقل عما يمكن القيام به... أما البنت كريمة... فهي غريزة... ولم يصدر عنها ما يستحق كل الغضب والشدة... روية وهدوء وتعقل... هذا هو الموقف... عيادي يفهم... عليه أن يفهم ويسترشد... والبنت الغريزة كريمة هي ابنة الحاج كما هي ابنة عيادي... منذ اليوم أمرها للحاج يتولاها... كل شيء بالروية...

12

المرجانة، ودلفا إلى المكان الذي بدا كأنه نبت لتوه من تحت عمارة سامقة، المكان تعرفه حورية معرفة ما، كان معرضاً لبيع السيارات، أما أن ينتقل هكذا إلى مقصف ترفيهي ومطعم من أعلى طراز، وعلى هذا العجب العجاب المثير لكل دهشة، فأمر غريب... تحفة أنيقة جميلة مدهشة! ولكن، كيف نبت كل هذا ومتى؟ وكيف... كيف يعرف صاحبها المكان بدونها؟ كان تساؤلها الضمني صارخاً في عينيها وهي تحملق في وجهه متعجبة، وبدا أحمد رقيبة هادئاً مبتسماً، وبدت قامته كأنها تستطيل وهو يوجهها لتتجاوز العتبة إلى الداخل... قال لها إن المكان جديد حقّاً في شكله الحالي... قد لا يكون قد مرّ عليه غير أيام... لا، لا، بل قد يكون في يومه الأول حسب ما يبدو، وهو معها الآن... هما معاً يكتشفانه لأول مرة... تساءلت إن كان هذا الكشف هو المفاجأة المهيأة لإحياء أعز ذكرى في حياتهما؟!

صرف عنها ملامحه، يوجه الانتباه إلى غير موضوع... لا يعرف كيف يكذب... تعرف ذلك فيه، لتتركه، ولتحي معه ما يريد من لحظات...

لونان يتراوح بينهما كل لون... خضرة نباتية كأزهى ما تكون النضارة في حمرة مرجانية متلألئة... شلالات لجين وضوء وأنغام، تتكامل ناعمة في كون فردوسي يشمل كل ثنية في المكان، تغمره، تنهمر من أعاليه، تتدلى، تنبجس من حوافيه وأركانه...

كتمتْ حورية أسئلتها العديدة المتولدة عن كل مشهد، كان رقيبة مثلها يبدو مندهشاً مكتشفاً، وقدرتْ أنه يتظاهر بذلك... مجرد تخابث صبياني منه... وملامحه تخونه في ذلك... كتمت أسئلتها المتلاحقة، وتركتها لدهشة بهيجة، وهي تتقدم نحو ركن في المكان يبدو ملائماً لهما أو معداً لذلك... أين رأت ذلك أين؟ لم يسعفها الفهم، لكن الذكرى طيف يحل ملحاً هارباً... أين رأت أو سمعت؟ أين؟ صوت المضيف المستقبل له نبرة ذكرى غريبة الوقع في السمع... وابتسامته... نبرة من عالم قريب بعيد بدأت تتبين في الطيف مداره دون أن يسعفها التحديد... صوتُه... صوت المضيف المستقبل وابتسامتُه من عالم عميق، ممتع في مرارته عذب رفيق... كأنه من عالم الزهور ذاك... أو المتوحد... صوت فيه الرقة والإلحاح ونبرة نجدة كانت خفية في أعماقها، مكتومة بالأحرى في دواخلها، تعمل على ألا يطفو منها شيء على ملامحها وهي إذ ذاك في بداية رحلة، وعلى مدخل سبيل... الزهور... الزهور... صوته من عالم الزهور وابتسامتُه... رنة صوته نبرة إلحاحه المنطوية في السؤال وابتسامته... ذكرى الزهور طيف يهجم الآن بخفة مريرة لذيذة، يعمرها، حولها، يغشى منها البصر والسمع:

ـ أنتِ جديدة هنا؟

بهتت حورية إذ ذاك وهي ترفع عينيها إلى النادل الأنيق، صوته نبرة حنان غريبة في السمع، ابتسم لها وهو يمسح زجاج الطاولة المستديرة بحركة آلية... كأس العصير أمامها لم تمسسه بعد، وبجانبه قطع الدراهم المتبقية يركب بعضها

بعضاً في تناسق...

ـ عرفتك جديدة... مرحبا بك!

ظلت تنظر إليه في تعجب أو لا مبالاة متعمدة، كانت مسلحة ضد الفضوليين والمتطاولين، متهيئة للهجوم ومحتاطة من الفخاخ... رنة صوته، تقرب البعد، تمسح المسافات، لكنها تأتي محصنة ضد المتطلعين، ابتسامة الرجل قريبة محببة، تعتريها رعشة تردد رقيقة وديعة... بحة صوته نبرة أنس ملح، قالت إذ ذاك إنها مارة من هنا، وتساءلت بقصد إحراجه، وبنية مبيتة للإساءة إليه وردعه؛ إن كان في هذا ممنوع أو حرام؟

ـ لا، لا، حاشا لله...

واتسعت إشراقته وهو يدعوها بلطف إلى أن تحتفظ بنقودها، وتعمد بأن يخفض صوته الذي كان منخفضاً أصلا ليطمئنها، لا عليها، مرحبا بها، مرحباً بك في الزهور...

نظرت في وجهه نظرة محت بها ما كان عليه من إشراق، تذكر جيداً إحساسها إذ ذاك وملامحها، كما لو كانت تواجه مرآة... أرادت أن تكون صارمة حاسمة، أنذرت بأنها ستغادر المكان إذا لم يأخذ ثمن المشروب... قالت ذلك وبدأت تتهيأ للنهوض... صوته بنبرة اعتذار عميقة وعلامات أسف... يعتذر، يمسح الطاولة مرة ومرة، متمتماً باعتذاراته، وينصرف لشغله مبتسماً، لتألفه ويألفها بعد ذلك، كلما حلت بالزهور...

الزهور... الزهور... فعلا كانت اسماً على مسمى... تمتلئ بالزهور، حافلة بها من كل لون ونوع، فضاء يعمره التناسق والجمال في كل شيء، أهرام مصغرة بمختلف الفواكه والثمار... أجملها وأغربها شكلا ولوناً، مشكلات حلويات في صوانيها متراكبة ومتقاطعة خلف الزجاج... ألبسة المناولين في

أخضر على أبيض مزركش... فتيات في أعمار الزهور وفتيان في رفقة هناء... موسيقى ناعمة تنبعث من ثنايا الجدران... تنساب في الأسماع بهدوء كأنها مرسلة لكل على حدة بمقياس. خارطة المدينة تتبين لحورية شيئاً فشيئاً... مواقع الأقدام إذ ذاك في المركز، وإلى الجنوب والشمال يخالطها التردد ما يزال...

المهم أنها جاوزت مرحلة التهيب الأولى... والجرأة المُفتعلة ستار الانبهار والتخاذل الباطني فعالة ناجعة...

الزهور مستراح العصرية... وصبحيات الريفولي... وأماسي الكورنيش... الفضاء وأرضية المطاعم والمقاهي تتفتق عن معارف وأحبة من الجنسين من كل فئات السن... لكن الحرص على الاقتصاد والاقتصار ضرورة البداية، ولتكن صديقة نفسها أولا... لو أمكن... على كل، لم يخالطها شعور المتخبط في الظلام، أو السائر في بيداء، أو المتلمس في وسط لزج أو وحل ملؤه الخشية عند كل خطوة، حتى ولو كان الموطئ سالماً...

حكايات كثيرة ووقائع سمعتْها قبل الحلول بالمدينة... عرفتها بخبرتها القصيرة المحدودة، وتستطيع أن تؤلف المزيد منها... أقل تسرع وتجد نفسها في ظروف مشبوهة، من يدري ماذا يثوي وراء كل بسمة أو يختفي تحت ظهر يد ممدودة في ظل مدينة بالغة الترهل، ثقيلة الجرم، مكتنزة الزَّحمة، متخمة بكل شيء: أفقر الفاقة وأغنى الغنى!

طافت حولها لمشهد الفتيان والفتيات... زهور منتقاة فعلا واسم على مسماه بحق... كل شيء زاهر أزهر... تضفي عليه من رونقها شمس عصرية فاترة تنعكس أشعتها على الواجهات الزجاجية، مكتسية مسحة تخديرية محتملة لأبصار الجالسين إليها، حول الطاولات في الخارج أو تحت السقيفة الملحقة، ممتعة للمتأمل الناظر إليها من زهوة الألوان من عمق الزهور...

لم يتحقق إلا القليل... هذا التآلف مع المكان في المركز وما بين الشمال والجنوب لمدينة فسيحة كسيحة، بالغة الجبروت... لم يتحقق إلا القليل: الخطو ما يزال داخل الذات... والمرحلة الطويلة العميقة خارج الكيان ما تزال بعيدة، تتطلب السكون والاستقرار.

كانت قد غيرت الفندق للمرة الثالثة... إلى درب بنجدية ومرس السلطان، وربما يتكرر ذلك... ربما يتكرر ذلك مادام القرار يعزّ سكناً واطمئناناً وراحة بال... المجالس مغرية... المدينة حافلة بما يغري من أماكن... لكن كلها أو أكثرها يعز فيه الشعور بالأمان...

الزهور مجلس أول، موقع جس للنبض، نبض هيكل ضخم لمدينة يجهل كل موقعه فيها، فأحرى هذه الوافدة العزلاء إلا من صلابة حصنها الواقي، صلابتها في قرارها... مجالس كثيرة مغرية، متفاوتة فيمن تجمع أو تدفع، درب السلطان وعنوان امرأة في يدها، لم يكن كافياً. اسم امرأة تستضيف لفظته أيام فاطمة وذكرى حليمة... أول خطوة كانت متجهة إلى هناك، مثل أول نية وأول اتصال كان مقدراً أن يكون... لكن حورية التي تقطن داخل الكيان... حورية التي تلد نفسها أكثر من مرة، تجاوزت بعد لأي وتردد، كل ما له علاقة أو به أثر من ماض قريب، أما ماضيها البعيد، فهي أدرى بمكامنه وأغواره...

الزهور... مرة... وثانية... وكان عليها تغيير وجهة القدم، موطئ القدم... والصدفة وحدها قادتها إلى السطيحة. لا، الاسم طرق سمعها من قبل... مرات... من بعيد وبرنة وتفخيم... طرق سمعها الاسم قبل الدار البيضاء، طرق بخفة وقع إذ ذاك ونبرة تفخيم أيام فاطمة والمجموعة... ومن ولد الحجاجي... لا عجب، فالسهرات وليالي المجموعة إذ ذاك، تأتي بكل شيء من كل الأنحاء، فالسهرات والأعراس هناك، تحفل بالجوالين عشاق اللهو

والمرح في كل مكان... وعندما تتداخل الحكايات، وترتفع حرارة الروح، يمكن معرفة الكثير.

قبل الزهور وبعد الزهور، لم يغب عن بالها أبداً ذكر السطيحة، كانت تعرف أنها ستمر بها، محطة لازمة من محطاتها إن لم تكن مرساة أمانها، فلإكمال دورة المدينة، حتى تعرف كيف تختار محطة رحالها إن كان لها ذلك... ومنذ حلت بالمدينة الحافلة الهائلة وزيارة السطيحة ملمح مؤجل، يحفز عليها التطلع ويوقف دونها التردد... كأنما كانت تقدر أن تفاجأ هناك دفعة واحدة بفاطمة والمجموعة وبولد الحجاجي... لو كانت فاطمة رفقتها لكانت السطيحة أول وآخر محطة لهما... فاطمة تلك وأجواء فاطمة والمجموعة... كانت تلفظ اسم السطيحة بتفخيم دال... ملمح مؤجل ظلت السطيحة. ووجهت حورية خطواتها الكورنيش وغرستها في المركز... وجهة نحو الكورنيش تجذب وتغري بالأضواء والألوان وبالمجهول... والصدفة وحدها قادتها إلى السطيحة، رأت أن تغير موطئ القدم، وجهة القدم قليلا... قصدت المتوحد... أولا؛ المقهى المجاور للسطيحة. المقهى والملهى كانا شيئاً واحداً، أم أنهما متلاصقان يتكاملان؟ ليل بنهار ونهار بليل، يغيب أحدهما ليظهر الآخر... متتابعان متعاقبان... والحبل السري بينهما يرفد كلا منهما بما يعجز عنه الآخر...

يلتوي في ركن المتوحد مقصف على هيئة نصف إجاصة، يتحرك داخلها مناولون يتزايد عددهم بكثرة الطلب وساعات الذروة، وهم في حركة دائمة لتلبية طلبات المصطفين على حافة نصف الإجاصة، وقوفاً أو قعوداً كالوقوف على كراسي مستديرة دوارة طويلة السيقان... المناولون ينتقون المطلوبات من حولهم أو يستلمونها من فتحات في الحائط خلفهم، حيث يغيب المزودون من طهاة وعمال المخازن...

الساعة ارتخاء فترة ما بين ذروتي منتصف النهار ومسائه، وجل الطاولات خالية من زبنائها.

انتحت حورية مكانها إلى إحدى الطاولات في عمق الصالة، بموازاة نصف الإجاصة، يجلس بضعة أشخاص إلى طاولتين أو ثلاث... عمق الصالة يمتد وينحرف، حتى يختفي ملتقياً بممر يؤدي إلى السطيحة من غير ممره الخارجي المجاور، تفاصيل المكان طرقت سمع حورية من قبل كأنما دخلته مراراً... والآن ها هي ذي في جوفه والصدفة وحدها، وجرُّ القدم إلى وجهة غير مألوفة هو ما أتى بها في ساعة تراخ من نهار المكان... فترة متشابة تبدأ من منتصف الصباح إلى منتصف النهار، وتتجدد من منتصف ما بعد ذلك، إلى فترة العشاء المبكر... حيث يغلق المتوحد أبوابه بعد ذلك، وينقلب زبائنه المتبقين إلى رافدين لزبائن السطيحة... العملة أنفسهم والمناولون... الكل بترتيب ونظام خاص يتحولون من جو المتوحد إلى طقس السطيحة عبر عمق القاعة، والتواء الحبل السري الواصل الرابط، لا يغيرون إلا الصدرية السوداء مرتدين سترة طويلة، أو يتحركون بدونها... فبداية ليل السطيحة وسهراتها، تعني الكثير من العفوية والانطلاق، مع خفة التحرك في شيء من الزحمة والهرج... عمق القاعة في المتوحد نفسه، ينقلب إلى فضاء مكمل لامتداد السطيحة، ويتداخل عالمان، توأمان في رحم واحد.

تظل حورية ترمق حركة الإجاصة... بين الفينة والأخرى يغادر أحدهم مكانه قاطعاً عمق القاعة غائباً باتجاه ركن الحمامات، المختفي بساحته الرحيبة...

مرة بعد أخرى، يظهر مناول يأخذ الطلبات من نصف الإجاصة، ليعبر بها الحبل السري، مما يشي بوجود مجموعة تفضل عزلتها في ركن خفي قصي...

كانت حورية تداعب رغوة الكابوتشينو بملعقة فضية تسترسل معها أفكارها عن المكان، وعيها مسلط على الحركة المتقطعة حولها، وذكراها مع ما كانت تسمع عنه، وهي بعيدة مشفقة... أكان يخطر ببالها هذا الطريق؟ وكأن ذكر المكان، وهو يأتي عارضاً على ألسنة البعض، كان يختمر وهي عنه لاهية... وقد يكون موجِّه خطوها إلى المدينة... وموجه الصدفة نفسها... ظلت ساهمة تحرك طفاوة الرغوة التي بدأت تتلاشى، وحلقاتها دوارة حول الملعقة الهامدة في مركزها، وقد انسرح بال صاحبتها مع الحركة المتقطعة الدائبة عبر عمق القاعة... ركزت بصرها لفترة طويلة على عاملة يافعة، كانت الأنثى الوحيدة بعدها في هذه الساعة، تلمع جبهتها السمراء الناضجة بعرق خفيف، تتحرك في سترتها البيضاء المسترسلة إلى الركبتين... تنظف المكان، أو بالأصح تتفقد نظافته وترتيبه، متفحصة بعينيها الحاذقتين مكان الخلل...

بين الحين والآخر، كانت الفتاة تزيل ما يتراءى لها على زجاج إفريز باب أو نافذة... وبين فينة وأخرى يشير عليها نادل أو مناول من داخل الإجاصة، لتستلم منه طلبات تغيب بها، تعبر صدر القاعة، وما تلبث أن تظهر من جديد بصواني فارغة، أو أواني تَلِجُ بها ما خلف الإجاصة جانبياً، لتعود إلى جولتها وتفقدها. كانت مشدودة إلى حركات الفتاة، وهذه بين الحين والآخر في خضم عملها، ترمق بعض الزبائن وتظل تتابع مشاهدهم في مختلف أحوال، لتعود حركة اليد والعين تتفقد مواطن الخلل هنا وهناك، في ترتيب الأشياء وحسن تهييئها... مرة أو مرتين التقت نظرة حورية بالفتاة لقاء عابراً لم تعره الفتاة انتباهاً، وكأن الجالسة هناك. جملة شيء من الأشياء التي يحفل بها المكان...

واغتنمت حورية فرصة مرور الفتاة بقربها لتنبهها لوجودها، حيتْها بابتسامة وسألتها عن المكان الآخر...؟ قطبتْ الفتاة قليلا محدقة في صاحبتها فيما يشبه الاستنكار دون أن تغيب تماماً عن محياها الأسمر الجميل معالم البسمة،

وأشارتْ إليها بأن تتبعها لترى...

قطعتا عمق القاعة الفسيحة الخالي إلا من طاولات ومقاعد، وسارتا في معبر ضيق توجد على يمينه فسحة الحمامات، لتقابلهما واجهة باب خشبي جرار عريض...

التفتت الفتاة إلى حورية وراءها، تشجعها على التقدم، سحبتْ الفتاة الباب الجرار بما يكفي لدخولها، وسحبت وراءها حورية لتطل... ساحة فسيحة أفسح بكثير مما رأت في المتوحد بإجاصته وعمق قاعته... بضعة أناس على طاولتين أو أكثر، أمامهم مآدب حافلة بألوان المشروبات، طافحة بأصناف مختلفة من المأكولات... مجموعات من فئات وأعمار مختلفة، تلتقي فيها الجلابة القروية بالمعطف وربطة العنق وبالجاكيت، يبدو عليهم الانهماك في الجد أكثر مما تقتضيه جلسة هنيئة للأكل والشرب أو لاستراحة بال... أحاديثهم تترى بأرقام وأوزان ترتفع وتنخفض...

ظلت حورية مطلة بنصف رأسها تراقب المكان، تتناهى إليها همهمات من أحاديث القوم... بينما انصرفت الفتاة لخدمتهم، أو تفقد احتياجاتهم، تطوف بهم، تتلقى الطلبات، وتزيل الأواني الفارغة، وتمرر بينهم مسحة العناية والرعاية التي يقتضيها المكان...

في أقصى عمق السطيحة، بمواجهة الفضاء الذي تتوزعه الطاولات والمقاعد، توجد منصة خشبية صغيرة مرتفعة بعدة درجات من الجانبين، أسدلت عليها ستارة مما يلي الجالسين والطاولات الفارغة حولهم.

عادت الفتاة إلى حورية تحمل صحافاً وأوان وزجاجات فارغة... تبتسم، تشرح لها المكان والناس، جماعة أغلبهم سماسرة وتجار بسوق الجملة للخضار واللحوم... والباب الجرار يسحب عند اللزوم، فيسحب معه على

طوله وعرضه حاجزاً بين الفضائين، ليصبحا فضاء واحداً فسيحاً، مركزه محوره الخشبة المسرحية، ويتوزعه زبائن الليل... وسهرات الطرب والغناء... الشيخات يا أختي...

أتمت الفتاة جملتها الأخيرة، وهي تأتي بحركة شبه راقصة، أوشكت أن تسقط الصينية من بين يديها، فتداركتها... ثم أعادت تضييق الباب إلى أقصاه لتسير وبجانبها حورية باتجاه الإجاصة... وفي منتصف عمق القاعة، توقفت حورية ويدها على كتف الفتاة، لتفضي إليها بحالها ورغبتها في اختصار شديد... مجرد جمل مفيدة شبه مبهمة وإشارات، لأول مرة أحستْ أنّها تكاشف أحداً... تشاركه ويشاركها همها، وبالذات هذه الفتاة في بساطتها وشفافيتها... بسمرتها اللطيفة، وسذاجتها البادية المحببة، وبحذق حركتها... المسألة أكثر من مجرد رغبة في شغل... بل في استقرار إلى شخص إلى مكان ووضع... المسألة أمن منشود... بحث عن قلب سامع واع... وهذه الفتاة تعكس الكثير من ذلك...

ابتسمتْ الفتاة، وهي تُلم بصورة الحال، طبعت على خد حورية قبلة خاطفة وهي تقول لها... أختك جميلة... احسبيني أختك... وقطعت ابتسامتها لتكتسي طابع الجد، وتسير مستأنفة حركتها، بينما تعود حورية إلى طاولتها... ترشف كأسها البارد، وقد ازدادت حركة جميلة خفة ونشاطاً، وهي تُرسل بين الحين والآخر نظرة وابتسامة خاطفة إلى صديقتها...

حوالي السادسة أُقبلت جميلة على حورية، متراخية تمسح يديها في طرف سترتها، وتمرر كفها على جبهتها في حركة تعب مبالغ فيها... آه... يا يما... انتهتْ نوبتُها الآن. ومدت يدها إلى حورية وسارت بها دون كلمة، اخترقت بها عمق القاعة مرة أُخرى، لكنها انحرفت هذه المرة إلى اليمين، ما بين الحمامات والسطيحة... ممر ضَيق قَصير... فتحت جميلة بابه بمفتاح معها،

ودفعت مصراع الباب أمامها، وإذا هما مباشرة في فضاء صغير عار من كل سقف، ترتفع في منتصفه بضع درجات، صعدتا معاً، وفتحت جميلة الغرفة الوحيدة الصغيرة، غرفتها التي هي المسكن كله، ودعت صاحبتها للدخول بعبارات ترحيب واستلطاف... غرفة صغيرة جداً، مختزلة جدّاً، منزوية، أبسط من كل بساطة... سرير في أقصى ضلع، وفي الوسط طاولة مستديرة صغيرة عليها منديل مدلى على حافتها بلا كراسي، وعند المدخل مغسلة وفرن... فوقهما بضعة رفوف عليها بضعة أوان...

ما إن دخلتا حتى أسرعت جميلة توقد الفرن، وتهيء لضيفتها الشاي دون أن يفتر لسانها عن الترحيب... ترحيبها ترحيب قلب كبير، وكون وجداني فسيح ما لبثت حورية أن اكتشفته، عرفته وعاشته، سبحان من يضع سره في أضعف خلقه... من كان يظن أو يمكن أن يظن أن هذه السميراء الصغيرة المتهيبة على هذا القلب الواسع الفسيح..؟ من كان يظن أن خطوات الصدفة تقود إلى مثل هذا العالم... وآخر ما يخطر ببال حورية أمس وغداً أن تستكين لمثل هذا الكائن وبهذه السرعة..!

بينما كانت حورية في خضم أفكارها، تتابع تحركات جميلة بحمية في عالمها الضيق المحدود، كانت هذه تهيئ لضيفتها جلسة تعارف وترحيب، لم تكن جميلة تنفك عن الدندنة بأهازيج مضمرة وهمس مسموع، ومرة بعد أخرى تلتفت نحو حورية ترحب وتعيد... تبدو في فرحة لا تسعها الجدران، هذه أول مرة تستقبل ضيفة... أختاً عزيزة، لابد أن تعتبرها أختاً، ومهما تطلب منها حورية أن تتوقف عن حركتها لتستريح من تعب يومها، فلن تفعل، همة ونشاط كأن جميلة تستقبل بهما بداية يوم، وحورية تتساءل إذا كانت هذه المخلوقة الصغيرة على هذه الشفافية، وبتفتح القلب الكبير السريع هذا، فكيف تكون أفلتت من فخاخ ومطامع... أو ماذا ينتظرها من ذلك إذا كانت مبتدئة في الحياة!

وكأنما تدرك جميلة ما يدور بخلد ضيفتها، أو هي توضح من ذاتها ما تريد لمجرد أن يظل خط الحديث بينهما سارياً، تقول إنها ليست ساذجة كما يمكن أن يظن، فهي لا تثق بأحد، وتعرف مقصد كل واحد من نظرته وحركته، قبل لفظه وكلماته... صحيح، ولا تستثني من ذلك رجالا ولا نساء، إلا أن شيئاً هو الذي جعلها تميل... لا، بل تنجذب إلى حورية...

ـ سحرتني يا أختي!

تبتسم حورية طاردة من نفسها ما يراودها من أفكار، تقول كالمعتذرة، كأنها بالفعل سببتْ لجميلة ما تشكو منه، أو هي تعتذر في العمق عما كان يراودها من أفكار عن الفتاة:

ـ سامحيني.

تنظر فيها جميلة محدقة ثم تقول في هيئة استسلام:

ـ اختي يا اختي منك سحارة!

الزهور... المتوحد... الإجاصة... السطيحة وغرفة جميلة بعالمها الكوني الفسيح... كلها طريق متعرج طويل مرير ممتع في ذكراه... ذكراه وأطيافه المحمومة الطيارة... وها هي ذي في المرجانة، هذا العجب العجاب... مع الولهان حبيبها الفتان المفتون... تقدمهما المضيف بحركات رشيقة، يسبح في لون المكان... الترحيب بهما حار، خاص، أول ضيفين في يوم الافتتاح الأول... يتقدم مرحباً يكاد يلتوي من لطفه... يتقدمهما نحو طاقم الخدمة، فتيان وفتيات يسبحون في اللون نفسه وفي عبق السحر والعجب وكل مدهش... هدية اليوم الأول لضيفين عزيزين يشرفان في أعز ذكراهما... يوم عزيز وذكرى أعز!... إذن هم هنا يعرفون؟!

قال لها رقيبة مداوراً على نحو يريده أن يشي بتدبيره المسبق لكل شيء...

فعلا... فعلا... هم هنا يعرفون المناسبة... قال مثل ذلك، وهو منهمك في إشعال سيجاره الغليظ، قال إنه أخبرهم هنا بالمناسبة... هو نفسه أخبرهم حتى يقدروا قيمة المناسبة التي يخص بها المحل في يوم افتتاحه الأول! وأيضاً كان ذلك ضرورياً من أجل الحجز في محل كهذا... في يومه الأول!

تركته لما هو فيه من أفكار، وظلت تساير دهشتها بنظرة تتحسس المكان... طاقم الخدمة في حركته وخفته يكاد يفرش الأرض لهما لطفاً... ونبرة الصوت المرحب من غياهب ذكريات الزّهور ما تلبث تعبر البال، كلما اقترب المضيف أو أشار...

ـ تفضلي للا...

كأنه يقول لها بنبرة الزهور:

ـ أنتِ جديدة هنا!

رقيبة نفسه يدير عين الدهشة في المكان، دهشة مصطنعة لا تخفى معالمها على حورية، وتتهيأ لأن يخبرها فيما بعد، أنه فعلا زار المكان قبل الآن، ووضع الترتيبات بنفسه، أو من يدري ماذا يكشف لها أو ينكشف، حسناً لتستمع إليه يؤكد مرة أخرى، وكأن تلك هي كل الحقيقة الكبرى والكشف العظيم: أن اتصاله بهم هنا، كان لمجرد الحجز في هذا المكان، ونفث دخانه بلطف وتؤدة باتجاهها... مرتْ غمامة تفتقت عن تكشيرة مصطنعة منها، تتساءل عما يخبئ لها من مفاجآت بعد ذلك... ذكرها بالشعار الذي تقمعه به قمْعاً محبباً إليه عندما تراه منصرفاً عن التمتع بلحظته إلى التفكير فيها... عشْ ما أنت فيه... تمتّعْ واهنأ..!

كأن الزبائن كانوا على موعد بعد دخولهما مباشرة، بضعة أزواج تفرقوا على سحر المكان... لا عجب، فقد قدما قبل الوقت بقليل... هذا كل

شيء... لكنه أضاف بعد ذلك بهدوء أنه بالفعل طلب ألا يسبقهما أحد... وأن يكونا أول من يفتتح المرجانة! لم تزد على أن ركزت في عينيه... ما تزال تنتظر مفاجآته... بدا لها طفلا مشاغباً بطبعه يتحين سوانح الطيش... سألها بحرقة إن لم تكن سعيدة... وضعت سبابتها على شفتيها... لا تريد أن تعبّر بشيء يخل بسحر اللحظة... فعلا عليها أن تنصهر في اللحظة، واللحظة نفسها كما تبدو في تناسقها الجميل جديرة بذلك... وأكثر...

في نهاية سهرتهما، وفي غمرة الإعجاب بجمال المكان وجودة الخدمة والاستقبال مع بهجة المناسبة... تقدم بها رقيبة نحو الطاقم المصطف لهما... وطلب منها أن تضغط على زر... أطاعتْ فأضاءت لذلك اللوحة الخارجية متلألئة بتلألؤ المرجانة: «عند حورية» هديته إليها ومفاجأته الأخيرة..!

سبحان الله! نبهها لنفسها بالتسبيح وقد غابت في لحظة ذهول وشرود... قال إن عدواه سرتْ إليها فأصبحتْ أكثر شروداً وابتعاداً عن لحظتها... نظرتْ إليه ملياً... ماذا ترى أو تتخيل؟ ماذا يعني؟

أخرس تساؤلها بابتسامه واقترابه، التصق بها جانبياً، ووجهها لترنو معه إلى تراقص الألوان في حروف اسمها الخلاب، وفي التجاوب المنعرج بين الاسمين الحبيبين حوريته ومرجانتها.

ظلت تتأمل المشهد وهو يهمس إن كان عليه أن يفهم أن هديته مقبولة... المكان بكل فضائه من أثاث وعالمه... هدية حبه لحبه؟!

مالت إليه صامتة، لغة أخرى يجب أن تعبر عما بها ولا تملك الكلمات لذلك، وفيم الكلام؟.. كل شيء قيل... كل شيء رسم... إن كان يعتقد أنها قدره المقدور، فهو أيضاً قدرها الساحر الآخذ، تيارها الجارف الذي لا يتيح لها، ولا تريد منه أن يتيح لها فرصة التفات أو نظر لغير عالمه وألوانه... الفرق

بينهما إن كان فرق، أنه يعبر أكثر مما تفعل... لكنهما معاً يدركان كيف صنع العالم منهما إليهما بالذات...

عاد بها الآن خطوات إلى الداخل، يوجهها إلى بعض أطراف المكان، وعادت أيضاً باهتمامها إلى ما ترى، كأنها تراه من جديد وبعين جديدة حقاً... عالمها... المرجانة... عند حورية... عالمها يلمع بحروف اسمها ومشاعر قلبها... المضيف نفسه والمضيفون جميعاً خدمها وضيوفها... عين جديدة تجول الآن في المكان، تجوب أطرافه... لماذا لم يقرن اسمه باسمها في شعار المكان؟ أتقول ذلك؟ أتعكر عليه صفو اللحظة ومناسبة الذكرى وعز الهدية؟!

سبحان الله، سبحان مغير الأحوال... عليها فقط أن تنسى العجب، تقتل كل دهشة واردة أو ممكنة معه... لكنها أسعد ما تكون بأكثر من هديته، بتوقد حبه المستمر... ولا تريد في دنياها أكثر من ذلك... لا تريد أكثر من أن تكون... كل منهما للآخر، ولا مطلب لها لذاتها غير ذلك...

ظل يستمع إليها منتظراً نهاية مقدماتها، وتعاريج الأفكار المتلاطمة في خواطرها، همست له أنها لا تريد غيره لها، والهدية الساحرة المقبولة، تريدها: المرجانة باسم رضى، ملكه...

13

تململتْ في رقدتها الجانبية... سرى فيها دبيب اليقظة لتُحس بيد لطيفة تمر على خدها ببالغ العطف... فتحتْ عينيها، وحدّقت في الصبية الحانية عليها في نومتها كالملاك الحارس، أحسّتْ بموجة حب تجتاحها، ابتسمتْ للصبية ابتسامة الرضى... كانت الرحمونية ما تزال في بداية اليقظة وخدر نوم غير مريح تمّ حيثما اتفق بلا سرير ولا فراش، بعد سهرة متعبة... أوه... تريد أن تنسى كل ما حصل، ولا تبدأ يومها بالكدر... أكره شيء إلى نفسها أن تستيقظ معتلة المزاج، أو تجد أول ما تجد في صباحها شيئاً يبعث على الكدر والاعتلال... صوتاً كان أو مشهداً... وتقول لها الصبية بُشرى في لهجة تتحرق، إنها لم ترتح في نومها... كانت تتقلب كما لو كانت على جمر... وتهْذي... تتحدث بعنف كأنها تخاصم أو تدافع... وكانت بشرى خائفة عليها، لم ترها أبداً في هذه الحال في يقظتها فأحرى في نومها... لذلك قضت شطر الليل إلى جانبها...

تضع الرحمونية كفها على كتف الصبية، تُهوّن عليها... تعرك عينيها وتمر بيدها على كامل وجهها، تستنهض قواها الخاملة... الوقت متأخر عن

المعتاد لبداية صباحها... لا، لا، أبداً، الضحى تقريباً... هو الضحى كالعادة... مع تأخير قليل... كان من الممكن أن تستيقظ قبل ذلك بساعة أو أقل... كل ما هناك أنها في الواقع لم تنم... وإنما بعد الهم والتعب إلى ما يقارب الصبح، وجدت نفسها أخيراً في طريقها إلى يقظة كاملة، على نفس السداري الذي كان آخر موضع لها في جلسة لا تذكر كيف توصلتْ إليها... بشرى الصبية الحنون إلى جانبها... وظلت كذلك إلى ما بين النّوم واليقظة... إلى جانبها... إلى هذا الوقت... الضحى... لا بأس... العياذ بالله من بعض الأيام... والليالي... وقعدتْ المرأة في جلسة كالمتربعة ساهمة... تبدو على ملامحها معالم عناية فائقة محتشمة متفوقة على دبيب الشيخوخة... بياض بشرة يزيد من إشراق سحنة لا تخلو ملامحها من سمات القوة، يحيطها شعر يميل إلى الحمرة، تدلتْ خصلاته بانزلاق المنديل عنه...

أحضرت بشرى الطست تصب على أمها الرحمونية لتنعش وجهها... استجابتْ المرأة بابتسامة خفيفة. الله يرضي عليها... بنات كثيرات تبنتهن في سن العاشرة هذه أو أقل من ذلك، بعضهن استمررن طويلا معها حتى الزواج أو غيره من منعرجات الحياة التي ذهبت بهن... وبعضهن عكس ذلك... لكن، لا واحدة منهن فيما تذكر المرأة حلت منْها بمكانة بشرى هذه... هي التي سمتها وأطلقت عليها بشرى... ولا تذكر اسمها الأول الذي تسلمتْها به من يد امرأة قالت إنها أتتْ من نواحي تازة أو ... الصويرة... أو ... لا تدري ولا تذكر فما أكثرهن... لا يطلبن إلا سقفاً أو حناناً... ليست بشرى وحدها التي تحنّ وتحنو على الرحمونية فالمرأة تبادلها شعوراً أقوى... ولا تدري الرحمونية المجربة لكل فنون الحياة وآفاقها، كيف تسربتْ بشرى هذه إلى عمق حناياها بسرعة لا تقدر... الحق أنّها حاذقة ومتفتحة واعية... واعدة بامرأة وأي امرأة.

جفّفَتِ الرحمونية يديها ووجهها بتأن... ووضعتْ بشرى أمامها صحن الإفطار... وصبّتْ لها القهْوة ثم الحليب بمقدار تعرفه في كأس... وقدمته

للمرأة بلطف... وبالصحة... والشفاء والراحة يا ميمتي عزيزتي... يالله ما ألطف وأحلى..!

بيد أن الرحمونية مع ذلك، وعلى خلاف ما اعتادته من مداعبة الصبية أثناء الإفطار ببضع كلمات وتلميحات محببة... كانت ساهمة... ترشف واجمة... لا تفارقها صور البارحة... يداهمها في هدأة الليل ثور هائج بمدية جزار، أيحْدث هذا لها هي؟ والآن، وبعد هذه السن؟ كانت تستعد للنوم ليلتها تلك تتهيأ للارتياح على الأقل... أوصدتْ الباب بالمزلاج كالعادة... لا، بشرى هي التي أوصدت ذلك كالعادة، ولحقتْ بأمها الرحمونية في الفوقي قصد النوم... عادة الرحمونية ألاّ تنام نوماً حقيقياً إلا بعد أوبة آخر الفتيات، لا نوم لها قبل ذلك رغم الارتخاء في الفراش... إلا ما كان من غفْو متقطع أو انتظار ليقظة، بمجيء إحدى الفتيات أو مجموعة منهن، إن كان منهن من تتأخر بسبب من زيارة أقارب أو مناسبة معرض... أو حتى سهرة سينمائية أحياناً...

ما حدث البارحة كان من جنس آخر... ثور آدمي هائج يهاجمها بمدية جزار! هكذا في منتصف الليل... وهي وحدها بالصدفة! ماذا لو كان عندها ضيوف... أليس من حقها أن تستقبل ضيوفها؟ وهي في حرصها الشديد على أن تسد كل ثغرة تأتي منها ريح المشاكل، فإنها تعرّف بناتها بمن يزورها من معارفها الخصوصيين والضيوف، وتجعلهن يعرفن أسماءهم ويتعاملن معهم باحترام... هكذا يضيع كل شيء ليأتي ثور هائج بمدية لاهثاً فائراً:

ـ الكلبة... نذبحها ونشرب دمها!

الرحمونية هي التي ذبحت أو تذبح لا كلبته ولا أية كلبة أخرى...

هكذا تتغير الأيام ويتبدل الزمان، بعد أن كان الرجل، أي رجل، وما أكثرهم من رجال، يأتي بالهدايا والقرابين، خاطباً راغباً منها إحدى الفتيات قبل

أن يتوجه إلى ولي أمرها الحقيقي... هكذا، بعد أن كان للفتاة وقد تزوجت على يد الرحمونية، أن تعود إلى دار أمها صحبة زوجها بالهدايا المحملة... هكذا بعد أن كان الزواج من دار الرحمونية امتيازاً... الزواج من فتياتها كان المطلب الكبير... هكذا يأتي في ليلة ليلاء، ثور آدمي هائج، يريد أن يقتل ويشرب الدم البشري الساخن... مسكين الله يشافيه! هكذا تصبح الرحمونية مظنة إخفاء الفاسدات المشردات... مظنة أو متهمة بالتستر على ما لا تعرف... هكذا... هكذا يا ربي... رويجل لا كالرجال، عظيمات مركبة يكاد يتساقط بنفخة أو لمسة، لكنه يتسلح بمدية طويلة مشحوذة، وما دامت له كلبة ضالة، فأمامه دار الرحمونية يتمرغ كيف يشاء، يهجم ويقتحم، وعليها هي لكي تسلم، أن تخرس أنفاسها... لا... بل عليها أن تدله على مكان كلبته الضالة، كما لو أنها شوافة، أو أنها مسخرة له، لا تعرف من الدنيا أو يجب ألا تعرف إلا ما يرضيه ويتعلق به...

يجري ويلهث ويتوعد بين كل دورة وأخرى في أرجاء الدار ملوحاً بسلاحه اللماع، وعيناه تكادان تخرجان عن مدارهما... يلوح:

ـ نَذْبَحها ونذبحك معها... نشرب من دمكم كلكم!

الله... الله... ما أحلاها ليلة عليك يا بنت الرحمونية وأم الرحمونية وكل ما يأتي منك... هكذا، بعد كل التعب والشقاء والتربية والتعليم والتزويج وفعل الخير... جزاؤك الذبح... أو تظهرين أين تخفين كلبة ضالة وراءها ثور هائج!

ماذا لو حدث عندها، في دارها قتل؟ ماذا لو كان عندها ضيوف من أهل الدرب المحترمين أو الجيران... ألا يتأكد الكثير مما يذيعه القوالون الحاسدون من رجال ونساء؟!

دارها مفتوحة للفتيات... صحيح... لكنها تعرف ما تفعل لا تزيد عن إيوائهن مع تعليمهن الصناعة وتربيتهن... وهن لا يزدن في أحسن الأحوال عن دفع واجب الكراء عندما يصبح لهن مردود... مادمن بدون دخل أو في وضعية صعبة، فهي الحاضنة... هذا دون ما تقدمه للصغيرات... تربية وتعليم صناعة وطبخ... وإذا فتح الله باب الزواج فإنها لا تبخل على كبيرة ولا صغيرة... نصف الدرب أو ربما نصف المدينة مزوج على يديها... ربما أكثر... هي التي تخدم الفتيات... هي التي تستغل من طرفهن لا العكس، وبإرادتها... لأنها أبت ما أبت... وردت على وجهه من ردت عما أرادت...!

الرحمونية التي لا تقبل قاطنة جديدة، صغيرة أو كبيرة إلا إذا تأكدت من حالها، وضمنت أن لا مشكلة أمامها ولا وراءها... الرحمونية التي علمت على يديها أحسن الطرازات والخياطات... وسوق الدلالة لا يعرض أرفع مما تتفنن فيه دارها... وطباخات الأعراس الكبار من دارها... وكل من فتيات صنعة يد بمردود، يبعن إنتاجهن في القيسارية أو ينجزنه لحساب الغير... ثم موضة معارض الأزياء العصرية، بناتها الأقمار والكواكب، وهي التي تختار لهن الألبسة والأقمشة، وتدلهن على سر التطريزة في الجلابة والقفطان، وسحر الحزّام والمضمة والشربيل الفاسي... ويأتي في ليلة ليلاء شراب الدم... نقتلك ونقتلها ونشرب من دمكم!

هل تقول إنها لا تعرف ما يمكن أن تقوم به أخرى في مكانها؟ هل تقول إن بعض قاطنات دارها لا تعتريهن نزوة السقوط وطيش الغواية؟ هي التي مر بها كل شيء، وعرفت كل شيء... ذاقت من كل شجرة حلوها ومرّها... آه... لكنها تعرف كيف تزم الأفواه... الشغل والصناعة، ذاك هو الشرط اللازم لزَمِّ الأفواه، وشل الألسن القوالة...

الرحمونية لم تخف ولن تخاف مما يقال ولا حتى مما يُفعل... إلا أن يأتيها سفاح دماء مخبول يذبح ويشرب الدم! يأتي يبحث عن كلبة ضالة في دارها، هي التي ترفض أن يكون في دارها ما تريده كثيرات ممن يقصدنها... كل شيء ليس حرفة ولا صنعة يد ولا تربية، فهو خارج دارها وليس بداخلها ولا بعملها ولا بعلمها... تعرف ما تعرف... تتجاهل ما تتجاهل، ولكن لا شيء هنا في دارها... تعرف أيضاً ما يقتضيه البحث عن زواج... ليكن... كل مسؤول عن نفسه... ويأتي المعتوه... يأتي ليهدِم كل ما احتاطت له وبه بعد العمر الطويل... ثور هائج مسعور... وهي التي يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها... لكنها تستطيع أن تقف حيث تشاء مرفوعة الرأس، بدون خشية أو خجل... يعرفها من يعرف... ومن تريد له أن يعرف... ولا شأن لها بغير ذلك... ويأتي معتوه البارحة حوالي منتصف الليل بقليل، يقرع الباب قرعاً كالهمس، يتناهى إليها وإلى الصبية بُشرى التي كانت قد أُغْلقت الباب، والتحقت بها لتوها في الفوقي قصد النّوم، في انتظار أوبة بعض الفتيات ممن يتأخرن... تقوم لتفتح الباب... طالما فكرت في أن تجعل لكل منهن مفتاحاً... لكنها لم تتشجع لذلك أبداً... وفضلت أن تبقى سيدة نفسها ودارها... الآن تدرك أنّها أحسنتْ فعلا... فمثل هذا المعتوه، كان من الممكن أن يتوصل إلى أخْذ المفتاح من أية واحدة منهن عنوة وبسهولة؛ ثم لا تشعر الرحمونية إلا والمدية تحز حلقومها...!

اندفع هائجاً بمجرد ما فتحت الصبية الباب لطرقاته المترددة التي لم تستطع أن تنسبها لطرق الفتيات العائدات... ما كاد مصراع الباب ينفرج حتّى دفعه بعنف، ودفع معه الصبية لتلتصق بالحائط، ودلف لا يلوي على شيء، تسبقه مديته الطويلة يبحث عنها... هنا... وهناك... بنت الكلبة يشرب من دمها... يجري، يفتح هذا الباب وذاك... والآخر... هنا في المخزن... هناك في

الحمام... في كل ركن، في السفلي والفوقي... يذبحها ويشرب من دمها في هذه الليْلة..! بشرى الصبية مثل أمها الرحمونية فوجئتْ بما يجري... تسمرتْ من الخوف ولم تجد فرصة لتلتحق بأمها... الرحمونية بعد فترة الهلع... ورغم ما بقي في كيانها مما ركبه من خوف وارتعاب، استطاعت أن تتابع الثور الهائج... كان ثوراً حقيقياً في هيئة بشرية... تقدح عيْناه الشرر الأحمر... يبدو واهناً في هيكل لم تنهض بمفاصله غير فورة الهياج... غيرة وغَضب... يشرب من دمها..! لم يجد شيئاً، لا أحد في المنزل... ولا قطة... عدا الأم والصبية... الصدفة وحدها جعلت المنزل خالياً حتى من بعض الخياطات والطرازات... لأمر ما تغيب الجميع هذه الليلة... وهي والصبية بشرى وحدهما في انتظار عودة بعض الفتيات المتأخرات هذه الليلة... يحدث لها هذا بعد هذا العمر... وكل الاحتياط؟

وقفت بمواجهة الرجل، وقد كسرت الخيبة كيانه المتهاوي، لكن المدية الطويلة ما تزال قائمة بيده مشحوذة السنّان... سألته عمنْ وعم يبحث؟ نظر إليها في ارتياب واستنكار... كررتْ سؤالها، فهي حقّاً، لا تعرف ماذا يريد... ولا تعرفه... لا يهم ألا تعرفه... المهم ماذا يريد؟

ظل ينظر إليها في ارتياب واضح... فرغم خيبته لحد الآن فهو سيد الموقف، يريد أن يشرب من دمها! سألته من هي؟ كان الزبد متخثراً على حرفي فمه، وعيناه زائغتان... عويشة؟! لو وجدها لشرب من دمها حالا! هل تجهلها أم تتجاهلها؟! حتى وإن كانت غير موجودة هنا الآن... عندها... فهي تعرف طريقها وإلى أين أرسلتها... والكلبة لابد أن يلقاها ويشرب من دمها... هو المسعودي أبو الكلبة عويشة... هل عرفته الآن؟ هل تعرف أين هي الكلبة الآن؟! يشرب من دمها؟

تمالكت الرحمونية نفسها... الرجل متهالك على نفْسه لكنه هائج، هائج، ومسلح بمدية وبِروح الشر! طمأنته... أقْسمتْ أنّها لا تعرفُ عويشة كما لا تعرفه هو... ولم تسمع بهذا الاسم قط... ومهما يكن ففتياتها سيأتين بعد قليل، ويمكنه أن يطمئن بنفسه... لماذا تنكر عليه وجود عويشة لو كانت تعرفها... ولماذا تنكر وجود غيرها؟ إنها لا تتستر على أحد ولا تخفي شيئاً... وكل واحدة مسؤولة عن نفسها وتدبّر مشاكلها... المقيمات عندها تعرفهن جيداً وليس بينهن جديدة... ليطمئن الرجل، ليهدأ، فهي إلى جانبه ضد الفتيات العاقات والفاسدات وضد من يفسدهن على ذويهن وعلى أنفسهن... وهي لا تقبلهن. لا تقبل من لها أية مشاكل... ولا تسمح بأن تقطن عندها إلا المجدات الجديات... أما القوالون... الهمّاسون... فلا تبالي بهم. من وجّهه إليها... هذا الثور الهائج؟ أقسمتْ أنهم وجّهوه وجهة خائبة... فليست هي من يعتقد أو يعتقد غيره... من يدري؟ ربما يكون موجِّهه هو مفْسد عويشة! بالذات! أقْسمت له أن هذه هي الحقيقة... كذبوا عليه ووجَّهوه وجهة غير التي ينبغي، ليخلو لهم الجو ويبقوا سالمين! ليطمئن وليسترح... وبعد ذلك ليبحث عنها في أي مكان آخر...!

ظل الرجل زائغ النظرات، يحدق فيها، يريد أن يتأكد من صدقها... مهما يكن فهو بنفسه لم يجد شيئاً في زيارة مباغتة، وكان متأكداً من وجود عويشة... والمرأة... هذه المرأة بثقة وثبات تنفي... وبنبرة تحد تطلب منه أن يهدأ وينتظر حتّى تعود الفتيات المتأخرات ليتأكد بنفسه... يسألهن واحدة واحدة عن عويشة ويتأكد بنفسه... لا يستطيع إلا أن يصدّق مؤقتاً...

أف... كانت ليلة سوداء غير مسبوقة في حياة الرحمونية... لا، بل غير متصورة... يريد أن يذبح ويشرب! ثور بمدية يريد أن يذبح! سردت عليه ما استطاعت واستحضرت، فرائصه ترتعد أكثر من فرائصها... خوفها الأكبر أن

يقتلها من كثرة خوفه وارتعابه... والمدية ترتعش في قبضته... والصغيرة بشرى بين الموت والحياة... خوفاً على نفسها وعلى أمها الرحمونية... على المشهد الذي ما كان لعينيها الصغيرتين أن تكتحلا به...

فأراً مرتعشاً مرتعباً كان الرجل؛ لكن بمدية مسنونة وجنون في الرأس وغليان في القلب! لم تترك شاذة ولا فاذة من حياتها وحياة بناتها... أسمائهن وتاريخهن... عينه، نظرته كانت شكاكة متشككة... موقفاً مميتاً كان لها وللصغيرة بشرى، والحمد لله على أن الدار كانت خالية... أو ليتها كانت عامرة! لا تدري... لم تكن في موقفها قادرة على أن تميز، لكنها كانت تعرف أنها ورطة كبيرة خبيثة يجب الخروج منها...

المهم أنه أخيراً ترك الدار... اقتنع بكلامها، لأنه لم يقدر إلا على ذلك... مادام لا يستطيع شيئاً آخر... ربما حتى القتل الذي يزعمه... لكنها لم تكن لتغامر بحركة أو صوت...

المهم أنه ترك الدار أخيراً؛ وقضى مدة طويلة خارج الباب ينتظر أن تكون عائشة عائدة... كانت الرحمونية وقد أوصدت دونه الباب، ترصد حركاته من شقة نافذتها في العلوي، خشية أن يصادف وجوده عودة بعض البنات... تابعته في انتظاره، وكان بودها أن تبلغ عنه السلطة أو الجيران إذ ذاك أو بعد ذلك، لكنها فضلت ألا تجعل دارها وسيرتها مضغة الأفواه... آه منها ليلة... آه...

عادت من شرودها، والصبية تنبهها إلى أنها لم تشرب كأسها بعد، لم تزد الرحمونية على أن تحركت في هيئة من تريد النهوض... أدركت الصبية قصدها، فأحضرت لها الجلابة، وأسرعت إلى قفتين أدخلت إحداهما في الأخرى، ووقفت مستعدة للخروج مع أمها...

سألتها الرحمونية، لمجرد التأكد، وقبيل أن تتحرك أمامها عن البنات إن كن نائمات ما يزلن؟! قالت ذلك في نبرة استنكار خفيفة، وبدأت الصبية تسرد حال من خرجت منهم، ومن هي منهمكة في شغل الدار، ثم خرجت وراءها في جولتها الصباحية بالسوق...

14

لو استجاب عيادي لاتجاه خواطره لأطال التفكير في مقدار ما تتغير الأشياء عندما تتغير نظرة الإنسان إليها، لكنه لم يكن ليطلق لخواطره العنان وهو في جلسته بمقهى الأحباس، أما كأس قهوته فلم يمسسه بعد، مع أن رفيقه الحاج قد أفرغ كأسه في جرعات معدودات، وهو يتلمظ بطعم القهوة منبهاً من لا ينتبه إلى جانبه، إلى أن هؤلاء يحسنون فعلا صنع القهوة... يؤكد أن حبوب القهوة قد تكون هي هي هنا أو هناك، لكن تعصيرها بمقدار هو السر... وهنا يعرفون ذلك... أما في الجيارة فلهم الشاي حقاً بالنعناع أو بغيره... وما عدا ذلك فخليط... قهوة بحليب، وحليب بقهوة، وموز ببرتقال وبما شئت مما لا ميز فيه لشيء أو لأحد... الخلط دائماً كما يؤكد الحاج، يخفي كل النقائص والعيوب... في أي شيء كان من أمور الدنيا والناس... ويخفي المحاسن أيضاً...

كان عيادي غائباً أو كالغائب عن حديث صاحبه، يتابع الملامح، يتوالى الحديث في سمعه مقاطع بلا ارتباط ولا معنى، يسمع ولا يعي... يكرر الحاج

أن القهوة الحقيقية الأحق هي تلك التي تعد حين طحنها مباشرة، قبل أن «تموت قوتها» ويمتص عبيرها متسامياً في الفضاء... عيادي غائب عن المتابعة، كل خواطره باتجاه ما تسفر عنه هذه الجلسة في مقهى لا ترتفع فيه ضجة التجاري، ولا يجلجل فيه صوت القشاش ولسانه... وإنما تردُ فيه هيئة بامقال سي إدريس المقالات بكامل حضوره وعالم جرائده ومشاريعه... بل حضوره هنا الآن مطلوب... مطلوب جدّاً... بامقال هو المطلوب بالذات والصفات... ومن أجله هذه الجلسة في مقهى الأحباس بعيداً عن ضجة الجيارة... سبحان الله! تنعكس الآيات فجأة، يصبح الطالب مطلوباً ويصبح العكس، سبحانك اللهم، أنت صاحب الشأن وكل يوم أنت في شأن... هكذا يصبح سي بامقال هو المطلوب، يسعى إليه عيادي طوعاً وكرهاً ومعه الحاج... هكذا عكس كل ما هو معهود ومألوف.

رنا عيادي إلى ساعته، وقطع القهوة ونكهتها لدى الحاج ملمّحاً إلى ما مضى من وقت على الموعد المحدد للقائهما بسي إدريس.

يدرك الحاج ما بصاحبه من لهفة... ومن عدم رضى عن نفسه... يدرك ذلك لكثرة ما تحدثا فيه قبل ترتيب هذا اللقاء... ترتيب لم يكن سهلاً في كل مراحله... سي إدريس نفْسه فوجئ بالتدبير... جالساً كان، فاتحاً أشرعة جرائده... مصيخاً كان، سمْعُه لما يجري من صفقات التجاري وسدّات الدومينو... على الهواء... في الرقعة... منتبهاً كان إلى كل ما يمكن تصيده من حديث السياسة والمجتمع... وإذا به يصبح الصيد بالذات! شيء لم يكن في الحسبان... أبداً... هكذا تحيط شبكة الصياد بمول المقال ولا يكاد يصدق!

فوجئ مولاي إدريس المقالات بالحاج يقبل عليه مباشرة بلا مقدمات، لدرجة لم يصدق معها في أول الأمر أنه المقصود بالإشارة والسلام والكلام... إلا أن الحاج لا يترك له فرصة للشك، إذ يأخذ كرسياً ويجلس بجانبه، وبعد

تكرار التحية، يبادر الحاج معرباً عن رغبته في لقاء خاص! سي إدريس مستعد دائماً، ولأكثر من لقاء وحديث الآن؟ لا، الأمر يتعلق بموضوع وشخص لا يصلح لهما المكان والزمان هنا، ليكن... ليكن... واتفقا.

مرة أخرى يرنو عيادي إلى ساعته، وينظر إلى صاحبه... نصف ساعة مرت على الموعد تقريباً... لا بأس... الصبر مفتاح الفرج... وتبدو طلعة مولاي المقالات متجها نحو مجلسهما متأبطاً جرائده، يتلفت حواليه، ويرفع بصره باتجاه لافتة المقهى، كأنه يتأكد، لكنها كانت مجرد حركات منه. سلم وجلس، وهو ينظر إلى ساعته كأن في هذه النظرة اعتذاراً عن التأخر، وما يلبث أن يذكر أن انتظار الجريدة الدولية هو سبب التأخير، يذكر ذلك وكأنّه اعتذار... كلمات تحية من الحاج وهمهمة من عيادي... تكرار التحايا ومناداة النادل الذي ما يلبث أن يأتي بقهوة وكوب ماء... هيه... كيف الأحوال! لا يمكن أن يظهر هو أيضاً لهفته على الموضوع، رغم أنه فعلا متلهف منذ الأمس... منذ أن كلمه الحاج... أي موضوع هذا الذي يتطلب جلسة في مكان بعيد عن الضجة؟ أي موضوع يدفع واحداً من زبائن التجاري ومدمنيه إلى التخلي عن ساحة نزاله وتجلّيه، ليخطب ود سيدي مول المقال، ويُسيِّده فعلاً في كل نداء وخطاب، في جلسة قصية كهذه؟ المقهى هنا يتيح فرصة تغيير الجو المعتاد... جو هادئ في هذا الوقت بالذات ولو أن للموقع حرمته في عزّ النهار... عز حركة المحكمة ومكاتب العدول القريبة... جلسة لا بأس بها في هذا الوقت... أكد الحاج نفس الرأي... وكان بود المقالات، أن يتم عبارته مقارناً بين هذا الهدوء المحبَّب، وضجة المكان الآخر... إلا أنه اكتفى بجزء من خاطره مستحضراً، أن صاحبه من رواد الضجة تلك، وعالم الوهم ذاك، كما يراه ويسميه... حقّاً كانت فرصة مواتية لمهاجمة الجيارة وروادها، لكن... لا بأس بتركها تمر حتى ينجلي الأمر.

لابد من الدخول في الموضوع، وإن أظهر المقالات أنه غير مهتم بالبداية ولا مستعجل... وبدا الحاج يحتاط للمفاتحة ليجعلها تحوز اهتمام محدثه... الأمر الآن في غاية الأهمية، وهو يلتقي بأفكار سي إدريس... لا مانع من إقرار واضح صريح بأن الحاج لم يكن يهتم كل الاهتمام بما يقوله أو يريده مول المقال قبل اليوم، ربما لم يكن ليهتم بذلك لولا رفيقه عيادي ووضْعُهُ، الأمر هام... ويستجيب مول المقال لتواضع صاحبه بتواضع مماثل، شاكراً لهما ثقتهما فيه، وأنه لا يريد إلا الخير بكل ما يفكر فيه، وهو واثق من وجود نفوس خيرة، وضمائر نقية مهما تكن المظاهر... الله خلق المليح والقبيح في كل شيء ومن كل شيء... لذلك يؤكد أنه كان واثقاً من أن عقولاً لابد أن تشاركه أفكاره...

ويتابع مول المقال بكل اهتمام ما يروى له من مظلمة صاحبه، مما لحقهما وما سيلحقهما كما يلحق غيرهما من أذى وسوء جوار العسلي بالذات... هذا النجس المدنس الذي دنس الحي بكامله... كيف يسكت الناس عن أغراضهم وشرفهم وكرامتهم... لابد من عمل شيء... لابد من موقف عملي. يبتسم المقالات في هيئة المطلع الخبير... وماذا يعرفون عن أُذى العسلي؟ تلك مجرد مظاهر بسيطة وما خفي أدهى وأعظم... هو يعرف... ويدرك مول المقال أن الفرصة قد تكون مواتية لعمل شيء هام، إنما يجب إعداد العدة... كيف؟ ويبدو الحاج كمن فكر كثيراً... فلو أمكن إيجاد طريقة يترك بها العسلي الدرب عن طيب خاطر... أو حتى بشرط ما... بعض المساومة والتعويض... لو أمكن ذلك... وليكن في الاعتبار أن العسلي ليس فيه من العسل إلا لفظ التسمية... وأنه ليس بالهين... وله علاقات هامة عن طريق المنتفعين بخدماته... كل هذا معلوم ولا يغيب عن البال... لذلك فإن افتعال حادثة ما، كما يلمح إلى ذلك الحاج لن تكون مفيدة ولا نافعة... ومثلها إيحاءات عيادي المنفعل بتشكيل فريق من حاملي الهراوات يكسرون ضلوع العسلي... لا... هذه فوضى كما

يؤكد سي إدريس المقالات وأكثر من فوضى... هي فرصة لإظهار الخصم بمظهر الضحية...

بدا المقالات مأخوذاً بخطاب الحاج، مشدوهاً ينظر إليه ويتابع كلامه باهتمام وتحريك الرأس علامة الموافقة والتأييد...

ـ الله عليك... الله ينورك...

كان المقالات يعلق على ما سمع وقد ذهل عن انزلاق الجريدة من يده وعلى ركبته... عيادي وحده كان غريباً عن انسجام الرجلين وبوادر المرح البادية على بامقال... ماذا حصل بالنسبة لما يريده عيادي؟ لا شيء. الأمر ما يزال كلاماً في كلام...

أطال بامقال في إظهار الاهتمام بما قاله الحاج، وظل لفترة يمط شفتيه ويهز رأسه إعجاباً:

ـ صحيح... صحيح الله يرضي عليك.

وظل يضيف كلام صاحبه بأن العسلي في نهاية الأمر لا حجة عليه، أو يصعب إقامة حجة عليه... سمسرة... على تشغيل على وساطات... على... على... بلاء مسلط... ولن يوجد بين ضحاياه والمستفيدين على السواء من يقف شاهداً...

ـ والحل؟!

أصدرها عيادي مقاطعاً وفي رنة احتجاج...

ـ الحل يا أخي... لابد من الحل...

وغاب بامقال في تفكير على نحو بدا لعيادي مفتعلا وبطيئاً ثقيلا في كل الأحوال. قال إن الحل لن يكون جذرياً... لكن إذا كان المقصود هو فقط إيقاف شر العسلي وأذاه، فربما يكون ذلك ممكناً... وهو حل يمر عبر المال.

ـ المال؟

أكد المقالات أن الرجل تاجر خسيس، يتاجر في كل شيء... في البشر والحجر على حد سواء... لذلك يجب التعامل معه بمنطقه لدفع أذاه...

ـ يعني؟

وظلوا يحومون حول أفكار عديدة، لكن لو أمكن مساومته على إفراغ المحل مقابل مبلغ ما... وإلا اختلاق نزاع عقاري بطريقة تؤدي إلى النتيجة نفسها مع نَفس طويلة وغيره...

ظلوا يطرحون أفكارهم، وعيادي يبدو أبعدهم عن الاعتقاد في أن ما سمعه أو يدور بينهم من شأنه أن يحقق المقصود، أو يشفي ما بداخله من غريمه... المحاكم؟ يعرفها... يعرف الكثير عنها ويسمع الأعاجيب... أو ليس العسلي في نطاق سمسرته في كل شيء وتجارته في الحجر والبشر، أولى منه وأدرى بالمداخل والمخارج في هذا الشأن؟ أليس هو بالذات متدخل ووسيط في هذه الأمور؟ ماذا يبقى؟ الحل الآخر المقترح، المال؟ أين هو؟ وهل يرضى الغريم والخصم؟ وبأي مقابل؟ وبأي صفة يمكن لأي منهم التدخل في هذا الموضوع، تعال يا مولانا عسل، خذ كذا واتركنا لوجه الله!؟

كان عيادي يعبر عما يخالجه على نحو تهكمي، كأنه يسخر من نفسه، بل يجلدها على سماع هذا الهراء...

وبدا بامقال ساهماً مفكراً، كأن خواطره تجنح به بعيداً، لكنه بلا شك كان يرى نفسه قريباً... أقرب من الجميع للمشكل... فلقد وجد الطريق ليفكر من جديد في مقالاته العتيدة... ها هو ذا يجد الموضوع الحي ليغذي نهر أفكاره... أنهار أفكاره... بركانها الذي يكاد يفجر رأسه... لو تسربت مقالاته ولو بعمود أبيض... لكان لها فعل السحر... واحد خبيث... ذو صحيفة...

واحد فقط ولا أخبث منه، بدل أن يسكت ويتجاهل ما يكتبه المقالات لجريدته قصد النشر، كما يفعل الباقون... يتجرأ هذا الواحد ليعتذر عن لغة المقالة؟! تصورْ... لغة؟ أية لغة يفهم هؤلاء؟! حسناً، لو أمكن النشر... ومهما يكن فمقال جديد سيحرر في الموضوع... في الواقع... كل مقالات بامقال صالحة قديمها كجديدها... آه لو نشرت... تلك إذن تكون القاضية...

وتروح نظرة بامقال تتهجى العمود الأبيض وفوقه عبارة مقال حذفته الرقابة! أي مجد كان ذلك إبان الكفاح... كان بامقال يتهجى حروف كلماته على بياض العمود، لم يشيروا إلى اسمه... لكن حروف الاسم نفسها، كانت بارزة فوق كل بروز، وكبيرة فوق كل حجم... آه... لو تنشر... وسيظل ينتظر يوم النشر... ويعتذر الخبيث عن لغة الكاتب... لغة المقالة... أية لغة يعرفون...؟ مهما يكن فرغم خبث الخبيث فهو يعتذر للكاتب... يقولها رغما عنه، تصدر كفلتة نادرة يقول: نعتذر للكاتب... هذا يكفي... اعتذار لكاتب... هذا اعتراف يتناقص من مضمون الاعتذار بسبب اللغة... كاتب بدون لغة؟! كيف يصح ذلك؟

تنتعش معنوية بامقال، وكأنّه يجني أمجاد كتابته وأفكاره، فينتفخ صدره لذلك، ويعاود الانتباه إلى انزلاق جريدته تكاد تسقط من على ركبته ليضعها تحت مرفقه على الطاولة الصغيرة المستديرة بينهم... نظر في صاحبيه... نظر وأطال... أيعلمان فيم يفكر؟

ـ وكالة... أي والله، وكالة إعلامية...؟

لم يبد على صاحبيه فهم، لكن مفاجأته أثارت فيهما اهتماماً بالغاً... غرابة ما تلفظ به أخرست وساوس عيادي لتطلع جديد... ماذا يعني؟ ماذا قال...؟

كرر بامقال بتفخيم ومظاهر اعتداد:

ـ إعلام... وكالة...

يقول إنه حلمه الذي يريد له أن يتحقق وهو الحل الأنجع... الإعلام شيء عاشه وخبره ويحيا لحظاته ووقائعه كل يوم... ماذا لو حلت محل سمسرة العسلي وكالة إعلامية، حلمه ومشروعه الذي لم يفهمه أحد... لا... لم ينصت إليه أحد، وكيف ينصت الهائمون في معارك التجاري وصولات الضاما...

مرة أخرى يتيه عيادي في أفكار با إدريس المقالات... ماذا عليه أن ينتظر؟ أن تمطر السماء ذهباً، ويُنبت اسفلت الدرب عُتهاً كالهبطي يقنع طمعاً وشراهة عسلية بأن تترك المحل إلى غيره في سبيل مشروع أو حلم مجنون لمولاي المقالات...؟! أية سلسلة هذه؟ وأين البدء والمنتهى؟

لم يكن بامقال ليحفل بتساؤلات صاحبيه، بل بنظرات مستنكرة من عيادي لم يستطع بها إيقاف حماسة بامقال، فتحولت إلى تململ وحمحمة من قبل عيادي... كان هذا جد متبرم مما يسمع، وينظر مرة بعد أخرى إلى صديقه الحاج الذي يبدو عن مجاملة على الأقل، كالمتابع لما يسمع...

تاهت خواطر بامقال في أمجاد الكلمة التي يحرك بها هامد السكون، أو موات القلوب والضمائر... الفرصة الآن زفت في حلة عروس زاهية الألوان... لتكن بداية البداية لشرح كل تفاصيله... وكالة إعلام؟ من كان يقدر أن يجد بامقال له مستمعاً... ها هو ذا الآن مطلوب ومسموع... تفاصيل المشروع في خدمة الكل... إخبار... توعية... نشر... مؤسسة كاملة... ما العسلي في كل هذا؟ لا شيء... جناح بعوضة... والأمر أهم وأشمل... والمشاريع الآن تنبت كالفُطر في أنحاء الدرب... لم لا تكون الأسبقية لوكالة إعلامية... وهنا الخبرة وهوس المهنة الضروري، ذاك الهوى الذي لا يترك فرصة لهوى آخر أو

اهتمام... بامقال سي إدريس يساوي كياناً إعلامياً متحركاً... يقول هذا عن نفسه صراحة ويقوله الغير عنه... ماذا ينقص؟

تنفس عيادي أخيراً... بُخ... بُخ... تنفس كأنه يشخر ويلفظ بصوت مختلط... كله بُخ... في... بُخ... ماذا يسمع من هذا، من خبل بامقال؟ كله بُخ في بخ... ماذا يسمع وماذا كان يقدر أن يستفيد من مثله... غارق في أوراقه، في أحلام أيامه وزمانه بلا شغل ولا هم... لا ولد ولا بنت ولا أم ولد... مخفف من كل شيء، معفى من كل عبء إلا عبء جرائده وأفكاره! جرائده يقتنصها بالمجان، وأفكاره يطرق بها رأس وقلب من تقوده الظروف إليه أو تتصيده شباكه...! هذا هو السي المقالات... بّخ في بّخ... ماذا يقدر أن يأتي منه غير ما عنده... وكالة إعلامية؟! ومبنى ومركز ومؤسسة وإدارة وتجهيز... وشركة من الغيب تطير بوجود العسلي فجأة، وتميل خاطر القشاش الملاك... لينتصب كل شيء حسب مخيلة مريضة كما ينبغي أن يكون وبالمقاس..!

ـ ودّي يا ودّي!؟

أصدرها عيادي بصوت مسموع لعله كان مناجاة لنفسه أو همساً... قالها محركاً رأسه في شبه يأس، وعلى نحو أثار اهتمام بامقال... حركة لم تكن لتفهم على حسن نية، مما جعل بامقال يتحفز شبه مستفزّ، الحاج نفسه يدرك الحركة، فيمد يده يلمس كتف بامقال، يصرفه عما راوده، ويعود به لصلب الموضوع... طالباً القول باختصار وينطلق بامقال من جديد في تيار أفكاره... في البدء كانت الكلمة... وكان الخبر... وكان الإعلام... كانت الحلقة وكان البريد النقال على الخيل... وكان الحمام الزاجل وكان وكان... لا تقدم ولا تطور بدون خبر وإعلام... ما العسلي؟ بصقة في بحر... جناح بعوضة في أهمية الموضوع وخطورته وسشاعته... لو كان إعلام حقيقي، ما كان لشر أن يحتمي أو يفرخ...

وبدأ بامقال في حمية محاضر أمام طلبة يفصح ويبين، وبين حين وآخر ينظر في عيون مخاطبيه، يتفحص أثر الكلام، أو كأنه يفعل ذلك دون أن يهتم بعلامة تذمر يمكن أن تظهر عليهما أو على أحدهما على الأقل... ويتوقف برهة يسوي بها نظارتيه، ليضرب كفّاً بكف أسفاً على من لا يعرف قيمة الخبر والإعلام، وأهمية مشروع وكالة إعلامية أهلية مستقلة... يقول ذلك ويشرح نفسه بنفسه:

ـ أهلية يعني مستقلة... هو... هو...

تتيه نظرات بامقال في الفكرة والمشروع والماضي والمستقبل وجهل العالم حوله في دربه على الأقل، بأهمية ما في رأسه من أفكار... وينتفض محدقاً في نظرات صاحبيه، انظروا الأموال المهدورة في فنادق قل أن تملأ على مدار العام... وفي غابات من الإسمنت قضت على الأخضر والأزرق، وحجزت أفق الرؤية عن العباد... ثم قارنوا من أين يأتينا الخَبر؟ ليس من سوق الجيارة طبعاً... ولا حتى من سوق القريعة... إنه يأتي من الخارج ليغسل أدمغتنا... انظروا واحسبوا بكم نشتري الخبر الذي لا يهمنا... بينما لا نعرف ولا يعرف أحد ما يجري بيننا أو بحينا... الخبر صناعة مضمونة الربح وتجارة كل عصر... العسلي ما العسلي... لو كان إعلام حقيقي لطار العسلي والعسل كله...!

تمر أحداث ومشاهد متداخلة متسارعة في ذهن بامقال، ليسأل نفسه محدقاً في صاحبيه:

ـ من علق صورة السلطان في القمر؟ بأي سُلم أو حتى صاروخ تستطيع ذلك؟ ومن يقدر عليه؟

ينظر في صاحبيه ليجيب نيابة عنهما: إنه الخبر وسحره ومعجزته والإعلام ودوره وأهميته... وإنه الإنسان قبل كل شيء...

يحدق في صاحبيه، بوده لو يطيل في هذا الموضوع بالذات، فهو مفخرة له، لكنه كثيراً ما كرر ذلك على الأسماع... فيكتفي بأن يعلق بأن هذا مثال على التصنيع الإعلامي، صناعة الرأي العام وفق الدعاية، والآن نضيع قدراتنا ونقتات بإعلام من كان عدونا بالأمس القريب... بوده أيضاً أن يفصل ويطيل... ولكنّه كثيراً ما كرر ذلك...

ويتساءل فجأة في وجه صاحبيه:

ـ والوجود؟ الوجود الاستعماري؟

يتوقف متأملا ملامح صاحبيه، ليهدئ قليلا من ثائرته في الحديث، وكأنه بتغيير نغمته ورنّة الحديث يدخل بهما في منعرج جديد.

يقول كالهامس:

ـ الوجود...؟ كان اسمها الوجود الفرنسي... جمعية... منظمة رهيبة خارجة كانت، حتى عن حكومتها... أو...؟

ويحكي كيف أن المنظمة الرهيبة وإن كانت تبدو خارجة عن حكومتها، كانت في الواقع سندها الأكبر... ايه... كانت سندها الأكبر...! وهذه هي اللعبة لعبة الخبر والإعلام... لعبة السياسة وغسل الدماغ... خارجة عن حكومتها وسنَد كبير لها... وأكثر من ذلك... كانت منظمة تضم كبار الاستعماريين حتى من بعض المسؤولين الحكوميين... لكنهم لا يعلنون عن أنفسهم... هذه هي اللعبة... أما بيت القصيد فليس في هذا كله... بيت القصيد يا أسيادي في شيء آخر هام وخطير...

ـ وهو...؟

يسأل نفسه بنفسه، يلقي نظرة سريعة على ملامح صاحبيه دون أن يعني ذلك في شيء أنه ينتظر منهما جواباً أو رأياً، يمضي يفصل ويفسّر...

ـ هنا... هنا بالذات أهمية الخبر... خبر يقلب الدنيا على رؤوس أصحابها... وهم من هم... لا صاحبكم العسلي..!

ويمضي يذكر كيف أنه الوحيد الذي كان يعرف ويستطيع أن يصل إلى قاعة الخبر في جريدة استعمارية كبرى... يختطف القصاصات والمكالمات قبل أن يؤذن بنشرها... قبل رئيس التحرير والمدير معاً... هو وحده كان يفعل ذلك... والتقط قصاصة إخبارية داخلية تتحدث عن اجتماع لتأسيس الجمعية الاستعمارية الخطيرة... نعم... الوجود الفرنسي ذاتها... قصاصة مختصرة لكنها كافية توضح الأهداف والأسماء الكبيرة المحركة. جمعية لضرب الوطنيين والفدائيين بالقتل المباشر، وتصفيتهم حيثما وجدوا... خبر خطير... وخطير جداً... ويطير بامقال بالقصاصة، وفي الغد يظهر عمود أبيض في جل الصحف الوطنية عن خبر حذفته الرقابة... أكثر من ذلك طُوقت بنايات الصحف الوطنية واستُجوب الصحفيون والقائمون عليها بحثاً عن مصدر الخبر... أما الصحف الاستعمارية فلم تنشر أي شيء عن الموضوع، بل لم تستطع وما كان لها أن تفعل... وهذه هي صناعة الخبر ليس كل ما يرد يصلح للنشر... فالعمل السري خصوصاً لا يريد له أصحابه الذيوع... أهذا كل شيء... لا، طبعاً... أما بيت القصيد... فهو أن بامقال ودائرته من رفاق وقادة خبراء في الإعلام، قدروا أن الخبر لن ينشر في الصحف الوطنية بسبب المنع والقمع والرقابة، ولن ينشر في صحف العدو لأنه سر لا يفشى... أو قد ينشر محولا مؤولا... بيت القصيد أن بامقال وجماعته... هيأوا... صنعوا إخبارية جديدة بنت لحظتها: نشرة بالخبر المفصل، أرسلت إلى جهات العالم الأربع بكل التفاصيل وخاصة الأهداف والأسماء... هكذا نشر الموضوع وذاع...

توقف لينظر بقوة في ملامح صاحبيه مؤكداً مباشرة أن حكومة الاستعمار جنت وانفضحت، وانفضح المتآمرون قبل أن يشرعوا في مخططهم الجهنمي...

أصبحوا في خطر من أن يقتلهم الوطنيون والفدائيون...

ـ النتيجة؟

ويجيب بامقال بنفسه أن النتيجة كانت مباشرة، فقد تأخر تأسيس تلك الجمعية عاماً على الأقل أو أكثر... وبعد أن استعد الوطنيون لمواجهتها... ماذا يساوي العسلي في مثل هذه الأحداث؟ لو توافر إعلام كما يفهمه ويريده بامقال، لما تحمل أحدهم أن يسمي العسلي بعد اليوم... لكن لا حياة... لا حياة لمن تنادى...!

بّخ... بّخ... كان عيادي يحادث نفسه أمام سيل الثرثرة المقالية... ويؤكد في داخله وهو يتابع تهويمات بامقال:

ـ أيوة... تسنى يا الجن حتى يطيب اللحم!

وجِنُّه كان أزرق حقّاً... أحمر حقّاً... لاهباً محترقاً وحارقاً كصاحبه وحامله... كان عيادي متعجلا متأكداً فيما بينه وبين نفسه بأنه... إذا لم يتم شيء محسوس، وفي الحال، فستحدث كارثة محققة في رأس عيادي أو بيته... على الأقل، فكيف ينتظر إلى أن يستوي مشروع بحجم خيال بامقال وحلمه!؟

بّخ... بّخ... كانت تتردد كشخير داخلي مكتوم في نفس عيادي... كل ما يسمعه من داخله نفَس خائب مصدوم في كل ما يسمع... هو الذي تمتلكه فورة غضب وغيظ، وتتضارب فيه أمواج متعارضة متناقضة، ويركبه جن من كل لون ونوع ملتهب مستعجل يغذيه الضّيق والحسرة والحيرة، ومشاعر الكرامة المهدورة، لَم هو بالذات... الآن؟ كان يرى ما يلحق الآخرين متحسراً على عدم شعورهم أو تجاهلهم لما يحدث لهم وحولهم... لم هو بالذات؟

يلتقط الحاج دلالة الموقف من عيادي مدركاً تبرم صاحبه، ويتعمد أن يتدخل موقفاً تيار سي إدريس بسؤال محدد عن نقطة البداية من الآن، مؤكداً

التزامه وعيادي بكل ما يتطلبه الأمر...

الأمر... الأمر يتطلب توسيع الدائرة، واختيار العناصر الفاعلة، والأوراق القوية، كما يقول التجاريون في لعبتهم... لا بأس من لغة التجاري في هذا المقام... لا حرج في ذلك لدى المقالات، بل إنّها لغة لها فاعليتها... اللعبة أخطر، ما في ذلك شك... لكن المسيرة الأطوال تبدأ بخطوة أقصر...

نقطة البداية في اختيار العناصر وتحديد قيمة الأوراق وقوتها... لتكن البداية مثلا من القشاش مثلا... إنه ملاّك... له أكثر من دافع يمكن استغلاله واستقطابه... ولا بد من المال...

يضيف ذكر القشاش أزمة تعتمل في داخل عيادي... القشاش له أهمية خاصة... أليس محل العسلي جزءاً من دار القشاش؟... لا يهم أن يكون القشاش في عرف عيادي وغيره عديم المروءة أو بذيئاً أو أي شيء حقير... ليكن متهالكاً على المال بأية طريقة، فالدرب طويل يحتاج إلى رفاق المراحل، لكل مرحلة رجالها ورفاقها، ولا يهم إن كان القشاش يرضى بجوار العسلي لقاء أجرة كراء قذر، دون أن يعبأ بما يجره ذلك على أهله وسمعته... لا يهم... إنما المهم أن الرجل رقم هام في معادلة يجب أن يكون في صالح المشروع، وعاملا مساعداً أو محايداً على الأقل...

كان مول المقال، قد أصبح يتحدث عن الوكالة الإعلامية، كأنه بالفعل يعاين مؤسسته في واقع حي، أو حتى في مشروع قائم مجسد... لم يكتمل، لكنه قائم مجسدٌ محسوس... مشروع لا يمسه وحده، بل يهم الناس جميعاً على الأقل من حيث أنهم يجب أن يلتفوا حوله... يوجدون له المال اللازم... والوقت اللازم... وكل الفرص الضرورية، وعلى الأخص لأن يخلصوا له ويضحوا من أجله في البداية على الأقل... ويستدرك أفكاره فيما بينه وبين نفسه...

فيم يتحدث عن تضحية؟! زمن التضحية، ومثله زمن الإخلاص قد ولى أو ندر أصحابه... ليتحدث بوضوح عن مصالح واستثمارات... تتطلب الصبر في المراحل الأولى قبل أن تصبح مدرة للأرباح... ليقل هذا وليكن مخلصاً فيه وله... يكفي أنه هو يستطيع أن يضحي ويخلص ويفي... يكفيه أن يستوي المشروع والحلم متجسداً أمام الفنادق الشامخة، ما استقام منها وما هو في طريقه لينبت كالفطر... لكل هواه... وهو في هوى مؤسسة يكفيه أن تحقق حلمه وسره...

يزداد شعور عيادي بالضياع، رغم محاولات الحاج لتفهم الاثنين في تعارض ما يتجهان... يشعر عيادي بأن قضيته تنحاز للهامش... كأنّها مناسبة يستغلها من يريد، ويستثمرها من يقدر، على طريق ما يلهج به المقالات في مشروعه، المشروع البخ...

يفور صدر عيادي ويغلي في يأس المتأكد من أنه أضاع وقته وهمه، في خيالات با إدريس المقالات!

15

في غمرة انشراح وطيش عارمة، بدا لها كمن يحاول أن يخرج من جلده... فعلا كان يقود السيارة بتؤدة كاملة وهو يهتز مرحاً لما تصادف أعماله من نجاح في يومه... يذكر لها الأرقام... لتتصورْ في يوم واحد... مكسب عمر... تصوري... من يتصور؟ يوم واحد... لحظة تأتي بمكسب عمر وأعمار عديدة محظوظة... من يتصور؟

بدأ فعلا ينزع عنه معطف البدلة منحرفاً إلى اليمين وإلى الشمال، متيحاً لكل من كتفيه وذراعيه الانزلاق من الثوب... لم تفهم، وبدأت تساعده... توقف وقال لها إنه يريد الخروج من ثيابه... يشعر بالحاجة إلى حماقة صغيرة يشعر بها أنه حيّ فعلا... حر فعلا... يملك نفسه فعلا!

حملقتْ فيه بأقل دهشة ممكنة... يعاوده الشغب الدفين، وظمأ المتعة والحرية، قال إنها خلقتْ الشغب والطيش، أو أنها جعلتْه ينبعث من عقاله في الأعماق... لا يهم... فهو بذلك وحده... وبها وحدها... أسعد كائن... شريطة أن يمارس ما يريد، متى يريد... ذاك ظمؤه الذي لا يرتوي... وهو يريد

الآن أن يمارس ما يريد... الآن... يريد أن يخرج عن ثيابه كما كان يفعل أحياناً، وهو صبي ربيب فقر وإملاق، أو كما فعلها مرة واحدة على الأقل لا تُمحى من ذاكرته... تحت وابل إمطار، كان يرتدي شيئاً ما يعتبره ثميناً وعزيزاً، على قلة ما ارتدى في صباه، وفقره من ذلك، وإذا به ينزع ما عليه، يتأبطه وينكفئ عليه خشية أن يبتل ويسير عارياً... عارياً تحت المطر غير عابئ بشيء أو أحد... إلا بألا تبتل ملابسه الوحيدة الثمينة... الهزء كله... الهزء الأكبر كان ينتظره في الغرفة الوحيدة الضيقة المزدحمة بإخوته ووالدته... لعله عوقب زيادة على ذلك... ومرض... لكنه لم يندم أبداً... وأبداً لم يعتقد أنه أخطأ!

لم يكن أمامها إلا أن ترقبه محذرة من عواقب ذلك ليلا... في موقف عمومي... ولم يعد طفلا... ولم يكن ليوقفه شيء... وعندما تحرك بسيارته مخترقاً قلب المدينة، لم تكن الحركة على أشدها... ولم يَبْدُ على أحد أنه يلاحظ شيئاً غير عادي... حتى عند الوقوف أمام ضوء المرور... على العكس، كان أحمد رقيبة نفسه يضغط على منبه السيارة، إثارة للانتباه دون جدوى... شرطي المرور... أحدهم وحده رفع إشارة التحية للسيارة الفارهة المنسابة أمامه وقربه باختيال، دون أن يثيره شيء وكأنه ينظر ولا يرى!

على امتداد شارع أنفا... طلب منها أن تقود بدلا عنه ريثما يتم جزءاً من حماقته... مستحيل! لكنه كان قد انزلق خارج السيارة وأخذ يسير على الرصيف يهرول راجلا عارياً كما هو!

راقبته ثم تحركت بالسيارة، تقودها بمحاذاته لبعض الوقت، قبل أن يرتد إلى نفسه... ويقفز إلى جانبها داخل السيارة، ضغطت بأقصى ما يمكن ترفع سرعة السيارة إلى مداها وهو إلى جانبها غير عابئ، يطير طيشاً وشغباً... لتتصورْ... عليها أن تتصور كيف تنزل ثروة حمقاء في لحظة واحدة، دفعة واحدة... هكذا تنزل على قلبه الصغير الذي لا يحتمل زيادة ثروة... تصوري

أية حماقة مالية تحكم الكون كله... ألا يطير عبثاً وطيْشاً... هو الذي لا يحتاج إلى مزيد... وكان... كان... كان يحتاج إلى مجرد كسرة خبز وقماش..؟! أليست حماقة... حماقة... حماقة؟! أي شخص كان ويكون، أي اسم كان ويكون!؟

حماقة الزمان... حماقة الاسم... الاسم والمنعرَج الاسم الدليل والاسم البديل... لا يهم، لم يكن يهم، لم يعد يهم...

يتخلف الاسم أم يصعد؟... يغيب أم... يظهر؟ لم يعد يهم، لائحة الناجِحات كان لها وقع في القلب... أصداء في الوجدان... تملأ التجاويف... تفيضَ الحرارة أو النقيض الصقيع... ترفد الآمال، وتشرح الظلال أو...

ليتصدر الاسم اللائحة أو... ليتخلف بالمرة... سيان، الاسم حروفه نفسها كان لها مذاق خاص في العين واللسان والقلب... تغري كانت، بأن يتهجاها النظر يسرح في تعاريجها مبتهجاً؛ يشهق بها الحلق ترديداً وتجويداً... يرتعش لها القلب... يرتجف. رعشة الطرب رجفة الانتشاء، ويقفز الكيان كله قفزاً صائحاً... أمرباط نجحتْ... رقية أمرباط! الله الله... وتُعانق أذرع الفَرحة كل من تصادفه في طريقها كأنما الدنيا كلها اكتملتْ؛ لم يعد شيء يهم، سنة باردة كالجليد المجلد... كقَرّ «اللّيالي» أقسى «ليالي» وأطول ما عرفتْ في حياتها، لا تبعث إحساساً بأي شيء... سنة ميتة أُكملتْ ربيعها الثامن عشر، لم تعرف شبيهاً لها من قبل، وتنذر بسنوات أكثر موتاً وقسوة وصقيعاً...

تتدافع الخواطر أمواجاً متداخلة تطغى على ضجة رفيقات الداخلية تتبادلن التهاني، تتهامسن، وترفعن الأصوات والضحكات، تتقلبن ما بين لحظة تهنئة ولحظة مواساة لمن لم يسعفهن الحظ... سعيدات جميعهن بانتهاء عام، بأوبة إلى الأسرة، بإطلاق سَراح. خواطرُها كانت تهدر في الرأس، فتضرب

في الجوف، تغطي عن كل ذلك... لم تهنئ أو تواس، ولم تشعر بأنها في حاجة إلى شيء من ذلك بفعل الواجب أو المجاملة والتآزر... لم تبتسم إلا آلياً دون بهجة... لم تَدْر إن كانت الأصوات في الجلبة البهيجة الدائرة قد توجهتْ إليها بإيماءة أو إشارة... إنما كانت تجمع أشياءها، ترمي بها، في قعر الحقيبة السوداء بعضها فوق بعض... قبّلتها أكثر من صديقة مودعة مسرعة، ظلتْ تدور حول نفسها... الدفاتر العزيزة... الكتب الرفيقة... لا تثير كلها أكثر من نصف نظرة... نصف نظرة مهملة لكل ما هو دراسة... تتجنب في حركتها أن تلمس الكتب والدفاتر... توشك أن تغلق الحقيبة التي بدت أكبر مما يلزم لمجرد ملابس قليلة محدودة معدودة... أخيراً، وضعت يدها على الكتب والدفاتر، أعادتْ ترتيبها على الرف بحركة آلية... مرتْ عليها جميعاً بأناملها دون أن تتوقف عند شيء منها، كررتْ ذلك أكثر من مرة... على رفوف الخزانة الحديدية المشرعة المصراعين... تنبهتْ إلى ما يلفها من هدوء في الغرفة... تلفتتْ إلى الأركان. الأسِرّة الأربعة تنطق الفراغ... تذكرت أنها سمعتْ كلمات وداع... تلقت قبلات في أعقاب الجلبة التي كانت تحيط بها في الغرفة... ليلفها وحدها الهدوء، خلا كل شيء في الغرفة إلا منها، وأمواج الخواطر الهادرة، مدّت يدها إلى الوسادة، سلخَتْ غشاءها، وأزالت عن السرير الحديدي غطاءه والإزار، طوتْ ذلك، وأوقفت المضربة، لتبقى شبكة السرير الحديدي وأضلاعه متبدية صدئة في تقاطعها كبقايا هيكل عظمي لوحش منقرض... أجالت بصرها في الغرفة... كل شيء أصبح موحشاً حولها... مسحتْ من جديد على الكتب والدفاتر كأنما تتفقد حالها في اللحظة الأخيرة، حملتْ حقيبتها وخرجت لا تلوي على شيء ولا تفوه بكلمة حتى لحارس الثانوية الطيب العجوز، الذي ظن أنّها حيته أحسن تحية، فتابع خطواتها بالدعوات الصالحات... الله يصلحك يا بنتي... الله يكوّن منك... منكم كلّكم...

تَردّدُ في سمعها الدعوات، تترسب في الأعماق، أمنياته لها ولهن بالسلامة والنجاة في الذهاب والعودة تغوص أكثر، تضرب في أعماق وأحلى ذكرياتها... دعاؤه لها ولهن يدفع بها إلى بعيد وقريب... عندما كان صوت الوالدة ينطلق بمثل ذلك داعياً بالصلاح والفلاح والنّجاح لأعزّ ما تملك أم في دنياها ابنتها، ذكرى الغائب الذي لم يعد ولن... وكانت رقية مستجيبة لدعوات الأم لها بأن تضمها إليها مودعة؛ تمد في عمر اللحظة، تشتم عبير القرنفل والحناء من الحضن الرحيم، وفيض الشوق والحنان في الذهاب والإياب... رقية وحيدة قريتها التي ظفرت بمنحة لإتمام دراستها الثانوية في بني ملال... الله يصلحك يا بنتي، ويقويك... ويعلي راسك كما عليت راسي... يعليك دنيا وآخرة... آه من سحر الكلام، وفضل الدعاء الطيب الصادق تتلقفه روح رقية... تتشربه وتعتصره تختزنه زاداً دائماً.

عندما طرقتْ باب الخالة في المدينة لتحل عندها بانتظار الغد، نبهتْها هذه إلى أنها حافية أو إحدى قدميها على الأصح... أجابت رقية بدون حرج أن فردة الصندل الأخرى تقطعتْ، وهي في الحقيقة - بدون حرج - تنوي أن تسير حافية أو شبه حافية إلى الثانوية غداً، إذا لم يسعفها الخراز باكراً بإصلاح ما تقطع! لكن الخالة تسعفها بحذاء صالح كان لابنتها الكبرى قبل أن تتزوج...

تمر السنوات أياماً في عمر الفتاة الغافلة الطموح... تزور خالتها نهاية كل أسبوع... تعود إلى قريتها عند كل عطلة... تنبهها بعض الصديقات في شبه إهانة وتحقير، إلى أنها لا تغير أبداً ما تحتَ البلوزة الوردية المدرسية!

ناظرة المدرسة تشجعها وتعطف عليها، فتدعوها لإنجاز بعض الأشغال البيتية في دارها الملتصقة ببناية الثانوية، وتنفحها ملابس وصابوناً وغسولاً، وماء كلونيا أحياناً... مما كانت رقية، تدخر منه لأمها هدية، ولخالتها أيضاً، بين الحين والآخر... كانتْ تبدو غائبة متلبدة الإحساس عن كل ما يراه البعض جارحاً

للكرامة من مظاهر العوز... محصنة ضد كل عقدة ترتبط بالفقر والحاجة... كأنها تغترف وحدها من كنز القناعة والشعور العميق بالغنى الشخصي؛ أم هو انعكاس يقينها الكامل التام، بأن المعركة في هذا الباب خاسرة، ولا داعي لافتتاحها؟! على كل حال، كانت تبتسم لكل شيء ومن كل شيء؛ ابتسامة عريضة يلمع في فضائها اللؤلؤ صافياً على إشراق ثغرها، وترتسم متوردة بسحر على وجنتها غمازة ساحرة!

كبرت يا العفريتة؟ أهي بداية التغير في كل شيء؟ عبارة نطق بها زوج الوالدة مشفوعة بقرصة على غمازة الوجنة، ونظرة لم تدرك لها رقية معنى في الحال، لكنها تملؤها نفوراً تشعر به يكاد يطير من عينيها وأظافرها في وجه الرجل، ولعله بما لمح لم يزد على أن حرك في باطنها ما هو أعمق وأكثر في حق وارث الوالد... خلفه في فراشه وزوجه، ذاك الحدث الذي ظنتْ أنها قبلته، وهي في خضم حياتها بالثانوية تلميذة داخلية، بعيدة عن قريتها إلا في المناسبات ورقصات العيد الجماعية عند عودة العطل... كبرت؟! وعفريتة؟! ونظرة وقرصة على الخدّ عقب ما أبدعته فتيات القرية وفتيانها من رقص وغناء تحت بدر مولدي، في ليلة صدحت بأهازيجها وديان القرية... أهي بداية التغيير في كل شيء؟

نهاية العطلة، ورقية أمرباط تتأهب للعودة إلى بني ملال، حين أطالت الوالدة في الوصية والنصيحة... لم تعد لحظة الوداع كما كانت... تلك التي تفوح بعبير القرنفل والحناء... وبالدفء والحنان... اشتمتْ رقية ريح كلونيا تفوح منفرة من أمها... معالم صبغ وآثار كحل... بدتْ لها غريبة... غريبة... غريبة... تطيل والدتُها الوصية والنصيحة باردة بلا روح... تمنتْ رقية لو تُطلقها إليها في جملة واحدة أو كلمة أو حرف، وينتهي عالم النفور المنفّر... لكن الوالدة تُمسك بها مسكة التنبيه من الساعد أن خذي بالك... في أوبتك

القادمة ستزفين إلى إبراهيم! ماذا ينفجر وماذا يبقى؟ ماذا تسمع وماذا تنكر؟ إبراهيم أخو زوج الوالدة؟! ألمٌ حاد طويل مديد يخترق السمع... طنين يخترق الرأس من السمع إلى السمع، يهز قنة الرأس، يشد بلمة شعرها ويفجر الجبهة... تدور حول نفسها دائخة حمى... تلمح المستقبل السعيد، زوج الأم على القرب يمسح وجهه بيده متكئاً إلى شجرة عتيدة وارفة الظلال بصحن الدار... ينظر إليها ذات النظرة الغريبة، وبملامح الرضى والاعتزاز... أهي بداية التغيير؟!

لا المدرسة مدرسة... لا الدروس ولا الرفيقات كالعهد بهن، ولا نظرة الفضول وأفق الطموح ولا الجموح... لا شيء بقي كما كان... ومكمن التغيير أين هو؟

لأول مرة وعتْ رقية احتياجها... عريها وفاقتها الشديدة... لأول مرة طرحتْ من حسابها هذا القميص لأنه رث، وذاك البنطال لأنه... والجاكيت لأنهما هبة الناظرة... والحذاء... و... ولم يتبق لها منها شيء؛ شيء لها بحقّ، ومن أجلها... وعتْ نفسها لأول مرة عارية... عارية تماماً أوك... لا شيء لها مما عليها... ثم لا شيء لها مما فيها: ستتزوج! تتزوج! هكذا يريد لها الحنان والنظرة الغريبة وقرصة الوجنة... وكبرت يا العفريتة... والبكالوريا على مبعدة عام واحد! ومن؟ تتزوج إبراهيم! ولتسعدْ لياليها معه، وتتداخل آهاتها وآهات الوالدة في حب وسقف مشترك! وما بعد البكالوريا؟ الأعجب في كل هذا العالم الذي تدافعت إليها عجائبه مرة واحدة، هو هذا الجسد الذي تحس به يترعرع فيها، يفيض قوة ونضارة ونُضجاً، بفعل ساحر خفي، كأنه يرتوي من منبع الفاقة والبؤس... رأتْ ذلك في النظرات، في الملامح والإشارات... وفي حركات واضحة فاضحة مباشرة، الخالة التي منّتْ رقية نفسها بأن تقضي عنْدها عطلة الصيف تجنباً لعودة القرية... ومنت نفْسها بما هو أكثر، بإقامة دائمة عند الخالة وبنظرة وانتصار لرغبتها، وحماية لطموحها... قالت بحسم:

يا بنت أختي... كبرت... وتزوجي أحسن لك... ناظرة المدرسة أصبحت فاترة... جد فاترة إزاءها بما لا يفسر إلا برد على عطف ملحوظ أو إشارات التقطها حس خاص، صادرة عن زوجها المهندس الفلاحي يوليها لرقية، وهو يناديها كل حين لتذهب بهذا الشيء وتأتي بذاك، منتشياً فيما بينه وبين نفسه بتتبعه البريء لحركاتها. حس الأنثى لا يخطئ، وحس الزوجة أمضى... وحس رقية! تبلدت عناية الناظرة بتلميذة كانت تبدو نجيبة محببة... ومضتْ سنة باردة قارسة... لحظات موات بلا طعم ولا نكهة... توجتْ بتخلف الاسم لأول مرة، عن لائحة المتفوقات المرتقيات إلى صف البكالوريا... ليتخلف الاسم أو ليصعد إن شاء. سيان! ولا يثير ذلك بالاً لرقية، حتى لو ظهر الاسم كعادته: رقية أمرباط... زاهي الحروف لماعاً، بارق النقط... الأمر سيان... بمنحة حكومية أو بدون... داخلية أو بدون... مضَى إلى غير رجعة ذلك الحلم المحدود الذي كان بلا نهاية يسع آمال الدنيا والآخرة... سعة الكون، رحابة الأفق... ولّى إلى غير رجعة زمن الطموح والتسابق والتحصيل... وماذا بعد؟ لأول مرة يبدو طريق الدراسة صعباً شاقاً وبلا منفذ؟ لأول مرة يظهر الفقر على حقيقته، وأكثر من حقيقته... يبدو الآن الفقر فقراً، والعرى عرياً، والعيب عيباً، أهي بداية التغيير أم نهايته؟ ماذا يبقى؟ تبقى أنت، وأنت وحدك المترعرع على أنْقاض كل شيء محطم، سالب ومنعدم... أنتَ الذي تطفح مرحاً، وتَستضيء إشراقاً، وتشيع طرباً وفيضاً... أنتَ الذي تَذوب كل عذابات الحقيقة في الأعماق، وتظل منها وحدك خصباً فياضاً سعيداً... أنتَ حامل الصوت والصدى، والوجْنَة والغمازة والحركة والمحيا... أنتَ وحدك أيها الجسد المنتشي وحدك في الأغوال والأغوار والكوابت والكوارث! ألا تكون أكثر من كاذب وأهم متوهم، كدرب الدراسة والطموح والفضول؟! ألا تكون مجرد خداع للنفس والناس والمرأة ذاتها والمرآة؟ لم يبق من شيء إلا أنت وأنا... وهذا طريقنا...

طريق الجسد المترعرع يفوح صباه وصداه، طريق المنعرج المجهول... رفيقان معاً نمضي تصعيداً وانحداراً، دوراً واستقامة... رفيقان نسير، نسلخ منا ما ينسلخ، نلتحف ما يلتحف على ألا تكذب أو تخون أو ترجع... نمضي سوية طريقنا ورفيقنا الاسم البديل...

ليتصدر الاسم أو ليتخلف... الأمر سيان... المنعرج والمرتفع والمنخفض... الرفيق الرفيق الجسد المترعرع الفياض... والاسم البديل... رقية... حورية... امرباط... النسيمي اسم وآخر... ليتصدرْ أو يتخلف... سيان... من يذكر؟ هي والدة نفسها هي سمّتْ... وسبّعتْ... وتمخضت بنفسها عن نفسها... حورية النسيمي... ومذاق الذكرى البعيدة مرارة وعلقم... ليتخلف الاسم أو... لتتخلف ذكراه وذكره... مرارة... علقم...

استرخى أحمد رقيبة وقد عاد إليه هدوءه إلى جانبها... لم يكن ليحس بابتعادها وتجوال خواطرها... إنه لا يملك إلا أن يحس بوجودها إلى جانبه، تقود وتشهد على حماقته... إنه فعلاً يتمنى أن يكون لنعمته كما لحمقه شهود... شهود فرحته وطيشه الصبياني... قالت حورية إنها تشهد بذلك على ذلك... هي شاهدة، والدنيا كلها تشهد على أنه أحمق... أكبر وأكثر من كل حمق... إنه الحمق ذاته والجنون كل الجنون... ماذا يريد أكثر...!؟

كان يتابع تبرمها المخضرم... تبرمها المطعم بالتضايق وبالعطف... بالإنكار والقبول... يظل يتابعها مقهقهاً بعمق وصفاء تام... منهمكاً في استعادة سمته وكامل هيئته... ماذا يريد أكثر؟ أية حماقة خطرتْ له ولم ينفذها في الحال؟ شاهدة حمقه إلى جانبه، حوريته هي خالقة حماقاته... فجرت فيه النبع ووقفت تتفرج شاهدة! شاهدة فقط؟ يتساءل ضاحكاً في صفائه... هي نبع كل شيء حي وحيوي فيه... شاهدة ولعلها تغار من تفوقه عليها...! ممكن... وهل ترضى وهي معلمتُه أن تكون مجرد شاهدة متفرجة على أحواله؟!

نظرت إليه متسائلة إن كان فعلا يقصد ما يعبر عنه أم أنه مجرد مازح؟ كان مازحاً وجاداً.. ما الفرق عندما تكون الدنيا نفسها لا تقيم حدوداً؟ يود بصدق أن يشهد العالم كله على حماقاته... يود لو يشهد غيرها أيضاً ما هو فيه؟!

مرة أخرى تنظر إليه مستنكرة فعلا، هلا رغب في شاهد من شلته القديمة... تلك التي تركته وتركها... أيرغب فعلا في ذلك؟ أيكون قد استوفى مباهجها، مباهج دُنياها وعلاقتها لينساق في صبيانيات، مجرد دمية فقدت جدتها؟ داؤه القديم إذن، داء الشلة القديمة من زمانه الغابر... يريدها شاهدة... بل... وربما يريدها مشاركة... ألم تكن شلته معه كذلك؟!

كيف تفكر في ذلك؟ قاطعها كالمستنكر، غائباً في قهقهته العميقة الصافية وقد أكمل هيئته إلى جانبها... كيف يخطر ذلك ببالها؟ وحتى لو حصل... فالأمر يظل كما تقول هي وتريد دائماً: لنَعِشْ لحظتنا...

16

قامت الستاتية باكرة... ولم تكن قد استيقظت لأنها لم تنم. قامت، تسير كالمجمدة، أفلتت رجلاها القبقاب أكثر من مرة... لم تخفض عينيها لتتبين مكانه في القدم... حاولت أكثر من مرة أن تصيبه حافية بهيكل يترنح... تثاقلها كان أكثر من أن ينسب إلى هيكل أو تعب، فما أقل ما تعودت أن تنام في حياتها...

صبّت من الدلو في سطل معدني حد الامتلاء... أشعلت الموقد الغازي ووضعت فوقه السطل، ثم وضعتْ قعدة خشبية قرب الحائط، وحذو مجرى الماء...

تركت ذلك وانصرفت إلى العجين وتحضير الإفطار... إفطار الغريب كما تُسميه فيما بينها وبين نفسها... دون أن تدري سبباً لذلك... تدري وتدري فقط أنها تعاني من شعور قوي بأن إفطاراً كهذا... بهذه الطقوس يُسلم إلى غربة... هو كذلك لأنه يُسلم إلى غربة... غربة حبيبها عليّها... وغربتها هي أيضاً... عنه... غربة مضاعفة... جربت وعانت طعمها...

أنْهت كل شيء... كل شيء جاهز... كانت تتحرك بهدوء... بدأ التخشب يزايلها بفعل ما أُنجزت... بفضل ما تحركت... لكنها في أعماقها التي تضج بالصمت كانت أكثر تخشباً وجموداً.

حرصت على أن تتركه في نومه آخر الصباح... وخفّفت من نار الموقد تحت سطل الماء الذي بدأ بخاره يتصاعد... غرفَتْ منْه آنية وشرعتْ تصبها على القعدة الخشبية تُبللها وتنظفها إعداداً للاغتسال. مسحتْ يديها بمنديل، ثم عادت تلف الرغيف والبغرير في فوطة حفاظاً على حرارته وطراوته. أعدتْ صينية الشاي، وضعت صحن العسل والزبدة على المائدة الصغيرة المستديرة... كل شيء جاهز... ظلت تدور بعينيها حولها لتتأكد... نعم، كل... كل شيء جاهز... أعدتْ صابونة معطرة ومحكة ليفية ووضعتهما على طرف القعْدة الخشبية... علقتْ فوطة كبيرة ثخينة في مسمار غليظ مغْروز بالحائط... كل شيء جاهز... تماماً... كما تريده له... كالمألوف، تتحرك، وبين الحين والآخر تضيف لمسة هنا أو هناك... تستذكر وتعيد...

توقفتْ عن حركتها فجأة، حين أحستْ به يفيق، انتظرت أن ترى قامته تملأ باب الغرفة باتجاه الصحن... انتظرت قليلا، لم يظهر بعد، ظلتْ في وقفتها برهة كأنّها تقاوم رغبة في الإطلال عليه، لكنها استأنفت تتفقد ما أعدت وما تُعده. أخيراً ظهر، متراخياً، لم يرتح في نومه، حدقتْ فيه، حبيبها وحيدها، عليُّها نجيُّها الأوحد... أنيسها في الحضور والغياب... التقتْ نظراتهما... زاغت عن نظرته... لمحتْ أثَر كدمات على وجهِه... بقعة ملوثة على طرف الرأس فوق أذنه... دم متجمد... خرقة ملوثة ملفوفة على ساعده علامة جرح... غضّت من نظرتها وزاغتْ عنه... لم يكن ليلح في النظرة، أو يقول شيئاً... لا شيء يقال... والسؤال والجواب بينهما سريان تيار... ولا شيء يسمع أو يقال...

انتبهت المرأة إلى أنه مثلها يقف حافي القدمين، أسرعتْ إلى القبقاب الخشبي تضعه أمام قدميه... بودها لو تفرش له الأرض فراشاً مبسوطاً وزهراً، بودها لو تفرش له الخدين والكفين... والقلب... القلب... أخذته من يده، وقادته إزاء القعدة الخشبية، طاوعها كالحمل الوديع... ارتقى القعدة وانحنى نحوها تاركاً لها فرصة نزع قميصه... نأمة تأوُّه بسيطة بعيدة نائية صدرت عنه في غفلة منه، وهي تلمس عفْواً جرح الرأس فوق الأذن...

حلّت إبزيم الحزام الجلدي، وانحنتْ تجذب بنطاله إلى الأسفل... وضع إحدى يديه على كتفها، وهو يرفع إحدى قدميه يحررها من البنطال... ثم الأخرى... وسرعان ما قعد القرفصاء، بينما اتجهتْ هي إلى الماء تتفقده وتعدل من سخونته...

طفقت المرأة تصب الماء على الجسد الفتي الأسمر، تدلكه تتحسس مفاصله، متتبعة تقاطيعه بينما انكفأ علي الشخش على نفسه دافناً رأسه بين ركبتيه، مستسلماً للدفء والتدليك وكأنه الجنين في غشاء الرحم.

توقفت يدها عند جُرح الرأس، تزيح الدم المتخثر حول الجرح والشعر... تنظفه بغاية اللطف، لم تلتقط منه نأمة، لا تأوهاً ولا قشعريرة... كان الشخش حريصاً على ألا تعاني شيئاً في الظاهر على الأقل، وكانت أحرص على ألا يُحس تجاهها بشيء... تناولتْ ساعده... أبدى حركة امتناع ثم أطاع. حلّتْ ربطة عقدة اللفافة... كانت ملتصقة بالجرح... قدّرتْ أنه يصر بأسنانه، وقدَّر أنَّها تتفطر أسى، طرف اللفافة كان جد منْغرز... جد ملتصق بعمق الجرح الغائر... اضطرت أن تنزعه بقسوة مفاجئة انخلعتْ لها أحشاؤها ودمعتْ عيناها بصمت...

حرَّكهُ الألم المفاجئ الحاد في شبه قفزة، ثم عاد إلى سكونه دون نأمة من شيء، أبدى الجرح كامل غوْره... وتسلل خيط دم... أسرعتْ تبلل خرقة

تنظّف أطراف الجرح... ثم تأتي بسحيق الفلفل الأحمر... وتقف قبالة الفتى... تُمسك الساعد ثم تنظر إلى عينيه مشجعة، تضع الذراع بين ركبتيها... يزيغ عنها بنظرته مستسلماً... تنظر إلى الجرح الغائر الغامق المتفطر بجلطته الرقيقة القانية المسودة... ترنو إليه... كما ترنو إلى عدو... إلى مُعْتد تَتَحين فرصة إصابته، أو تحدد موقع الضربة القاضية التي توجهها إليه... تُمسكُ لفافة المسحوق بيمناها، وتمس يسراها حافة الجرح المستطيل تُوسع فتحته... ثم تذر السحيق في خط الجرح الغائر بحركة طولية... أي ألم صامت غائر عميق... تزم فتحة الجرح بكلتا يديها على السحيق... تعاود رش السحيق حتى يطغى فوق الجرح... أي تحمل واصطبار؟.. وتلف الخرقة الجاهزة لفّاً محكما تنهيه بعقدتين...

رفع إليها بصره... التقى بنظرتها... رأت عمق عينيه مترعاً بألم لا يصدق... يرتعش له خطّا خديه... وينسحب له طرف ثغره في شبه ابتسامة ميتة كما تعلم منه.

لفتْ عصابة على جرح الرأس... وعادت تصب الماء الدافئ على كامل الجسد المتكور المستنيم، تدلكه بالخرقة والصابون... أخيراً، سحبتْ الفوطة الثخينة، وضعتْها على كتفيه تجففه ضاغطة عليه في شبه احتضان خفي... ترك لها الفرصة لحظات... ثم قام ولفّ الفوطة على وسطه، واضعاً قدميه في القبقاب ودخل الغرفة.

ظلت في مكانها واقفة ثم عادت إلى نفسها، وطفقت تنظفُ المكان وتجفف الماء المندلق على الأرض...

لحظات ظهر بعدها الشخش مرتدياً ملابسه... أسرعتْ إليه العجوز تسرح كمي قميصه وتزررهما عند الكوعين... ثم تسوي على رأسه طاقية

عريضة جعلتها تقارب الأذنين... يعرف جيداً معنى حركاتها تلك...

هيأت أمامه الإفطار... تربع أمام المائدة الصغيرة الحافلة... وتركته لنّفسه...

جامدة كالطود... واقفة بانتصاب أمام ثغرة الباب الذي لم يكن مألوفاً أن يفتح في مثل هذا الوقت من نهار... الوقت ضحى... هدوء غريب يلف زنقة الستاتية وترقب... عيون ساهمة تحملق وتزيغ.. وألسنة ملجمة عن كل كلام...

كالطود واقفة جامدة شامخة... كأنما ركب كيانها النَّخِر المترهل عنفوان جديد... كأنما تنتظر فرجة أو مشهداً طريفاً لا يهمها... في هذه اللحظات تعرفُ المرأة في نفسها مناعة الصمت وحصانته... وتنم رفة في عينيها على حركة تقترب من داخل الدار من قعر الصحن، وثغرة الباب... جامدة شامخة تظل تقاوم رغبة في التفاتة إلى نقرة الباب، حيث الحركة تتقوى وتنم عن المتوقع... جامدة شامخة تستمر في وقفتها... طقوس يوم كهذا تعرفها وكل شيء يمر كما تعرفه وتريده، وكما تعرف أنه يريده... كما تعلّمه منها أو تعلمته منه... فقد التحما كثيراً... يومه هذا لا يريد، كما تعرف عنه، أن يحضره أحد من شلته، يأبى ذلك كما يأباه على معارفه... هذه طقوس يوم كما يعرفها ويريدها...

وأطل علي الشخش برأسه ثم صعد آخر الدرجات أمام عتبة الباب، وقف بجانب الستاتية الصامدة، أمه... جامدة شامخة... لا يتحرك فيها شيء ولا ينم... نظر ذات اليمين وذات الشمال، رنا إلى الفضاء فوقه وحوله، وقف أمامها بمواجهتها، تقابلتْ سحنتاهما وغضتْ النظرات من كليهما، ظلا في المواجهة خافضيْن صامتين ثم رفع كُرْزه الجلدي... وسار نحو مخرج الزنقة

بين العيون المحدقة المحملقة، والأعناق المشرئبة المتابعة، والخواطر المتضاربة الشاردة... سار وخطواتُه تزداد قوة، وفرع كيانه السامق في ثباته وقصده يبين عن شعور بالعز والقوة والكبرياء.

تابعته الستاتية العجوز بقلبها الواجف الجامد وموقفها الثابت الصامد، تحتضنه بالنظرات، تحفه برحمة الخاطر... وعلى طرف الزنقة بدا شبحا شرطيين ينتظران، يتأهبان لمصاحبة علي الشخش... الشخش الذي لا يقبض عليه كما يقبض على الخائفين المختفين، ولا يطرق بابه... لا يقيد بكبل ولا يساق بعنف... هو الذي يسلم نفسه، ويحدد الزمان والمكان... وهذه طقوسه... طقوس يوم من أيامه...

في نهاية الزنقة، التفت إلى العجوز حيث هي واقفة شامخة جامدة... تلاقت نظراتهما على البعد، وانطلقتْ من أعماق جوفها آهة لم يسمعها غيرها، وبمضاء لسان حاد، لعلعتْ زغرودة تشق الفضاء يتردد صداها في الأرجاء... زغرودة تمثل تمام الطقوس وكمالها... تزف عز الرجال إلى مقام الرجال... زغرودة يتيمة استطالت وتلّوتْ، طالت كأنها إحدى طلقات الشرف... ما تلبث قبل أن تتناهى أن يتجاوب الفضاء حولها بالزغاريد... زغاريد... زغاريد... طقوس يوم مشهود صامت، من أيام زنقة الستاتية كما تنعت وتعرف...

لم تعد ترى، فالتجاوب اخترق حاجز الصمت المهيمن في كيان المرأة، غاص بعيداً... يحرك الأعماق الغائرة ويغشي الرؤية والتجلد... يكسر المناعة والحصانة وصمت الكبرياء... تجاوب الفضاء والأصداء يتردد، يزيح صمام انحباس... زغاريد... زغاريد... من خلال غشاوة الدموع... من غبش رؤية الدموع الصامتة الصامدة الشامخة، يبدو شبح الحبيب يساير من على اليمين ومَنْ على الشمال... يبدو شبح الحبيب بينَهما عز الرجال في عز مقام تحرسه الرجال... يوشك أن يغيب عنها... تغوص في حلقها نهاية الزغرودة اليتيمة

عصية المنتهى... يهتز كيان المرأة كله من أسفله إلى أعلاه، دون أن تحيد عن مكانها... يهتز اهتزازاً مفاجئاً عنيفاً بنحيب مكتوم، يترك السبيل لانسياب دموع هادئة صامتة على خديها...

يغيب الحبيب... أسد تحرسه الأسود... يغيب عز الرجال إلى مقام الرجال وعز الرجال... الحبس مقام الرجال، والسجن لم ولن يكون مذلة في قاموس الحبيب وطقوس أيامه... عز الرجال يزف إلى مقام الرجال...

تهمد الزغاريد، ويخرس الكون، زنقة الستاتية تغرق فجأة في الهمود، وتبدو باردة قارسة تبعث الرعشة في كيان المرأة، وتعتريها قشعريرة عميقة تسري كدبيب يشل... هكذا يتسع الكون بلا حدود ولا أُفق، أو يضيق، يفقد البعد حتى ليخنق النفس ويعيق الحركة... الزنقة منذ اللحظة بلا طعم، ولا بعد ولا نور ولا ظلام... الحبيب كان عمارة وضياء وهواء ودفئاً... الحبيب كان صوتاً وضجة وامتلاء ونبع حياة... الحبيب كان أنيساً وموعداً ورجاء...

كانت تنتحب واقفة تترى في خاطرها المشاهد والصور، تتضارب المشاعر والعواطف... لكن الحبيب لا يُبكى ولا يرضى ولا يضام... الحبيب يرجع بسمة وقوة ومروءة... الحبيب يكون بلسماً وسلامة ورجولة، الحبيب يعود... يرجع... يكون... لا يُبْكى عليه أبداً... أبداً...

وقبل أن تتحرك الستاتية بضعة أقدام في موقفها وحالها، تكون قد شهقت واستفاقت لنفسها لتنحدر بكيانها المترهل الخائر، فارقه عنفوان التجلد وصلابة التجمل والكبرياء... وقبل أن يصلها أحد يعزى أو يصبر، تكون الستاتية قد أخذت وجهتها، تنحدر درجات المدخل... وتوصد الثغرة بالمصراع، تقيم حاجزاً ثخيناً بين عالمين إلى حين.

17

خضراء... خضراء بهيجة مبهجة بسمائها وأرضها، بما ينط بها وفيها من خلائق... واقفة بالفضاء محملة بقوة لا راد لها ولا مثيل... حافزة على الحركة... أخضر في أخضر في أخضر... خضرة لزجة تنسدل سائحة من الأقدام إلى خضرة في الأرض كلما رفعتها حركة كالسير أو القفز... خضرة جافة تلفظها الأعماق من أفواه وأسماع... تتراءى كالبخار في أيام القَرّ... بخار أخضر... خضرة مائعة سائلة تشد الناس بعضهم لبعض حتى لا يخرجوا عن لصقة اللون، قوة جذبه والتصاقه... تشدهم... العدُوّ للعدو، والصديق... الصديق للصديق، والعكس للعكس، وغير العكس... حتى الطيور في عشرتها والسحب في رحلتها، والسماء في انزياحها، والرياح في عصفها واتجاهها، والأمطار في هطولها وانحباسها... والشمس... الشمس في اعتدالها وقيظها... دنيا خضراء ما لها وفيها وعليها... خضراء وبالأخضر في الأخضر...

يحس الهبطي بدفء دافق يعمه... نبض لا أشهى ولا أرفق منه في كامل كيانه ظاهراً وباطناً، يدندن لنفسه... يدندن برفق وأناة مخالفة لإيقاعه العسكري

المعتاد... بونا آدم... بونا آدم... الترديد يصدر عنه الآن، وكأنه لنفسه، ولمن يعشق أن يسمع دندنته رقيقة بعمق الصوت وحده، لا يرافقها صفق الأيدي ولا دق الأرجل... شبه العري الطفولي الأخضر وحده، شاهد على رقة الصوت يكوّن أرضيته وشكله البارز في الآن نفسه... والصوت يبحث لنفسه عن إيقاعات جديدة أكثر أنساً وتنويعاً وتنغيماً... مخالفة للمعتاد... هذا لون له مذاقه الحقيقي الذي لم يلمحه الهبطي في كافة ما رأى من ألوان الدنيا، وما تراءت له به...

يدندن لنفسه، ولركن ما في القوس العلوي من أقواس درب الأحباس... ركنه المعتاد... بعض العطايا المرصوفة حوله على دكة داخل القوس المسقوف، يبدو لها اليوم معنى أكثر من أي يوم سابق... بلونها الحالي، يتفحصها الهبطي بنظراته وبيديه وقدميه... يتذوق منها ما يستحق التذوق... يجود ببعضها على من يراه يستحق الجود من المارة بالقرب، أو على البعد منه... لا يهمه أن يتقبل الآخر أو لا يتقبل... ليقبل أو ليرفض... لا يعنيه أن يتسلم في رهبة أو رغبة كاذبة... ثم بعد خطوات يرمي ما تسلم، وهو يبحث عما يمسح به يديه من آثار وهمية أو حقيقية... لا يهمه ولا يعنيه شيء من ذلك... وهو بنظراته ووعيه، يستطيع أن يتابع حركة الناس ونواياهم مهما بعدوا أو قربوا من مستقره، ومهما اختفوا عنه...

الدندنة في الأعماق... الإيقاع في أبطن باطنه... عيد تتراقص له الفراشات حول رحيق أخضر... حقل... زاهر زاهٍ... دفق قوة وحياة... والخلائق في حظيرتها اليوم تسري وتجري بإيقاع معقول، وما يسيح على جنباتها من أخْضر ليس إلا فيضاً من فيض، ودفقاً من دفق... دفق وقوة وحفز تدعو كلها إلى العطاء في العطاء... عيد في الأعماق... في الظاهر والباطن... يدور الهبطي حوله، ينظر إلى شبه عريه الطفولي... يتأمله... يحس بدبيب

أخضر يسري ويعم كل مسام جلده... رغبة في العطاء لا تقاوم... ينظر إلى الناس ذكوراً وإناثاً... كلهم حفز ودفع وقوة... أطفالا وشيوخاً... كلهم يعطون... كلهم أعطوا وأخذوا... كلهم في أخذ وعطاء... دفق لا يقاوم وعذاب ممتع لذيذ... لا... ليس عذاباً... شوق وتوق ورغبة عارمة في عناق لزج أخضر لكل شيء... في التحام مع أي شيء... بأي شيء...

دندنة رقيقة... رقيقة تعجز عن إيجاد كلمات، لكنها لا تعجز عن تغيير الإيقاع... إيقاع عيد أخضر، يخالف إيقاع أيام حمراء صفراء زرقاء... يعود الهبطي إلى ما حوله... على الدكة وإلى جانبها أوان بأطعمة مختلفة، وضعتها أيد في غفلة أو تغافل منه، وبدون أدنى كلمة... لا يهم... الأمر معتاد... ومعتاد أيضاً ألا ينال منها شيئاً أو ينال القليل الأقل، ويدفع بالباقي إلى أول مار... أو ثان... أو ثالث حتى ينقضي أو يرضَى... لا يهمهُ ما يحصل بعد ذلك... حوله على الدكة أفرشة متداخلة مزاحمة... أوراق ألواح من ورق مقوى... جرائد... أكوام منها تصلح لإفساد شبيه العري الطفولي... أوراق وأغطية وأفرشة تغير لونها ما بين القر القارس واللهيب المحرق الحارق... ينبذها جميعاً ويتدفأ بعريه شتاءً، كما يتبرد به صيفاً... والناس في عينيه تحترق بالكساء وتموت قرّا به... لا يهم... فالدافع الأخضر في أعماقه وحوله، في كل أبعاد الدنيا وحركاتها أقوى وأعتى من أن يكدر وأشد إلحاحاً من كل غفلة أو تغافل... تأمل... تحسس ودندن برقة ورفق باحثاً عن إيقاع جديد يتردد صامتاً هادئاً في أعماقه، لا يرافقه صفق الكفين ولا دق القدمين، وبرزت له، هكذا بدرت منه... بكل عفوية انبثقت له ومنه... قطعة جليلة مجيدة من ورق مصمت شفاف، تفوق طوله وعرضه، ولا تفضح عريه بستر كريه...

هكذا بدت له بلا قر ولا قيظ ولا ثقل ولا سمك... اللون أخضر ككل شيء فيما حوله... أخضر شفاف فوق خضرة العري... خضرة على خضرة لن

تضر في شيء، بل تفيد في أشياء كثيرة... والدنيا عيد... ستكون المرة الأولى التي يعي فيها شبه عريه المكسو بعري، وفي خضرة كاملة...

وبسهولة تامة كاملة ويسر، نشر قطعة الورق الأملس الشفاف... طويلة بطول دنياه... عريضة، بعرضها... بسهولة وكامل يسر، اخْترق ثنيها جاعلا منه مخرجاً لرأسه، تاركاً ما تبقى ينسدل على عريه من خلف ومن أمام، مفتوح الجانبين بالكامل... ودار حول نفسه دورة وأخرى، يتأمّل معجزة العري الأخضر تنسدل على عري أخضر... لأول مرة في حياته يعي هذا... لأول مرة يراه. ونظر إلى المارة حوله، مخترقين أقواس درب الأحباس على الجانبين والوسط... يمرون بالقرب البعيد، والبعد القريب... ينظر إليهم كأنه يشهدهم أو يستطلع رأيهم... أليس كاسياً... دون أن يضيع شيئاً من عريه؟.. كاسياً مثلهم عارياً مثل ما يريد أو... ليكن عارياً مثلهم، كاسياً كما يريد؛... ينظرون إليه... بعضهم يطيل التحديق سائراً حتى يصدم صاحبه أو يكاد يخترق الجدار... بعضهم يمضي يجري... لا يلوي على شيء... مَلْوي البال والعنق إلى هدف محدد في العري الأخضر أو إلى غير محدد...

استطلع رأي الناس، وفهم رأي نفسه... وعمّه رضى لا ينسب لغير يوم العيد، عيد الدنيا بأسرها في أعماقه وأحشائه وأطرافه... كل ما فيه ينعم بإلحاح الرغبة في العطاء والاشتراك والالتحام... مرة أخرى أخيرة يدور حول نفسه كأنه يجرب ويقارن مواتاة الشفافية للعري... بدت له مناسبة مواتية تماماً وفي لون واحد أخضر... ولم يبق إلا أن تتحرك به القدمان... بالفعل، أخذ طريقه يجر أذيال الشفافية والعري، يدندن لنفسه بصوت خفيت رقيق، وبحافز ورغبة في العطاء لا تقاوم...

مر على الأزقة والدروب... لكل منها طعمه الخاص، ورائحته، واللون واحد لا يتفاوت إلا في الدرجة... وفي الدرجة بالذات، يتغير الطعم والرائحة

والعبير... عبير الخضرة من جهة، ودفق الرغبة في العطاء من جهة أخرى... وفي زنقة الرحمونية بالذات... عبير نفاذ يقوي كل حافز ويفوقه، ويرفع عالياً درجة الاخضرار، يعمقها بشدة ويحمي الرغبة... الزنقة كلها هنا بجدرانها وأرصفتها تنفث ذلك العبير، وتلهج به وتفوح، وتقدح التوهج الأخضر... يقترب مجذوباً مسحوباً نافر النّبض، مشحوناً في غاية التوتر... يغيب في رؤية الباب السحري المقفل على ألوانه الزاهية أقلها الأخضر وأقواها الأخضر... شعور مهدلة تنسدل على مرمر يترجرج... خطوات بأقدام تخطر في خفة ونزق على فُسيفساء مائية، تغري بالتّدحرج عليها طولاً وعرضاً... شفافة شفافية النزقات شفافية العري، شفافية القماش... وعبير الرغبة والنزوة والطبيعة وقدرة العطاء...

شارداً، غائباً، حاضراً ناظراً شاهداً تائهاً، يتأمل ما وراء الباب المغلق ما خلفه والجدران، يتنسم العبير بعمق، يتلمظ المذاق والنكهة، يتمصص الرحيق والرضاب، يلتهم الألوان والطعوم والروائح بقوة وعنف، يسري في كل ذرة من عريه الشفاف، تتجول أصابعه المستطيلة المعروقة تعتصر كل وتر في كيانه الفائر، لاهثاً نافثاً رافثاً في عرس ذاتي، كل وتر في كيانه زاهٍ أخضر!

18

كانا في طريقهما عائدين من دعوة يوم حافل حقّاً... صديق ورجل أعمال دعاهما إلى ضيعته باتجاه الجديدة الشاطئي... جنة... جنة على وجه الأرض، كما عبرت حورية مأخوذة بما رأت... المدعوون جملة من رجال الأعمال وكبار الأثرياء بزوجاتهم... بعضهم بأولاده صغاراً وشباباً.. الدعوة كانت شاملة تسمح باصطحاب الأقارب... جنة حقيقية على وجه الأرض، تؤكد حورية ذلك لأكثر من مرة، بناية المنزل الرئيسية قصر دائري مشيد وسط الضيعة، تحيط به مساحات شاسعة مسيجة مستورة، مغروسة بنباتات استوائية أسيوية ذات ثمار غريبة... برك حافلة بأنواع الأسماك... طيور من كل صنف... وحيش متنوع يسرح ويمرح بكامل الحرية في الأحراج الطبيعية... وكثبان رملية وهضاب صخرية... استطبلات خيل مسومة... يؤدي ذلك كله إلى دويرة... تحفة الديار... درة أنيقة على البحر مباشرة... مشتى ومصيف... عدة زوارق زودياك... ويخت يتهادى في مرساه تداعب حوافيه حركة خفية لأمواج بعيدة في عمق المحيط، لا ترى ولا تحس عند مربط اليخت...

كانوا عشرات... مئة أو مئات... ففي هذا الفضاء الفسيح المتنوع يصغر العدد مهما ارتفع وكبر، والدعوة تبدأ بالإفطار... صباحاً... هكذا... دعوة لنهار كامل... يبدأ إفطاره من العاشرة بموائد حافلة مصفوفة حول المسبح الرئيسي المتعرج أمام القصر بمعابره الخشبية على أشكال من جسور مقوسة مقببة... موسيقى تصدح في الأرجاء... يعزفها جوق يحتل سقيفة شرفة، وفواح عبير من مزيج ورود وأزهار...

المناسبة؟ لا أحد يسأل عن المناسبة في مثل هذا المكان... الفضاء نفسه مناسبة، كل الزمن هنا مناسبات، ويجب أن يكون كذلك، الشعور الطبيعي... البدئي... أنك بمجرد أن تكون في مثل هذا الطقس تغمرك المناسبة... ويجب أن تكون كذلك... كذلك... المناسبة؟ لنقل إنها الرغبة في البهجة والابتهاج... في المرح والسرور... في إظهار ذلك وإشاعته بين أكبر عدد ممكن... لا. قُلْ بين عينة مختارة... منتقاة... لعلها تستحق... ويجب أن تكون كذلك... كذلك... المناسبة؟ هل تكون أكثر من فيض سعادة للإسعاد، يمكن القول إنها فرصة للقاء أعمال وعقد صفقات... أو تتويجها... لنقل إنه عيد سقف جديد لثروة... قمة جديدة من قمم ثروة متزايدة لا تقف عند حد... لا يحدها سقف... كل قمة أو سقف سرعان ما تلبث أن تستحيل درجة لسقف جديد... لا يهم، لا يهم التساؤل عن المناسبة ولا أي تساؤل آخر... المهم هنا، والآن، أن تتملى العين، ويرتع الخاطر... أنغام صادحة وعبير من كل فج يفوح... كأنما الطبيعة ترف أعطافها، وأريج المرمر الأنثوي الممرغ في مباهج الزينة...

كيف يجتمع كل هذا الحلم المكتمل لشخص ضئيل الحجم والوزن والسن إلى هذا الحد؟! كيف يتنسج هذا الواقع والخيال ليفاعة شباب مع وسامة رشيقة في سمرة خفيفة؟ شخص في ميعة الشباب... في مقدمة الشباب، تكسو محياه الباسم الوسيم وسامة، تمثال جميل مرشوش بسحيق برونزي أسمر شفاف...

أي عقل أو تدبير قادر على جمع ثروة أسطورية كهذه في مدة كهذه أو... أي خيال؟! بأية قدرة يستطيع بنسميد أن يتابع... يرتب ويعرف مسارات أمواله وممتلكاته برّاً وبحراً... كيف يتسنى له أن يقود هذا الكون من كائنات الطبيعة والبشر والآلة والعمارة؟!

كان المضيف بنسميد يتجول بين المدعوين والموائد والمشاهد... فراشة... نحلة... بلا حس ولا وزن... إلا ترحيبه وابتسامه... إشراقه يزيد من سحره نبات شاربه المحفوف الخفيف الفاحم الأنيق... حق القول، يضع سره في أضعف خلقه! أهو ضعيف الخلق حقّاً... رب هذا الكون الثري المتناغم الفاتن الجميل؟! أضعف حقّاً... أن يملك مَنْ وزْنُه ريشة أو هبة نسيم وزنَ هذه الثروة الكونية؟!

أحس رقيبة في هذا المكان بتضايق... بضيق لم يحس بمثله في حياته... أو أنه عانى منه في ظروف لا يذكرها أو... يذكرها لكنها على الضد من كل ما هو هنا... تعجب من نفسه كثيراً... أهذا زمان الضيق والكآبة... في هذا الجو الساحر؟ أبداً لم يحس رقيبة بمثل ما يعاني الآن من ألم ضيق... أشبه ما يكون بشدة اختناق أو ضغط ثقيل على الصدر... أحس بالفعل أنه يود لو يفتح طوق قميصه حتى الصدر وما تحته... مرة واحدة مشابهة ولو أنها تختلف كثيراً عن هذه، أحس فيها رقيبة بشيء مشابه... هناك على الأقل كان بعده عن حورية... وعن بلده، رغم أن الغربة لا دخل لها إذ ذاك... مرة واحدة حدثت له ذلك... شعور مشابه وكانت تلك سفرته الوحيدة... الأولى وأرادها أن تكون الآخرة... إلى خارج الوطن... طوال سفرته الوحيدة تلك فيما يذكر، لم يعرف كيف يتغلب على مشاعره بالضيق، إلا أن يقرر أن يستكين في جناحه الخاص بالفندق، وينقل العالم كله إليه... أو على الأصح ينقل إليه ما شاء من ذلك العالم... فكر إذ ذاك بعد أن استكان في جناحه كما شاء، بأنه يعود سريعاً

إلى زمانه ومكانه، كما ألفه في وطنه وبقرب حورية وبدون ثالث لهما... زمانه ومكانه كانا دائماً من صنعه، أو هو يشتهيهما من صنعه... إذ ذاك، كان يقول بأن لا شيء خارج عالمه يهمه، ويكاد يقول الآن الشيء نفسه... الفرق واضح وكبير... هناك، رغم الضيق والسأم الذي لا مبرر له غير ألفة عالم خاص به يعرفها في نفسه ويرتضيها، كان مع ذلك حرّاً في أن يصنع كل لحظة من زمانه كما يشاء، ويطبعها بما يشاء... هنا، أمر آخر... يشعر بأنه سلب الزمان والمكان والحرية والحركة... وحورية نفسها، رغم أنها تحاذيه وجنبها إلى جنبه. المضيف، بنسميد جد لطيف مع ضيوفه ومدعويه، بينما يعاني رقيبة من شعور باستطالة الزمان، بدا له اليوم طويلا، ولطف بنسميد ألطف من أن يحتمل الزمن الطويل..! بنسميد الفراشة النحلة، يتنقل وينقل حيويته وسحره إلى كل...

همس أحدهم في سمع رقيبة قائلا: كل ضحكة فيه بمليار... على الأقل..! ونظر الرجل في عيني رقيبة، وابتسامته الواسعة تكتسح وجهه العريض... ثم يضيف الرجل: الله يزيده...

وجد رقيبة نفسه يتابع بنسميد في حركاته الأنيقة وعبير سعادته الفواح... كل ضحكة بمليار... على الأقل... لم ير له ضحكة لأنه لا يتوقف عن الابتسامة والضحك حتى تعد له الضحكات..!

برنامج الدعوة... وقفت كاعب في رشاقة ظبي على قمة منحنى أحد جسور المسبح، تعلن الاختيارات الممكنة ليتوزع الأحبة حسب رغبتهم: جولات قنص بالبنادق، أو صيد على الشاطئ مباشرة أو من على اليخت الرافئ بالانتظار... أو فسحة على صهوات الخيل... موعد الغداء شرفة الدويرة الشاطئية... ثم العصرية في القصر...

كان رقيبة في معاناته الخفيفة من ضيقه الداخلي يريد أن ينسب ما به إلى اضطراب نومه السابق... أو إلى ما يعرفه فيه عادة من كدر عارض، يخامر

لحظات سعادته وسرعان ما يطير...

كانا عائدين في نهاية اليوم من تلك الدعوة الأسطورية التي تعادل حياة دهر في عوالم الخوارق اللطيفة العجيبة، دعوة بنسميد ويومه، كل ما يتحدى الوصف والقياس... كانا عائدين، ورقيبة بادي التضايق بقدر ما يخف بحورية المرح... مرح مثير إذا قورن بحال رقيبة بل مغيظ... تقول له، لنفسها وتعيد بصوت مسموع، هذا رجل يستحق... بنسميد يعرف الحياة وكيف يعيش... يتمتع ويمتع... والثروة الحقيقية تعرفه!.. ثم تعرج حورية على موضوعات تافهة لا رابط بينها لتعود إلى أنشودة بنسميد والثروة والحياة... ثم لتلمح إلى رقيبة أنه كان منغلقاً، ولم يفتح باب العلاقة مع رجل نادر المثال... بيده كل المفاتيح... فرصة كانت لتوطيد العلاقة معه...

ويتساءل رقيبة في إهمال موارياً ضيقه الملازم: لماذا يجب توطيد هذه العلاقة؟ تتعجب من غفلته... أي سؤال هذا؟ واضح أن رقيبة ما يزال بعيداً أن يفهم ما يجب!

هكذا يحس بها تواجهه، تواجه صميميته، تحرجه وتدمي كبرياءه... تلح حيث تعلم أنه يتألم بعمق وحيداً... بل إنها تتفنن في ذلك، تعدد سمات الشباب والمال والصحة المجتمعة كلها في كيان ساحر يتحرك بين الناس: بنسميد، لم يبق إلا أن تقول إنها تتمناه لعلاقة وطيدة... رفقة... أو زواج؟! واجهها بانطباعه مستنكراً. لم تحتج أو تثر... لم تستنكر استنتاجه، تابعت بمرح وخفة تعداد إعجابها بالرجل... وكأن رقيبة غير موجود... لم يتساءل أو يستنكر... كأنها لم تفهم. لا؛ ذهبت بعيداً، ضحكت وتساءلت: لم لا؟! تقصد لم لا تفضله وتريده!؟ وتابعت سيل أفكارها: إن أية عاقلة أو عاقل لو عرض عليها خيار من هذا القبيل، لما كان هناك تردد أو التباس... هل يصفعها أم يعتبر هائجاً ضعيفاً أمام انفعالاته؟ هو الملوم، ما كان أغناه عن الاستجابة لدعوة لم تكن مباشرة

على كل حال... ولم يكن يريد من ورائها شيئاً... كان قَبلها وسيظل بعدها مكتفياً بنفسه وبعالمه... لا يطمح حتى للمزيد من الثروة... يود الهدوء والنعيم والهناء، وأن يرتخي براحة جزاء ما صرف من عمره وما هو به من حرمان... فقط لا غير... لا أكثر... ليكن بنسميد ما يكون... تلك طينة أخرى، رأسمالها شطارة وبسمة وحركة أنيقة... أما هو رقيبة فكما تعرف هي... وها هي ذي رغم علمها بمعدنه وطبيعته... ها هي ذي حوريته تُمعن في التنغيص... عارفة حق العرفان بحاله وطويته... ما هذا؟!

وكأنما أفاقت على اكتشاف أنه جدي في تضايقه... جدي في اعتبارها فعلا قد اختارت... واختارت غيره... اختارت الأغنى والأعرف بشؤون الحياة بمتعها المتنوعة... آثرت غيره في اختيارها وتأسفت على حياتها مع ساذج عليها أن تعلمه كيف يحيا..! أفاقت بالفعل على أنه جاد... ويقول إذا كانت تريد غيره فلا شيء يمنعها... إنه هو بالذات لن يمنعها؟ وحتى لو... أرادت أن تعود إلى حياتها الأولى... تلك التي كانت قبل ارتباطها به، فلها ذلك... لا... بل إنه يساعدها على تلك العودة... فقط لمجرد أن يترك لها الفرصة لتعيش منسجمة مع نفسها... يا الله... ماذا تسمع؟ جاد وأكثر من جاد...! إذن هو الذي يطمح إلى أن يعود إلى ما كان عليه... يحن... وهل عرضت عليه نفسها إذ ذاك؟ ألم يتوسل إليها ويظهر إنسانيته؟ أين ذلك الآن؟ أين هي من كل ذلك؟ كأن الرحلة كلها، والطريق كله، وكل ما يشاد وما لا يشاد... كله هباء... فيم كانت تمضي؟ رفقة الاسم تمضي... رفقة الحرقة والاسم تمضي... كانت تمضي... وتهتز الجبهة على زجاج نافذة الحافلة... تهتز الخواطر في الرأس... والنبض والخفقان... لا، لن تكون خائفة، لا، ولا حزينة ذلك الحزن المميت... لا آسفة على شيء... ولن تكون مبتهجة على كل حال... إنها في تلك الحال الغريبة البليدة التي تفتقد الإحساس... حتى إحساس المجهول الذي تأخذ

طريقه الآن، لا يبدو مثيراً ولا محفزاً أو مستفزاً... وما بين أحشائها من بضعة حب غريب عابر تنبض... رفيق رحلة هو أيضاً مجهول... ما بين الأحشاء... هو وحده يمكن أن يكون مجهولا محفزاً مستفزاً... رفيق رحلة تريد له ولها أن يضيعا معاً، دون أن يضيع أحدهما من الآخر، لجج المدينة الفسيحة الصاخبة... هذه الدار البيضاء التي يلفها الغمام والدخان، تبدو للمشرف عليها، الوافد إليها من مدخل مديونة كأنه يهوي إلى غمامها من غمام، ويغوص في دخانها من كثافة دخان... الغمام في القلب والرأس... والجبهة تهتز على واجهة زجاج النافذة، والحافلة تتوقف بين الحين والحين، ثم تقلع هادرة تقتحم أطراف المدينة بغير هون ولا رفق... درب السلطان... أو ... الدرب... مقاطع اسم كالحلم... كرؤيا غيبوبة يشع اسم الدرب كما كان يشع وهي على البعد البعيد... وتداعب الخاطر مقاطع اسم توصَّتْ به... الرحمونية... رحيمة مثل فاطمة أو أكثر حسب من أوصوها... الرحمونية... لا، لا رحمونية ولا فاطمة جديدة، فاختارت ان تكون هي بذاتها حورية جديدة من ذاتها، بلا وصاية أو حماية إلا ما تراه هي بنفسها... لنفسها...

وأحست حورية بأن هذا الشعور هو ما كانت تسعى وراءه، ولو تنكرت له... فعلا تحس أنها تنكرت له أكثر... وأرخت له العنان أكثر من مرة أيضاً... إنما الآن... لن تتنكر لما تريد... يغويها هذا الشعور ويرضيها... يشيع فيها الدفء رغم قشعريرة ارتهاب خفية... ترمق الخلائق تتقافز متزاحمة على الأرصفة ومعابر الطريق... وفي كل صوب... أين يسكن كل هذا النمل البشري؟

مع ذلك، رغم تأكدها من أنها لن تبحث عن الرحمونية، ولا عن أخرى غيرها في هذا الدرب أو في غيره... إلا أنّها لم تملك وهي تنزل من الحافلة في محطة كراج علال، من أن تقف متملية سحر الدرب الذي طالما داعبت مقاطعه سمعها على البعد... درب السلطان...

موطئ القدم الأولى تبدأ من هنا... درب السلطان... الخطوات الأولى بين الزحام والزعيق... تكون من هنا رغم تنكر واستنكار... لا بأس، للاسم سحره... إغراؤه لا يقاوم، فلتمض بها الخطوات، لتمض بها القدمان خطوات في الدرب السحري الساحر... يجب أن تكون واثقة... واثقة تخطو... واثقة تتشوف... واثقة على الأقل في مظهرها، وبالنسبة لمن يكون في موقع المراقب لحالها... من يراقبها؟ لا تدري. لكنها غريبة واثقة، ويمكن لأي أن يطمع في شيء منها أو بها، إذا ما بدت على نحو يثير الفضول أو الإشفاق... ماذا يقال عن فتاة تخطو بما ينبئ أنها لا تعرف ماذا تفعل ولا أين تتجه؟ يتردد اسم الرحمونية كما أوصتها به إحداهن... لكن لا، قررت بدايتها لنفسها... بداية جديدة، لكن أين تتجه؟ سحر الدرب يغريها بخطوات تطلع وفضول، لا بأس، لتخط واثقة... في الظاهر على الأقل... كم يكون عليها أن تحترس في هذا الكون الزاخر العميق من النوايا والبشر... بحر لا تؤتمن حيتانه على سمك نهري وافد...

دارت حورية حولها متعمدة دائماً أن تبدو عادية في كل حركاتها وسكناتها... لا تثير انتباهاً ولا تشي بغربة... دورة خفيفة، ثم استقبلت أول زنقة تواجهها... عبرت... وسارت في أزقة الدرب تتملى ما حولها خفية وكأنها تمضي قاصدة باتجاه هدف معين... والآن تعرف أنها في مأمن نسبي، ابتعدت عن ضجيج المحطة وتوغلت بعض الشيء في الدرب... رأت وتنسّمتْ... وعليها منذ اللحظة أن تواجه الجد بالجد، تبتعد عن هنا... عن إغراء اسم موصى به... تركب تاكسي من هنا باتجاه مرس السلطان... إلى مدخل أول فندق تصادفه، وسؤال عن غرفة مبيت... مؤقتاً... مؤقتاً...

مهدودة الكيان كانت، وفي غاية التعب، لكنها تعلم أنها لن تنام... لن تنام ولن ترتاح ولن... إنما يجب أن تتمدد، أطلت من نافذة الغرفة على

زقاق ضيق قصير، علامة الفندق، أحد حروفها يضرب على إفريز النافذة، أغلقت النافذة، لتغيب الضوضاء الجانبي قليلا متناهياً من الشارع الرئيسي القريب؟ أسدلت الستارة، نزعت جلابتها واتجهت لتعليقها في المشجب داخل الدولاب، لكنها لم تتم الحركة، والتفت ترميها على كرسي الطاولة، ثم رمت بنفسها متهالكة على الفراش... نجحت في أن تقمع النظرة المتسائلة الملحاحة لعامل الفندق لدى استقبالها... تردد قبل أن يجيب عن سؤالها، وقرأت في عينيه تساؤلات... لكنها بادرته بالسؤال عن ثمن الغرفة، ولتقول إنها تنتظر حافلة سفرها صباح الغد... قالت ذلك ونجحت بالفعل في قطع تساؤله، وهي تضع بطاقتها أمامه على طاولة الاستقبال... غداً تبحث عن مكان آخر، إذا لم يكن من الممكن الاستمرار هنا... كانت قد هيأت نفسها لصعوبات أكثر في مدينة تطؤها لأول مرة...

رنت إلى معصمها، الساعة تشير إلى الخامسة إلا... وتذكرت أنها لم تتناول شيئاً طيلة اليوم... قامت إلى المغسلة، فتحت الحنفية وعرضت الكأس الزجاجي للماء... وتركته يفيض عليه وأفرغته مراراً مستمرئة حركة الماء المنساب بين أصابعها، ثم رشفت من الكأس ووضعتها جانبا لتبلل وجهها بالماء، وتعود لترتمي على الفراش... تململت طويلا ذات اليمين وذات الشمال... أحست برعب الغربة يلفها... هكذا... هي في حرية مطلقة... لا أحد يعرف أو تعرف... حرة كالهواء... وغريبة جدّاً... هي هي وحدها... لأول مرة تشعر بأنها وحدها... تملك نفسها... وبعيدة عن كل أحد... لا أحد يسأل عنها أو يتابع خطواتها أو يهتم بها... هكذا يلفها ما يشبه الفزع، ويطرق رأسها سؤال أن تكون أخطأت الاختيار والطريق، حين غادرت دفء فاطمة وحنوها... وعالم جعيدات، ذاك المرهف الفياض العميق... آه، فاطمة... تلك المرأة المجربة العجيبة... كيف استطاعت أن تقمع مشاعرها وهي تكتشف

فعلة جعيدات وحورية... شبه شهقة بعيدة نائية لم تكد تلتقطها حورية، وإنما أحست بها في الأعماق كما لو كانت صادرة عنها هي بالذات... من يدري؟ ربما كانت بالفعل شهقة حورية، وهي تكشف للمرأة ما جرى... مهما يكن، فالمرأة على علاقتها الخاصة بجعيدات، لم تترك فرصة لانفعالاتها، رغم مسحة الاستنكار على ملامحها، ورغم ما كالته لنفسها من لوم على غفلتها... أية امرأة؟ بأية ملامح كان بالإمكان مواجهتها كل صباح... كل مساء... كل لحظة..؟ مع ذلك عرضت المرأة معالجة أخرى للأمر... الحمل ليس كل المشكلة... يمكن معالجته بطريقة ما... المهم ألا تضيع الفرصة واقتناص الحجاجي الصغير... جواب حورية كان صمتاً وحسماً، وكان رحيلا... في غفلة النهار... في غفلة جعيدات نفسه، وهو الذي بدا لها على هشاشة خلقته وقدره، يستطيع منازلة الجبال من أجلها... بل ينازل الدنيا بكاملها من أجل الاحتفاظ بها وبالجنين... لا فاطمة، ولا المجموعة بكاملها، بقادرة على الوقوف في وجهه... مع ذلك لم يكن الحرج وحده إزاء أي كان، دافعاً للرحلة في غفلة النهار... بل هو الطريق كما تتصوره حورية... تهاجمها الخواطر وهي تتقلب على الفراش، مهدودة الكيان ما بين اليقظة والنّوم... مع ذلك وجدت نفسها نامت دون أن تفارقها الخواطر... ودون أن تفقد الوعي بأنها تتململ وتحاكم، تدير رأسها إلى هذا الجانب وذاك... وأمامها الطريق... في غفلة النهار تنسل... نظرة جعيدات في استرحامها ممدودة الرجاء... مكابرة المرأة المجربة وكبرياؤها فسيحة الرحاب... ومع ذلك، تمضي حورية في غفلة النهار، كأنها لا ترى ولا تسمع... الأمواج صاخبة في كيانها، ولتخرس الخواطر...

مع ذلك اكتشفت أنها نامتْ... وأكثر مما قدرت بكثير... نوم بلا راحة، طبعاً... لكنه نوم... غياب... شعاع نهار جديد يتسلل إلى الغرفة... وحركة العاملات في ممرات الفندق... قامت وأشرعتْ مصراعي النافذة،

فهجمت ضجة الزقاق وأزيز المرور في الشارع الكبير الموازي وراء البنايات... أفكارها أكثر صفاء... معقول... وألم حاد في البطن... جوع يلوي أحشاءها، غسلت أطرافها بسرعة... غيرت ملابسها، ارتدت بنطال جينز وجاكتة جلدية قصيرة... مرت بباب مشبك خال من مصعده المعطل، ونزلت الدرجات إلى الطابق الأرضي.

حول الطاولات المعدودة المكونة للمطعم الصغير، كان بعض النزلاء يتناولون إفطاراً متأخراً، جلست إلى طاولة في الطرف الأقصى للقاعة، طلبت إفطارها... قهوة بحليب، وظلت ترمق ما حولها، عابثة أصابعها بأوراق وردة اصطناعية في مزهرية كالدواة وسط الطاولة...

أكلت بشهية، التهمت الهلالية وقطع الخبز بالزبدة والمربى، وظلت في مكانها ساهمة، حتى نبهتها امرأة عاملة. جاءت لجمع الأواني. صالة الإفطار الأرضية صغيرة محدودة، تواجه زنقة داخلية دائبة الحركة... ظلت ساهمة تنظر حركة المارة والسيارات، يومها الأول وحيدة بنفسها... عاملة الفندق تحوم حول الطاولات تجمع الأواني، ابتسمت لها حورية، وقامت تصعد الدرجات إلى غرفتها.

أخذت بعض الوقت وهي تعد نفسها للخروج، الساعة تجاوزت العاشرة، لو أطاعت رغبتها لتمددت من جديد على الفراش دون نوم، لم يكن لها أي إحساس برغبة في خروج تعلم أنه ضروري، لم تأت إلى هنا لتدفن نفسها، بل لتحيا، وتجد لها طريقاً... حرة كالريح، خفيفة كنسمة، يجب أن تكون من يومها الأول...

كانت تغالب إحساس الكسل والتعب... على الأقل تشعر بحاجة حقيقية إلى أن تحدث أحداً... وأيضاً لتغير مشهد ما حولها. تفقدت نفسها،

زينة خفيفة تذهب بذبول التعب الذي لم يذهب به نوم مريح بعد... نزلت بتؤدة كأنها تضاعف الزمن، وفكرها يعمل في الوجهة التي ستتخذها... لن تسأل منذ الآن أحداً ممن في الفندق، تعرف أنها غير مرتاحة تماماً لوضعها في فندق لم تكن تعرف عنه شيئاً من قبل، ولم تسأل عنه صاحب التاكسي عند المجيء، وإنما تركت عينيها تصطادان ما يصادف من فنادق صغيرة، لتطلب من السائق أن يتوقف... ثم تطلب غرفة مبيت مؤقتاً مؤقتاً...

نزلت بتؤدة، وضعت المفتاح في مكتب الاستقبال، وقبل أن تخطو خارجة، تراجعت لتقول للرجل إنها تنوي البقاء هنا يوماً آخر أو أكثر... ربما... إذا كان ذلك ممكناً... ابتسم الرجل، كأنه يجد فرصة ليحادثها، لكنها كانت قد خطت نحو الباب...

أين هي الآن، بعد الاسم والحرقة والرحلة وطول الطريق والعذاب وما يشاد ولا يشاد... كله يبدو هباء!

تتساءل وتعود تسائل: أين ذلك الآن... أين هو من ذلك؟ أين ملامح أحمد رقيبة التي عرفتها؟ ملامح محب غيور متقد ومخلص؟ أين ذلك الآن، وهي على الطريق أشد حيرة وأكثر شعوراً بضياع منها وهي تخطو أولى الخطوات المتطلعة المتشممة في درب السلطان، أو متلبسة خطوات التردد ساعية من فندق لطريق أو من طريق لفندق... أين هي وأين هو منها الآن؟ ... أحمد رقيبة العاقل المتعقل، لا العاشق النزق الولهان كما كان يقول...

كان يقول إنه يحبها ويريدها بقوة ما يحبها... كان يقول إن مثلها يستحق حياة كريمة كرامة حقيقية، وحرية أصيلة لا بدافع احتياج أو إكراه... الآن تبدأ الغشاوة تنقشع... ويرى رقيبة ما لم يكن يراه في حوريته وحريته كما كان يقول ويكرر ضاحكاً راضياً... كان يقول ويقول...

كانت إلى جانبه يقود عائديْن... كانت في أعماقها تفور... أمواج مشاعر يصطخب بعضها على عتبات بعض، وتعلو قمم بعضها على بعض... مشاهد طريق طويل تتراءى أمامها، كأنها بنت اللحظة كأنها في خضمها الآن... وبلهيب حارق...

كانت إلى جانبه، لكنهما أبعد ما يكونان عالماً وكوناً ومشاعر... ارتمت فجأة على مقود السيارة تلفه منه بعنف إلى اليمين... تأرجح خط السير يميناً وشمالاً... فحّ احتكاك العجلات بالإسفلت... صوتت أبواق سيارات في الاتجاهين...

أوقف رقيبة السيارة، وفي الحين كانت حورية خارجها تخطو مسرعة مبتعدة في حركة هائجة، تنظر باتجاه أية سيارة تأخذها... نزل في إثرها بسرعة يجري وراءها غير عابئ بشيء... أمسك بتلابيبها وهي تقاوم لتفلت منه... عدة سيارات توقفت... ترجل بعضهم، كان ثائراً فائراً وكانت هائجة... صاح في الآخرين...لا يهمهم شيء، ليس من شأنهم... ليمضوا لحالهم...

19

كان عزيز يسير بتردد، تقوده قدماه كالمسوق إلى مصير يكرهه... وبقوة لا يستطيع لها دفعاً، تردد كثيراً في أن يفشي أمره لأحد، فكيف يستعين به؟ ولا يدري عزيز في هذا الخضم، لماذا تقوده القدم وعزم إصراره الخفي إلى أن يسير نحو علواني... أهو خوف الفشل... خوف الموت؟ وخوف السجن على أقل تقدير... كما لو أنه كان يقدر أن ينجز ما يريد دون تبعة؟! ربما، وربما يريد أن يجعل من أحد شاهداً على صدق عزيمته، حتى لا يؤول في وقت ما تأويلا خاطئاً يفسد ذكراه، حتى لدى مَن يريد أن يحتفظ له بأحسن ذكرى، ملهمه معلمه الشخش..؟

علاقة عزيز بعلواني انقطعت منذ سجن الشخش، وانقطعت لسبب غير وجيه، ولا يقره عزيز... وحده علواني إذ ذاك انبرى من بين الشلة يعرب عن تغيير الاتجاه! ضربة لم يكن ينتظرها عزيز إذ ذاك... هي في نظره نوع من الغدر، أو الطعن من خلف، والتنكر لذكرى السجين المعلم الملهم... وعلواني كان واضحاً، وراءه أم وإخوة صغار أيتام... يحيط به العدم والفقر من كل جهة،

ولا يمكنه أن يستمر في طريق لا يزيد على أن يطعمه كيفما اتفق... وإذا وقع له مكروه ماذا يكون مصير البقية المعولة عليه... أم أرملة... وإخوة أيتام... ربما كان وقوعه في الشلة صدفة... صدفة أرضت غروره، ولكنها عجزت عن حل مشاكله... خاصة بعد غياب علي الشخش...

ذهل عزيز من ذلك... إنه عين الغدر والخيانة وطعنة من خلف للمعلم... لكن بدون جدوى، قام علواني إذ ذاك غير مبال، وترك الشلة بكامل الهدوء... غادرهم دون أن يلوي على شيء أو يلتفت لأحد... وانفرط عقد الشلة، لكن ما تبقى منها زاد التفافاً حول عزيز، بفاعلية أقل أو بدون فاعلية، إلا لوك أخبار الولْد وشلته، مرفوقة بالاستنكار والاستهتار... وإلا انتظار أخبار الشخش من وراء القضبان، في انتظار شيء مبهم... فرج ما، أو تغيير يوضح الطريق...

ظل عزيز يكرر ويعيد الصور والأفكار... بيْد أن صورة علواني لسبب ما، كانت تطفو في هذا الخضم، ملفوفة بالصدق والصفاء ومستوى الثقة... لعل منشأ ذلك أنه في خروجه عن الشلة، قد عبّر عن رغبة صادقة دفينة في ضمير عزيز نفسه... لا يستطيع البوح بها، ولا يستطيع تنفيذها... فلا هو معيل يتامى ولا ربيب فقر... هو وضع آخر... حال مخالطة للكل، والطريق، طريقه يرضيه ويروق له... يعزيه ويقويه أن يكون وفياً لملهمه وقت الشدة، محك الرجال... اختبار الرجال... وهو إن كان قد يجد بعض العذر لعلواني، فإنه لن يجد لنفسه أي عذر... لا أمه أرملة معدمة، ولا أبوه متوفًّى أو محتاج ولا إخوته... لا أحد يحتاج... لا أحد يحتاج إليه، ولا شيء يتوقف عليه، غير الشخش وذكراه...

كان يسير نحو المعاريف، ويقصد الترمنوس بالذات، كان علواني يعمل نادلا في مقهى وحان ومطعم للأكلات السريعة... شغل إن كان لا يرفع مذلة العدم، فهو يتيح فرصة سد الرمق لبضعة أفواه...

تعمد عزيز أن يجلس على أحد المقاعد الخارجية على الشارع، غير عابئ بأزيز حركة يزيد من ضجيجها هدير المحركات لحافلات متعبة... انتظر بعض الوقت قبل أن يخرج إليه نادل طلب منه قهوة، وسأله أن ينبه إليه علواني...

عانقه عناقاً حارّاً حقّاً... بينهما تجاوب لا ينكر ومكاشفة، لم يُزل علواني يده عن كتف عزيز وهو يجالسه، وينظر إليه بإشراق واشتياق... زيارة لم تكن مرتقبة... أول لقاء بينهما بعد خروج علواني... من حقه أن يفكر بأنه خرج من ذاكرة عزيز... عزيز الذي يجيب بأنه تابع دائماً أخبار صديقه علواني... ويفهم علواني من نظرة عزيز أنه يريده لأكثر من التحية والسلام... يقوم علواني، ويطلب من عزيز انتظاره لنصف ساعة، ينهي ما عليه من شغل ويتفرغ له.

في غياب علواني، ظل عزيز يفكر فيما هو مقدم عليه، لا ليتراجع عن الهدف، فهو أدرى بعزمه وعزيمته... وإنما ليراجع موقفه من علواني الذي جاءه ينشد الاستئناس والمساعدة...

عرض علواني على عزيز الغداء في الترمنوس ذاته، إلا أن عزيزاً فضل الحركة في الشارع الفسيح المجاور باتجاه أنفا والبحر...

عرض عزيز فكرته موضحاً أنه يخبره ولا يستشيره... مع ذلك كان رأي علواني معارضة... هذه مغامرة فارغة، لا شيء أمامها ولا وراءها، إلا تخريب الذات... إنها حماقة... مع ذلك لم يكن عزيز يطلب استشارة، وإنما استئناساً ومساعدة... مساعدة بسيطة جداً، جعلته معارضة علواني الشديدة للخطة من أساسها يتراجع عن عرضها، لذلك ما لبث أن شد على يد علواني يشكر ويودع... حركة أدرك علواني معناها، وإذن فلن يبخل بأية مساعدة مهما كانت... لن يخذل صديقه إلى هذا الحد... لا بل إن شعور علواني يتعدى أن يساعد صديقه... إلى أن يحفظه... أو يحافظ عليه بالقدر الذي يستطيع... بالقدر الذي يتيح له عزيز ذلك...

أظهر عزيز ممانعة في تطوع علواني بمساعدة لم يطلبها منه قصداً... بيد أن نظراته ما كانت لتلتقي مع نظرات صديقه برفض حقيقي في داخله، عزيز كان في حاجة إلى مثل علواني... إلى علواني بالذات لا إلى غيره، الصديق يعرف ذلك. والخلاف بينهما ينتصب فاصلا الآن، كما انتصب فاصلا بينهما عندما قرر علواني، وانفلت من الشلة دون موافقة أحد... ينتصب الخلاف بينهما فاصلا في تناقض واقعهما؛ حاجة وأعباء من هنا، ويسر وتحلل من هناك... مع ذلك... رغم ذلك... يربط بينهما صدق وثقة وصفاء...

20

يضيق الفسيح، ينفسح الضيّق، تتباعد المسافات، تتلاقى الأبعاد وتفترق، لتلتحم وتتنافر... يضيق الفسيح، ينفسح الضيق... وحده يستمر ثابتاً حاملاً متحملا يسعى بعبء الكل... يجوب أطراف المدينة من أقصاها إلى أقصاها، يتفرس الملامح، يزاحم الأكتاف، يسابق الخطو والخطو يسبقه، سعياً وراء إشراقة أمل لا يخبو، وإنما يتوهج خارقاً حافزاً، ليفتر وفجأة يتولد متوهجاً من جديد...

درب السلطان، البدء والمنتهى... وغواية العبء والسعي والأمل، تغري وتزيد، وما دام الطائر استوى بجناحي شوق ولهفة، فليلحق على مدى ما تسمح الغواية وتفسح، ولْيَجُبْ على مدى ما يجذب الشوق... أكان له الآن أن يعشق السعي والخطو، ويسلم راحة كهولته وهناءه لبحث مضني لاهث ملهوف؟

هكذا يرتسم طريق التبعي من الأقرب للأوسط والأبعد، لا يكل أو يعتريه فتور... وخلق الجسد ليحمل هم النفوس والضمائر، فليحمل أو فلْيستقل...

لا أحد يختار جسمه وهو بالذات لم يختر جسمه ولا عذابه... لم يقل لشوقه المنبعث: تعال مرحباً بك في كهولة كان الأولى أن تكون هنية راضية؟ ليتعب الجسد، ليختر إن كان له خيار... من قال لملامح صبية في طي الزمان أن تنبعث في الخاطر والنظر بهذا الهوس؟ نار العبء وشوق اللهفة في ضعف العمر تزري بالراحة، وبكل خيار إلا أن يكون سعياً حارقاً... حرقة على حرقة لا يطفيء لظاها إلا السعي الحثيث محمولا على جسم أو جسد أو أية كتلة، قبل أن ينقلب الجسم والجسد والكتلة كلها إلى عبء يُحمل... من يَحمل ومن يُحمل... من الحامل ومن المحمول؟ فلتحمل النفوس ذاتها أو لتستقيل من ذاتها... من يستطيع أن يختار أو يستقيل؟ ويستقل؟

هكذا يرتسم الطريق في خاطر التبعي وناظره، هكذا يحمله ويحتمل... وراء ملامح ما، لصبية... أو... لأمرأة... أو... لفتى أو رجل... الحقّ يقول... الحق يشهد أن ملامحه المنشودة تتراءى أحياناً على وجوه، وأحياناً على فضاء أو سماء يراها ويحس بها، تجعله يتعرف عليها في إشارات... عبارات... حركات... لأشخاص وموضوعات في كل الكون المحيط... هذا الفتى القوي الوسيم كأنه يعرفها... ذاك الشيخ المسن ربما يكون كافل الصبية أو زوّجها لقريبه... ابتسامة هذا المتحدث، تجهم ذاك، فورة تلك، فحش القول بين هؤلاء، ظلم أولئك، فقرهم، ضجتهم، نومهم وهمسهم... ونسيم المساء مع صهد الظهيرة... كله... كله... دليل عليها... إشارة نحوها... علامة واضحة على أثرها البين، معلم بارز ناصح فصيح على طريقها... هي الكل للكل... فأين يتجه... أين يقف... وماذا يجوب؟ ليتعب الجسم والجسد والكتلة... لتستقل النفس ذاتها والروح... فهو لم يختر أن تتراءى له ملامح الصبية في كل الملإ والكون... لم يختر أن يمتلئ فيه العقل والوجدان بأنه ليس على وهم ولا وراء سراب... لم يختر في سنه اليوم أن يجوب المدينة من أقصاها إلى أقصاها،

باحثاً عن شيء يعرفه حق المعرفة ليكتشف شيئاً يجهله كل الجهل: كون هذا البشر، بشر هذا الكون... ماذا يخفي، وكم كان التبعي أن يسعى ويخطو، ليكتشف ويعرف...؟ ملامح هذه الصبية... ملامح امرأة في هيئة جليلة حبيبة تحفزه ليسعى وراء ما يعرف، ليجد ما لا يعرف... ما لم يكن ليعرف... كون هذا البشر، بشر هذا الكون... كم يخفي من أسرار... وكم يظهر من زائف... كم يلزم من صبر... وعلاج... وتحمل... أكان له أن يختار حمله؟ .. أكان له أن يختار وهو يسعى وراء ملامح صبية أو امرأة، أن يرى في طريقه ما يرى... ويجد في سبيله ما يجد؟

هكذا يرتسم الطريق متقصياً أزقة درب السلطان وأحيائه في كل ساعات من ليل ونهار، ويستطيل باستطالة الرغبة والشوق، باستطالة العبء ذاته وباستعراضه، وبامتداد الملامح المنشودة متوارية متخفية، أو فصيحة واضحة على سعة الطبيعة والبشر... هنا ... هناك... هكذا يستطيل الخطو ليصل ما انقطع من دروب المدينة بأسرها، تليدها والطريف، من موالاة البحر على الغرب إلى حوافي الشرق والجنوب... كلها مواقع لمن يحمل جمرة الأمل والشوق، نار السعي والتنائي ولهفة اللقاء... آه... متى اللقاء؟ ..

درب السلطان نقطة البدء وخط المنتهى من صباح لمساء في الزمن الجديد، زمن السعي والعبء، ثم ما بين نهارات وعشايا محاذاة البحر والمدينة القديمة... أما الجسم وكتلة الحطام، فلتتحمل أو تُحمل حملا... أما النفس، فلتنفسح أو تضق... فما كان للخطى أن تتوقف، ولا للهمة أن تفتر... وملامح المنشود تطرف، تهش للخاطر الناظر...

بعد نومة ما بعد الفجر، يغادر التبعي خلوته الركينة بدار السيد، مفتتحاً جولة درب السلطان مقسماً أحياءه بترتيب لا يكاد يختل، وبانضباط وتوقيت لا يزيد أو ينقص إلا بعابر وقفة على مشهد تجدد، أو يد تمد لمحتاج، أو نظرة

تستطيل لركن أو زاوية في الطريق... طريق يحتذي قدمين، لا يتراجع، ولا يخلف موعداً... الأسواق لما بين الضحى والزوال، والمقاهي لما بعد العصر... أما ما بين ذلك فلمجالس المدينة القديمة، أماكنها العامة، ولما يلي البحر من الملاهي... وحدها المساجد كانت في غنى عن همته أو هكذا تبدو، كأنها لا تخطر على باله... كأن زمانه لا يتسع لها أو لم يتسع لها بعد، لغير العبادة...

وفي سعيه وتجواله وراء طيف غامض ملم بملامح صبية... امرأة حسيبة وقورة تكتسي كل مظهر وشكل، تتلبس كل متحرك وثابت، تُتلمس في كل نأمة ونسمة، ينكشف له الكثير... يكتشف الكثير من سر ذرية آدم... ذرية آدم شيء عجيب... عجيب بشر هذا الكون... عجيب كون هذا البشر... عجيب... ظمأ لا يرتوي في الناس للمال والثروة وأوهام الجاه، عجيب ميل في الناس لا يلتوي للعدوان... عجيب أمر كائن استخلف في الأرض... الحكمة في ذلك بالغة الخفاء، بالغة الوضوح... لمن يغشى ومن لا يغشى، ولا يبقى لمن اهتدى بنور إلا أن يسعى بعبئه ونوره مستعيناً بالصبر... لا يبقي لمن ينشد طيفاً مؤنساً واعداً، إلا أن يحمل ويحتمل مستعيناً على الصبر ذاته بصبر مثله... فلتحمل الذات أو لتنفسخ وتتفسخ... لتذهب هباء إن اختارت ذلك أو كان لها منه...

في قيسارية الحفاري، لدى القماشين والصاغة كما في سوق الجمعة لدى الخضارين والعطارين والفاكهانيين وغيرهم، وفي طريق مديونة كما في سوق الجملة والمجزرة... في كل ركن ومجمع أو مزدحم حيث يتلمس الملهوف الظامئ أثراً لطيف يروي ويرتوي، لا يكتشف الخاطر الناظر إلا مزيداً من عجب ذرية آدم... وتظهر بأجلى صورها لهفة بني بشر على حطام الدنيا، وضرب بعضهم لبعض... ما الذي ينقص هذا الرجل الملتحي في جلال كهولته وأناقة مظهره، وهو يلوح بكومة المال في يده، يكاد يرمي بها الأرض احتجاجاً

على صاحبه الذي لا يقل عنه في مظهر ومنظر... يقسم بأغلظ الأيمان أن لن يقبل وبطلاق الزوج ثلاثاً... ويرد عليه النظير بمثل ذلك وأكثر... ليته ما اكتشف ولا عرف ولا وقف... ليته وليته، لم تتجمد به الخطوات وسعي الخاطر والناظر على حافة المشهد... يتفرج أم يحترق؟ متى كان له الخيار؟ وتشتعل نار الخاطر الحي المراقب... وكيف لا تلتهب وتثور أو تفور عنفواناً معتوهاً يتطاير منه اللعاب واحتباس مقاطع الحروف في الحلق واللسان، وما بين الصدر والحلقوم... مسطول مخبول مهبول النظرة إلى كومة الأوراق الزاهية الجذابة في عالمها بين الرجلين... لا يسمعه أحد أو يلتفت، لا يهتم به أحد أو يلوي انتباهاً، مخبول مسطول مهبول في حركته مع مخرج الحروف ومقاطع الكلام المحتبس واللعاب المتطاير، وشرر الخاطر والناظر... لا يسمعه أحد ولا ينتبه... لا يهتم به أحد... معركته حامية مع مخارج الحروف... مقاطع الكلام...

ماذا يريد ومن يريد؟ ماذا يقول؟ مسطول النظرة مخطوف البِشر... بعضهم يعرفه ويعرف حاله... التبعي معروف وحاله... أصبح معروفاً في الطريق مشهوداً... يعرفه من يعرفه ويُعَّرف به... التبعي هذه حاله... يحتفي به أو لا يحتفي أحد... مخطوف النظرة إلى المتجادلين... مشدود النظرة إلى ذي الكومة الورقية المتداخلة في زهوها الألوان... ينظر إليه الرجل ولا يراه... لا يبدو أنه يراه حقّاً أو يشعر بعينه تمر عليه، ويتابع أيمانه وأيمان صاحبه... يهش بالكومة المالية في الفضاء متبرماً بها، وبالزمن الكاسد، والسوق الفاسد... يتذمر من بوار التجارة وخيبة العبارة، كتبرم صاحبه بمثل ذلك من مثله وأكثر... أكثر كثيراً...

ملامح البشر والفرح الموعود من محيا صبية محببة مليحة تلوح هنا وهناك... بين الرجلين تحترق ببخار كلامهما الغليظ... ترنو بعين الأمل إلى من ينشد الأمل، ترنو راجية... تبدو في ملبس ابتذال وفاقة... ثم تبدو في حرير رهيف

زاه... تبتسم في الفضاء حول الرجلين وتدمع عيناها فاقة... ملامح امرأة حبيبة جليلة، عليها مظاهر القوة والثقة والاعتداد، تلوح تملأ الخاطر والناظر متداخلة مع ملامح الصبية... يمسح التبعي ناظره، يراجع خاطره... ملامح المنشود تملأ رؤيته... وسطوة معتوه في داخله تفور... يلح المسطول من أعماقه في معركته بين الرجلين، وانخطاف قلبه وجوارحه نحو الكومة المتحركة بين أيمانهما المغلظة... ينظر إليه الرجل... الرجلان ولا يريانه... يهشه أحدهما هشاً دون أن يراه... يهشه هشّاً غير رفيق بلا انتباه أو عناية... ذبابة ما، كذبابة ما مزعجة ملحاحة، لكنها تثير بإلحاحها الكريه... يهشه هشّاً... ينظر إليه ولا يراه مكملا سلسلة أيمانه وأيمان صاحبه...

ملامح المنشود الموعود في ملاحة صبية ووجاهة امرأة تملأ فضاء الخاطر والناظر... وسطوة مسطول مخبول مهبول... وينبت فعلا حقّاً وعياناً مُقْعد يحك قاعدته الجلدية بالأرض، يجر كيانه عليها جرّاً، معتمداً على كفيه المسلحين بمقبضين خشبيين... يرقى صوته المستغيث من أسفل سافلين إلى صماخ سمع الرجليْن في أعلى عليين، مشوّشاً على سياق الحلف والأيْمان المغلظة... تنحدر إليه نظرة من أحدهما دون أن يراه، أو يقف عنده، وهو يهش بالكومة الجذابة ذات اليمين وذات الشمال في تذمر غير واضح...

تقول امرأة في غاية الرشاقة، تتطلع بنفوس على الظهر وفي البطن، إلى ما بين الرجلين وما فيهما... يكاد أحدهما أن يراها إلا أنه لا ينظر إليها، ويكاد الآخر أن ينظر إليها غير أنه لا يراها... وحده التبعي، وسطوة المخبول في ناظره وخاطره، وملامح الموعود المنشود... وحده ينظر ويرى، يشف ويكتشف، يتأمل ويراقب في حرقة القلب الجوال، عاشق النصب والتعب، حمال العبء... ولهب الشوق... وحده... وحده ووجه الحبيبة المطل من إشراق ومن غمام... وحده وموقف امرأة ذات سطوة ولا تخلو من جلال، تحول حيناً وتؤنس حيناً

ملامح الصبية... وحده... وحده ينظر، يرى ويشقى ويتعذب، يستمرئ ويستجلي وحده... وحده... يقول في سره أن لا السنَّ تسعف ولا الكيان... وحده...

وفجأة ينبت كيان الهبطي مستوياً أمام الرجلين، قائماً بين أحدهما والآخر، ثاقب النظرة، ناري العين، منبهراً غائباً في ألوان عالمه، ينتسب بلسان معقود وحال لا تنطق... إنما ينتصب ويظل كذلك، آمر الهيئة وملامح الرغبة المجهولة، صلب الموقف...

يهتز توازن الرجلين، يجف بينهما بحر الأيمان، يحاول أحدهما أن يرد فلا يجد اللسان... تستنجد نظرته بصاحبه فلا يصدر إلا التردد والتلعثم والنظرة المتسائلة المستسلمة... تبحث الأصابع في ثنايا الجيوب وزواياها عن سنتيم ضائع أو فلس تائه... تبحث الأصابع عن فلس ضائع الذكرى في متاهات أشغال ومال... تنقب الأصابع هنا وهناك... ملامح صبية في ظلال من جلال امرأة... طيف صبية وامرأة يظللان... يرفان بما يشبه أجنحة محسوسة لا ملموسة...

وتجهز أصابع الهبطي الطويلة بجمعها على كومة الأوراق العتيدة، الزاهية من يد الرجل، والدهشة من هيئته، يرفع الهبطي يده لتتجمد بجمع ما بها في الفضاء، عالية علو هامته... تتجدد نظرة الرجلين، تعقد الدهشة لسانيهما والحركات... والهبطي في عالمه مجمد اليد الملمومة على أوراقها في الفضاء، عيون العوز أيضاً معلقة بموقع يده... يظل التبعي يرنُو مجمداً إلى ألوانه البعيدة المتداخلة في عالمه... يطول الموقف أو يبدو كذلك، ولا أحد يأتي بحركة، كأن دورة الكون بدورها تجمدت، عيون الرجلين... عيون العوز... عيون صبية في جلال امرأة...

ينعقد اللسان في لهاث التبعي نفسه وتموت فيه الحركة... عيون صبية في جلال امرأة يطفو ويغيب... كأن أصابع الهبطي ترتخي شيئاً فشيئاً عما في جمعها... ترتخي بمقدار غير معلوم شيئاً فشيئاً، ترتخي معها بخفة أوراق طافية في الفضاء ترمق حركتها عيون العوز... تتتابع الأوراق متفرقة بتأنّ، باحثة عن مستقر لا تجده قبل أن تقطعها أيدي متتبعة... أيدي عوز... عيون عوز... والهبطي في موقفه المنتصب غير عابئ بما حوله، وغائب في عوالمه، وكأن ما يأتيه لا يدر عنه، ولا يربطه به إحساس... تتابعُ الأوراق... الرجلان بدورهما بعد الدهشة، ينخرطان في جمع ما يصلان إليه ولا يصلان...

ثم ينتفض الهبطي فجأة... يرخي من يده كل شيء، ويقتلع نفسه من الموقف برمته... كأنما هي لحظة غياب أو حضور زالت... ليقود خطواته في عالمه الباهر بألوان وإيقاع... بونا آدم... بونا آدم... بونا...

يغيب إحساس التبعي بما حوله أو يقوى، كأنه يعود إلى رشد من وله، يغمره هدوء بِسمات ابتهاج وفرحة تملأ ناظره... كونه بعيد... جد بعيد بما يتراءى له من عالم الموعود المنشود، طيف صبية باسمة، ومقطبة، خيال امرأة... يلتفت حوله، لا يكاد يرى شيئاً أو يحس بشيء من زحام الخلق حول القيسارية، ولا من نظراتهم... يحس بتعب مفاجئ زائد، كأنه أثمر جهداً فوق الجسد، غير مألوف... يجر نفسه ليمتلك ناصية الطريق، ليتحرك كما كان يتحرك...

ليحمل الجسم... ليتحملْ مثله أو... ليستقل!

21

بدأت حامية... معركة حامية... أو أنها حميت قبل بدايتها، القشاش كعادته يتكلم عن مهارته وشديديته في الرقعة كما لو كان يحمل سيفاً أو عصا... يتحدث عن خصمه أياً كان، كما لو كان عدواً حقيقياً يهدده... وهو يحقر وينقص غامزاً وملمحاً بكل الضمائر والإسنادات كأنما لمجرد ألا يصفع فعلا خصمه أو لمجرد أن يتجنب السب والشتم المباشر.. كل هذا قبل اللعب...أما عنْدما بدأت المكعبات المنقطة تلتحم أطراف بعضها البعض، باحثة عن حالة من «يسد عليه» أو... ارخف باللاتي... وتعال احسب ما عندك... فقد فاقت لهجة القشاش عتبة التحمس وأصبحت حركة في المقام والمكان... يتزحزح لها القشاش بكامل هيكله مهدّداً كيان خصمه بالمكعب المختفي الصفحة في الكف، كأنه سيضربه... وتعلو بين الحين والحين قهقهاته والتفاتاته لإشهاد الكون حوله على ما يفعله... سواء صدق توقعه من هوان الخصم وسقوطه، أو لم يصدق... المهم أنه كان يفعل ما يجد فيه متعة غير عابئ بمشاعر خصم أو متفرج...

والخصم كان من سعة الصبر والصدر هذه المرة على الأقل، بحيث يرخي للقشاش....بما يكفي لإذكاء الشعلة وإبقائها... معولا على ألا يرتفع لمستوى ما قد يفسد المزاج، فهو أحرص هذه المرة على مزاجه ومزاج صاحبه صافيين... كان الحاج في مقابلة مع القشاش يدبر لأمر هو لابّد واصله... وعيادي إلى جانبه يتبرم بلسعات القشاش، لسانه الذي سبق له أن عانى الكثير من وخزاته... ومولاي المقالات، بومقال، منصرف عن جريدته حقاً صدقاً لأول مرة، منتبهاً إلى ما يجري في الرقعة... دون وعي لرابط أو منطق ما يرى ويسمع، لكنه مثل غيره، يريد للتدبير أن يسير إلى نهايته... ينصب القشاش فخاخه، ويبني جسوره، يسد ويفتح، ويعلن أخيراً طالباً من صاحبه أن يحسب ما تبقى له:

ـ سر يا أخي في حالك... سر... تلعب مع اقرانك...

وينظر حواليه بضحكة صاخبة عريضة يهتز لها كيانه، يشهد من حوله على قوله في خصمه... أليس الغالب ولأكثر من مرة بالتتالي؟ لم يجد مول المقال بدّاً من تحريك رأسه بالإيجاب كالمؤيد للقشاش لمجرد المسايرة، دون أن يفهم شيئاً... بينما ظل عيادي جامداً ونظرته تلتقي بنظرة القشاش المعتزة المعتدة... وإن أحس بأنه يدير رأسه باطنياً محاباة للرجل... لا يحبه... أبداً... وكيف؟ .. ينفر منه إلى حد الكراهية.

ـ لكن... لا بأس... لا بأس...

الحاج مستكين، راض بوضعه أمام القشاش... ويستزيد صاحبه المنازلة... بيد أن القشاش يمعن في اعتداده... من ينازل؟ لا بد من مستوى... مع ذلك... لا بأس... يا الله يا سيدي... يا الله...

تفترش الرقعة مرة أخرى بالمكعبات المنقطة، ويصيح القشاش بخصمه كأنه رحيم به، يعلمه، ينبهه إلى المخاطر ويشجعه قائلا:

ـ ابْنِ دارك... حصّن دارك... دبر لراسك.

ويعقب الحاج بهدوء:

ـ دارك زينة... ممتازة...

يدرك القشاش من لهجة امتداح خصمه له مدى استسلامه، فيؤمن على كلامه مؤكداً... طبعاً طبعاً... أهلا وسهلا... الأساس هو كل شيء في الدار ولا دار بدون أساس... ويهمه أن يحقق ذلك على الرقعة فالخصم خصم مهما بدا من استسلامه وطاعته.

يكرر الحاج:

ـ عندك يا أخي دار جيدة... دار زينة...

ولا يبدو أن القشاش يهتم بما يسمع، فعينه على الرقعة يحسب، وباله إلى المكعبات الخفية في كفه يحسب...

ـ دار... عندها الموقع والمساحة... دار عندها مستقبل كبير ومهم...

وصدرت عن محيط الرجلين همهمة تأييد... نبّهتْ القشاش إلى وجهة حديث صاحبه، فتساءل عما يعنيه الحاج... عن أية دار يتحدث؟

ـ دارك الحقيقية... دار السكنى... كل شيء فيها جيد وزين... ولكن يا أخي...

توقف القشاش عن حساب النقط على وجوه المكعبات وعلى الرقعة، محاولا أن يفهم... ولم يبخل عليه الحاج، بالتأكيد، إنه لا يعني دار اللعب... دار المكعبات على الرقعة... بل دار السكنى الحقيقية... ولكن... يتساءل القشاش عن لكن هذه؟ وعن المقصود بالضبط؟ هل معناه أن شيئاً ينقص الدار او يهددها؟ ويستكمل الحاج: جيدة ممتازة... لكن العسلي خسرها... خنزها...!

تساءل القشاش مشدوهاً من وجهة الحديث...

ـ العسلي..؟ السمسار!؟ كيف وبماذا؟

ينظر في عين محدثه، ثم في عيون المحيطين به، ماذا؟ أتتجاهل؟ وما القصد؟ كأنه أخذ على غرة في تيار لا يعرف وجهته... أخيراً يبدو أنه أدرك بعض الأمر، وإن كان غير متأكد من إدراكه، لكنه على كل حال لن يمعن في التجاهل... يقصدون العسلي... السمسار أو...؟ سمسار؟ إنهم يعرفون ويعرفون أن القشاش يعرف... لن يتجاهل... العسلي ذاك الذي ليس سمساراً كما يعرفون هو رجل شريف على الأقل من منظوره الخاص... وهو كذلك من منظور الرجولة والمروءة... الرجل له كلمته... يدفع الكراء بانتظام، وبدون مطالبة أو مماطلة... أحياناً يسبّق... ويسلف عند الحاجة... وهو يدفع ضعف الكراء الحقيقي... ماذا يريد القشاش أكثر من ذلك لداره وساكنها؟.. ثم هو في دكان خارج الدار... ماذا يريد القشاش أكثر؟ الأمور الأخرى لا تهمه... وهو ليس القائد أو المقدم... ولا هو الحكومة..؟

يحاول الحاج إيقاف هذا السيل والاتجاه:

ـ لا، لا، مشيت بعيد...

ـ وهذي هي الحقيقة...

ـ لا، لا، أبداً، المقصود هو سمعتك أنت، وسمعة الدار وسمعتنا كلنا...

ينظر القشاش في أعين الثلاثة... يحس بتيار التواطؤ سارياً قوياً بينهم... يودون النبش في الموضوع باتفاق سابق بينهم... ليكن... لا يهم عمل العسلي مهما كان... المهم أن يدفع ما عليه وزيادة آخر كل شهر... عليهم أن يضعوا ذلك داخل رؤوسهم العنيدة وقلوبهم الحسودة... يسمسر في البشر رجالا

ونساء؟! ليكن... من يضع نفسه في كفة السمسرة يستحق... هل العسلي هو الذي يجري وراء الناس أم هم الذين يلهثون إليه رجالا ونساء؟ ليكن، والقشاش نفسه يتاجر في أبخس الأشياء من أصدإ مسمار إلى أتفه قطعة معدن من مزبلة، يشتريها متسخة صدئة من جامعها المتسخ الصدئ بأقل ثمن، ويبيعها بمثله... من له هو القشاش بالبشر يبيعه ويشتريه؟ لكل تجارته... وكل مهيأ لما يصلح له، كل حرفة لها أصحابها... وهذه حرفة تحتاج إلى مخ كبير... راس... وليس لأي واحد من مثل القاعدين هنا بما فيهم القشاش نفسه... السمعة والجوار؟ لا يهم، كل مسؤول عن نفسه... ثم ما معنى الفساد؟ أين الفساد؟ كل فرد فرد... كل شخص شخص، إلا ويعتقد جازماً مؤكداً أنه وأهله فضلاء فاضلون... فمن هو الفاسد وأين الفساد؟

على كل... فالموضوع محسوم ومنتهي... العسلي يدفع إيجاره جيداً وعلى أحسن وجه... فهو في الوضع المطلوب تماماً... تماماً...

كان القشاش في حديثه أوضح ما يكون لدرجة جعلت مخاطبيه يتبادلون نظرات الحيرة... وكان لابد من تدخل مول المقال وعيادي بالتناوب... كلام معقول... صحيح... المعيار هو الدخل والأداء في الوقت المناسب... لا غبار على كلام القشاش، لكن إذا كان هناك وضع أحسن... دخْل أعلى وأعلى بكثير، مع سمعة أحسن... فهنا بيت القصيد... ليطمئن القشاش... ليْس المقْصود العسلي بذاته... هذه نقطة عرضية تقريباً... المهم أن الدار يمكن أن يكون لها دخل أكثر مع مكانة وتقدير لصاحبها، مالكها...

أنصتَ القشاش جيداً... النغمة مغرية وخلفها منطق لا بأس به... وعلى كل حال، ليست متولدة عن ذلك الحسد الذي تصوره أول الأمر... وابتسم القشاش ابتسامة عريضة، تلك الصافية التلقائية ثم حنى رأسه، ومد يديه يجذبهم نحوه إلى ما يهمس به في آذانهم... الحق أن الحاجّة، أم أولاده، يداعبها أحياناً

ببعض ما يشاهده أو يختلقه من نشاط العسلي وزبائنه من الجنسين، فتضحك الحاجة لذلك وتنهره، وعلامات الرضى بينة على وجهها...

ويترك القشاش آذان مستمعيه، ويرفع رأسه وصوته مستنتجاً أن لا أحد إلا وهو في باطنه ومع نفسه فاسق داعر... وهذا قول الأولين... قاله سيدي عبد الرحمن المجذوب رحمه الله...

وترتفع قهقهة القشاش بما اهتز له كيانه اهتزازاً، ونظرته تتجول في ملامح سامعيه، تستشهدهم على قوله وموقفه، بينما كانوا يتأملونه بحياد... الموقف بالنسبة لهم لا يبعث على الابتهاج والمزاح... مزاح القشاش وحده هو المبتهج... ومتى كان غير مبتهج، هذا الذي تسبقه القهقهة حيث لا يجد غيره مبرراً للابتسام..!

يقولون... ماذا لو أمكن تحقيق المكسب نفسه، مكسب الكراء، وما يتعلق به من اطمئنان على ما يرد كل شهر... وأيضاً على ما يمكن أن يعرض من احتياجات أخرى... كل هذا مع سمعة طيبة للدار... وللقشاش، وللدرب بأسره!؟ من يمانع في مثل هذا العرض البديل؟! القشاش على كل حال ليس بالذي يمانع في مثل هذا، السمعة الطيبة كلام فيه زيادة ونقصان، قابل للأخذ والرد، لكن ما عداه مما يحسب ويدخل الجيب ويملؤه، فهو مطلوب ومعقول... ليكن، هل هذا الذي سمعه القشاش ويحاول أن يفهمه مجرد قول من أقوال مولاي إدريس المقالات، هذا الحاضر الناظر أم هو عرض حقيقي، هنا يستبق مول المقال الحديث... إنه مشروع... ولا أحسن من لحظة كهذه طالما انتظرها مول المقال ليفصل القول في مشروعه... هو يا سيدي مجرد فكرة... تصور بسيط، لكنه قائم على دراسة وخبرة... يا سيدي باختصار وبلا أي تطويل، المقصود تأسيس وكالة إعلامية... ببساطة نقول في البداية فتح مكتب إعلامي... لا شيء أهم ولا أربح من تجارة الإعلام... عدا عن كونها رسالة

مقدسة لخدمة الدرب بكامله والمجتمع عامة، بنشر الوعي... نشر الخبر يعادل نشر الوعي والعلم؛ وليس أبسط من توزيع الأخبار... هذا هو المشروع في جملته وكالة إعلامية، لا أحْلى أو أسمى من استلام الخبر وتوزيعه...

يذكر مول المقال بخبرته وهو تائه في ذكريات سعيدة، سحر تلك الغرفة المشتملة على تجهيزات استقبال الخبر... خلية تنبض بالحركة والحياة وبين الفينة والأخرى كان مولاي إدريس يمر... بل أحد مساعديه في غالب الأحيان يقتطف القصاصات لقلم التحرير، فمصلحة التوزيع... كل شيء جاهز في التصور، ودار القشاش أنسب موقعاً... لا أسهل من تحقيق مشروع مربح وحيوي تنموي وحامل وعي وتوعية... حامل رسالة شريفة مقدسة، ثم هو مشروع، لا يكلف في بدايته على الأقل إلاّ جزءاً من أرضية الدار والباقي والباقي لمرافق أخرى... أما فيما بعد فالطوابق الجديدة تخصص للسكن إذا شاء القشاش ذلك... على أن المشروع قابل جدّاً جدّاً للتطور... بداية بسيطة غير مكلفة... ثم بعد ذلك...

كانوا قد بدأوا يتناوبون الحديث في تفاصيل المشروع، أو على الأصح كان الحاج وعيادي يتناوبان الحديث فيه بعد أن أشفى مول المقال غليله بالحديث عن الجزء الخاص به... الدار قبل كل شيء... دار القشاش كما هي الآن ليست سوى أرضية مسقوفة يحتل العسلي جزءاً منها دكاناً، والباقي لسكن القشاش وأسرته زوجته وبناته... إذن الكلام يعني مباشرة هدم الموجود على وجه الأرض، وبناء عمارة جديدة من عدة طوابق...

يتابع القشاش مذهولا متسائلا بينه وبين نفسه هل معهم مال؟ وكيف يتوصلون إليه وبه... أو على الأصح كيف يتوصل هو إلى ذلك؟ وماذا يستحق من كل ذلك؟ نصيبه بالضبط؟ كيف ومتى؟ أسئلة كثيرة اختلطت ولم تترك فرصة للمزاج المبتهج الذي بدأ به الموضوع... لكن إذا كان المقصود مجرد طرد العسلي

أولا وقبل كل شيء، فلن يحدث ذلك، لن يحدث لأن القشاش ليس رضيعاً ولا أبله، حتى يبدأ بالضرر لنفسه أولا وقبل كل شيء، لا، ليس تحت أيديهم مال بعد! لم يعثروا على الكنز بعد! المسألة مجرد مشروع... إذن لن يبادر بطرد العسلي أو الإساءة إليه مهما فعل... فالرجل مسؤول عما يفعل، ولم يكن القشاش في يوم من الأيام أخلاقياً، أو فاضلا حتى يزعم لنفسه حراسة الأخلاق... والرجل ذاك العسلي يؤدي ما عليه، وفوق ما عليه، وينجد بالقرض عند الحاجة، وبتسبيق قيمة الكراء... وأكثر من ذلك أنه لا يطالب القشاش بما يتبقى من ديون... كأنه ينسى... ربّما لا ينسى... لكنه على كل حال، يسكت ولا يطالب... كلها مكاسب راهنة، بنت الآن، وليست بنت مشروع في الهوا...

يريدون جواباً تأكيدياً منه في حالة ما إذا وجدوا المال... أو وجدوا المموّل... هل يقبل المشروع؟

لم يطل تفكير القشاش ليجيب... من هنا لهناك يكون لها مدبر حكيم... ماذا يقول أكثر؟ ما معنى الرفض؟ وما معنى القبول؟ وماذا يرفض أو يقبل... كله كلام في كلام... كله فراغ في فراغ... جوابه أيضاً كلام في كلام... في الهواء... ولها مدبر حكيم... نعم، يؤكد لنفسه أنهم لو عثروا على الكنز، لكان معهم كلام آخر... أما الآن، فماذا يستطيع لهم وماذا يستطيعون له؟!

يستجمع القشاش همته للعب من جديد، يركز على الرقعة وكأنه نسي الموضوع كله، يفتتح المرحلة الجديدة بضحكته المعهودة الجاهزة... يا الله يا وليدي... العبْ أو سرْ تلعبْ... العب بالزمان والعب على الزمان... العبْ عليك الأمان... العبْ العبْ يا وليدي... خوفي منك وخوفي عليك، خوفي على الشجيع يهزه الماء... خوفي على المرعود يغطيه الماء، وخوفي على الماء من غطاسه، يتروى به، ويخويه من ناسه..!.

يداري الحاج همته، ويفتعل عودة لميدان القشاش... المكعبات تلتصق حافاتها بحافات بعض على الرقعة... يناور القشاش ويداور...

يتبادل عيادي نظرات ما بين مول المقال والحاج، الموضوع بينهم ما يزال مفتوحاً... وكذلك يظل مع القشاش... لفرصة أخرى قريبة...

22

أيحدث هذا؟ الكون غير الكون والدنيا مقلوبة... ساسها على راسها، مقلوبة، أيحصل هذا ويُقبل؟ كيف يعقل ويُقبل؟

كانت الخطوات تسير به... تندفع من داخله تنهيدة إثر أخرى... شعور بالضيم... فيض ضيم يملأ جوانحه... تتفطر له الجوانح... تكاد... كيف لا تتفطر؟ أهو شيء يحتمل؟ لو كانت الظروف غير الظروف، لأمكن فعل الكثير وتحمل الكثير...

يكاد يشهق، إلا انه يتذكر أنه رجل... يجب أن يكون في موقف الرجال، ويتحمل تحمل الرجال... لكن الأمر ليس له بالضبط، وإلا لتحمل أو... لدفع النفس إلى التحمل... لكنه يتعلق بالغير... وعليك يا عزيز أن تكون أكثر من رجل متحمل، لتنقل الخبر إلى صاحبك ومعلمك الشخش!

لولا ما تفرضه الأمانة، لكان عليه أن يترك الأمر للزمان... أو للغير، يسرب الخبر كما يتيسر أو يتعسر... المهم أن ينتهي إلى الطرف الآخر على دفقات وبمقادير... لكن ماذا يقول الشخش في أوفيائه وخلاصه... أيخونه الجميع؟

أيخونه لخوت جميعاً وضمنهم وفي مقدمتهم عزيز نفسه؟! إذ ذاك يموت الشخش كمداً... هو الذي لا يموت بأي خطر داهم آخر... يجب أن تكون أكثر من رجل يا عزيز وأنت تنقل الخبر... وحسناً فعلت، أن اتجهت بخطواتك أخيراً نحو السجن، تحمل الخبر وتحمل العزم على البوح به... وأكثر... لا يا أخي، لا أحد يستحق الثقة في هذا الكون الرديء... حتى عزيز أنا هذا الذي أمامك... لا أحد يستحق الثقة يا أخي ومعلمي... وعزيز نفسه هذا الذي أمامك، لم يعد يدري إن كانت نفسه لا تخونه وتدفعه إلى الخيانة في يوم ما... أو الآن... لا أحد يستحق الثقة... وكل أوفيائك قابلون لأن ينقلبوا عليك... وضدك...

لا، لا، ما هكذا يساق الخبر... البداية أهم شيء في خبر صاعق كالذي يحمله عزيز، ولا يستحسن نقله بمثل هذه البداية البكائية...

أخي، سأقول لك كلاماً يجب أن تستعد له... إنها خيانة... خيانة ضدك... خيانة من بعض أقاربك... من بعض خلاصك... خيانة أقرب الناس إليك، أو من يظن أنه كذلك... ولعلك الآن مستعد لتسمع وهذا هو الخبر...

لا، لا، أيضاً لا تصلح هذه بداية، ولا تصلح تهييئاً لشخص، لاسيما إذا كان سجيناً، وكان هو الشخش بالذات، أتبكي وأنت تنقل إليه الخبر أم تريد إبكاءه؟! لا...

الكلبة عملتها! الكلبة الغدارة، وكل الكلبات... لكن ساعة الانتقام آتية، فلا تهتم لذلك، ولا تغتم به... لخوت معك... كلهم معك، وسينتقمون لشرفك..!

لا بأس هذه قد تكون بداية مناسبة فيها من القوة ما يلزم، وفيها ما يناسب بأس الشخش، لا بأس... ومع ذلك، فالطريق يطول، يتسع... المسافة نحو السجن تتسع لمزيد من البحث عن مقدمة أنسب... هكذا يا عزيز تكون رجلا في موقع الرجال مثلما يريدك له الشخش... وفي موقع الثقة التي وضعها

فيك، والذي تريد أن تكون جديراً به، لا بد في نقل الخبر من عنصر القوة وعنصر التأكيد على الأخذ بالثأر وإنزال العقاب بالمذنب وبمن غدر... كرامة الشخش لها من يرعاها ويجب... ثم لابد في المقدمة من فتح باب التفاؤل أمام الشخش، فهو سجين مهما يكن الأمر، وإن كانت نفسه وهمته لا يحتويهما سجن... المهم يا عزيز أن تجد الصيغة التي تناسب المقام، فأنت وحدك المؤهل لنقل الخبر... يا أخي...

كان عزيز يدير ويعيد في ذهنه ولسانه منذ يوم وليلة، كيف ينهي الخبر إلى الشخش، خبر خيانة من نوع خاص، وغدر يمسه ويعنيه قبل أي آخر... لو أن البعض من لخُوت، أو حتى مجموعتهم كلها، انضمت إلى صف العدو، أو بحثتْ لنفسها عن زعامة غير زعامة الشخش، لكان الوقع أسهل على عزيز وبألف مرة... فمثل تلك الخيانة على كبرها، قد تكون منتظرة في بعض الظروف... أما عندما تكون الخيانة عاطفية... من امرأة لرجل في مقام الشخش، نزيل السجن... فهذا ما لا يحتمل!

ماذا كان ينقصها... الكلبة؟ وماذا تضيف إليها الخيانة؟ ماذا يمكن أن تجد عند الولد الوليّد المبنَّت... مما كانت تجد أو لا تجد عند الشخش؟ صحيح أن الشخش لم يكن يبادلها الحب فيما يبدو... لكنها كانت متعلقة به... مجنونة بحبه... ميتة فيه؛ وكان يشفق عليها ويعطف... وهل تطمع امرأة مهما تكن في أكثر من ذلك من الشخش؟ إنه بذلك أعطى كل ما يستطيع لمثلها؛ وكان عليها أن تحفظ العهد وترعاه، وتقدره حق قدره... تخون؟ تخون وتنتقل إلى الصف الآخر... إلى العدو تحبه، تردد عليه عبارات التعلق نفسها والحركات، وتحكي له أسرار الشخش... إذ لا بد أن تحدثه عن عدوه الذي كان سيقتلع القضبان بقبضتيه... أو ... يهدم الجدران بضربات رأسه... أو يرمي بحراسه واحداً بعد الآخر... واحداً على الآخر... كارثة..! كارثة محققة... فآخرة ذلك كله، أن

تكتب نهاية الشخش كأسوإ نهاية تظل مرتبطة بذكر امرأة وسخة حقيرة... وبسبب جهالة صديق وفي، لكنه غبي وتافه مثل عزيز... هذا ما تكونه وما تتسبب فيه بعملتك يا عزيز... وتبقى أغنية مفجعة للأجيال والأصحاب...

وعوّل عزيز على أن ينسى مهمتَه وينسى الموضوع الذي جاء من أجله...

سأل الشخش عن أحواله... فأومأ الشخش إيماءته المعتادة أن كل شيء بخير... على ما يرام... وابتسامته لا تفارق محياه... لكن عينيه... عينيه كانتا تستزيدان... الرجل يستزيد... يستطلع بعمق عينيه ويشجع بابتسامته... ماذا يفعل عزيز؟ يتحدث أم يصمت؟ يبوح أم يكبت؟ الأيسر له أن يفر من وجه الشخش... الشخش يستزيد بصمته وهدوئه... ويبدو عزيز مصراً في داخله وقد أحكم الحصار على الحقيقة المرة... عوّل وقدر ودبّر... يغمض عينيه... يريد أن يتكلم بما لا يريد... فلا أقل من ألاّ تلتقي نظرته بنظرة صاحبه الصريحة الهادئة السجينة المستزيدة... لا يستطيع أن يخْدَع نظرة صاحبه أو يخادعها...

يغمض عينيه ويحرك لسانه بصعوبة بالحروف المتثاقلة المتباطئة... وعندما يفعل ذلك... تكون جملة واحدة بسيطة قد انفلتت منه، معبرة عن فشله واستسلامه لغريزة الوفاء فيه والفناء... غريزة الفراشة المنجذبة نحو النور والنار والاحتراق...

ـ عويشة ولّت مع الولد..؟

يضج الكون في سمع عزيز... هكذا؟! تضج الجدران والأصوات والرعود... ماذا؟ يرقُص الرعب ويخاف الخوف... ماذا؟ هكذا؟ تنهدُّ كتلة عزيز وهو يتمعن في ترداد الجملة القصيرة الغريبة في سمعه عمن صدرت... لماذا وكيف... هكذا... وماذا؟ يفتح عينيه بتثاقل لا مزيد عليه، ليشهد هول ما

يجب أن يشهد... ماذا فعل بالرجل؟ ماذا فعل بنفسه إن بقيت له نفس أو بقي منه فيه شيء؟! يفتح عينيه شيئاً فشيئاً، كأنما يقدر أن يشهد الهول مجزءاً مقسطاً، أو كأنه يرمي إلى جس نبض المشهد ليعود إلى الإغماض، قبل أن يتم فتح عينيه إن كان المشهد فوق... فوق كل احتمال... وهو حتماً فوق كل احتمال... فوق... فوق... لكن الرجل ما يزال... إن كان هو الشخش عينه... وإن كانت الرؤية رؤية... وإن الرجل لا يستطيع أن يموت هكذا واقفاً ناظراً هادئاً صامداً مبتسماً ابتسامته تلك... بنظرته تلك... أيموت متجمداً هكذا على ما هو عليه وفيه، دون حركة أو خبطة مما تفعله الموت المفاجئة بالكائنات الحية... الكبش الذبيح مثلا..؟! لا شيء... أبداً... أي موت هذا وأي تجمد يكون..! أي هول؟ واقفاً ما يزال الشخش بنظرته تلك... يستزيد... أي هول...؟! أتكون قوة التجمد من فرط التهيج المكبوت والغور المضغوط والضيم المحصور... وشدة قمع الفورة والسورة والثورة..؟ الرجل قائم ما يزال... يرف فيه النظر... تسري البسمة والإيماءة... ويستزيد...

تنفتح عينا عزيز... وينظر جيداً إلى الشخش الراسخ أمامه... إن كان قد احتمل إلى الآن فيجب أن يسمع... وإن كان لم يحتمل فلا يستطيع عزيز أن يقاوم غريزة الوفاء والفداء والفناء... وإيماءة الاستزادة من نظرة صاحبه... والكون حوله ما زال أيضاً قائماً كما كان... هادئاً كما كان قبل تلك الجمْلة الرهيبة القصيرة المنفلتة... وقد مضى الأهول وبقي الأهون... الشرح والتوضيح والتعليق والتهوين... بقي أهون الأهون إذن، بعد انطلاق الجملة الوحيدة الفريدة... فليسمع، فلتسمع يا أخي... يا أخي...

وتمر تفاصيل علاقة عويشة بالولد... خيانتها التاريخية تُعرض في أدق ثناياها... خيطاً... خيطاً... حرفاً... حرفاً... تقلبُّها والولد في عرض الشخش وحقه، تمرغهما العابث في سمعته... في ذكره وذكراه...

رائحة الشواء السمكي المنبعثة من كانون في الرمال تبثها في الكون نسائم المحيط... ومداعبات الأكل والشراب على الرمال، وعويشة كالتحفة بين الولد وصحابه تتندر بسلوك الشخش... تضحك ملء شدقيها على صبية لحُوت وتدعو لهم بالخواء الذي هو ملء ملئهم... تتسابق النكات الفاجرة على لسانها، وترقص على الرمال... حول الكانون، غير كاسية إلا بالعار والخيانة وانعدام الحشمة والحياء، أمام الجميع... تحت الشمس والقمر والمد والجزر، كلها دفعة واحدة... وأكثر.

الرجل صامت صامد مستزيد مبتسم... لا يبدو عليه موت ولا هول ولا صدمة... لا شيء من ذلك... ماذا؟ هكذا... وعندما يتكلم الشخش يكون كمن لم يسمع شيئاً... أو من سمع شيئاً مبتذلا... عادياً لا يستحق انتباهاً ولا تعليقاً. يسأل عن.. لحُوت... والصحاب... يسأل عن دقائق أخبارهم ويعطي بعض التوجيهات كالعادة... وكالعادة، يحيي بحيويته تلك المعهودة وهو يودع ويومئ لتابعه أن يتسلم ما جاء به عزيز من زاد... يستوقفه عزيز، فيستدير الشخش، ينظران كل منهما للآخر بضع لحظات... عينا كل منهما في عيني صاحبه... يريد عزيز أن يتأكد من أن الشخش بخير، وأنه استوعب الخبر... وأن ما يراه بأم عينيه، هو الحقيقة والواقع الحي، وهو ما يحب أن يرسخ في عقله ظاهراً وباطناً...

يريد عزيز أن يتأكد من أن ما يراه بأم عينيه واقع تام كامل، يطابق الرسالة التي جاء بها، والتي أبلغها الآن إلى حيث يجب أن تصل وتُبلّغ... أيصدق ما يرى... إلا أن تكون الرسالة لم تفهم أو تستوعب على حقيقتها... أو أن شيئاً آخر قد يحدث فيما بعد؟!

الوقت يمضي سريعاً بين عزيز ومعلمه... يريد عزيز أن يطول الوقت، بعض وقت يستجمع فيه ما يستجمع من شتات فكره وإرادته... ويبدو الشخش غير

متحمس لإطالة زيارة تبدو طويلة جدّاً... استنفدت أغراضها بسرعة، وكأنه لا جديد فيها... إطلاقاً...! لا جديد؟ كيف؟ وخبر أكبر خيانة... كيف؟ حتى وإن كان الشخش لا يحمل بين جوانحه ذرة قبول تجاه الغادرة، ففعلها وحده كاف لإثارة من لا يثور... فكيف بالشخش؟ وعزيز... عزيز أدرى الناس بالغضبات الشخشية وبفوراتها لأسباب أقل بكثير... وأقل ...

يحدق عزيز في صاحبه الملتفت إليه في حركته المنصرفة باتجاه المخرج... باتجاه زنزانته... ينظر فيه محاولاً أن يتعمق استجابة صاحبه لما سمع واستوعب... يحدق كل منهما في الآخر... لا شيء... لا شيء...

ويكاد الشخش يستدير كلية منصرفاً في طريقه، ليستوقفه صوت عزيز، متسائلا هذه المرة:

ـ وقضية عويشة؟!

يحرك الشخش حاجبيه كمن يقطب لعزيز في لوم وعتاب... ثم سرعان ما ترتخي ملامحه وهو يقول بإيماءة ولا مبالاة:

ـ انس عويشة... انْسها...

ويغمز إليه بطرف عينه، بمودة أحس بها عزيز تسري إليه صافية عميقة منعشة حاله... بينما اتسعت ابتسامة الشخش، وهو يكرر الوداع منصرفاً...

23

هلل رقيبة من أعماقه مرحباً وهو يستقبل صديقه القديم عيادي... زيارة مفائجة فعلا، مع أنّها كانت يجب أن تكون عادية. صداقة عمر، كيف الحال؟ والأولاد؟ إنه أحسن يوم أحَد في كل الآحاد... ماذا؟ عيادي هنا؟ يوم كبير... كبير جدّاً...

وكان عيادي جد مغْتبط بالزيارة التي تردد كثيراً قبل الإقدام عليها... أحمد رقيبة لم يكن نافلا ولا عرضياً في صداقتهما... في علاقتهم الثلاثية عندما كانت الظروف تسمح، صداقة عمر كانت، كما يقول عنها رقيبة وعيادي بلسان واحد...

سار رقيبة بصديقه ممسكاً بيده، لا يكف لسانه عن الترحيب وعبارات الابتهاج... قاده إلى فسحة الحديقة الخلفية مجتازين عدة ردهات وأُبْهاء... ها... مكانه المفضّل في وقت كهذا، وفي يوم عطلة... فيء شجرة الكاوتشو الضخمة بقرب المسبح...

جلسا معاً، جنباً إلى جنب على مقعدين إلى طاولة مستديرة بمواجهة صفحة الماء... تكاد تحيط بهما التواءة الحوض... لا يكف أحدهما عن النظر في صاحبه، يتقرى ملامحه كأنه يود بذلك أن يغوص إلى أعماقه لمعرفة ما به، وما حل بعد فرقتهم... أو افتراق رقيبة عنهما على الأصح... وتساءل رقيبة عن حال صاحبه الحاج أكثر من مرة... وعن بقية درب السلطان... هجرهم فهجروه... هذا منطقهم... لكن، يمكن أن يقال العكس أيضاً، فهو صحيح... لم لا؟... رغم ما في هجر من هذا النوع، إن كان هجراً حقّاً، أنك تبتعد لمجرد أن تريح وتستريح... لا بأس... لا بأس... ولهم أن يعتقدوا أنه قد تعالى عليهم بمقامه وثروته... وليس من الضروري أن يكون هو السبب في هذا الظن لديهم... لا يذكر أنه ترفع عنهم بالقول أو السلوك... أبداً أبداً... على العكس كان أحرص على الاحتفاظ بهم حوله... بالطبع... لا يعني هذا أنه لم يتغير... بل... كثيراً، وهو معقول في مقامه وثورته، وودّ لو يتغيرون هم أيضاً... يتزحزحون شيئاً ما عن وضعهم... مجرد مسايرة لوضعه... مجرد نفض الإصرار عن مواقفهم والغبار عن عيونهم... وهو لا يطلب الكثير... ودّ أيضاً لو يضمهم إليه بما لهم وما عليهم... لكن... رقعة الفرق اتسعت، والهجر والنسيان الخفيف الذي لا يجر معه عمق الذكريات... لا بأس، لا بأس... الكل بخير في درب السلطان... اكتملت دورة التحايا والترحاب والسؤال الجاهز... وزاغ كل منهما عن نظرة صاحبه مؤقتاً، كأنما يلتقط أنفاسه، أو يبحث لنفسه عن بداية مناسبة للحديث... عيادي ينصرفُ إلى تأمل ما حوله من خضرة العشب وتنوع الأغراس، والتنسيق البديع لدوائر الزهور والورود... وصفحة الماء الهادئ تستدعي في خاطره مشهد الماء الهادر لأمواج المحيط المتكسرة، عندما كان يراقبها وهم في «النجمة»، أو حتى مخارج الدار البيضاء في متعتهم بسيدي بوزيد أو الوليدية، تلك الفوهة الطبيعية البديعة التي تفتح

للبحر ممراً بين الصخور، ليملأ الشاطئ على امتداده الرحب الفسيح واستعراض بحيرته العجيبة بالمياه وبالخيرات العديدة ما بين مد وجزر... وما بين مد وجزر، يتمتع المشاهد بمنظر عرائس الجوار... أسراب فتيات وفتيان... يتسابقون نحو البحيرة وحوافيها الصخرية، يلمون في سلال وقفاف وشباك خيرات المحيط، طرية، زكية، عبقة الريح والطعم... مطاعم الشاطئ ومياهه كانت مرتعاً لهم هم الثلاثة، ولمن يختارونه لرفقتهم... وكم اختاروا، واختاروا... كم غيروا وبدلوا من أنيس... إلاّ هُم الثلاثة فكانوا حلقة الرفقة والجلسة وجوهرها الثابت... عشرة عمر كانت... وحرمة جوار دافئ حار... جوار درب السلطان وأيامه و... أعوامه... أحلى العمر والجوار... تلك التي تحليها بزينة وطيب ذكراها، جذوة رفقة لا تنسى...

أحمد رقيبة بدوره ساهم في مثل خواطر صاحبه، منصرف في الظاهر إلى ملاحظة جميلة في حركاتها، وهي تحيي وتقف بطاولة بديعة ذات رفوف زجاجية مسحوبة على عجلات، تلمع قضبانها الذهبية تأخذ الخاطر والباصر... صُفّت عليها كؤوس بلورية بأشكال مختلفة وأطباق مكسرات، وأصناف مشروبات... يتابع رقيبة حركات الفتاة، ويستحثها بلطف لتهتم بالضيف الذي تعرفُه جيداً... تتسع ابتسامتها مرة أخرى في وجه عيادي، قبل أن تنصرف.

مرة أخرى يلفهما الصمت، لكنهما مقبلان كل من جانبه على الآخر، يتناول عيادي عصير فواكه الموسم، عازفاً عن غيره مما لم يعرف له جنساً... وأحمد رقيبة إن كان قد هجر الدرب وأهله، إن كان به ما يبدو نفوراً من ذكراه، إلا أن ذلك ممزوج لديه بحنين باطني... ببعض حنين على الأقل... والباقي تقتضيه الظروف... أما عيادي فلا يمكن أن يداري الشعور بالخسارة الكبرى، عندما هجر صاحبه الدرب والجوار... خسارة للجميع... خسارة أحس بها الجميع، وعانى منها صاحبا أحلى عشرة كانت: الحاج وعيادي...

هما بالذات كان إحساسهما باقتطاع جزء منهما... غياب أحمد رقيبة... خسارة كان... خسارة يبقى... صحيح، لم يكن رقيبة أول ولا آخر من هجر أو يهجر... كلهم أو كثير منهم تتغير بهم الأحوال، وأول ما يفعلون أن يهجروا إلى الدروب والأحياء الجديدة الرفيعة الراقية... أو لا تتغير حالهم فيهجرون أيضاً وراء التغيير... يهجرون إلى دروب وأحياء ليست رفيعة ولا راقية... كثيرون... حتى ليتساءل المرء عمن يعمر درب السلطان حالياً... وكم يستمر فيه من أهله الأصليين؟ رغم ذلك فلا أحد ممن هجروا، فيما يتصور عيادي، ترك الفجوة والفراغ مثلما فعل أحمد رقيبة؛ ولا أحد منهم ترك الدرب بإصرار مثل ما حصل منه... وكأنه يكفّر على جريرة الماضي كله... كأن الماضي كله جريرة... أي جريرة... إصرار لا مثيل له على قطع كل علاقة بالدرب حتى بالأسرة والأولاد... أخطر ما في هجر أحمد رقيبة، قطع الصلات بالجميع... كأن حل كل مشاكله في ذلك... وكأن مشاكله كلها من ذلك، من يدري؟ ربما يكون ذلك صحيحاً، جزءاً أو كلا؛ ولكنه ليس سليماً... وليس مقبولاً أبداً من قبل الرفقة والوفاء... ومن قبل عيادي والحاج على وجه أخص... وهما من أخص من عانى من هجرة رقيبة...

والآن يشعر عيادي، بأنه في أمس الحاجة إلى صاحبه القديم أحمد رقيبة، يسأله عن الحال. كما ترى، يجيبه رقيبة مبتسماً، وهو يومئ له ليرشف من كأسه، ويؤكد لضيفه أنه في غاية الاترياح... بدون مبالغة ولا تواضع... في غاية الارتياح... ارتياح حقيقي وعميق... يحاول بجد ألا يكدره شيء... وبالفعل... لا شيء يكدر صفوه عدا الصفو ذاته... عوارض الصفو والهناء... عوارض المزاج... عوارض ارتياح... عوارض رضى... بعضها مما لابد منه... ملح الطعام، لكن لا شيء غير الارتخاء والارتياح... ولا يخفي عن صاحبه أنه بالإجمال يتخفف من كل شيء ولا يكاد يعمل فكره في شيء...

لو أراد رقيبة أن يبقى متحملا ما كان يحمل، لما وجد فرصة لهناء ولا لحظة لمزاج... لا، هو فعلا بإرادته طلّق المهام والهموم... وبدوره، أحمد رقيبة، يسأل عن كل واردة وشاردة في الدرب... عن الجلسة واللعبة والمقهى... كل جلسات درب السلطان ومقاهيه... يا لله كل شيء حي في الخاطر وعلى طرف اللسان... يسأل عن رطوبة بقايا الخضَر في الأزقة التي تنقلب أسواقاً مكتظة كل مساء، تاركة لرطوبة الليل أن تزيد من تعفن النفايات... لتنبعث رائحة حموضة فواحة... كريهة بعض الشيء... لا تخلو من نكهة محببة...! والمتسولون، يسأل عن المتسولين بأسماء بعضهم من الذين يعتبرون – أو كانوا– من ثوابت الليل والنهار... الحوانيت يذكرها بأسماء أصحابها... من الزروالي والعطاري... ثم الهبطي وأحواله... إلى... الرحمونية... طبعاً طبعاً... وهل مثلها ينسى من مثله... وسدّات الدمينو عندما يُعلن انتصار... يسأل سؤال المتفضل، يلتقطه عيادي بسمع المتلهف لا شك أنّه يحن إلى الدرب... ما يزال في أعماقه يحمل كل شيء كالمعهود... وهكذا كان تقدير عيادي، وهو يسرُّ ما جاء به زائراً، وإلا لما خطا خطوة في هذا السبيل...

يسأل عن كل شيء، ولكنّه لا يسأل عما نبت وتجذر في الدرب بعده، يسأل عن الرحمونية لا عن العسلي، عملة لم تعرفها بحق أيام رقيبة... الرحمونية بالقياس إلى كل ذلك تبقى مذكرة بالعز والكرامة... يسأل عن الهبطي... هبطي الأمس أم هبطي اليوم... هبطي يغمس جلده في قطعة بلاستيك شفاف... كأنه يسعى بجلد آخر وجلده الحق للعيان... عمن يسأل؟ تبعي الأمس أم تبعي اليوم... يسعى بعد الثبات كأنه توأم الهبطي إلا في اللبسة والمشية والمنشود... إن كان ثم ما ينشد... يسأل ويسأل... اسأل يا أخي عن المذلة التي حاقت بأصحابك... اسأل عن هوان عيادي الماثل أمامك بجرحه الكامن... اسأل عن عهد الشخشية المُولي لحساب الولْدية... اسأل عما تشاء فهي علامة خير.

السؤال منك كل خير... اسأل عما كنت تعرف لتعرف الجديد الكثير، مما لم تكن تعرف...

ظل عيادي يجيب رقيبة بإيماءات... عبارات مختصرة... يدل بريق عينيه عن أمل يحدوه في أن تكون بشارة خير بما يترجى...

وقهقه رقيبة قهقهة خفيفة قصيرة، اهتز لها كتفاه... لا... لا... إنما يسأل للسؤال... لا غرض له في الواقع، لأن يعرف بالضبط ما يجري هناك ولا ما عليه الحال... لم يعد شيء من ذلك يهمه، إنه لا يخفي على صاحبه ما يعلم، من أنه دفع بكل شيء خارج عالمه الجديد... إنه يشتري هناءه... وقهقه مرة أخرى... الرحمونية عهد عز وكرامة؟ ماذا يعني الصاحب بذلك. لن يسأل عن ذلك، والذكريات كأنها بنت اليوم... أهذا ما يعني؟ .. كانوا ثلاثة، ثلّتهم المعهودة المحدودة... أو عصابتهم المسالمة الصغيرة... اقترح رقيبة على صديقيه سهرة في سيدي بوزيد أو ... إذا شاء الصديقان فلتتم السهرة شمالا... ضيعة البحر على بُعْدها... لا يهم... يضرب رقيبة بكفه على صدره، مؤكداً أنه يضمن نجاح السهرة وجمالها مع جودة الرفقة التي يعرف أين وكيف يجعلهم يقضونها، يعرف أين وكيف ينتقي مكملاتها... هه؟ لا مانع، إنما عيادي بالذات، وكان إذ ذاك قد بدأ يلاحظ منذ مدة ابتعاد رقيبة... عن أهله... ودربه... ورفاقه، يقول لا داعي للهرب والابتعاد... الخير هنا... في القرب والجوار... لا أنعم ولا أسلم ولا أهنأ... الرحمونية... الرحمونية...

بالفعل كانت دار الرحمونية مرتعهم حيناً بعد حين... خلسة وخفية، كانوا يتسللون... وكانت المرأة مظهرة ما تظهر من ترحيب مزيج بالتضايق... لا أحد يستغرب منها ذلك... هم أيضاً لهم عذرهم... ألا ينشدون من بضاعتها... خياطة... طرازة... أي شيء؟ وأيضاً... قد يكون في نية أحدهم أن يخطب واحدة من فتياتها للخير والحلال... ألا تستقبل خطاباً...؟

تنظر المرأة في وجوههم عليمة غير مقتنعة، وينظرون إليها بابتسام متواطئ... يدركون إلى أي حد تصر المرأة على أن تظل صورتها بدون شائبة في نظر الدرب وأهله وفي نظر الجوار... وفي نظرتها هي بالذات لنفسها... مضى عهدها ذاك الذي يبحث عنه الكثير... ولولا الجوار ما استقبلتهم، لكنهم بمثابة أهل... إنهم أهل حقاً...

وتفتح لهم المرأة خيرات دارها من حسن خطاب، ولطف استقبال... كل هذا لثلّثهم دون غيرهم، للجوار... يذكرونها بعهود تناستها أو تحاول... كل شيء في حدود الستر والتعقل والأمان... يستثيرون بظرفهم موهبتها في الغناء... تطربهم بغاية الوقار، تخدمهم من توجد في الدار من بناتها... آونة بعد أخرى، تعض المرأة على طرف شفتيها كأنها تدرك هول ما جعلوها تنزلق إليه... تعض في ابتسام ونظرة مشعة كفتاة عاشقة خجول... وما تفتأ تستجمع ملامحها لتؤكد عليهم ألا يكرروا العودة... وألا ينبسوا بشيء... لا تريد لنأمة مهما تكن أن تتسرب عنها... بداية الفضائح الكبرى تبدأ واهنة ضعيفة... ثم تشتعل دفعة واحدة... لا، ليست أبداً، ولم تكن خائفة... مضى عهد الخوف مع عهود الحب، ذاك هو الدرس تكرره المرأة لزائريها، وهو ما تلقنه لمن يرتبط بدارها من بناتها... امرأة حازمة تعرف ما لها وما عليها... تتقن ما تعمل وتعمل ما تتقن... ترسل شباكها إلى العمق والبعد... تفضل صيد أعالي البحار!

قهقه الحاج على نحو أثار المرأة لحركته، وهو يهمس بفكرة صيد أعالي البحار في سمع رقيبة... نهرته المرأة بحركة ودية، وكأنها لم تسمع أو تعِ...

ثلّثهم المحدودة استثناء كما تؤكد المرأة، وكما يعرفون، فالمسموح لهم بمثل ما هم فيه لن يكونوا إلا استثناء أيضاً... وضاعف من شعورهم بجو السهر وظرف المرأة، إصرار رقيبة سرّاً مع صاحبيه على إدخال لوازم الضيافة وهداياها من قبل عيادي... وفوجئت المرأة فعلا عندما أعدت لهم مائدتها

الشهية الحافلة، بما تآمرت فتياتها على إدخاله بتكليف من الثلّة... أظهرت الرحمونية تقطيبة... ثم ما لبثت أن استرخت أساريرها مرحبة من جديد، منطلقة مستبشرة... وانطلقت فتياتها في الخدمة، وقد نالهن نصيب من هدايا الليلة الساهرة...

رغم ذلك، كانت المرأة أكثر من حريصة على حدود ما يجري، ربما... كرم الهدايا زادها يقظة، فكانت عيناً يقظة على حركات البنات والنكات والضحكات... غنتْ لهم بطلب منهم... غنت برغبة منها... لكنها ظلت بالمرصاد لكل حركة أو نأمة تعتبرها في غير ما تريد أو لغير ما تريد...

كانت تؤكد لهم ولبناتها، ضرورة المجاملة وحدود المراعاة، مراعاة الجوار طبعاً... مراعاة الاستثناء، ومراعاة ثلة رقيبة وكرمه... شرطها المعلن والمسكوت عنه، أن يظل بيدها الزمام، زمام الحركات والكلمات... زمام السهرة وتمامها... ليكن... كان لها ما أرادت، وكان لهم ما أرادوا... وكانت من أجمل سهرات العشرة، وأحلى ذكريات العمر الجميل، أجمل من أية صخرة أو خيمة أو ضيعة في الشمال أو الجنوب... من ينسى؟! أهذا ما يعنيه عيادي عندما يستحضر ذكرى الرحمونية بأنها كانت عهد عِز وكرامة؟ لمن كانت كذلك؟

ها هم... مرة أخرى، بإلحاح جديد من عيادي في دار الرحمونية بالاستثناء نفسه، وبالتقطيبة المألوفة والاحتجاج المعهود من مضيفتهم، وبعامل الكرم الرقيبي وتوسل الجوار... ها هم أولاء في أوج المرح... عندما يطرق طارق ملح مزعج... ملح غاية الإلحاح، تنظر في ثلة رقيبة مقطبة مستفهمة... تغلق عليهم الغرفة وتقوم باتجاه باب الدار... تفتح الرحمونية... يدفعها الهرج الذي يهز الدار، وصوت الباب يقفل، وأصوات معربدة متداخلة لا يستبين بينها صوت الرحمونية، وتُسمع الخطوات والهرج يساق باتجاه الطابق العلوي...

تسمع الخطوات على الدرج... ويظل الهرج يتناهي، ثم تقبل الرحمونية، تفتح الباب على ثلة الجوار الرقيبي المتحسسة الصامتة وقد أخذ بها التحسب، وتقول الرحمونية في تسليم ومظاهر اضطراب تحاول إخفاءها:

ـ براهش... من جماعة الشخش!

وتلمح بالاعتذار... ماذا تستطيع أن تفعل؟ هذه أول مرة يحدث هذا... الشخش نفسه لم يجرؤ على فعله أبداً... ولن يرضى لها بهذا... لكن ماذا تفعل أمام طيش لخوت، فتيان بلا عقل ولا وازع يطرقون دارها على غير علم منها، وفي عدم وعي منهم بما يفعلون... عقول غائبة ورؤوس دائخة... ماذا تفعل؟ لو لم يكن في ضيافتها أحبة أعزاء، لعرفت كيف تكيل لهم ما يجب أن يكال، وكيف تردهم على أعقابهم بعد أن تشهر بهم في الحي... لكن... لا بأس... سيؤدبهم الشخش... تعرف هي كيف تجعله يؤدبهم... لا بأس... لهم ساعة يرتاحون في الفوقي قبل أن ينصرفوا... قالوا يا سيدي... إنهم في حاجة إلى ركن يرتاحون فيه لحظة..! انظر... كأننا في صحراء... لا بأس... لا بأس...

كانت المرأة في حرج بالغ... تكرر أنها ما كانت لتضعف أمام البراهيش، لولا وجود أهلها وجيرانها في ضيافتها... تعمل جاهدة في حرج وإلحاح على محو كل خاطر يمر بالذهن، يؤكد أنها عادة أو فعل مألوف يحدث لها، وفي دارها... وما تفتأ تفتخر بالشخش وبمروءته...

ـ هاذاك... رجل، كلمة... وشرف...!

وتقلب شفتيها مقطبة في مظاهر اشمئزاز، من بعض من يحيطون به، يحتمون باسمه، وهو لا يرضى بهم رفقة ولا أتباعاً...

الآن... الواقع لا يرتفع... وألف مرحباً بالأهل والجيران... الدار دارهم والكل يخدمهم...

تقول المرأة ذلك، مظهرة استبشاراً ومرحاً، تريد أن تخفي به آخر ما تبقى من أثر الحرج، تنظر الرحمونية إلى بعض فتياتها ممن كن في الخدمة، وقد تجمدت حركتهن وأخذ بهن التوجس... تنظر إليهن محفزة على أن يمضين فيما كن فيه من خدمة أهلها...

تحاول الرحمونية أن تستعيد كل هدوئها، تتقدم الفتيات نحو ما يلزم... يقدمن الكؤوس والصواني بأطاييب مختلفة لم تعد مغرية للثلة التي يبدو أن التوجس ساكنها... الرحمونية نفسها رغم جهودها المضنية، تبدو منصرفة الهم والانتباه إلى ما يجري أو يمكن أن يجري في الفوقي... لذلك ما تلبث أن تومئ بالاعتذار لتغيب عنهم لحظة... يعرفون أنها يجب أن تراقب ما يجري في الفوقي... وسرعان ما تتعالى متناهية أصوات مرج وهرج من جماعة لخوت في الفوقي، وكأن ظهور الرحمونية بينهم أذكى نشاطهم، بدل أن يعمل على تهدئتهم... عقول غائبة ورؤوس دائخة... طيش فتية مغررين مغرورين... ماذا تفعل...؟ وغداً... إن غداً لناظره قريب...

وما تلبث ثلة رقيبة أن تؤثر الانصراف... وتتسلل جماعتهم خارجة دون أن تنتظر عودة المضيفة لوداع أو استئذان، وعلى خطوات خارج الدار، يبادر رقيبة معلناً أنه لن يخطو خطوة واحدة بعد اليوم في الدرب بكامله... ومنذ الآن...

آه؛ من حلاوة عمر وذكريات... زناتة، صحيح... عهد لا ينسى... وردة زناتة عمر جميل آخر... كان لكل شيء زهوه ورواءه...

وردة زناتة تمد قدماً نحو البحر؛ وأخرى نحو البر... ولها تاريخ طويل أو قصير؛ منذ كانت مصيفاً بحرياً لفرنسي كان يملك ضيعة في بنسليمان، فيلا صغيرة أنيقة المظهر، تحيط بها حديقة على مساحة تناهز الهكتار، تعانق كثبان

رمال المحيط، حتى تلتقي بنبات الرتم البري على النهايات الرملية المتصلة مباشرة مع منطقة البلل... فالأمواج... تعانق عفوي، لا تدري معه إن كنت في ملكية خصوصية أو في فضاء مشاع... نقطة بيضاء معزولة كانت، تلمح من بعيد ومن الطريق الساحلي القريب... ثم أصبحت وردة زناتة ملتقى عمومياً لمن يفر بلحظته خارج الدار البيضاء... نجوم تلمع ليلا بأزهى الألوان، والأشجار الباسقة ترعرعتْ داخل السور، غاب الرتم البري من على الهضاب الرملية المطلة على ما يوالي منطقة البلل البحري، غابت وردة زناتة نفسها بين ما أُضيف من غرف استراحة، وقاعات ومرافق وفسحة لموقف السيارات، والشرفة المطلة على الطريق الساحلي ونظيرتها الكبرى الفسيحة على الجانب الآخر بمواجهة البحر... مقصف ومطعم وفندق... تضاف إلى ذلك خيمة بلدية رحبة بهية... ولينس القلب عذابه... ولتأت لحظة الحياة مكثفة عميقة.

أقبل الحارس مبتهجاً مرحباً كأنّه يفسح البوابة المفتوحة للسيارة... وخطا مجانباً مشيراً إلى مكان الوقوف... وما كادت السيارة تتوقف حتى اندفع بخفة ونشاط، يفتح الباب للسيدة حورية بلسان مرحب طليق... نزل أحمد رقيبة، ونزل رفيقاه من المقعد الخلفي، نفح رقيبة الحارس ورقة أُفاضت من لسانه الشكور معسول الدعاء والثناء... التفت إلى رفيقيه، توسطهما، ووضع يداً على كتف الحاج والأخرى على كتف عيادي، وضمهما في مودة حتى تقاربت رؤوس الثلاثة، وبدوا كما لو كانوا يتسارون بشيء ثم قهقهوا دفعة واحدة... لعلها نكتة أو لقطة مضحكة... لا... بل خبطة داعرة من عيار الخمس نجوم... تلك التي يبرع فيها الرجال... كانت حورية تتقدمهم بضع خطوات تراقب المشهد... قالت في استهجان ودي، إنها تحتج وتطلب المشاركة... لا سرّ بين جماعة... بدا رقيبة متحمسّاً مستعداً لذلك... ترك صاحبيه واتجه نحوها كالمترنح من سكر، ورفع صوته ببداية النكتة كأنه يحكي للكون كله... فبادرته

حورية بإشارة السكوت والاكتفاء، متنازلة عن حقها في المشاركة والتحدي... واضعة كفيها على أذنيْها ترفض الاستماع...

ساروا متقاربين في ممر تحيط به أشجار الدفلى المزدهية الأزهار، ناضرة مفتحة، تمتد خلفها من الجانبين فسحة مخضرة من نجيل ناضر... صعدوا درجات ثم انفتح الباب، وعمتهم في الحال دفقة موسيقى دافئة.

مقصف يتوسط فضاءات مقسمة على نحو يوهم بأنها خلوات مهيأة لمجموعات محدودة... أشار رقيبة بعرض ذراعيه المفتوحين إلى ما حوله، وبحركة من رأسه إلى حورية لتختار المكان المناسب، كما لو كان يتحرك في ملكوته الخاص.

اتجهت حورية إلى ركن يكاد ينزوي بمحاذاة نافذة زجاجية، أزاحت ستارتها المخرمة لتطل من حافتها ورود مترددة تطرق زجاج النافذة، تحتك به من الخارج في تودد، كأنها تستأنس أو تستأذن للدخول، بينما تمتد على البعد تموجات البحر سطحاً رصاصياً يذوب امتداده في الأفق، أو يسبح في دكنة المساء...

ما كادت ترجع من تأملها، حتى كان النادل يتفقد المائدة في الركن الذي اختارته؛ ولم تمض لحظة حتى تحلقوا متقابلين، وقد دفعت حورية إلى الوراء كمي جلابتها تسبح في سواد حريرها أشكال هندسية دقيقة مبعثرة فاتحة، كنجوم في عز ليلها الحالك، مفصحة عن بض ذراعين تتمسك بمعصميهما الأساور، وتلتمع أحجار... صفقت بيديها مدندنة بإيقاع خفي لأغنية تتفاعل في داخلها، كأنها بذلك تشجع جو المرح...

قال رقيبة: هيه... مستنفراً همة الجميع، مومئاً للنادل بالاقتراب... ما يطفئ لظى القلب أولا، أو ما يزيده بالأحرى... وقهقه عيادي؛ أطفئ لظى

القلب، ولا تطفئ! قلبك هو المشتعل أم قلبه هو فدواؤه جنبه... داؤه دواؤه... سيان لديه داء ودواء... وداؤه بالتي هي الداء! كان الحاج يرد بالنغمة نفسها على مرح عيادي، ملمحاً إلى حال رقيبة يغبطه على ما هو فيه...

قالت حورية إنها ترفض أن تكون داء، ولكن بصفة خاصة جداً، واستثنائية جدّاً، ونظراً لسقم الحبيب رقيبة، فإنها تقبل ذلك... لا بل تسعد به، ولا أحلى من زبيب غير إيذاء حبيب!

تمنى عيادي أن يفدي صديقه رقيبة، وينال الشهادة على يديها بدلا منه، وبصفة جد خاصة وجد استثنائية أيضاً! وقال رقيبة إنه يتعجب مما يسمع ويرى، فالنساء كثير وكذا القطارات، والسطوح العالية ولجج الأمواج... لمن ينشد الشهادة... فهل من مستعجل؟ وهل من مانع؟

بدأ طيف المرح يداعب ثلثهم مستمرئين دعابة بعضهم لبعض، واستدرك عيادي... كأن النساء سواء، كأنهن جميعاً أهل لأن يرتمي عاشقهم من حالق إلا إن كان يقصد النجاة من براثنهن!.. وكأن النساء جميعاً حورية، لا، وألف لا، هذه حورية الزمان يا سيد رقيبة، افهم يا سي رقيبة، هذه نسيج وحدها، احمد ربك واشكره عليها، وعلى ما أنت فيه معها... رفيقة، صديقة، حبيبة، زوجة، مؤنسة ومؤانسة للجميع... أي والله أخت عزيزة للجميع... ومداوية لداء رقيبة السقيم السليم... ودواؤه الوحيد الأوحد... احمد ربك واشكره...

قال الحاج إنه يحمل ضمير زوجته في جوفه، وقد يتركهم إذا استمروا في هذا التعريض والهزء بضميره الغائب والحاضر...

وقال رقيبة بحمية: افعلوا مثلي...

كان شبه جاد فيما يقول، رغم تردد داخلي يعني عدم إيمانه بما يقول... افعلوا مثلي... وبعد؟

كانوا قد آمنوا منذ تعلقه بحورية، ومنذ عقد عليها بالحلال، أن رفقتهم لن تزيد فرداً واحداً، لا ذكراً ولا أنثى لجلستهم... كلهم راضون بذلك، يحيون ساعات أنسهم وبينهم حورية، كما كانوا يحيونها سابقاً... تقريباً... مع فارق طبعاً، أنهم أحياناً كانوا يصطحبون معهم غيرهم... فارق في العدد... أما منذ ظهور حورية في حياة رقيبة، وبينهم، فهي تضاهي في الجلسة أكثر من مجموعة رجال أو نساء... كانوا معجبين بها ومسرورين بحالهم معها، وقالت دائماً وأكدت... لن تقبل ولا تسمح أبداً لأحدهم باصطحاب أحد في جلسة تحضرها أو تهيئها، إلا أن تكون زوجة مثلها؛ ومادامـا يحرصان على حمل ضمير الزوجة، دون إحضارها... فلا حل ولا استثناء... كانوا متفاهمين وفي غاية انشراح بوضعهم وعشرتهم، عشرة طويلة مديدة، لم تعكر صفوها شائبة، وبخاصة مع وجود امرأة... زوجة أحدهم... عزيزهم... ولكنها حورية...

وأقبل النادل يدفع طاولة على عجلاتها، مؤطرة سطحها وحوافيها بأعشاب بحرية ما بين خضرة وكدرة، صفت عليها أسماك متنوعة وخليط من ثمار البحر... كلها طازجة طرية بعضها يرتعش ما يزال... أشاروا بالاختيار، وأقبلوا على لحظات أنسهم...

تزايدت حركة المجموعات الوافدة على المكان، وانبعثت موسيقى شعبية راقصة، بما يجعل عيادي يتمايل معها في جلسته رافعاً صوته وكأسه بالصحة والتحية للجميع... الصحة لكل من في هذا المكان وحوله... لمن جهزه وعمره... والكون كله...

شاركوه في الطرب والترداد، تمايلت حورية مشاركة بدورها على توالي النغم... ضاربة بكفيها على الإيقاع... تيار مرح يسري، متجاوبة معه الأكف والألسن والحركات... وينبري شاب يرقص تتبعه على الفور فتاة، تتضافر رشاقة الحركات مع تراقص الأضواء المتساقطة شلالات ملونة على موقعهما، تضفي على المشهد حيوية آسرة...

ينسحب الشاب بعد فترة، لتستمر الفتاة وحدها تحت الأضواء والأنغام... صبية خفيفة الحركة، طرية العود، تستجيب بمرونة بالغة لالتواءات النغم وتعرجاته... الله... الله، كأنما تحررت الصبية من كل سبب يشدها إلى أرض... بمفردها في خفة خدروف تتقافز تحت مساقط الضوء ودفق النغم... خفة فراشة تتطاير منطلقة من جاذبية كون، تخلق من ذاتها قطب جذب لأنظار وقلوب كل بها مأخوذ... كل شيء منها يتقافز على التواءات النغم السريع المرح، كل ذرة من كيانها كيان... وما يلبث أن يرتفع منها صدى الصوت مردداً لازمة الأغنية ذات الرجع البعيد... رجع جد بعيد يفوح بالذكر والذكرى العزيزة النائية... رجع تردده فجاج وجبال مخضرة تتناثر في سفوحها وأوديتها الدواوير... يوزع أصحابها ضوء النهار، ويلم شتاتهم مجيء الليل... الليل الحالك المرصع بالنجوم الصافية... والليل... الليل الفضي الشفاف، الليل المقمر حامل الأمل ورسائل العشاق، مردد أصداء اللوعة والشوق، باعث الكواعب والفتيان إلى مغامرات البراءة والجد، تُباعد بينهم وتقارب... يزهو الليل الفضي الشفاف، أيام العيد، فترسل الأكواخ وجيوب الوديان كأعالي القمم، عرائسها في أتم حلي وأجمل زينة... زرافات ووحداناً، كأنما يتوالدن من بطن الأرض، أو كأن كل سرب يخلق من ذاته سرباً عند كل منحنى أو منحدر، أو قل يتفتقن عن نور القمر وبه، كما تتفتق به وتتغذى منه الثمار... يتوافدن عرائس مزينات متشابكات مرحات... يتوافدن من كل فج على محج الوادي، ويسرن أسراباً من جمال وعبير، زاهيات الألوان فواحات العطر، بمحاذاة الجدول الرقراق المنساب إلى نقطة الفسحة قرب المنبع، حيث يتم التجمع... فتيان وفتيان في جمال شفاف أخاذ، وابتسامات يزينها الصفاء، نساء ورجال كهول وشيوخ، يرفعون حلوقهم وأيديهم بالطرب والغناء، بالفَرح والهناء، تتداخل فيهم الأصوات والأنفاس، ونبض الحب والحياة... كما تتداخل الكلمات والترانيم...

وتجلي رقية بصوتها، كما تجلي بحركاتها الفردية الدخيلة على الإيقاع المعتاد لحركات الأغنية والرقصة... تلك الحركات التي كانت منها... من كيانها وإبداع وجدانها... تلك التي انبثقت منها أثناء حفلة الثانوية... لا تدري كيف انبعثت أطرافها وحنايا كيانها بأداء لا تعرفه، لكنها تشعر بأنها تؤديه... الإيقاع ذاته... إيقاع النغم هو الذي كان يرسم في كيانها وعمق وجدانها، دقة خطوة، ولين لفتة، ورقة رعشة واهتزاز... ووجهها الباسم الوضاء... أبداً... باسم وضاء. وسايرها الجمع... سايرها سرب الفتيات والفتيان... وينقلب الكل إلى مجموعة صغرى داخل كبرى حول نقطة المركز، وبؤرة السحر والمرح... رقية... باسمة وضاءة... والكل بعد ذلك يظل ينتظر عودة رقية في عطلة العيد من ثانوية بني ملال، بشوق الصادي إلى ارتواء، ولهفة التائه البادي إلى إيناس من نور ونار... وكانت رقية بدورها تعد أيامها وشهورها في المدرسة، وعند الخالة، وفي هذه الأزقة المتفرقة المتربة الفاصلة ما بين هنا وهناك، وتظل تعد الأيام والشهور... هذه الممرات، داخل الفصول، وفي النظرات والصدفات والامتحانات، وفي الرغبة وأصداء الحرمان من كل شيء... ليالي القرية الفضية الصادحة تلك، كانت بلسم كل شيء، وزاد طريق لا ينضب، حتى تعود رقية أمرباط إلى فضاء صاف ينسي ليله نهاره... أما نهارها الحقيقي فبعيد... بعيد... كما كان يبدو على مسافة ما بينها وبين البكالوريا، وما بعد البكالوريا... أو... ليكن أقل وأكثر بعداً... ليكن أية وظيفة أو مهمة، تجعل متعتها تزيد عن الانتظار الوحيد في حياتها، لموعد القمر الفضي ليلة العيد في القرية الجبلية النائية... ليكن أي شيء يجعلها قادرة على أن تكفي نفسها... تستقل عن نظرة الخالة وابنتها، وعن شفقة الحارسة العامة، وغيرة الزوجة الناظرة في الثانوية... وليكن أي شيء يغني عن بهجة العيد في القرية مقروناً بعجز والدة أو جهلها، وبالغياب لوالد هجرة أبدية مجهولة المبتدى، عديمة المنتهى... آه... ليكن أي شيء... رغم

تجلي الصوت من رقية، مرددة أصداءه الكواعب والوديان والفتيان... الصوت الملتاع المبحوح يتجاوب مع صداه... يلتقيان يلتويان يتساميان...

ينبه رقيبة حورية إلى شرودها، وقد انتهت الموسيقى وتوقفت الفتاة عن الرقص... فعلا تعود إلى نفسها... تقطع رحلتها البعيدة تلك، الشيقة المريرة في آن: براءة القرية وعذابها، فضول ثانوية بني ملال وصدمة الوجدان، ثم فاطمة الدفء والحنان بالفقيه بنصالح، لهيب الموت والحياة... ها هي ذي تعود إلى صحبها أصحى ما تكون وأوعى مشجعة بحركة تصب الرفقة والرفاق ليشربوا صحة الصحة، صحة الصحبة، وصحة الرقص والغناء... في سرها ربما تكون شربت أكثر من ذلك... شربت وحيت صحة نظيرتها الحاضرة الغائبة رقية أمرباط... تلك التي لا يذكرها أحد هنا... حورية النسيمي التي لا يذكرها أحد هناك... رقية حورية... أمرباط النسيمي... من يذكر أو يعرف... وهنا... أو هناك...؟

قال الحاج إنّها ليست معهم رغم المظاهر... ليست معهم كلها ولا ينفع التجزيء... نريدك كلك معنا، لا النصف ولا العشر... ولا داعي للإنكار... وجزاء الذنب، جزاء جريرة الغياب الملحوظ... وجبة فرح مترعة للجميع معادة ومكررة... تحية الجميع في صحة الجميع... قالت إنها بالفعل غابت قليلا فيما أثارته في نفسها الأغنية، بل بحة صوت البُنيَة ورشاقة حركتها في الأداء... مرونة قاتلة...

تفتر أسارير رقيبة، يقفز طرباً مبتهجاً، ماذا تريدون؟ ماذا نريد أكثر؟ أنسمح بأن يعتذر القمر عن نوره، والوردة عن أريجها... هللوا لرقة العاشق... صفقوا لجمال البدر... وضع رقيبة يده على كتف حورية بحنان... أنتِ هنا، انسي كل شيء... لننس جميعاً ماعدا اللحظة الحية هذه... لحظة حورية والصفاء...

قال عيادي أن لا علاج من لوعة الذكريات إلا بإعادة الأغنية والرقصة... أشارت إليه حورية خفية بطرف العين ألاّ يلح في ذلك... رجاءً جميلا لا يرد... وبدلا من ذلك كله، أشار رقيبة إلى النادل يستزيد ويغمر قطره كل الزبائن... الكل... بدون استثناء... معاداً ومكرراً... وإلى آخر الليل أو آخر القطر... قال رقيبة ذلك وأفرغ محفظته وجيوبه كلها من المال... حزمات حزمات... دفعها إلى حورية لتتصرف... فهو كعادته يتحرر من المال...

لم تمض لحظة، حتى كانت الأنظار كلها مصوبة إلى طاولة المجموعة، الأيدي تحيي، والأصوات تُهلل للرفقة الجميلة الكريمة الصافية... رد رقيبة ورفاقه على تحية الحاضرين... وسرعان ما تلألأت الأنوار متداخلة متعانقة وصدحت الأنغام وانبرت صبية الرقص إلى الحلبة تحيط بها شلة... ثم تحركت الحلقة الراقصة باتجاه رقيبة ومجموعته... متحلقين حول طاولتهم... ثم اشترك الجميع في الرقص والغناء... آه، من لحظة الطرب والحياة... قالها عيادي مراراً وتكراراً... قالها كثيراً بزمان قبل هذا الزمان... قبل هذا الزمان بكثير كثير... وكان رقيبة إذ ذاك، خالي الذهن إلا من لحظة الجد والشغل والمسؤولية... لحظة اللهو كانت جد سطحية لديه... جد عابرة... قالها عيادي مراراً وتكراراً ومن زمان قبل هذا الزمان... ولكم يعلن رقيبة بذلك سراً وجهراً أسفه على الزمان الضائع... وما ضاع من متع الحياة أيام كان... بريئاً كالطفل، شغالا حمالا جادّاً كالبغل... وكم أغريتَ يا عيادي دون جدوى... الحاج على الأقل كانت له نظرية... كان يقول إن كلاً منا يستجيب لندائه الخاص في وقت من الأوقات، وهو أقوى نداء... لا يقاوم؛ ومن الأحسن أن يساير... كان يقول وهو يرى عزوف رقيبة عن كل ما يعتبره لهواً وفراغاً حتى السيجارة... فليترك وشأنه، فذاك نداؤه الخاص... نداء لم يرتفع لديه وفيه بعد... وعندما يقبل النداء يوماً أو يعم ويغمر، فسيكون تلبية واستجابة بسيطة كل البساطة... غاية في السهولة

واليسر... ثم ينهي الحاج نظريته بالعبارة الفخيمة: النفس وما تهوى والقلب وما يشاء... وينظر إذ ذاك إلى رقيبة متحسراً مع ذلك على حاله: الحب... بزاف عليك!

آه وكم هي جلسات الأنس التي كان رقيبة يشارك فيها بمجرد الحضور، ويلح على أن تكون على أتم وجه لهناء صديقيه، وأن يدفع الحساب كاملا وافياً وبأوسع ابتسامة... وحده كان يتفرج على فرجة الغير، مقلداً أن يمرح ويظهر سعيداً بذلك... لم يكن له هم آخر عدا الشغل والجد والمسرولية فماذا يعمل؟ كان فعلا يخفف عن نفسه بعض الشيء في هذه الجلسات مكتفياً بقراح الماء، وسائغ الطعام... وكل ذلك يبدو آنذاك في نظر الرفيقين، صديقي العمر الذي مضى جله بلا طعم ولا نكهة من جانبه... كأي شيء مباح... مباح... حتى الصباح! أحقّاً هو نداء داخلي... نداء كذاك الذي يقول به الحاج في نظريته، هو الذي جعل رقيبة يغرق دفعة واحدة في اللحظات الهنيئة، وينصرف عن المباح السائغ المألوف إلى عبير الطحالب من قارس وحرّيف... أهو ما جعله يسعى لكل مجهول من جاف وندي؟

والحب بزاف عليك؟! آه هنا شيء آخر... عالم آخر وطعم آخر... ويقهقه الحاج حتى تغيب حاجّيته، فهو لم يكن يُسَمَّى بذلك إلا لتنافر مظهره الوقور مع مسلكه... سليمة أم الأولاد لم يتزعزع يقينها وحسن رأيها في الحاج ووقاره... شديدة الثقة كانت، وربما استمرت كذلك إلى الأبد، في استقامة الرجل ومروءته... كان بإمكانها أن تقول دائماً لزوجها أحمد رقيبة، إنه ما دام في رفقة الحاج فهو بخير... وهي بذلك مطمئنة...!

آه من الحاج الوقور... الجار الخدوم... مثال الاستماتة في الواجبات... مهما يكن... الرجال رجال، والمهم أن يعود المركب حتى لو تمزق الشراع أو تكسر المجداف... والأهم، الأهم، الرأس، رأس العش والعيش، أحمد

رقيبة... وعندما تخبط عفاريت الشك والتناقض والهواجس في رأس أم الأولاد سليمة... ملاحظة وجود الحاج وعودته إلى عشه وأولاده وجيرانه... وغيبات أحمد رقيبة المتتالية الطويلة... ليلها يطارد نهارها... يكون جواب الحاج بذاته كافياً لذر الرماد على الجذوة الملتهبة في أتون المرأة... أوه، يا للا سليمة. أنت عاقلة وعارفة... سّي أحمد مشغول كان الله في عونه... خَليه... وردّي البال لأولادك ودارك... كلمات حاجِّية لا تطمئن ولكنها مطلوبة، ربما تنذر وتهييء ولكنها مطلوبة... تحب سليمة أن تسمعها وتسعى وراء ذلك سعياً... قبل أن ينضب معين الحاج نفسه، ويطفح الكيل... ثم... ثم طار الخبر اليقين وشاع... كان لابد من ذلك... ولا يمكن لهمة الجار الوقور المخدوم إلا أن يكون صريحاً وصادقاً... طار الخبر اليقين... وكان وقعه ثقيلا صاعقاً... أن ضاع المركب وراكبه في يم بلا أفق... ولا حدود... ضاع بوعي وإرادة من صاحبه وبعزيمة منه... معقول؟ ضياع بإرادة وعزيمة؟ الأمر لصاحب الأمر... الأمر كله لله وما باليد شيء... ولتكوني عاقلة يا سبليمة... خليه في حاله، وابقي في حالك، كما كنت مع أولادك وفي دارك...

أهو نداء خاص حقّاً؟ قال رقيبة ذلك أكثر من مرة ساخراً تارة وجادّاً أخرى... أهو كذلك حقاً؟ يجب أن يعوض ما فات. هذا شعوره وعبارته... الأمر أكثر من ذلك... عليه أن يعوض كل شقاء العمر السابق... وكل حرماناته... الأمر أكثر بكثير... عليه ألا يعرف بعد اليوم إلا لحظات المسرة والانطلاق... أو... لحظات الرغبة والإشباع... حلاوة العيش، مذاق الحياة الخاص الخالص، ونكهتها حورية... ما قبلها وما بعدها... لو أمكن أن يكون بعدها بعد... هو الضياع... الضياع المجاني العبثي بلا مركب ولا يم ولا بيداء... ضياع الضياع ذاته... الضياع الرخيص الأجوف الأبله... براءة الصبي... وحزم البغل... الكدّ والعرق الذي لا يُرى ولا يبَل! قبيل منتصف الليل بقليل، كانت

حركة حورية بسد طوق جلبابها، وتفقد بعض زينتها وأشيائها، إيماءة برغبة في الانصراف... وعند الباب المفضي لساحة الخروج... قبل الخطوة الأخيرة توقفت حورية... رنت إلى جماعة المقصف وإلى الصبية الفاتنة... ساحرة الحركة ساحرة الذكرى والصدى البعيد... ما أشبهها برقية أمرباط تلك التي كانتها... مع الفارق، أو بحورية النسيمي التي أصبحت إياها... مع الفارق أيضاً... أتكون كذلك؟! الصبية منصرفة إلى رفيقها وجماعتها... مرحة... فراشة شفافة الوجود... بسمة الوجود... لاحت من الصبية التفاتة... شبه التفاتة... تلاقت نظرتها بحورية... ابتسمت لها في مودة وإشراق تام...

عهد كان وأي عهد! وورود عدا وردة زناتة تلك، كلها كان لها ما كان... ونقطة الكل ومركزه كانت، وتظل: عبق درب السلطان، ونفحه وطيبه بما له وما عليه...

كان عيادي يثير الصور والذكريات، ويعلق بتوق وشوق، يستثير صاحبه. وفي سهرة الرحمونية تلك، في خروجهم من دارها، وتعليق رقيبة بعزمه النهائي على مغادرة الدرب، لم يناقشه أحد من رفيقيه، فرغم ما أفسد سهرتهم أو قطعها قبل الأوان، فليس ثم ما يقتضي قطيعة كاملة وبالمرة... لم يكن في رأيهما شيء يدعو إلى هجرة الرفقة، ولا التنكر لجوار الرحمونية العارفة التي تدرك كيف تتصرف في كل ظرف...

رقيبة كان يستجيب لما ظل يتردد في التصريح به... لمح بذلك مراراً... والرفيقان إذ ذاك أدركا أنه يبحث عن سبب... أي سبب يحسم به موقفَه للابتعاد عن الجميع... كل خطوة معه كانت تشعرهم بأنه يراود الرحلة النهائية... وحورية... أين هي من ذلك؟ كأي امرأة لابد أن تؤثر الرحلة البعيدة بمن تعشق وتهوى... الحق أنها كانت واضحة دائماً... له ما يريد إن كان يتركها وما تريد... أما وقد ارتبطا بزواج فالرحلة بها وإليها... شرط دخول وشرط

خروج... والأحبة... الأصدقاء والأحبة... خلاصة زمان رقيبة في رفيقيه... مرحباً بهما في أي ظرف وحين... لا شيء يتغير غير وجهة الطريق...

لا، يعترف عيادي والحاج... وأيضاً رقيبة، أنها لم تكن عقبة أمام شيء... لكنه هو الذي يرى ما يرى ويريد ما يريد، هو الأحوج أن ينسى ويقتطع من ذاته عالماً... ليبني حوله آخر... وكان قد شرع فعلاً في ذلك... كان كل ما في الدرب يبعث القنوط... حقّه أن يبدأ حياته كما يريد... على نحو ما يريد... بعيداً... بعيداً...

في جلستهما الصباحية حول المسبح تداعت ذكرياتهما القديمة، تلاقت وتناءت... كل منهما كان وكأنه يترك لصاحبه فرصة التقاط ملامح من بين الذكريات... متقابلان. عيادي في زيارة رقيبة غائبان متباعدان، ولعلهما معاً كانا يتابعان الذكرى نفسها أو ما يشابهها... ومع ذلك أبان عيادي عن القصد من زيارته وعيناه تتابعان تعرجات حافة المسبح وسطحه الرقراق... أبان عما يخالجه من أنه لا يدري بالضبط لماذا يقصد صاحبه رقيبة... إحساسه بالمذلة والمهانة دفعه إلى ذلك بلا شك... ربما جرته قدماه دون إرادة حقيقية منه، أو بناء على إرادة حقيقية خفية لا يشعر بها... هذا ما حصل، وهو الآن هنا... لعله يبحث عن متنفس... عن مجرد فسحة للتفريغ...!

ظل رقيبة يتابع حركات الصديق وشكواه، لكنه لا يدري ماذا يستطيع له؟.. ماذا يستطيع أن يفعل له على البعد... أما مشاكل الدرب، قضاياه تلك المألوفة وغير المألوفة... الغارقة في المعتاد المألوف... فلا... وألف لا، وعيادي أعرف بذلك من غيره... إذن ماذا يستطيع؟ وكيف يساعده؟

عيادي لا يتحدث عن مساعدة... يتحدث عن تدخل... عن دور يجب القيام به... ويقوم به أحمد رقيبة بالذات... إنّها عودة أقوى من كل عودة ورجوع... ثم هو رقيبة، لم يعد به من شيء يميل إلى قضايا ومشاكل وأمور

جدية... هذا واضح كل الوضوح... وهو جوهر حياته الجديدة... يا أخي... أحمد رقيبة أنت ابن الدرب الأصيل... ولد الدرب حقيقي... الدرب الآن يبنى من جديد... تهدم دور وتنتصب عمارات، تشق مركبات تجارية عدا ذلك المعهود من قيساريات: جسور وأنفاق وفنادق تُستنبت أو يجب... وفي أقرب الآجال... لابد من فعل شيء من هذا القبيل، والمال يجلب المال، ويجلب المكانة... والحاجة ماسة إلى المال والرجال... واسم رقيبة وماله يجب أن يأخذا مكانتهما الآن، وفي كل ما يجد... ومن يعرف مجال المال والأعمال أكثر من أحمد رقيبة؟!. وهذا علاج لكل الإهانات... ماذا لو أمكن للقشاش افتتاح مشغل للبدل الجاهزة، أو سراويل دجينز أو القماش في داره تلك، بدل استئجارها لسمسرة لها ظاهر ولها باطن، ألف باطن... ماذا لو أقيمت عمارة وقيسارية في دار القشاش على أنقاض سمسرة العسلي تلك؟! وماذا لو ضمت إلى دار القشاش دور أخرى بالعشرات، كلها تئن بفعل الزمن لتقوم فوقها شواهق البنايات، وتتفتح بها عديد أشغال... المعقول منها وغير المعقول... مما يتحدث عنه المقالات نفسه... ماذا... ماذا ينقص، وبماذا يسيء هذا إلى رقيبة أو فيم يضره؟

يتحدث عيادي عن المال كأنه أعرف به، وكأن المال خاضع حقّاً للمعادلات! أحمد رقيبة خير من يدرك منطق المال... إلا أنه بعد أن دله المال على الطريق إليه، يفضل أن يرتخي بقية العمر... أليس من حقه ذلك؟.. ومع ذلك هل يدري عيادي، أن تشييد رصيف صغير في ميناء أو مطار، يأتي بمكاسب تفوق عمارات الدروب كلها... مد مدرج واحد في مطار، يعادل تعب تجارة عقود من عمر مديد أو عدة أعمار...؟ مكالمة واحدة من قديدير الضعيف إلى أقصى الشرق أو الغرب، تغير المواسم وتقلب اتجاه الرياح! لا داعي لكل ذلك... هو نفسه رقيبة، لم يكن ليصدق ما حصل ويحصل له مع المال،

وللمال معه، إن كانت معادلة، فهي غريبة إلا في بداية الطريق، وفي حدود الرزق المحدود... أما تجاوز ذلك، فالمال يخلق معادلته بنفسه...

وعلى كل، لا داعي للخوض في كل ذلك بمناسبة زيارة صديق، وعيادي بالذات... لم يأت إلا للخير... إنما يريد أفكاراً واضحة، ويجب أن يعتبر الأمر مساندة، وليفهمها الصديق كما يريد... إنما... إنما قديدير هو المعني بذلك، لقديدير أن يتفاهم في الموضوع بكامله... فهو صاحب تلك المهمات... ومرحباً بعيادي، ألف مرحباً بالصديق، وبألف من أمثاله من الأصدقاء... شريطة ألا يبيع رقيبة حاضره لا بماضي ولا بمستقبل... ما تبقى من العمر، فهو لحظات لا تكدير بجدّ أو حساب... العمر يا صديقي يمضي... ويمضي لحظات... لحظات...

24

ضجة الجيارة ونشاط مساءاتها المعتاد، تركيز اللاعبين المتبارين على النصر وكسب الرهان، تضاهيه حماسة المتطلعين المتفرجين، يذكيه التشجيع عبارات وحركات...

خطوات المساء... نهاية المساء، تعود بالتبعي في خطه المألوف المتحرك، يقوده طيف بسمة يلوح كالوهم، كفرحة الخاطر المستفيق من بقايا حلم سعيد، تنير هديه ملامح صبية تتبدى على القرب والبعد كالسراب، تزين حوافيه زهوة ألوان من قوس قزح لا تفارق... وبهجة الأمل. خطوات المساء، نهاية المساء، تقود التبعي في خطه المألوف دون كلل... تقوده في هذا العالم الحي المتحرك من خطوات الناس وأضواء المتاجر وأصوات الباعة... تتوقف الخطوات حيناً بعد حين، تستشف وتكتشف دون أن تسعى إلى ذلك أو تريد... أم أنها حقّاً لا تسعى لغير ذلك ومن أجله؟ في ثنايا سعي حالم، تتبدى عثرات، أعماق وأغوار يتوقف لها الخاطر الحي، ينتفض لها القلب، وتمتد يد تقدم خدمة، ولسان يهذي... والناس كأن في أسماعهم وقراً، كأن لا يدركون من لغة إلا

لغة، ومن لسان إلا لسان... يستثار منهم بعض فضول كاف بإيماءة أو إشارة أو حرف... لكنهم سرعان ما يسدرون فيما هم فيه، أو فيما يريدون أن يكونوا فيه... أهذا... كل هذا من حوافي قوس قزح زاهية لمحيا صبية، وبسمة خفية لجلال وجه امرأة؟..

خطوات المساء، والناس في ضجتهم، لا يحظى القلب منهم بغير مظهر تطلع لما يبدو كأنه غير مألوف ومخالف... ويبقى الأطفال وحدهم في براءتهم يتابعون بحدة نابهة مستشفة، يتحركون بمهل ما تحركهم البراءة حول معتوه متخبط أو سكير مترنح... لا فرق... براءتهم للفرحة مثيرة مؤنسة... أكبادهم الخفيفة اللطيفة للطف الولي الرحيم... ثلة من رهط الشخش، بقايا ثلته بعد غيابه، تنتحي ركناً هو الركن نفسه الذي كان ينتحيه الشخش كلما زار مقهى الجيارة، في حالاته التي يتفقد أمكنة يجلس إليها هنا وهناك، كأنه متعهد يراجع ملكياته متابعاً مراقباً... أحياناً أخرى، كانت زيارات الشخش للجيارة تعرض لشأن حقيقي، لعقد لقاء أو تدبير أمر... مواقع كثيرة كانت تصبح لمثل ذلك، منها فضاءات خاصة داخل وخارج درب السلطان، وجلسة الجيارة بالذات، كان لها الطعم والنكهة في حياة الشخش، ولو بزيارات خاطفة...

ضجة الجيارة ترتفع هذا المساء... ككل مساء... وشلة الشخش كأنها تحيي عهد صاحبها وسيرته، فتؤثر البقعة بجمع تخصه للتداول كالعهد الذي كان... كانت الشلة تداول وتناول الموضوعات بلا حماسة ولا عزيمة... كان واضحاً أنها تفتقد شيئاً أو أنها تصير نحو شيء من غير المعهود لها... وكان أوضح أنها أعجز ما تكون عن تقرير وتقدير، بعد أن استأسد الولد وأتباعه بالمدينة القديمة، وجهة المرسى... الأخطر... الأهم... أن من الشلة من التحق بركب الولْد..! تصورْ... يلتحق بدائرة الولْد من سبق له عشرة ورفقة بالشخش! الأمر واقع... حادث... والولْد يستأسد بعد غياب الشخش، وفراغ الساحة إلا

من... صحيح، كان على الشلة في التقائها بمساء الجيارة، أن تواجه ما تهربت من مواجهته، ما ظلت تتجاهله منذ غياب صاحبها...

خطوات التبعي في سعيها ووقوفها، نظراته فيما يتراءى له وحواليه من ملامح منشودة، وما يلقاه من مظاهر مشهودة، تتجه به نحو مساء الجيارة. يظهر الرجل، يخطو متأملا بتؤدة كاملة، يتصيد ما ترى عيناه، وتعثر به قدماه، ليمتد منه الذراع والخاطر واللسان، يسأل ويلح في السؤال، ينْصت ويفكر... يمتد منه الذراع والخاطر واللسان يوجه ويرشد ويخدم، يطلب لنفسه الوجهة والحكمة والإرشاد... لا يكاد أحد يرفع نحوه النظر... كل غارق في الرقعة والسوق الحامية الوطيس... لا يهمه ذلك كثيراً... فالزمان والمكان مناسبة كافية... يرفع مُول المقال عينيه عن جريدته أو بالأحرى يحركهما في مجالهما لبعض الراحة... يزيح نظارتيه، ويجدها فرصة ليخلص سمعه وانتباهه من متابعة غير مركزة، يتقاسمها الحرف ووطيس المعركة، ترتطم فيها مكعبات الدمينو بسطح الطاولة، وبحافات بعضها البعض... ينظر ملياً إلى الرجل... لم تكن المرة الأولى التي يرى فيها التبعي ويتأمله... إصراره غريب... يبدو غريباً وأهوج... يلح ويفرض مقامه ونظرته، يعرض سؤاله، بلا مبالاة وبدون أدنى تحرج... نظير الهبطي مع الفارق... الفارق... طبعاً... بالفعل وجد مول المقال أنه يتأمل التبعي، يحاول أن يراه مبتذل الحال، رث الهيئة، فاقداً كل سيطرة على لسانه وأطرافه... يفعل ما يشاء أمام الخلق... وهنا بالذات أمام الجيارة دون وازع من شيء... ثم يطلق خطواته المتسخة بقدمين معروقتين متشققتين في إيقاعهما العسكري الموهوم، يجاريهما بالإيقاع نفسه لسان لا يكل ولا يتعب... بونا آدم... بونا... هاه... هيه... هاه... هيه... مع الفارق، الفارق بين النظرتين... وليس التبعي إلا ما هو... ولا الهبطي إلا الهبطي نفسه... يجمعهما السعي مع الفارق... نظرة التبعي في جولتها تقف عند مول المقال،

تلتقي به نظرته، تكاد تتقد شرارة التيار، تزيغ إحدى النظرتين عن خط اللقاء، وتتسمر الأخرى عليه في طريقها، تتفحص ما تلتقي به أو تقع عليه... يحاول المقالات أن يعود لنفسه، يؤلف صورة الهبطي وضبط إيقاعها... تستعصي الصورة... تطغى عليها صورة الرجل الحاضر الناظر المتفحص... يهز المقالات كتفيه غير عابئ بالنتيجة، الغائب والحاضر سيان. هبطي وتبعي... مع فارق أو بدون، لا يهم... المهم والأهم في نظر مول المقال، هو ما ينصرف إليه ذهنه وهو يرى كلا الصنوين... قطبين متنافرين... كل يجتذبه من حروفه وجريدته... يخرج به، يجمعهما الخطو والسعي مع فارق... والفارق من يحمله ويعلمه...

وخيل لمولاي المقالات، أنه يحس بحروفه المرتسمة على أشرعة جرائده، أعجز ما تكون عن الإمساك به إليها، والتبعي يرتسم كالحال والهبطي يرتسم... يحس وهو الأقوى من جلبة الجيارة، ضوضائها ونشاطها المعتاد، يحيط به وينغمس فيه؛ أن صمتاً يتحرك أمامه تبعياً أو هبطياً ينأى به، يجتذبه ويلتصق أكثر من ضجة أو صمت أي شيء آخر... يحس مول المقال بما لا يدري... ويود لو يعلم ما في صمت الرجلين، يلح عليه ذلك إلحاحاً غير مريح... كأنه فكرة تراود وتنأى في عناد، كأنه معنى على سطر صحيفة يستعصي ولا يفارق... فيم يلتقي الرجلان... ماذا يقول صمتهما والسؤال؟

يتوقف التبعي توقفاً شبه طويل أمام المقهى، بموازاة عرضه، بمحاذاة الطوار الواطئ... موقفه المعتاد الذي لا يتعداه إلى الداخل أو إلى الأمام... لم يتعده لحد الآن، وجل القوم خارج المقهى حولها وفي مجالها، يتطلع الرجل إلى الوجوه، يمر على ملامحها ماسحاً بعينه كل ذرة، كأنه يقرأ سطوراً لا يراها غيره، أو كأنه يرى مخلوقاتها العجيبة لأول مرة، على كثرة ما رآها، وهو يمسح بنظرته ملامحها كل يوم...

يتساءل مول المقال، وقد تراخى شراع صحائفه، إن كان الرجل يرى غير ما يرى غيره... إن كانت الوجوه تقول له كل يوم شيئاً غير ما قالته من قبل... إن كانت فيما يرى منها، أحفل بالخبر من جرائده... كيف وبأي معنى؟..

يظل التبعي في تملي ما أمامه وحوله، لا أحد ينتبه إليه أو يرمي طرفاً، أو لعلهم في شعورهم الحاد به يتجاهلون... يظل يمر بنظرته الماسحة لملامح القوم... حتى تكاد بالصدفة تلتقي بنظرة مولاي المقالات... بل تلتقي بها... بل تلتصق وتلتحم ولا فكاك... إحداهما تأسر الأخرى... إحداهما ثابتة وأختها قلقة مترنحة، كأنها تنشد الإفلات... تظل عين التبعي في عين مول المقال على البعد، نظرة تجاوزت ما يعزل بينهما من طاولات وأفراد، وتخطت ما حولهما من ضجة...

لم يعد مول المقال يشك في إحساسه القوي باشتباك نظرتيهما، لم يعد قادراً على أن ينصرف إلى شيء غير نظرة التبعي إليه، خيل إليه أن الرجل يهمس بما لا يسمعه المقالات... لا للمسافة والبعد، بل لأن الرجل يحرك شفتيه بما يهمس به لنفسه. ملامح الرجل الهامس، تبدو حاملة حيرة وسؤالا... ماذا يقول وبم يهمس..؟

تعلو ضجة غير معهودة من شلة قصية في ركن منزو، ضجة لا تصل إلى ما ترتفع به ضجة الطاولات المتنافسة، لكنها مع ذلك تصرف الذهن... ربما قامت الضجّة بسبب خلاف وعزم على الافتراق... ربما كانت قوتها في أنها تأتي كخاتمة لقاء غير موفق، ربّما إلى لا موعد من شلة الشخش...

رغم إرادة مول المقال وعزيمته على متابعة اشتباك النظرة بينه وبين التبعي، يحس بعجزه عن التركيز بعد الآن. ضجة الشلة فعلت فعلها وكسرت حبل الوصال بينه وبين الرجل...

ما يزال التبعي في وقفته ونظرته، وما تزال نظرة مول المقال تلتقي بها، لكنها الآن مجرد نظرة كأي أخرى، لأي شخص آخر... ويظل مول المقال في جهد جهيد يحاول أن يعيد إليه قوة الإحساس والاشتباك، فلا يظفر بغير ضجة مما حوله، يتداخل فيها المكرر المعتاد... بينما يزوغ التبعي بنظرته عن عالم الجيارة ساحباً معه صمته وسؤاله... ذاك السؤال والهمس الذي يشعر المقالات، بأنه لأول مرة، يستطيع أن يدفع ثمناً لمعرفته، كل شراع من أشرعة صحفه...

فعلا يتحرك التبعي، يتابعه مول المقال بنظرته، يتوقف الرجل أمام دكان العسلي الذي يبدو وقد أخذه حضور الرجل على غرة داخل دكانه، فيسرع يغطي رأسه بطربوشه، ثم يقوم ينهي نشاط يومه.

25

طفل مهما يكبر، طفل هو، هكذا علمته... هكذا يحس وهو إلى جانبها، هكذا يريد أن يكون... عطشه لا يرتوي إلى التدليل والحب... كأنه يسقى من آبدة الظما، عين ما لها من قرار ولا نضوب... لم يشغل نفسه بالأمر؟ نزع نظارته... أزاح الصحيفة عنه... ضعفه في تهجي الفرنسية متعب ولن يفيد... تقف على رأسه... من خلف تفاجئه في حالة ارتخاء وإغماض، والصحيفة محمولة بكلتا يديه أمام عينيه... أيها الغشّاش! وعقابه اليوم أن تنكفئ عليه تحتضن رأسه بيديها... تمرر على أذنيه ورأسه بحنان... عقوبته اليوم كأي تلميذ غشاش متكاسل عقوبته لا الحبس ولا... عقوبته أن... أن...

وتظل حورية في هيئة تهديد رافعة أصبعها في وجه أحمد رقيبة كأنها تتوعد؛ وهي ترغمه على أن ينطق بما يشتهي... أيا كان... بما يشتهي حقّاً وحقيقة في يوم من لحظات سعيدة... ماذا يشتهي جلسة وموقعاً... أكلا... لباساً... حديثاً... مشهداً... هذا عقابه على تهاونه وعليه أن يستجيب بصدق وسرعة! طفل... تؤكد له ذلك ولنفسها... ثم تستدرك أن الأطفال من الرجال كُثر... وأكثر بكثير مما يُعتقد...

يضحكان... يضحكان... وقبيل ذهابها لتنفيذ رغبات يومهما السعيد، يسعفها الخيال الأينع الخصيب، تعيد وضع نظارته إلى عينيه... يا حبيبها الغشاش... اقرأ... قاوم الكسل واقرأ... قاوم التعب والارتخاء... الفرنسية مفيدة لك... قليل من هنا وهناك...

يعود إلى نفسه من ذكرى حاله معها، يمد يده إلى الصحيفة ويعيد نظارته إلى وضعها... مجرد نشرة تجارية في ملف اليوم... يعود ليقرأ كأي تلميذ مرغم على درسه، تلميذ كبير صغير... طفل مهما... مجرد نشرة تجارية في ملف يومه الأول من سفرته الوحيدة الفريدة... وهو فيها مسافر وحيد فريد...

ما كان أغناه عن سفر ومهمة خارج الحدود... بدا له بهو الفندق الفخم في حمى نشاطه أشبه بخلية نحل تتجاوب فيه الرطانات والألوان... أقبلت في لطف نادلة متسائلة إن كان يحتاج إلى شيء... شكر لها رقيبة بعبارة موجزة وعاد في تطلعه إلى الوجوه يحدق في نشرته... كان قديدير أولى بمثل هذا... لكن حورية أصرت على أن يستجيب بنفسه ووحده للدعوة... دعوة من شركائه المحتملين الجدد... غشاش في القراءة، وفي الشغل، أي تلميذ أنت؟ تضحك وتلزمه بالسفَر، لكنّه ليس كسولاً أو هكذا كان... ما الفائدة من توسع أعماله إلى ما وراء البحر؟ وماذا يخسر إذا كانت أعماله قابلة بطبعها للتوسع؟.. من ذاتها... بمجرد إشارة أو سفرة هانئة؟ هكذا يصطرخ منطقه الرافض ومنطقها المشجع المحفز... وهكذا تحسم له الموضوع... الحقيبة جاهزة، وقديدير ينتظر إلى مقود السيارة... بينما تأخذ هي مكانها إلى جانبه في المقعد الخلفي باتجاه المطار...

أثناء الطريق، تنشغل بتفقد هيئته مبتسمة مرحة، تتفقد ربطة العنق... تنفض يمناها بلطف عن كتفيه، وتودعه أمام سلم الطائرة...

يتصفح النشرة التجارية... ثم يعيدها إلى الملف أمامه، ينظر إلى ساعته، تفصله دقائق عن موعده، يشعل سيجارةُ، ونظرته تجول في البهو الراطن بلغات المعمور وسحناته... وما تلبث المرافقة أن تمثل أمامه في تحية ودعوة.

لم ينس رضَى... كيف ينساه؟ أول هدية فكّر بها كانت... كانت من نصيبه، رضى حورية وحورية رضى ربط لا يغيب عنه، كيف ينسى؟ أيجب ذلك؟! إنه من واجبه... وليقل إنه الطريق إلى الحب... صديق الصديق صديق... والعكس كما يقولون هنا في فرنسا... صحيح! أكثر من صحيح إنه الواجب! هدية رضى... وهديتها... هداياها شيء واحد... هكذا تعلم... هكذا يفاجئها بكل الهدايا دفعة واحدة... لا... لا... بل واحدة بعد أخرى... واحدة... واحدة... وآخر الهدايا لِصُبْح اليوم الثالث من عودته... ولكل يوم هداياه! لم ينس رضى ولا نسي نفسه... فهي لا تقبل ألا يأخذ لنفسه شيئاً، وهو يطوي البحر إلى ما وراءه لأول مرة في حياته، بدون رغبة منه وبإرادة منها... تعاقبه إن أغفل حق نفسه... عقابها ذاك الذي تتقن أفانينه وما أحلاها... أي خيال؟ هو أيضاً يستطيع أن يعاقب بطريقته وعلى طريقتها، عقابها منه أن يتخلص من رضى ومن نفسه منذ اللحظة الأولى... يقدم هديته لرضى ويظهر هديته لنفسه... ثم يترك لها الدهر كله... لحظة... لحظة... تتحلى بما يحمل... من أظافر قدميها إلى قنة الرأس... من لابس ومصاغ... مرافقته كانت من الخبرة بحيث أدركت منذ الوهلة الأولى أنه بحر بلا ساحل، فجلبت إليه المحيطات وهو في جناحه بالفندق... عارضون وعارضات لكل ظريف مستحدث... ومتعة جمع المال، لا تعادلها إلا سعادة الإنفاق...

من سلم طائرة العودة بدأت لحظات الجنون... لطفل طائش عابث... فاجأها بكل شيء، ماذا فعل في أقل من ثلاثة أيام في عاصمة باهرة الأضواء والضجيج؟ سفرة وحيدة وأولى، يقول عنها إنها الأخيرة، فهو لم يخلق للتحرك

السريع وتغيير المقاعد على الطائرات... أحلى مناه، أن يركن إلى طفولته الجديدة بجانب حورية، عتابها كان جدياً أكثر مما تصور، قدرت أن يتمتع برحلته ويتعرف ويكتشف... قال إنه لم يسافر أبداً، بل ظل هنا بجانبها... هكذا... هكذا... أو أنها سافرت معه إلى جانبه، وظلت لا تفارقه طيلة الوقت... أليس من حقه أن يفعل ما يريد حقّاً؟! أليس من حقه أن يسعد على طريقته البدائية البسيطة، بعد تعب السنين وكد العقود..؟ لا يمكن أن تترك فرصة عودته إليها تغرق في الملام الرخيص والعتاب... وسرعان ما كشفت له عن برنامجها الحافل بعد حرمان الأيام الثلاثة!

أوج المتعة في جلسة هانئة، جلس إليها في هيئة شيخ القبيلة بعمامة مشرقية مذهبة الحواشي، تنسدل عليه فرجية بيضاء ناعمة الشفافية على قفطان قصبي أصفر، يماثله في اللون خف ليّن يرتفع إلى منتصف الساق تحت الفرجية...

جلسة فرسانية شيوخية، ضاعف من رونقها جنابيات خيمة بقبتها الهرمية المرفوعة بقدرة ساحر وبتقديره الدقيق في صالة الاستقبال بالذات! هكذا تغرق عودته في النعيم... هكذا تنتصب خُزانة رفيعة في قلب صالة الاستقبال المعهودة... أو تنقلب الصالة بسحر ساحر إلى خُزانة رفيعة، خيمة شيوخية... أرضية من أرائك وزرابي، ومباخر الطيب، وبراريد ثمينة تنتصب كؤوسها المرقشة غنية مما يشتهي من شراب... وعلى مقربة تقتعد الفرقة الجديدة... فرقة العيسي للطرب والغناء! من أين لها هذا كله؟ في أوج المتعة والهناء وراحة البال، يجد فرصته ليقدم بين لحظة وأخرى، إحدى مفاجآته من سفرته الوحيدة... لتطمئن... لم ينس نفسه ولا نسي رضاها... رضى حورية لا ينسى أبداً... أبداً... آه... تنهد... جميلة؟ صحيح، أكان عليه أن يذكرها هي أيضاً، جميلة؟! أبقي متسع تسكنه جميلة أيضاً؟ تتنهد، جميلة من حورية من رضى... من رقيبة... يعرف ذلك... يعرفه جيداً، مهما غاب عنه منه.

بقوة حدسها، تشعر حورية ببعض ألمه لذلك... يدرك ذلك منها، لكن بأي اتجاه؟ تشعر هي بذلك؟ ستتدبر الأمر من ناحيتها، ليهنأ بلحظته، لكن الشعور يلح عليه، يضايقه... جميلة... جميلة... أكان عليه أن يحملها بين جوانحه، هي أيضاً؟!

رنت إليه حورية... رنت إليه جامدة بحياد، تقرأ أفكاره معلنة ومضمرة عن رفيقتها، رفيقة عمر لا تعوض، أنيسة وحدة... أخت لم تلدها لها أم... جميلة...

بدورها حورية، لا يمكن إلا أن تتألم من تبرمه بجميلة، تدرك أنها لا تستطيع أن تنسج أكثر من مودة ظاهرة بين زوج ورفيقة هي أكثر من أخت وأم... ليكن ذلك، لكن ألا تطير قشرة المودة هذه... وتحل نار العداء الحارقة...

نظرت إليه في تودد ورجاء، لا يضيق عليها... هواؤها وكل نفس فيها يعود إلى اثنين، رضى وجميلة... والثالث الأهم في الكل يعرفه جيداً... حبي وزوجي... آه... جميلة... جميلة... يا أبهى لقاء في وجود، وأحلى نقطة في كون، خلاصة أسرة كاملة... رفيقة... وأختاً كبرى وصغيرة... خدومة وآمرة... بكامل النحيف المتواهن من جسد، والعينين المسدلتين كأنّهما في خجل دائم، تشرق نظرة ثاقبة يقظة وتوقع قَلما يخيب... من سمرتك الساحرة الخفيفة منبع جذب لا يقاوم، ومن واقع حورية!

منذ أول لقاء بينهما، لقاء لا ينسى، من ينساه؟ أتنساه هي حورية؟ كيف؟ منذ أول لقاء بينهما، وبعد كأس الشاي الأول في غرفة جميلة، كأس إلحاحها وضيافتها، بادرت تؤكد لضيفتها بلسان الترحيب الذي لا يلتوي... يا الله يا أختي... هذا بيتك وهذي دارك من اليوم... ولم تتوقف حتى أخذت حورية من يدها متوجهة بها ومعها إلى فندقها بمرس السلطان وكأنها تجرها جرّاً...

وتقول، من اليوم هنا بيتك وأهلك... وظلت تجمع معها مختلف حوائجها لتعودا في تاكسي صغير إلى غرفة جميلة، تتقاسمان اللقمة والفراش... الله... على فرحة...! الله... على أخت ما حملت بها أم...! وما تتم جميلة التعبير عن سعادتها حتى تهرع إلى حورية تقبلها من الخدين في جذل صبياني... وفي لحظة قصيرة عرفت كل منهما عن الأخرى كل شيء تقريباً... والهاجس الذي تتردد حورية في البوح به يأتي على لسان جميلة مشرقاً ضاحكاً من بهجتها... هنا يا أختي إن شاء الله... إن شاء الله... هنا في السطيحة يكون كل شيء... اعتمدي على أختك... وعدتها بكل شيء... وكل شيء تم كما وعدت...

هكذا ظهرت حورية بعد يومين على عتبة مكتب التوكاني... با التوكاني... صاحب السطيحة والمتوحد... نظر إليها من خلال نظارته الملتصقة بأرنبة أنفه القصير، إنه لا يرى كما قالت جميلة، ينظر ولا يرى، هكذا قالت بمرحها وحركتها البهيجة الساخرة، والمستنكرة لما بدا من تردد على ملامح حورية عندما ذكرت لها جميلة أنها ستُقدمها إلى التوكاني... با التوكاني... لا يرى غير الفلوس يا أختي! وطمأنتها على أنه آخر من يمكن أن يعاكسها أو يطمع فيها؛ إنما سينظر إليها إن كانت تصلح... هنا ينظر ويرى جيداً وبحق، فإذا اجتازت هذه المرحلة، فإنه سيسمح لها بالجلوس... ويدفع نظارته لتصعد قرب عينيه وهي التي سرعان ما تستعصي وتتمرد على الوضع، فتعود إلى موقعها الأثير المريح، على قنة الأرنبة القصيرة الدقيقة البارزة كنتوء ناشز على سطح كأنّه مهيأ لاستواء كامل... إنّه في معركته المستمرة مع وضع النظارة يائس من أن تطاوع وتنصاع... لذلك يعالجها بين الحين والآخر، ثم ما يلبث أن يتركها لحالها كما تشاء، وحيث تشاء مستعيناً على الرؤية بالتحديق من فوقها كلما أثاره شيء أو تطلب منه ذلك... فعلا يحدق في حورية من فوق النظارة ومن تحتها مستعيناً بسبابتي كلتا يديه في حركة سريعة متتالية... خلاف ما قدرت حورية مما كانت

ترتعب له، وتتحسب من الرجل ذي الأموال الطائلة، والمحلات العديدة من مقاه ومطاعم... بدا لها الرجل أكثر غياباً وانطفاء... نظر إليها كأنه لا ينظر إلى شيء... ضحكات جميلة المستهزئة من تخوفاتها من مقابلة الرجل، تتجاوب الآن في سمعها بإلحاح مزعج، وتوشك أن تغرقها هي بدورها في الضحك أمام الرجل وبحضرته، في أول مقابلة هي الأحوج إليها وإلى نتائجها..! تجلدتْ وهي في سرها تلعن هذا الإلحاح للرغبة في الضحك، في هذا الموقف الجاد! أحست أحياناً بأن يدها توشك أن تتحرك من ذاتها لتنطلق من جنبها تُعدل نظارة الرجل، حيث يريد ولا تريد... استجمعتْ قواها وانتباهها وركزت يدها بثقل إرادتها حتى لا تأتي بحماقة... ظل الرجل ينظر إليها محدقاً في عينيها هذه المرة... لكنه فيما يبدو كان ساهماً أو كالساهم في شيء آخر... وعلى طيبوبة تقارب الغفلة فيما يبدو... ويبدو! أية حماقة... حماقة كل هذه الأفكار الآن، الرجل أحذق من الحذق ذاته، وإلا فكيف له كل هذه الأعمال والأموال... كيف يُسيّر ويدبّر... بأي سر... وبأية قدرة؟! يا أختي لا يعرف غير الحساب... لا يرى غير الأرقام... حسناً... حسناً... ليكن... ولتخرس الآن هذه الألسن والأفكار... لتخرسي يا سخرية جميلة... اصمتي وابتعدي...

عاد با التوكاني من شروده أو تحديقه المباشر الصامت الطويل في ملامح حورية وعمق عينيها... هل رآه في الرحم؟ هل خفق في بطنه أو قلبه كما يخفق في أحشائها؟ كيف إذن؟ اهتزت كلها وارتبكت حورية دفعة واحدة... سألها مباشرة وبلا مقدمات عن ابنها أو ابنتها؟! هل رآه في الرحم؟ تشتت تركيزها وغاب عنها الحضور، ووجدت نفسها تنظر إلى بطنها الضامر ما يزال، وتخلف ذراعيها حوله... تجمعت حول نفسها في جلستها أمامه على المقعد العتيق الوثير، وقالت دون أن تنطق أو تسمع أو تدري، لعله في بداية الثالث أو...

لم تقل شيئاً واضحاً في الواقع، كانت تهم أن تستجمع وتقول... لعلها

قالت ذلك في نفسها، لتجرب صوتها... وحين رفعت رأسها لتنظر إلى الرجل وتجيب، كان قد انتقل إلى محطة أخرى، عبر عوالم ومسافات... كانت نظارته قد تمردت لتوها معلنة انتصارها الأبدي... وكان قد قرر ما قرر وهو يرفع وجهه باتجاهها... لم تعد موضوعاً لسهوم أو شرود أو تحديق... فلقد استنفدها غيابه، ولم تعد أمامه أكثر من فراغ شفاف أجوف... لعله وهو يواجهها، أصبح ينظر ويرى كتفيها من الخلف وما وراءها كله من خلال فراغها الشفاف... نظرته وحدها تلك الساهمة الشاردة تسود المكان، تخترق أبعاده، تجوب معالمه ومجاهله، تبني فيه وتهدم كما تشاء، ليقول لها، أن تتقدم إلى العيسي من أجل التجربة... ويكون خير...

خرجت لا تلوي على شيء، كيف قامت أو تحركت وماذا قالت؟ هل ودعت... شكرت؟.. ابتسمت؟ واجهتها جميلة المنتظرة قرب الباب فرحة جذلى مبتسمة مستبقة الأحداث، في تصورها أن مدة المقابلة وحدها كانت دلالة مبشرة... هيه؟ استنكرت جميلة حال صاحبتها، وظلت في حيرة وهي تستفسر عن كل شيء. ألم تقل لها؟ ماذا تنسى؟ هل مثل هذا ينسى؟ ماذا؟ حامل، وأدرك الرجل الغافل ذلك؟ جميلة الغافلة وحورية... أما التوكاني فلا تخفى عليه خافية...

أسئلة كثيرة متسارعة من جميلة كأنها تنطلق من رشاش، وحورية لا تجيب... محنطة كانت تتحرك، مكفنة تسير، حتى ارتمت على السرير، يدها تدلك جبهتها... عظام رأسها تطق... تنفلق توشك من الضغط... طلبت أسبرين، أسرعت جميلة تستجيب وقد أخرست في جوفها كل سؤال مؤقتاً... مؤقتاً...

أسرعت جميلة بالخدمة والرعاية، رعاية أم وأخت ومضيفة وخادمة... أخت لم تلدها لها أم... وهل تنسى؟ تركتها جميلة فترة وانصرفت تعد لها

قهوة، كانت أمام الموقد في الغرفة المحدودة الأرجاء، تلتفت مرة بعد أخرى، ترمق حال حورية... أو تترك موقفها وتتحرك نحوها، تضع يدها على جبهتها متحسسة، وتطبع على خدها قبلة ما تلبث أن تصبح احتضاناً دافئاً...

تسلمها كأس القهوة، وتقابلها بكأس مثله، في عينيها أكثر من سؤال موقوف مؤقتاً... مؤقتاً...

صدح صوتها ذات صبيحة بين يدي العيسي، على حين غفلة وجدها تطرق بابه رفقة جميلة... بتوصية أكيدة من بّا التوكاني، تقولها جميلة وتكررها، لم يكن بحاجة إلى كل ذلك التأكيد... المهم أن يكون فيها ما يصلح للمهنة خلاف المظهر الذي غالباً ما يكون مناقضاً... أو دائماً... المهم في هذا الميدان تجنب الادعاء... ولن يفوته ذلك... الخبرة تقول هنا، الشخص هو ما يفعله لا ما يقوله... لا ما يقدم له نفسه... أهلا وسهلا... أهلا...

بادر العيسي مباشرة وقبل أي سؤال إلى كمنجته يعد أوتارها بانتظار الشاي... يسوي الأوتار... ثم يفتتح العزف بمقطع استهلالي... بدورها حورية لم تكن بحاجة إلى التعرف عليه أو أن تجالسه كثيراً لتستأنس به أو تتعرف على نغماته وأسلوبه... فلقد تم لها ذلك من قبل ودون أن يدري... فهي لم تسارع إليه مباشرة بعد لقائها الأول مع التوكاني، وكان عليها أن تفعل... وتلك كانت رغبتها وودها... إلا أن جميلة الخبيرة نصحتها بالتريث لتتمهل وتتعلم قبل ذلك... خبرة استقتها من اختبارات سابقة لغير حورية... هكذا قضت حورية عدة ليال مكتفية بالإنصات والمتابعة لسهرات العيسي في السطيحة كما تتناهى إليها من نافذة مفتوحة في غرفة جميلة... بل إنها كانت من تلك النافذة البحرية، تستطيع أن تتابع بالسمع وحده معالم السهرة كلها ومراحلها إلى أن يأخذها النوم، إذا تأخرت جميلة...

وكان من نصح جميلة أيضاً، ألا يتعرف عليها أحد في السطيحة قبل الاختبار... فظهورها بين الجمهور كأيّة واحدة تمضي سهرة يفسد عليها كل شيء فيما بعد... وعلى كل حال يصعب التنبؤ بنتائج ذلك... مبْقاك هنا مخزونة أفضل لك... أحسن لك يا أختي حتى تظهري مرة واحدة... ودبري...

تواهت نغمات المقطع الاستهلالي ورفع الرجل رأسه لحورية علامة البدء بمصاحبته... ويتردد صوتها متدرجاً يصدح صافياً رفيقاً ناعماً... وما تكاد تنهي مقطعها الأول، حتى تشاركها الغُرفة كلها على ضيقها... ويهتز منزل العيسي كله مردداً معها لازمة اللحن، مشاركاً بالنقر والضرب على الأكف... وما تكاد تنتهي حتى تقبل عليها الحاجّة يامنة، زوج العيسي، الشيخة العتيدة تقبلها وتهنئها... ترحب وتقبل... ويقبل عليها آخرون وأخريات لا تدري من أين نبتوا، بعضهم يكون بلا شك من أفراد الفرقة... والبعض الآخر من أسرته... تتقدم كبرى البنات فريدة... التي أقبلت بالشاي والحلويات...

دار الحديث رفيقاً للتعرف... بدا صوت العيسي متوارياً أمام الحاجّة يامنة، ياه... يا ربي... الحاجّة يامنة تتذكر بالفعل أيام عزها... أيام زمان... قبل أن تترك الميدان... ويعفو ربي... صوت حورية أحيى كل الحنين والذكريات... تقبلها وترحب... آه... يا ربي وتذكر العيسي ببدايتها بلقائها معه... آه... يا ربي زين العطية... تؤكد المرأة أن الصوت نعمة كبرى ومنة إلهية... تتأوه وتعيد، ثم تنقر بقعر الكأس على حافة الصينية... مدندنة ببداية، سرعان ما ينبري صوت حورية يتابعها ويشتركان في أدائها... ثم تنفرد حورية بعد ذلك بأغنية ريفية ما تلبث الشيخة يامنة أن تتابعها، محدقة في صاحبتها بإقبال وابتسام، كأنها تتهجى اللحن والكلمات في ملامحها، ويسير العيسي بأوتاره على النغم والإيقاع نفسه، لتنبعث مشاركة المجموعة، باللازمة والتصفيق على نحو أكثر

انتظاماً وانسجاماً... الله ... الله ... الله يا ربي العزيز... مرة أخرى تحتضنها الحاجّة يامنة، وتتهلل لها الوجوه المحيطة والقلوب...

أحست حورية كأنها في أسرة أو أحبة لها من زمان... ياه... هي التي لم تذق دفء التقبل إلا من عهد فاطمة العزيزة، عهد مدينة الفقيه بن صالح الصغيرة، ثم تيه الخاطر والقدم ليندفن الكيان في دفء جميلة... هنا في لحظة عابرة بين أسرة العيسي، تحس بدفء خاطف لكنه قوي يهز بموجته كل شيء فيها... أكان ذاك من غنائها أم من حرارة الجماعة؟

أكرمتها الحاجّة يامنة، ومرة بعد أخرى، كانت توصي بها زوجها العيسي في شدة آمرة، كأنها تخشى ألا يأخذ الأمر مأخذ الجد، أو أن يزوغ بنيته زائغ... إعجاب المرأة كان بالغاً بأداء حورية وحفظها... وكانت بين فترة وأخرى من لحظات الشاي، تنظر إلى الفتاة متملية ملامحها... كأنها تقرأ فيها شفرة خاصة، أو أنها تذكرها بعهد من عهودها السابقة...

هكذا صدح صوت حورية على خشبة السطيحة وأماسيها، وهكذا تعود رواد المكان على أن يهتزوا ويطربوا ما وسعهم الخاطر والفضاء، أثناء سهرات الأسبوع والأواخر منه خاصة... وهكذا تدرج هذا السماع، ليصبح رغبة وعادة فمطالبة وإدماناً، لم يقف عند حدود رواد السطيحة، لكنه تسلل إلى أعصاب بّا التوكاني المتعبة الفولاذية المرهفة...

قهقهت جميلة بخبث حتى تلوت وهي تدور على نفسها وتمسك بطنها من الإغراق في الضحك... وكلما حاولت إيقاف موجة مما اعتراها، كلما جرفتها منه موجة جديدة... وتظل حورية ترمقها فيما يشبه اللامبالاة... أخيراً تتماسك جميلة، تترك كيانها النحيف ينزل على حافة السرير، ترفع وجهها وقد غشي سمرتها الخفيفة مزيج حمرة وصفرة؛ واغرورقت عيناها بالدموع...

كان مشهد بّا التوكاني الذي تحكي عنه حورية، مثيراً جد مثير... كيف تتحرك أعصاب هذا الكيان الفولاذي للفن والجمال؟! ماذا قال؟ هل لامسك؟ هل أنت متأكدة من أنه لا يقصد أكثر؟ ولو قصد أكثر لكان من ذلك أعجب؟ هذا الرجل الذي يبدو بدون تاريخ ولا عواطف... وبدون مستقبل، بلا رؤية غير حاسبته الصغيرة ومعركته الدائمة مع نظارتيه... كيان فولاذي حاسب متحرك متنفس... لا يدري أحد كيف قضى هذا الرجل طفولته وشبابه، ليصل إلى كهولة غارقة في المال والحساب والوحدة؛ ثرياً في فقر فقيراً في ثراء، بلا عقب ولا رفيق، خالياً من أية رغبة في أي شيء...؟!

أسئلة كالمسامير الدقيقة تضرب في رأس حورية في خواطرها ومفاصلها... تنطلق من لسان جميلة في حدة وسرعة... هل حاول معها...؟ واضطرت جميلة أن تتوقف عن إتمام جملتها، عندما لمحت في ملامح حورية صرامة... بل بوادر حركة كأنها تبحث عن شيء قريب تُسدده نحوها...

توقفت جميلة عن أسئلتها، وهي تضع كفيها بحركة عفوية تحمي نفسها من الأذى، كما لو أن حركة حورية كانت فعلية جدية. وبدأ الحديث الهادئ بين الصديقتين... لم يكن قد مضى على اعتلاء حورية خشبة السطيحة إلا قليل، حين طرأ تغير هام على حركة الآلة الحاسبة المتحركة المتنفسة... كان ذلك عندما دخلت جميلة لتنظف مكتبه... كالعادة، كان يغير موقعه من بقعة إلى أخرى في ساحة المكتب، دون أن يرفع عينيه عن أوراقه أو حاسبته... كان يكره أن يغادر المكتب دفعة واحدة حتى يتم تنظيفه، كما لم يقبل أبداً أن ينظف المكتب في غيابه... قبل حضوره... هكذا، ولا علاقة لذلك بالثقة أو عدمها في جميلة، لا، الأمر سار هكذا، واستمر كما يريده صاحبه.

حرصه على العمل، الحساب وترتيب الأوراق، لم يكن يضاهيه فيما يبدو، إلا حرصه على أن يكون وحده... لا يكدر صفو وحدته شيء أو إنسان

بعلاقة ما.. لذلك كان من حق جميلة أن تتعجب، في سذاجتها البلهاء كما يصنفها دائماً، وتظل مشدوهة بعض الوقت وهي تسمع صوته يكلمها... في البداية لم تعرف صوته. وكيف تعرفه وهو لا يتحدث إلا بإشارات مقتضبة ولا يكاد يكلم أحداً؟ مع ذلك كان إحساسها قوياً، بأن الصوت منه، صوته، رغم أنها لم تكن تعرفه، ولا يمكن أن تتذكر منذ متى لم تسمعه... ظنت لأول وهلة أن الصوت من خارج المكتب... صوت قريب على كل حال، يناديها وهي منهمكة في شغلها، وبحضور رب العمل... لعله نادل الإجاصة يحتاج إليها في شيء، ولعل به زكاماً حادّاً، حتى يبلغ صوته وكأنه صادر عن قبر الحلق مباشرة... بيد أن الصوت يناديها مرة أخرى، باسمها كما حصل في المرة الأولى... والمكتب مغلق، ولا يوجد به إلا اثنان أحدهما لم ينطق... والثاني؟ نظرت إلى جانبها نصف مستدبرة بنصف كيانها نحو بّا التوكاني الواقف خلف كنبة كانت في طريقها إليها، لتسوي وتنظف كما تفعل دائماً في حركتها اليومية، في بدء يومها...

نظرت إليه ملياً... كان غريباً بعض الشيء، لكنه فيما بعد، بدا أكثر غرابة... كان قد أنهى معركة مع نظارتيه بوضعهما في جيبه أو في مكان آخر... فهما لا تتربعان أو تتربصان في موقعهما العتيد... الحاسبة نفسها لم تكن في مكان ظاهر كالعادة، طي كفه أو بارزة من الجيب الصدري الخارجي لمعطفه... بدا لها ناظره المكشوف مباشرة، غوراً، خالياً لأول مرة، مما يتزاحم فيه عادة من حسابات... من كثرة الإعمال والتحديق في الأرقام...

تأكدت جميلة أنه هو يكلمها هي... وأنه ينظر إليها لا إلى ما وراءها أو جنبها... يريد شيئاً لم تتبينه. نهضتْ من انحناءتها، واستقامت أمامه، وهي تمسح يديها في فوطة مربوطة إلى حزامها... طلب منها أن تسهر على إزالة بعض الخزانات من المكتب ليتسع أكثر... وطلب مستعيناً بإشارة يده مرة أخرى،

إضافة كنبة جديدة مقابلة للكنبة القديمة... لا... لا... بل تغيير أثاث المكتب بكامله... المنضدة نفسها والأرائك وكنبات... زهرية في الوسط على طاولة... كل شيء... كل شيء... ماعدا المكتب الكبير فقد لا يرتاح إلى غيره... لكن لا بأس بطلائه وتغيير موضعه... لابد من ستائر... ستائر مناسبة... وكذلك كساء الجدران بورق متحف برسومات مريحة، والثلاجة الصغيرة أيضاً... لابد من لوحات فنية حقيقية... كان يشير بيديه لإفهام جميلة قيمة ما يحصل من تغيير، وربما كانت أول مرة تراه فيها يحرك كيانه، ويتحرك فعلا... قال لها إن ذلك يجب أن يتم بأقصى سرعة، وعليها أن تسهر على كل شيء ومع ممثلي الشركة المكلفة... وعليْها أن تشرف حتى يأخذ كل شيء مكانه...

نظرته كانت حقيقية إلى جميلة أمامه، أحستْ بها دافئة وتيار منها يسري إلى كيانها، فتحس حرارة تتركز في وجنتيها... تغير هام إذن... تغير ملموس حصل... فهي الآن تستوعب الموقف دون أن تفهم، تستوعبه وتتجه نحو الباب، في هيئة من تتهيأ لمناداة من يساعدها، لكنه يستوقفها بكلمات ذات حرارة ودفء بشري لا يُخطئه إحساسها، يقول أن لا داعي للعجلة... يجب انتظار أن يأتي عمال الشركة المكلفة بالأثاث... ويتم التغيير في غيابه... وعليها فقط أن تكون حاضرة متيقظة... مشرفة على كل شيء... يمكنه أن يتغيب، يرتاح، حتى يتم كل شيء... يريد عندما يحضُر، أن يكون كل شيء في حلة جديدة...؟! ثم أهم شيء بجانب الجهاز المتكامل للراديو والتسجيل والمكبرات من أرفع طراز... لابد من وصل المكتب بقاعة السطيحة عن طريق الصوت يريد أن يصله الغناء كما هو... صوتاً صافياً في تمام كماله وصفائه... ليغوص المكتب كله والجو برمته في الصوت الآسر... يريد أن يتناهى إليه صوت حورية كما هو... تماماً تماماً أثناء سهراتها!!؟

تأكدت مما سمعت، وتأكدت من الغنة التي اعترت صوته، قبل أن يعرب عن نهاية مقصودة، ويتحدث عن صوت حورية ويلفظ اسمها... وكأنه يُكتشف في لحظة ضعف معيبة مخزية... تأكدت من أن سرعة الأحداث التي تلاحقت على لسانه وهو ينهي إليها مقاصده، كانت موجهة إليه بالذات ثم إليها... كأنه يريد أن يفرغ همه ويعلنه ليُشهد عليه أُحداً... وربما يريد أن تعلم حورية بذلك، عن هذا الطريق الذي لا يملك غيره... هكذا يذكر اسم حورية بذلك، عن هذا الطريق الذي لا يملك غيره... هكذا يذكر اسم حورية ورغبته فيها، في صوتها فينخفض صوته، وتزْورّ نظرته لينقطع تيار كل شيء، ويعود الرجل إلى مكتبه، يخرج حاسبته باحثاً عن نظارتيه حيث لم تكونا في موضعهما المعتاد على أرنبة أنفه...

وظلت جميلة تتحرك من بقعة إلى أخرى، تنظف وترتب، دون أن يعبأ بها أو تثير اهتمامه...

تزيد جميلة من احتضان صاحبتها، تلامسها خدّاً بخد في مودة ولطف وتسأل مرة أخرى؛ ألم يقل... يفعل شيئاً آخر؟ لامسك مثلا؟ لمس... لمس مثلا؟ ألم يحاول أن...! قولي! قولي؟..

كانت تلح على حورية، تريد أن تعرف الجواب الصريح... فالتغير حصل، وهي شاهدة على ذلك... ولابد أن يكون لذلك أثره على حركات الرجل وعلاقاته... وسلوكه... إلخ... يبوح صراحة بغرامه بصوت حورية... ولم لا يكون الأمر أكثر؟ قولي... قولي؟! بًا التوكاني لم يكن يهدفُ إلى سماع الصوت فحسب؛ وكان عليها أن تدرك ذلك وهي لم تدركه... الساذجة البلهاء كما يعتبرها ويسمعها ذلك في حياد تام، وعبارة لا طعم لها، لا هي بالمدح ولا بالقدح...

هكذا وبعد السماع لسهرات حورية عدة ليال... دعاها لمجالسته في قاعة المكتب المتجددة الناطقة بالتغيير والتحول الكبير... خلوة بينهما بعد نهاية سهرتها في آخر الصباح أو أوله... هكذا تناسلت أسئلة جميلة، منذ عودة حورية من أول خلوة لها مع بّا التوكاني في مكتبه الفسيح المريح...

بدت حورية مرتاحة أو في مزاج عادي على الأقل، أقل تعباً مما يظهر عليها عادة بعد كل ليلة من سهراتها... رغم أن سهرتها كانت مضاعفة بدعوة التوكاني لها إلى جلسة المكتب الصباحية... قبل الصبح...

كانت جميلة قد استيقظت لدخول حورية... إن كانت قد نامت فعلا... نيران حارقة كانت تلتهب في جوفها... تطلع وتوجس... وخوف من مجهول حصل أو سيحصل في حبها لحورية كبير كبير... وغرابة التوكاني مهما تكن فهي لا تثير أكثر من فضول؛ لكن من يدري، ماذا يمكن أن يتفجر من فعل أو رد فعل، لدى هذا الطرف أو ذاك، في خلوة ثنائية بعد إنْهاك وإرهاق، وتلف أعصاب من سهرة ليلية كاملة...

كانت حورية هادئة... أكثر هدوءاً من أقل ما كانت تنتظره جميلة، بعد عودة من سهرة... سهرتين... إذن كان لطيفاً معها... وقتهما كان متعة... خلوة ناعمة... ماذا حصل؟ ماذا قال؟ كيف كان؟

غنت له وحده، هذا معقول... يتناهى إليه صوتها طوال السهرة عبر الوسائط السلكية... لكنه في آخر الأمر، ينعم بالصوت حيّاً دافئاً في خلوة خاصة به... معقول، ومنتظر، ومطلوب... لكن ماذا بعد؟ أو ماذا مع كل ذلك؟!

تتسابق الأسئلة، تتوالد، وحورية تجيب باقتضاب في غير ضجر أو تبرم... عرضت عليها جميلة أن تهيئ لها قهوة تنعشها في هذا الصباح، رغم علمها

أن ذلك لا يلائم وقت نوم صاحبتها، لم تظهر حورية رغبة في ذلك... ولا في النوم؛ وحكت باقتضاب شديد وهدوء... لا شيء... تقريباً... لم يحدث شيء... عدا أنها غنت له... رددت على سمعه مرات أهازيجها الريفية الجبلية بأداء قريتها الأصيل... طلب منها مراراً، أن تكون عفوية في أدائها، وفي منتهى البساطة... لتنس وجوده ولترتح كما تشاء بدون تكلف أو تكليف... لتتكئ إذا شاءت أو تتربع أو... ما تشاء... بكل بساطة وانطلاق وحرية... يريدها جلسة مريحة لهما معاً، ولها هي بالذات... بعد سهرة الليل... لتهدأ معه كابنته تماماً... فهذا يريحه كوالدها تماماً... وكابنته تماماً..!

خدمها الرجل بنفسه، ملحاً عليها بالارتياح... قدم مشروبات منعشة يمزجها بنفسه من خليط عصير الفواكه من الثلاجة المركونة في زاوية المكتب... لتنتعش أيضاً بغرفة الحمام المجهزة الملحقة بالمكتب... لتتفقد نفسها كما تشاء... عطور وأدوات زينة على الرفوف الزجاجية بمرآة الحمام... وقمصان حريرية مريحة على مشاجب خزانة عند المدخل... لتكن في غاية الارتياح... يمكنها أن تنسى وجوده... وهي تتنفس هواء الجلسة بحضرته... يمكنها أن تغفو لتسترد نشاطها أو لتنم إذا شاءت... لا شيء يجبرها على شيء هنا... وكيف يجبرها هوة بالذات على شيء؟! إنها عينه وقلبه، فقط وفقط يهمه بموافقتها طبعاً، أن ينعم بوجودها معه أمامه... والأمر لها على كل حال..!

غنت له، تفاعلت معه، فعل الارتياح والعفوية... كان ينظر إليها بطريقته لا يصدر طلباً ولا أمراً بشيء... فقط عليها أن ترتاح لوجوده كما يرتاح لوجودها... بلا إكراه ولا تعسف أو تصنع... الأمر لها على كل حال... لها بالإطلاق... غنت له... تفاعلت فعلا، تمايلت كما شاءت... كما يشاء اللحن والطرب...

لم يتحدث بشيء تقريباً، ما عدا الضروري المستلطف... في الواقع كان ينظر إليها نظرة حقيقية، هو وحده يدرك كنهها أو يحس بها... استنتجت أنها تذكره بشيء، أو أنه لا يريد منها شيئاً عدا الظاهر مما طلب:.. ألم تخف شيئاً؟ تتساءل جميلة وتعيد، ألن تخف عنها حورية شيئاً؟ طبع الرجل معروف... جميلة أول من يعرفه ويعرف به... فهي التي تنظف وترتب مسكنه في شقته بالطابق الخامس من عمارة هو مالكها، من أكثر من عشر طوابق... شقة باردة، لا تنبئ بشيء... لا نفس بشري ولا حرارة أو حركة... مرة كل أسبوع تزور جميلة شقة الطابق الخامس، فلا تجد شيئاً قد تغير... آثار طبخ بسيط... لا يتعدى قلي شرائح اللحم، وما شابه ذلك... يخدم نفسه بنفسه، ولا شيء يتغير... لا يشتم في شقته عطر، ولا يتحسس أثر من شعر أو زر امرأة... أو رجل... ولا جنون فراش... لا شيء منذ سنوات... لاشيء ينبئ بشيء له معنى بشري في حياة الرجل... فما معنى ما يحصل الآن؟

تساءلت جميلة إن كان الرجل قد قرر أخيراً أن يقترن... يتزوج؟.. حينئذ يكون مستقبل حورية أكثر من باسم، وأصفى من مشرق وضاح، زاهر مزدهر...!

تحتج حورية بصرامة، تعبس بقوة في صاحبتها... أية تخيلات مريضة؟ أية هلوسة؟! تحتج وتستنكر، أيذهب الظن بجميلة أن صاحبتها، ضيفتها لا تدرك ما أسدت إليها وما تمحضها من مودة خالصة، فتجازي عن ذلك كله بإخفاء شيء؟ وأكثر من ذلك كيف تنظر إليها جميلة في العمق؟ كأية واحدة من إياهن، منقادة لأي واحد من... إياهم؟! أهذا معقول؟ تكون حورية إذن هي ساذجة السذج فيما انطبع في أعماقها عن صفاء جميلة وصفاء نظرتها... أهكذا تنظر إلى صديقة تعاشرها وتظهر أنها أرغب في طول معاشرة وصحبة ومودة...؟ بعض اللوم إلى جميلة جاء كلاماً فصيحاً، وبعضه الآخر عبرت عنه

حورية بملامح الوجه الأكثر فصاحة، وبدت جميلة في موقف يصعب أن تهدئ من تأثر صاحبتها أو تعود بها إلى طبيعتها... كررت مراراً أن إلحاحها لا لشيء إلا لتفيد بخبرتها بالرجل ولصالح حورية... أبداً... أبداً... وتبدو حورية مستجمعة لبعض ذاتها... لا، لا الرجل من طينتها ولا هي من طينته، إن كان لها رجل فرضته الظروف يوماً ما في علم الغيب، فلن يكون أبداً بّا التوكاني... أبداً... مهما كان الأمر؟!

وتظل جميلة ترمق صاحبتها محدقة فيها، تنتظر المزيد... بهيئة من لا تصدق أن حورية أفضت بكل شيء... أو على الأقل أنها تقدر وتنتظر المزيد... تظل تحدق في صمت حورية الذي لا يبدو لها مفتعلا... تحدق في تخابث ودود لا يغري صاحبتها بغير أن تحشر نفسها في الفراش، وتلف رأسها بالغطاء مولية ظهرها لرفيقتها العزيزة... أعز رفيقة... أعز أخت وأنيسة مؤنسة...

آه... تنتفض حورية، تعود من رحلة خواطرها، تفاجئ نفسها ما تزال جامدة بحياد. يحدق أحمد رقيبة والسيجار في يده نصف منطفئ أو على نار كامنة... أينكر عليها جميلة أو يستنكر؟ يسأل نفسه، ليواجه ذاته بالسؤال: ماذا كانت حورية تكون بدون جميلة؟!

آه، جميلة... الإنسان الأعز... الأغلى...

26

تنتصب راسخة على صهوة جواد أصيل، ملاطي، بالأدهم والأبيض، يرتكز على قائمتيه الخلفيتين بينما ترتمي أماميتاه في الفضاء... تنتصب فارسة مغوارة تشرف من قمة شامخة يزيد من علاها انتصاب الفرس على خلفيتيه تحت ممتطيته كسهم منصوب... تنتصب مهيبة جميلة... يُحيط برأسها ويتدلى كالضفيرتين تاج من ريش طويل مرصوص؛ تضم جبهتها العريضة عصابة مطرزة تزيد من جمالها سحراً ومهابة، على كتفها قوس وكنانة تطل منها أعقاب السهام... الريشية... الريشية... علَم على أسطورة... على امرأة تحرك سواكن النفوس بالعزة والكرامة المفتقدة في أعتى الرجال... أسطورة وفرجة... أية فرجة... تحييها الباهية، القاعة العتيدة على حافة درب السلطان والخط المستقيم على طريق مديونة العابر المماس...

تتحرك سيارة الباهية، تشهر أفلامها على لوحات تخفي ما يدب تحتها من هيكل، يرسم على إحدى واجهاتها مشهد الريشية كما يسميها الناس، ويتداولون مغامراتها، وهي تنتقم لقومها من أعدائهم، فتحيي في النفوس

ذكريات غابرة عميقة مختزنة، عن نساء كن كذلك وعن رجال كانوا... عندما كان الزمان زمان الفحلات والفحول...

على باقي الواجهات المتساندة للوحات العريضة في هرميتها المغطية لهيكل السيارة تحتها، ترتسم قوية مثيرة ملامح بطل الغابات، قاهر الأدغال، طرزان (الولْد) وهو يمسك بإحدى يديه «البنت»، وبالأخرى «الوليّد»، وعلى كتفه تشيتا قردته الأثيرة... الحاذقة... رباعي لا يفترق إلا ليلتقي؛ ولا يقل واحد فيه بطولة وشجاعة عن الآخرين... كما ترسم لوحة «زورو» في لباسه الشامل التام السواد من الحذاء إلى البرنوس والحزام ذي المسدسين، إلى القبعة الأنيقة وقفاز اليدين وشبه القناع الذي لا يظهر منه إلا ثقب عينيه الذكيتين الحادتين وما تحت أرنبة الأنف... عالم فرجة فريد محفز وملهم... والريشية في كل هذا تبقى ذات طعم خاص... امرأة ناضجة شهية متوحشة، كريمة عزيزة؛ ولكن الفُرجة تجعلك تؤجل كل نظرتك الأنثوية إلى جمالها، مأخوذاً بشجاعتها ومغامراتها، وبما تمثله من عزّة لقومها...

وتبقى الريشية ذات طعم آخر، لأنها فرجة قديمة... تعاد اليوم... تعيدها وتحييها الباهية، كأنها تحيي أحلامها، أحلام فتوتها وفتوة زبائنها... تحييها كأنما هي تتمسك بخيط حياة رفيق رفيع؛ كمدٍّ من شيخوخة مُسنّ خرف، يهزه الحنين إلى ذكريات فتوته وصور شبابه... خيط حياة رفيق رقيق ما ينفك يرق ويستدق، يتواهى ويضعف معه النبض، يضعف... ويضعف...

سينما الباهية يوهى عظمها ويوهن نبضها الكثير، ويهددها الكثير... وما يوهي نبض الباهية يدخلها في أحاديث الناس، ومختزن حنينهم وحسرتهم، يكرر المعلم حمّو الجزار أنها تودعهم عندما تعرض عليهم الريشية، تلك التي آنست طفولتهم وفتوتهم... ومعها طرزان وزورو... وما ألهبت به خيالهم والهوس... أنماط فرجة كاد النّسيان يطويها من أذهان الناس... في عهود

كراندايزر وسكان العوالم الأخرى، وآه من ينسى أمجاد الباهية، وانتصاب بوشويية عند بابها، مدخل الفرجة، في يمينه عصا طويلة يهش بها على من يستحق؛ وفي يسراه وبعض جيوبه تذاكر من خارج الشباك المعهود، يبيعها بالزائد... ثم ينتصب مرة أخرى في الداخل، متجولاً بين الصفوف، صفوف من مقاعد خشبية طويلة ملطاء، بلا حواجز ولا مسائد ولا متكآت، تتمطط وتستطيل بقدر ما يتزاحم عليها من خلائق متساندة الأكتاف متداخلة الأنفاس... في مقدمة الصفوف يتراص جمهور الأطفال الأكبر الأكثر، تصل وفرتهم إلى أن يقف جزء هام منهم على الجدران يتفرجون بزاوية الميل القصوى على شخوص يزيدها ميل الرؤية استطالة وعملاقية، يعدل منها خيال الأطفال ما يعدل ويترك منها ما يترك، دون أن تخف من حلوقهم حرقة من كان من حظه الجلوس، ومشاهدة الشخوص على حقيقتها... وبوشويية ينتصب بعصاه، تصيب ببعض رفق من تصيب، وتهدد قنن الرؤوس المشاغبة وغير المشاغبة... كما تمتد أصابع يده رفيقة رقيقة حيناً آخر إلى طفل من الواقفين المتحرقين المتحسرين، يأخذ بيده، بعد أن يأخذ منه المستحق، ليدسه دساً بين زحام الأكتاف والأنفاس، أو يفرغ له مكاناً من محتله إن اقتضى الحال، وكثيراً ما يقتضي...!

آه، ذكرى الباهية قوية في عمق، تتابعها الخواطر، مع دبيب سيارة الإشهار وفصاحة اللوحات المتنقلة على ظهرها تظهر لتختفي بين الأزقة والدروب، وتستقيم لتنحرف وتعرّج... يوهي نبض الباهية ما يوهي أختها وقرينتها، قريبتها الشاوية، وهما معاً على شفا النهاية... يتناقل البعض أحاديث عن مستقبل المقهى أو المطعم المنتظر عوض هذه، والعمارة التجارية المتوقعة مكان تلك...

ويمكن لرجل كالقشاش أن يؤكد في غير تهكم هذه المرة، بل بشيء من الأسى العميق أو دفين الحنين، أن زمن الشاوية جرح في القلب... وزمن

الباهية... زمن ولى ولن يجيئ... نحن في زمن الكواكب...

يكررها القشاش في حسرة أنهم في زمن الكواكب... يصدرها بحسرة بالغة، يلفظها وملء الحلق غصة زمن يدحره الزمن...

ويمكنه أن يؤكد لجلسائه، متوقفاً عن خبط طاولة انتصاره على سد الدومينو، أنه توقع ذلك حتى قبل زمن الكواكب وغير الكواكب من الأطلس والملكي... وما شئت من أسماء ومسميات عدا الحسيبة النسيبة المامونية... وكل ما كان في درب السلطان يقوّم المعادلة في الطرف الآخر الغربي من أبولو، وريجان، وريو، وأمبيريال... هوّ تعادل كان... وزمان كان...

يمكنه أن يؤكد أنه توقع الكثير منذ غزا بياض البنيان خضرة الجنائن في عرصة بنمسيك وأغراس أولاد حدو... طامراً عيوناً وآباراً، وجداول رقراقة...

تنتصب الريشية على فرسها الأصيل غير المسروج، يجوب أزقة الدرب، تعرض شيئاً من زمن حيي حنون... تجوب وتنتصب مثيرة حولها ما تتلاطم فيه وتمتزج أمواج الخواطر، ما بين شد وجذب، ومن مدّ لجزر...

صدر عن



وزارة الثقافة

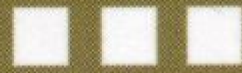
الأعمال الكاملة
مبارك ربيع

الروايات

الجزء الأول
I



الجزء الأول
II



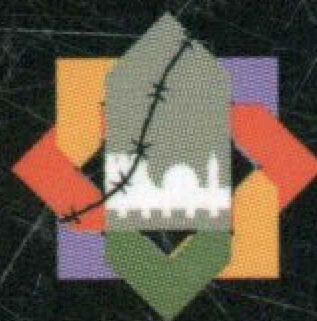
الجزء الثاني
I



الجزء الثاني
II



الثمن :
45 درهما



عاصمة الثقافة العربية
Capital of Arab Culture
al-QUDS
2009